التمهيد

في علوم القرآن

محمد هادي معرفة

الجزء الثالث

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

التمهيد

فى علوم القرآن

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة مهر ـ قم

١٣٩٨ هـ

Ma'rifah

الجزء الثالث

التمهيد

دراسات منبثقة عن مختلف شؤون القرآن الكريم عرفت باسم

«علوم القرآن»

تأليف

محمد هادي معرفة

(RECAP)
BP130
.M38
Juz' 3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله وسلام علی عباده الذین اصطفی محمدو آله الطاهرین

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 016192344

المحكم والمتشابه
في القرآن

١ـ التعريف بالمتشابه

٢ـ القرآن والتشابه !

٣ـ حقيقة التأويل

٤ـ هل يعلم التأويل الا الله ؟

التعريف بالمتشابه

*- حقيقة الاحكام والتشابه

*- مابين المتشابه والمبهم من نسبة

*- مابين عوامل التشابه والابهام من فرق

83-B 8109 3(v.3)

الاحكام والتشابه

الاحكام هو الاتقان ، يوصف به الكلام ، اذا كان ذا دلالة واضحة ، بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعانى. مأخوذ من الحكم ـ بالفتح ـ بمعنى المنع والسد. ومنه حكمة اللجام ـ بفتحات ـ : ما احاط بحنكى الفرس ، سميت بذلك لانها تمنعه من الجرى الشديد. قاله ابن فارس. فاحكام الكلام : اتقانه تعبيراً واداء بالمقصود . وهذا كاكثر آيات التشريع والمواعظ والآداب .

والتشابه مأخوذ من تشابه الوجوه ، اى تماثل بعضها مع البعض ، بحيث يحتمل وجوهاً من المعانى ، ومن ثم كان خفاء فى وجه المقصود . ومنه قوله تعالى : « ان البقر تشابه علينا » . قال الراغب : المحكم مالا تعرض فيه شبهة ، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، والمتشابه ما لا ينبىء ظاهره عن المراد .

هذا هو تعريف المتشابه بوجه عام ، ومن ثم قد يتحد مع المبهم الذى يكشفه التفسير ، فى حين ان المتشابه بحاجة الى التأويل ، كاكثر آيات الخلق والتقدير

والصفات والافعال .

وعليه فالمتشابه ـ حسب المصطلح القرآني ـ هو اللفظ المحتمل لوجوه من المعاني ، وكان موضع ريب و شبهة ، ومن ثم فهو كما يصلح للتأويل الى وجه صحيح ، يصلح للتأويل الى وجه فاسد ، ولا جل هذا الاحتمال وقع مطمع اهل الزيغ والفساد ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله الى ما يتوافق واهدافهم الضالة .

* * *

ولا يخفى الفرق بين المتشابه والمبهم ، بعد ان كانت النسبة بينهما ـ حسب مصطلح الفن ـ هى العموم من وجه ، فان المتشابه قد يكون مبهما ـ ايضاً ـ كقوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، و من يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ـ الانعام : ١٢٥ » انها من المتشابهات وقد علتها طبقة من الابهام ايضاً : اما التشابه فمن جهة نسبة الاضلال اليه سبحانه ، واما الابهام فمن جهة كيفية حصول ذلك الانشراح والضيق ، وكيف وجه التشبيه بمحاولة الصعود الى السماء . وستأتى الاجابة على هذه الأسئلة بتفصيل.

وقد لايكون المتشابه مبهما فى ظاهر لفظه ، وانما التشابه جاءه من قبل سمو معناه ، وعلو مستواه بالذات ، ومن ثم قد تزعم العامة وضوح دلالتها ، فى حين توغلها فى الابهام المعنوى بالنسبة الى اولئك العوام ، كقوله تعالى : « الرحمان على العرش استوى ـ طه : ٥ » . فتفهم منها العامة ان لله كرسياً وهو جالس عليه ، ولا تتوقف فى مدلولها الظاهرى شيئاً . وكقوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق و يدعون الى السجود فلا يستطيعون ـ القلم : ٤٢ » . فتفهم منها ان الرب تعالى يكشف عن ساقه ويدعو الكفار الى السجود امامه ، كما هو ظاهرها اللفظى .

وقد لا تكون الآية المبهمة من المتشابهات ، فهى الى التفسير احوج منها الى التأويل . كقوله تعالى : « و علم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤنى باسماء هؤلاء ـ البقرة : ٣١ ـ » . فالآية بأمس حاجة الى تفسير يجيب على

عدة اسئلة يبعثها ابهام فى ظاهر الآية ، اولا كيف تحقق هذا التعليم الذى باهى الله به ملائكته ؟ ثانياً ماهى الاسماء التى يعود عليها ضمير التأنيث تارة ، وضمير الجمع المذكر اخرى ؟ وثالثاً كيف استسلمت الملائكة هذه المباهاة ، واعترفت بعجزها وقصورها مع الأبد ؟ وسيوافيك تفصيل الجواب .

اذن لا تلازم بين الابهام والتشابه كلياً ، وعليه فتفترق موارد الحاجة الى التفسير عن موارد الاحتياج الى التأويل . فالتفسير هو كشف القناع عن اللفظ المشكل اى المبهم ، سواء أكان متشابهاً ام لم يكن . والتأويل هو ارجاع الكلام الى احد محتملاته العقلانية ، ولو كان ـ فى ظاهره ـ واضح المدلول .

* * *

ولتوضيح ما بين المتشابه والمبهم من فرق نذكر من عوامل التشابه التى تختلف تماماً عن عوامل الابهام :

يعود الفرق بين تشابه الآية وابهامها ، الى ما بين عوامل الأمرين من اختلاف ، حيث من اهم عوامل التشابه هو دقة المعنى وسمو مستواه عن المستوى العام ، مضافاً الى رقة التعبير وجزالة الاداء ، كما فى قوله تعالى : «ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى ـ الانفال : ١٧» اذ لا يخفى لطف هذا التعبير الرقيق ، عن مفهوم هو من ادق المفاهيم الاسلامية فى الامر بين الامرين «لاجبر ولا تفويض» . ومن ثم خفى على غالبية الناس ادراك حقيقته الاصيلة ، من عدا اولئك الراسخين فى العلم ، الذين استسهلوا الصعاب بفضل جهودهم فى سبيل اكتساب المعالى .

ومن هذا القبيل ـ ايضاً ـ قوله تعالى : «الله نور السماوات والارض ـ النور : ٣٥» . فقد وقع فيها تشبيه ذاته المقدسة بالنور . وهو ادق تعبير فى تقريب ذاته المقدسة الى افهام العامة ، اذ لو قيل للجمهور : ان لا ماهية له تعالى ولا هو جسم ولا فيه خواص الجسم ، لم يقتنعوا فى الجواب عن موجود وقع الاعتراف به ، كيف لا ماهية له ولا هو جسم ؟ فاذا قيل لهم : انه نور ، اقتنعوا ، فى حين ان نفس الاجابة صحيحة

يعرفها الراسخون فى العلم ، اذكما ان النور ـ فى المحسوس ـ غير قابل للادراك ذاتاً، وانما يحس به من قبل انارته للاشياء، كذلك وجوده تعالى ـ فى غير المحسوس ـ لايدرك هو ، وانما يدرك بافاضته للوجود على الموجودات ، فالله تبارك وتعالى يتجلى من خلال كل موجود ، وليس يدرك ذاتاً، كالنور سبب لادراك الاشياء وتعجز الابصار عن ادراكه بالذات [1] .

واما عوامل الابهام المحوجة الى التفسير ، فتعود الى جهات أخر، منها : غرابة الكلمة عن المألوف العام ، نظراً لاختصاص استعمالها ببعض القبائل دون بعض ، فجاء القرآن ليوحد اللغة باستعمال جميع لغات العرب ، من ذلك «صلداً» بمعنى «نقياً» فى لغة هذيل . و«الاملاق» بمعنى «الجوع» فى لغة لخم . و«المنسأة» بمعنى «العصا» فى لغة حضرموت . و«الودق» بمعنى «المطر» فى لغة جهرم . و«بست» بمعنى «تفتتت» فى لغة كندة . وهلم جراً ، الامر الذى دونت لاجله كتب غريب القرآن ، وهى كثيرة .

ومنهـا : اشارات عابرة جاءت فى عرض الكلام ، بحيث يحتاج فهمها الى درس عادات ومراجعة تاريخ ، كالنسىء فى سورة براءة : ٣٧ . والنهى عن اتيان البيوت من ظهورها فى سورة البقرة : ١٨٩ . او تعابير اجمالية يحتاج الوقوف على تفاصيلها الى مراجعة السنة واقوال السلف ، كقوله تعالى «اقيموا الصلاة» و«آتوا الزكاة» و«لله على الناس حج البيت» وامثال ذلك .

ومنها : تعابير عامة صالحة لمعانى لايعرف المقصود منها الا بمراجعة ذوى الاختصاص ، كالدابة فى سورة النمل : «اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ـ ٨٢» والبرهان فى سورة يوسف : « لولا ان رآى برهان ربه ـ ٢٤ » . والكوثـر فى «انا اعطيناك الكوثر» . والروح فى «يوم يقوم الروح والملائكة ـ النبأ : ٣٨ » وامثال ذلك .

---

١ ـ راجع : ابن رشد فى الكشف عن مناهج الادلة ص ٩٢ ـ ٩٣ .

ومنها : استعارات بعيدة الاغوار ، يحتاج البلوغ اليها الى سبر وتعمق كثير، كقوله تعالى : «اولم يروا انانأتى الارض ننقصها من اطرافها ـ الرعد : ٤١» وقوله : « اليوم نختم على افواههم وتكلمنا ايديهم وتشهد ارجلهم ـ يس : ٦٥ » ونحو ذلك .

ومن ثم قال الراغب : التفسير اما ان يستعمل فى غريب الالفاظ ،نحو البحيرة والسائبة والوصيلة . اوفى وجيز كلام مبين بشرح، نحو اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واما فى كلام متضمن لقصة لايمكن تصويره الا بمعرفتها ،كقوله تعالى : انما النسىء زيادة فى الكفر . وقوله : ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها [1] .

هذه نماذج من عوامل الابهام المحوجة الى تفسير كاشف، وقد تبين انها تختلف تماماً عن عوامل التشابه المستدعية لتأويل مقبول . وعليه فلايشتبه مورد احدهما بالآخر ، وان كانا يشتركان فى خفاء المراد بالنظر الى ذات اللفظ .

١ـ بنقل الاتقان ج٢ ص١٧٣ ط١

القرآن والمتشابه

*- هل في القرآن متشابه ؟

*- لماذا في القرآن متشابه؟

*- آراء ثمينة في بيان هذا السر .

هل فى القرآن متشابه ؟

لاشك ان القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات ـ فى اكثرية غالبة ـ مشتمل على آيات متشابهات ـ فى عدد قليل ـ قال تعالى: «هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب ، وأخر متشابهات ـ آل عمران : ٧» ونسبة عدد المتشابهات الى المحكمات نسبة هابطة جداً، فلو اعتبرنا من مجموع آى القرآن الحكيم مايربو على ستة آلاف آية، فان المتشابهات لاتبلغ المئتين لو أخذنا بالتدقيق وحذف المكررات حسبما يوافيك نماذج منها. وعليه فالمجال أمام مراجعة الكتاب العزيز، والارتواء من مناهله العذبة ، واسع جداً .

وقد حاول البعض انكار وجود آى متشابهة بالذات فى القرآن ، بحجة انه كتاب هداية عامة «هذا بيان للناس ـ آل عمران: ٧» وقد قال تعالى: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ هود : ٢» . ومن ثم فالتعبير بالتشابه فى آى القرآن انما يعنى التشابه بالنسبة الى اولئك الزائغين الذين يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

غير ان الانكار لايصلح علاجاً لواقعية لامحيص عنها ، نعم لايصطدم وجود المتشابه فى القرآن مع كونه هداية عموم ، اولا : ضئالة جانب المتشابه ، بحيث كان الطريق امام المستهدين بهدى القرآن الكريم فسيحاً جداً. ثانياً : هداية الكتاب تعنى كونه المصدر الاول للتشريع وتنظيم الحياة العامة، وهذا لايعنى امكان مراجعة الافراد ـ بالذات ـ للقرآن فى جميع احكامه وتشريعاته ، اذلمثل ذلك اختصاصيون يعرفون من الكتاب مالاتعرفه العامة . وهم يشكلون قيادة الامة على هدى الكتاب . وبذلك اصبح القرآن مصباحاً ينير درب الحياة على ركب الانسانية بشكل عام.

اما الاحكام فى سورة هود .فيعنى الاتقان والسداد ، حيث القرآن ذواساس مكين لايتضعضع، وذومشعل وضاء لاينطفىء مع الأبدية ، قال تعالى : «انانحن نزلنا الذكروانا له لحافظون ـ الحجر : ٩».

وسنعرض فيمايأتى ان الآى المتشابهة متشابهة بالذات، وانما يعرف الراسخون فى العلم تأويلها الصحيح ،بفضل جهودهم وتعمقهم فى أغوار هذا الدين، ليستنبطوا من كنوزه المستورة لئالى وهاجة تبهر العقول .

* * *

وحاول بعضهم فى اتجاه معاكس ، زاعماً ان جميع آى القرآن متشابهة،ومن ثم لا يجوز مسها الا بدلالة نص معصوم . وبذلك اسقط ظواهر الكتاب عن صلاحية الاستدلال بها أو الاستنباط منها لحكم شرعى . نظراً لقوله تعالى : « الله الذى نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً ـ الزمر : ٢٣ » وبما ورد : « انما يعرف القرآن من خوطب به » .[١]

وهذا قصور و جفاء ، حيث يقول تعالى : « افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ـ محمد : ٢٤ » . وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « فاذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن » كيف الرجوع الى القرآن لوضح

١ـ تفسير البرهان للمحدث البحرانى ج١ ص ١٨

الملتبسات اذا كان هو ملتبساً ؟ وقد قال الامام الصادق ـ عليه السلام ـ : « ان هذا القرآن فيه منار الهدى ومصابيح الدجى ، فليجل جال بصره و يفتح للضياء نظره، فان التفكر حياة قلب البصير ، كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور » . و قد ورد ـ ايضاً ـ « ان القرآن فيه تفصيل و بيان وتحصيل » و « هو الفصل ليس بالهزل » . « ظاهره انيق وباطنه عميق » . « ظاهره حكم و باطنه علم » . على ما تقدم بيانه .[1]

اما آية الزمر فتعنى تناسق آى القرآن فى الاجادة والوفاء وقوة التعبير ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ـ النساء : ٨٢ » .

لما ذا فى القرآن متشابه ؟

ولعل معترضاً يقول : هلا كانت جميع آى القرآن محكمات ، فكان ذلك اسلم من الالتباس واقرب الى طرق الاهتداء العام !

قال الامام الرازى : من الملاحدة من طعن فى القرآن ، لاجل اشتماله على المتشابهات ، اذ كيف يكون القرآن مرجع الناس فى جميع العصور، مع و فرة دواعى الاختلاف فيه، حيث يجد صاحب كل مذهب مأربه فى القرآن، بسبب اختلاف آياته فى الدلالة والرد . الامر الذى لا يليق بالحكيم تعالى ان يجعل كتابه المبين معرضاً للجدل و تضارب الآراء ، فلو كان جعله نقياً من المتشابهات المثيرة للشبهات ، كان اقرب الى حصول الغرض والمقصود من الهداية العامة .[2]

وقد عالج ابن رشد الاندلسى ـ الفيلسوف العظيم ـ هذه الناحية معالجة دقيقة ، صنف فيها الناس الى ثلاثة اصناف : صنف العلماء ، وعنى بهم من فى طبقته من ارباب الحكمة العالية . وصنف الجمهور ، وهم عامة الناس ممن لم يحظوا

١ـ الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف ـ الاصول ـ ج ٢ ص ٥٩٩ـ٦٠٠

٢ـ التفسير الكبير ج ٧ ص ١٧١

بحلى العلم شيئاً . وصنف بين بين، لاهم فى مستوى العلماء ولا مع العامة . وعنى بهم ارباب المذاهب الكلامية من الاشاعرة واصحاب الاعتزال .

قال : وهذا الصنف الاخير ، هم الذين يوجد فى حقهم التشابه فى الشرع ، و هم الذين ذمهم الله تعالى . واما عند العلماء فليس فى الشرع تشابه ، لانهم يعرفون من كل آية وجه تخريجها الصحيح الذى قصده الشرع ، والجمهور لا يشعرون بالشكوك العارضة ، بعد ان كانوا اخذوا بالظواهر واسترا حوا اليها من غير ترديد .

قال : ان التعليم الشرعى هو كالغذاء النافع لاكثر الابدان ، نافع للاكثر وربما ضر بالأقل ، ولهذا جاءت الاشارة بقوله تعالى : « ومايضل بها الا الفاسقين ـ البقرة : ٢٦ » . و هذا انما يعرض فى الا قل من الآيات لا قل الناس ، و هى الآيات التى تضمنت الاعلام عن الاشياء المتغيبة عن الحس ، ليس لها مثال فى المحسوس ، فجاء التعبير عنها بالشاهد الذى هو اقرب الموجودات الى تلك الغائبات ، واكثرها شبهاً بها . فربما عرض لبعض الناس ان يأخذ بالمثال ذاته لتلزمه الحيرة والشك .

وهذا هو الذى سمى فى الشرع متشابهاً . الامر الذى لا يعرض للعلماء و لا للجمهور ، لان هؤلاء هم الاصحاء الذين يلائمهم الغذاء النافع الذى يوافق ابدان الاصحاء . اما غير هذين الصنفين فمرضى ، و المرضى هم الا قل فى الناس ، ولذلك قال تعالى : « فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ آل عمران : ٧ » . وهؤ لاءهم اهل الجدل والمذاهب الكلامية .

قال: وقد سلك الشرع فى تعاليمه وبرامجه الناجحة ،مسلكاً ينتفع به الجمهور ويخضع له العلماء ، ومن ثم جاء بتعابير يفهمها كل من الصنفين : الجمهور يأخذون بظاهر المثال ، فيتصورون عن الممثل له مايشاكل الممثل به ، ويقتنعون بذلك .

والعلماء يعرفون الحقيقة التى جاءت فى طى المثال .

مثلا :لما كان ارفع الموجودات فى الحس هو النور ضرب به المثال ،وبهذا النحو من التصور امكن للجمهور ان يفهموا من الموجودات فيما وراء الحس ، مما مثل لهم بامور متخيلة محسوسة . فمتى اخذ الشرع فى اوصاف الله تعالى على ظاهرها ، لم تعرض للجمهور شك فى ذلك . فاذا قيل :الله نور . وان له حجاباً من نور وان المؤمنين يرونه فى الآخرة كالشمس فى رائعة النهار . لم تعرض للجمهور شبهة فى حقيقة هذه التعابير . وكذلك العلماء لا تعرض لهم شبهة فى ذلك ، حيث قد تبرهن عندهم ان تلك الحالة هى مزيد علم ويقين .لكن اذا ما صرح بذلك للجمهور بطلت عندهم الشريعة كلها وربما كفروا بما صرح لهم. لان الجمهور يرون من كل موجود هو المتخيل المحسوس ، وان ما ليس بمتخيل ولا محسوس فهو عدم عندهم .

فاذا قيل : ان هناك موجوداً ليس بجسم ولا فيه شيء مما يرونه لازم الجسمية ارتفع عنهم التخيل ،وصار عندهم من قبيل المعدوم .ولاسيما اذا قيل لهم :انه لا خارج العالم ولا داخله ، ولا فوق ولا اسفل . ومن ثم لم يصرح الشرع بانه ليس بجسم ، وانما اكتفى بقوله :«ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ـ الشورى: ١١» .وقوله: «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ـ الانعام : ١٠٣» .

قال : وانت اذا تأملت الشرع وجدته ـ مع انه قد ضرب للجمهور فى هذه المعانى المثالات التى لم يمكنهم تصورها الا بذلك ـ قد نبه العلماء على تلك المعانى بحقائقها . فيجب ان يوقف عند حد الشرع فى نهج التعليم الذى خص به صنفاً صنفاً من الناس، وان لا يخلط التعليمان فتفسد الحكمة الشرعية النبوية. ولذلك قال ﷺ: «انا معشر الانبياء أمرنا ان ننزل الناس منازلهم، وان نخاطبهم على قدر عقولهم»[1] .

و قد انتهج الامام الرازى نفس المنهج ، قال : والسبب الأقوى فى هذا

١ـ الكشف عن مناهج الادلة ، لابن رشد ص٨٩ و٩٦ و٩٧ و١٠٧.

الباب : ان القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام جميعـاً . و طبائع العوام تنبو ـ فى اكثر الامر ـ عن ادراك الحقايق، فمن سمع من العوام ـ فى اول الامر ـ اثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولامشاراليه ، ظن ان هذا عدم ونفى فوقع التعطيل . فكان الا صلح ان يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض مـا يناسب مايتوهمونه ويتخيلونه ،ويكون ذلك مخلوطاً بمايدل على الحق الصريح . فالقسم الاول ـ وهو الذى يخاطبون به فى اول الامر ـ يكون من باب المتشابهات. والقسم الثانى ـ وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر ـ هى المحكمات [1] .

* * *

وهذا المنهج الـذى انتهجه الفيلسوفان ، فى توجيه وجود المتشابه فى القرآن ، معالجة للقضية فى بعض جوانبها ، و هى الآيات المتشابهة المرتبطة مع مسألة المبـدأ والمعاد ، وليس علاجاً حاسماً للمادة من جذورها ، اذ تبقى آيات الخلق والتقدير ، والقضاء والقدر ،والجبر والاختيار، والعدل والعصمة،وماشاكل ، خارجة عن اطار هذا العلاج .

اما العلاج الحاسم لمادة الاشكال فى كل جوانب المسألة ، فهو : ان وقوع التشابه فى مثل القرآن ـ الكتاب السماوى الخالد ـ شىء كان لا محيص عنه ، مادام كان يجرى فى تعابيره الرقيقة مع اساليب القوم ، فى حين سمو فحواه عن مستواهم الهابط .

القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت غريبة عن طبيعة المجتمع البشرى آنذاك، ولا سيما جزيرة العرب القاحلة عن انحاء الثقافات ، فى حين التزامه ـ فى تعبيراته الكلامية ـ نفس الاساليب التى كانت دارجة ذلك العهد . الامر الذى ضاق بتلك الالفاظ ، وهى موضوعة لمعان مبتذلة وهابطة الى مستوى سحيق ، من ان تحيط

١ـ التفسير الكبير ج ٧ ص ١٧٢ وهو خامس وجوه ذكرها بهذا الصدد

بمفاهيم هي في درجة راقية وبعيدة الآفاق . كانت الالفاظ والكلمات ـ التي كانت العرب تستعملها في تعبيراتها ـ محدودة في نطاق ضيق حسبما كانت العرب تألفه من معان محسوسة أو قريبة من الحسن ومبتذلة الى حدما . فجاء استعمالها من قبل القرآن ـ الكتاب الذي جاء للبشرية على مختلف مستوياتهم مع الأبدية ـ غريباً عن المألوف العام .

ومن ثم قصرت افهامهم عن ادراك حقائقها ما عدى ظواهر اللفظ والتعبير . اذ كانت الالفاظ تقصر بالذات عن اداء مفاهيم لم تكن تطابقها ، ومن ثم كان اللجوء الى صنوف المجاز وانواع الاستعارات ، أو الايفاء بالكناية و دقائق الاشارات ، الامر الذي قرب من المفاهيم القرآنية الى مستوى افهام العامة من جهة ، وبعد ها من جهة اخرى ، قربها من جهة اخضاعها لقوالب لفظية كانت مألوفة لدى العرب . وبعدها حيث سمو المعنى كان يأبى الخضوع لقوالب لم تكن موضوعة لمثله ، كما كان يأبى النزول مع المستوى الهابط مهما بولغ في اخضاعه. اذ اللفظ يقصر عن اداء مفهوم لا يكون قالباً له ولا يتطابقه تماماً . هذا هو السبب الاقوى لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذات ، كما مر من مسألة الامر بين الامرين ، وغيرها من مسائل كلامية غامضة تبحث عن شؤون المبدأ تعالى والمعاد . ومسائل شؤون الخليقة وما انطوت عليه من اسرار وغوامض خافية على غالبية الناس .

مثلا قوله تعالى: «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ـ البقرة: ٣٠» تعبير رمزي عن شأن الانسان ـ بصورة عامة ـ في الارض ، انه ذلك الموجود العجيب ، الذي يملك في ذاته قدرة جبارة يضيق عنها الفضاء، وتخضع لها قوى الارض والسماء «وسخر لكم ما في السماوات وما في الارض جميعاً ـ الجاثية: ١٣» . كل ذلك بفضل نبوغه واستعداده الخارق الذي يمنحه القدرة على الخلق والابداع، على اثر تفكيره وجهاده في الوصول الى درجة الكمال . وليتمثل مظهريته تعالى، فهو الموجود النموذجي لمظهرية ذي الجلال والاكرام ، ومن ثم كان خليفته في الارض يومذاك

ليصبح خليفته فى عالم الوجود اطلاقاً .

لم تكن العرب تستطيع ادراك هكذا تصور عن الانسان ، ولا كان يخطر ببالها ان لهذا الانسان شأناً فى عالم الوجود، سوى انه الموجود الضعيف الذى تتألب عليه الضوارى ، ولايقتات الاعلى لحوم بنى جلدته سلباً ونهباً واراقة للدماء والفساد فى الارض .

ومن ثم لما جاء التعبير عن شأن آدم بهكذا تعبير ـ مماينم عن عظمة واكبار ـ حسبوه «المتصرف فى الارض» عن جانب الله القابع فى زواية السماء .اوفسروه ـ كما فى عصر متأخر ـ بأنه الخلف عن مخلوق كان قبل آدم ، الجن اوالنسناس . وهكذا الانجذاب بالآية يمنة ويسرة مادام لم يعرفوا من حقيقة الانسان ، ولاادركوا من شأنه الخطير .

* * *

وهكذا جاء التعبير المجازى فى آيتين لاتختلفان من حيث الاداء والتعبير، غير ان احداهما لما كانت تعبر عن معنى هوفوق مستوى العامة ، حصل فيها التشابه ، اماالاخرى فكانت تعبيراً عن معنى محسوس ومن ثم لم يقع فيها اشكال. فقوله تعالى: «الى ربها ناظرة ـ القيامة :٢٣» فيها مجاز الحذف ، اى الى رحمة ربها . كمافى آية اخرى نظيرتها : «واسأل القرية ـ يوسف: ٨٢» اى اهل القرية . غير ان الاولى صارت متشابهة ، لقصور افهام العامة عن ادراك مقام الألوهية ، فحسبوا منها جواز رؤيته تعالى . اما الآية الثانية فلم تتوقف فى فهم حقيقتها ، لانها فى معنى محسوس .

ونظير ذلك قوله تعالى :«يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود ـ القلم: ٤٢» دعى جهل العامة بصفاته تعالى الى فهم ساق له سبحانه ، فى حين ان استعارة الساق للشدة عند العرب كان امراً دارجاً ،قال شاعرهم : وقامت الحرب على ساق [١]

١ـ البرهان للزركشى ج٢ ص٨٤

ای اخذت فی شدتها ، فهم عندما يستمعون الى هذا الشعر لايترددون فی فهم الحقيقة اذيعلمون انلارجل للحرب ولاساق. امافی الآية الكريمة فيذهب وهمهم الى وجود رجل له تعالى وساق ، ومن ثم ذهب بعضهم الى عقيدة التجسيم ، تعالى الله عن ذلك .

* * *

وقدذهب سيدنا الطباطبائی ـ دام ظله ـ ايضاً الى هذا الرأی ، وذكر : انسبب وقوع التشابه فی القرآن يعود الى خضوع القرآن ـ فی إلقاء معارفه العالية ـ لالفاظ واساليب دارجة ، هی لم تكن موضوعة لسوی معانی محسوسة اوقريبة منها ، ومن ثم لم تكن تفی بتمام المقصود ، فوقع التشابه فيها وخفی وجه المطلوب . نعم ، الاعلى اولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوی رفيع . قال تعالى : « انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ـ الى قوله ـ كذلك يضرب الله الحق والباطل . فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ماينفع الناس فيمكث فی الارض ، كذلك يضرب الله الامثال ـ الرعد : ١٧ » وهكذا القرآن تحتمله الافهام على قدر استعداداتها ، وفيه من المتشابهات ماتزول بتعميق النظر واجادة التفكير ، فيبقی القرآن كله محكما مع الأبد بسلام [١] .

وهكذا قال الشيخ محمد عبده : ان الانبياء بعثوا الى جميع اصناف الناس من دان وشريف وعالم وجاهل وذكی وبليد . وكان من المعانی مالايمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كل أحد ، ففيها من المعانی العالية والحكم الدقيقة مايفهمه الخاصة ، ولو بطريق الكناية والتعريض ، ويؤمر العامة بتفويض الامر فيه الى الله ، والوقوف عند حد المحكم ، فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده [٢] .

١ـ تفسير الميزان ج٣ ص٥٨ ـ ٦٢ بتلخيص واختزال

٢ـ تفسير المنار ج٣ ص١٧٠ . وهو ثالث وجوه ذكرها بهذا الصدد .

* * *

وهناك عامل آخر في ايجاد التشابه في غالبية الآيات الكريمة، اذ لم تكن متشابهة من ذي قبل ، وانما حدث التشابه فيها على اثر ظهور مذاهب جدلية ، بعد انقضاء القرن الاول الذي مضى بسلام ، اذ كانت العرب اول عهدها بنزول القرآن تستذوقه بمذاويقها البدائية الساذجة، حلواً بديعاً سهلا بليغاً. اما وبعدما احتبكت وشائج الجدل بين ارباب المذاهب الكلامية ، منذ مطلع القرن الثاني ، فقد راج التشبث بظواهر آيات تحريفاً بمواضع الكلم، ومن ثم غمها نوع من الابهام والغموض الاصطناعيين، واخذت كل طائفة تعطف بما يروقها من آيات لغرض تأويلها الى الوجه الذي يؤيد مذهبها .

ولاريب أن القرآن حمال ذو وجوه ـ كما قال امير المؤمنين عليه السلام [1] ـ لانه كما ذكرنا معتمد في اكثر تعابيره البلاغية على انواع من المجاز والاستعارة والتشبيه ، فاكسبه ذلك خاصية قبول الانعطاف في غالبية آياته الكريمة، ومن ثم نهى الامام عليه السلام عن الاحتجاج بالقرآن تجاه اهل البدع والأهواء، لانهم يعمدون الى تأويله بلاهوادة قال عليه السلام لابن عباس لما بعثه للاحتجاج على الخوارج: «لاتخاصمهم بالقرآن ،فان القرآن حمال ذو وجوه ، تقول ويقولون . ولكن حاجهم بالسنة فانهم لن يجدوا عنها محيصاً» .

انظر الى هذه الآية الكريمة: «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ القيامة: ٢٣» ربما لم تكن العرب تخطر ببالها ارادة الرؤية بالعين ، كما قال الزمخشري : سمعت مستجدية بمكة، بعدما اغلق الناس ابوابهم من حر الظهيرة، تقول: عيينتي نويظرة الى الله واليكم [2] ولم يختلج ببال أحد انها تقصد النظر بالتحديق الى الله سبحانه ، وانما كان قصدها الانقطاع وتوقع فضله ورحمته تعالى . وهكذا في الآية الكريمة نظراً الى موقعية

١ـ نهج البلاغة ج٢ ص١٣٦ من الكتب والوصايا رقم : ٧٠

٢ـ راجع :الكشاف ذيل الاية ، واساس البلاغة مادة نظر .

الحصر فيها. لكن الاشاعرة واذنابهم من مشبهة ومجسمة جمدوا على ظاهر الآية البدائي وأصروا على انه النظر اليه تعالى بهاتين العينين اللتين في الوجه [1].

وهكذا لما سمعت العرب قوله تعالى: «ثم استوى على العرش يدبر الامر ـ يونس: ٣» ربما لم تفهم منه سوى استقلاله تعالى بملكوت السماوات والارض وتدبيره لشؤون هذا العالم، نظير قول شاعرهم:

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

وقال آخر:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى لنسر وكاسر

لكن الاشاعرة ومن ورائهم سائر اهل التشبيه أبوا الا تفسيره بالاستقرار على العرش جلوساً متربعاً فوق السماوات العلى، وقد ينزل الى السماء الدنيا ليطلع على شؤون خلقه فيغفر لهم ويجيب دعاءهم، اذ لا يمكنه ذلك وهو متربع على كرسيه فوق السماوات! [2].

وعلى هذا السبيل، لما نزلت الاية: «وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـ المائدة: ٦٤» لا نظن أن العرب فهمت منها الجوارح والاعضاء، نظير قوله تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ـ الاسراء: ٢٩» لا يعني الجارحة المخصوصة كما زعمته المشبهة من اصحاب الحشو، وانما عنى يد القدرة ونفي العجز عن التصرف فيما يشاء تعالى. اما الاشعري ومن حذا حذوه فانهم قد انحرفوا في فهم هذا المعنى الظاهر، فأولوه الى الجارحة، وقالوا ان الله يداً ورجلا وعيناً ووجهاً وما الى ذلك وقوفاً مع ظاهر الكلمة في القرآن [3].

١ـ راجع: الابانة لابي الحسن الاشعري ص ١١ طحيدرآباد الدكن

٢ـ راجع: الابانة ص ٣٥ فما بعد. ورسالة الرد على الجهمية للدارمي ص ١٣ فما بعد.

٣ـ راجع: الابانة ص ٣٩ فما بعد. وغيرها من كتب القوم وهي كثيرة.

والشواهد على هذا التحريف بظواهر القرآن كثيرة ، سنعرض نماذج منها في فصل : «عرض الآى المتشابهة» . ونذكر مدى تأثير تلكم المذاهب المبتدعة في تشويه ظاهر القرآن الكريم ، من جراء تطاول ايادي هم الاثيمة نحو هذا الكتاب الالهى المقدس تلويثاً لجانب قداسته الناصعة ، لكن « ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون ـ التوبة :٣٢» .

وسيأتى هذا الجانب من البحث بتوضيح اكثر .

حقيقة التّاويل

* ما بين التأويل والتفسير من فرق .
* المعانى الاربعة للتأويل .
* آراء غريبة فى حقيقة التأويل .

التأويل يستعمل بمعنى توجيه المتشابه ، وهو تفعيل من الأول بمعنى الرجوع لان المؤول عندما يخرج للمتشابه وجهاً معقولا ، هو آخذ بزمام اللفظ ليعطفه الى الجهة التى يحاول التخريج اليها ، ومن ثم يستعمل فى تبرير العمل المتشابه ايضاً كما فى قصة الخضر عليه السلام قال لصاحبه: «سأنبؤك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ـ الكهف ٧٨» اى سأطلعك على السر المبرر لاعمال اثارت شكوكك ودعتك الى الاعتراض.

اذن فكل لفظ اوعمل متشابه ـ اى مثير للريب ـ اذا كان له توجيه صحيح ، فهذا التوجيه تأويله لامحالة . وعليه فالفرق بين التفسير والتأويل ، هو : ان الاول توضيح مالجانب اللفظ من ابهام ، والثانى توجيه مافيه من مثار الريب ، وقد سبق مابين عوامل الابهام والتشابه من فرق.

هذا ، وقد اصطلحوا ـ ايضاً ـ على استعمال التأويل فى معنى ثانوى للاية ، فيما لم تكن بحسب ذاتها ظاهرة فيه ، وانما يتوصل اليه بدليل خارج ، ومن ثم يعبر عنه بالبطن ، كما يعبر عن تفسيرها الاولى بالظهر ، فيقال : تفسير كل آية ظهرها ، وتأويلها بطنها . والتأويل بهذا المعنى الأخير ، عام لجميع آى القرآن ، كما فى الأثر : «مافى القرآن آية الا ولها ظهر وبطن» .وقد سئل الامام محمد بن على الباقر ـ عليه السلام ـ عن ذلك فقال : « ظهره تنزيله ، وبطنه تأويله ، منه ماقد مضى ومنه

مالم يكن، يجرى كما يجرى الشمس والقمر[1]». وقال عليه السلام ايضاً: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذين عملوا بمثل اعمالهم[2]» فقد جاء التنزيل - في كلامه عليه السلام - بمعنى التفسير، اى ان للاية مورد نزول يكشف عن مدلولها الاولى المنصرم، ويعبر عنه بسبب النزول، ولا غنى للمفسر عن معرفة اسباب النزول في كشف ابهام الآية، كما في آية النسيء - التوبة: ٣٧ - و آية نفى الجناح عن السعى بين الصفا والمروة - البقرة: ١٥٨ - وآية النهى عن دخول البيوت من ظهورها - البقرة: ١٨٩ - ونحوها كثير.

نعم هناك عموم ثابت ابدى تنطوى عليه الآية، وبذلك تشمل عامة المكلفين مع الأبدية، وهو بطنها و تأويلها الذى يعرفه الراسخون فى العلم، ولولا ذلك لبطلت الآية. قال الامام الباقر - عليه السلام - : «ولو ان الآية اذا نزلت فى قوم ثم مات اولئك القوم ماتت الآية، لما بقى من القرآن شيء. ولكن القرآن يجرى اوله على آخره مادامت السماوات و الارض. ولكل قوم آية يتلونها هم منها من خير أو شر»[3] وقد صح عن رسول الله - صلى الله عليه وآله - قال: «ان فيكم من يقاتل على تأويل القرآن، كما قاتلت على تنزيله، وهو على بن ابى طالب[4]» فقد قاتل رسول الله - ص - على تطبيق القرآن الخاص حسب مورد نزوله، وقاتل على - ع - على تطبيقه العام على مشابه القوم.

فقوله تعالى: «وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من ابوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون - البقرة: ١٨٩» نزلت

١- بصائر الدرجات ص ١٩٥. والبحار ج ٩٢ ص ٩٧ رقم: ٦٤.

٢- تفسير العياشى ج١ ص١١. والبحار ج ٩٢ ص ٩٤ رقم: ٤٦.

٣- تفسير العياشى ج١ ص ١٠ رقم: ٧. والصافى ج١ ص ١٤.

٤- تفسير العياشى ج١ ص ١٥-١٦ رقم ٦.

رادعة لعادة جاهلية ، كان الرجل اذا احرم نقب فى مؤخر بيته نقباً منه يدخل ومنه يخرج . وهذه العادة اصبحت لاوجود لها بعد ان باد اهلها. غير أن الاية لم تمت بذلك وانما بقى عموم ردعها عن اتيان الامور من غير وجوهها بصورة عامة [1] فهذا تأويلها المنطوى عليه الآية ، يعمل بها مع الأبد .

وقوله تعالى: «قل أرأيتم ان اصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ـ الملك ٣٠» . تفسيرها : ان الله هو الذى « انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً الوانه ـ الزمر : ٢١» . وهذا معنى ظاهرى يدل عليه ظاهر اللفظ . وجاء فى تأويلها: اذا فقدتم حجة من حجج الله الذين كنتم ترتوون من علمهم ، فمن الذى يأتيكم بحجة اخرى يواصل هديكم فى ركب الحياة [2] . وهذا المعنى يعبر عنه بالبطن ، لايجرأ احد على بيانه الا بنص معصوم . واستعارة ينبوع الماء لمصدر الهداية الربانية شىء متناسب، فكما ان الماء هو أصل الحياة المادية ، كذلك الهداية الالهية هى أصل الحياة العليا السعيدة .

* * *

ويتلخص الكلام فى حقيقة التأويل : انه يستعمل فى موردين :

الاول ـ فى توجيه المتشابه، سواء أكان كلاماً متشابهاً ، ام عملا مثيراً للريب والتأويل بهذا المعنى خاص بالآى المتشابهة فحسب .

الثانى ـ فى المعنى الثانوى للكلام ، المعبر عنه بالبطن ، تجاه المعنى الاولى المعبر عنه بالظهر . والتأويل بهذا المعنى عام لجميع آى القرآن ، فان للقرآن ظهراً وبطناً ، وربما الى سبعة بطون.

وقد تبين ان التأويل ـ بكلا الاصطلاحين ـ هو من قبيل المعنى والمفهوم الخافى

١ـ راجع : تفسير شبر ص٦٧ طبعة الكشميرى .

٢ـ راجع : تفسير الصافى ج٢ ص٧٢٧ .

عن ظاهر الكلام ، وبحاجة الى دلالة صريحة من خارج ذات اللفظ .

وقد شذ ابن تيمية فيما زعم ان معرفة تأويل الشيء انما هو بمعرفة وجوده العينى قال : فان للشيء وجوداً فى الأعيان ووجوداً فى الأذهان ، والكلام لفظ له معنى فى القلب ويكتب بالخط ، فاذا عرف الكلام وتصور معناه فى القلب وعبر عنه باللسان فهذا غير الحقيقة الموجودة فى الخارج ، مثال ذلك : ان اهل الكتاب يعلمون ما فى كتبهم من صفة محمد صلى الله عليه وآله وخبره ونعته ، وهذا هو معرفة الكلام ومعناه وتفسيره. وتأويل ذلك هو نفس محمد صلى الله عليه وآله المبعوث ، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام. وكذلك اذا عرف الانسان الحج والمشاعر وفهم معنى ذلك . ولا يعرف الامكنة حتى يشاهدها فتكون تأويل ما عرفه اولا [1] .

وهكذا ذهب سيدنا العلامة الطباطبائى ـ دام ظله ـ الى ان التأويل ليس من مداليل الالفاظ ، وانما هو عين خارجية ، وهى الواقعية التى جاء الكلام اللفظى تعبيراً عنها . قال : الحق فى تفسير التأويل : انه الحقيقة الواقعية التى تستند اليها البيانات القرآنية ، من تشريع وموعظة وحكمة ، وانه موجود لجميع آى القرآن ، وليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالالفاظ ، بل هى من الامور العينية المتعالية من ان تحيط بها شبكات الألفاظ . وان وراء ما نقرؤه ونتعقله من القرآن ، أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد والمتثل من المثال وليس من سنخ الالفاظ ولا المعانى : وهو المعبر عنه بالكتاب الحكيم ، وهذا بعينه هو التأويل ، ومن ثم لا يمسه الا المطهرون ، قال تعالى : «انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسة الا المطهرون ـ الواقعة : ٧٩». وقال : «بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ـ البروج : ٢٢» . وقال «انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وانه فى ام الكتاب لدينا لعلى حكيم ـ الزخرف : ٤» فهذه الايات تدل على ان القرآن النازل كان عند الله امراً اعلى واحكم من ان تناله

---

١ ـ فى تفسير سورة التوحيد : بنقل رشيد رضا فى تفسير المنار ج٣ ص١٩٥

العقول اويعرضه التقطع والتفصيل ،لكنه تعالى عناية بعباده جعله كتاباً مقروءاً والبسه لباس العربية لعلهم يعقلون مالم يكن لهم سبيل الى تعقله ومعرفته مادام فى ام الكتاب قال تعالى: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ هود : ١» فالاحكام هو كونه عندالله لاثلمة فيه ولاتفصيل ، والتفصيل هو جعله فصلا فصلا وآية آية وتنزيله على النبى صلى الله عليه وآله [١] .

* * *

ولعل مازعمه ابن تيمية ناجم عن خلط أمر المصداق بأمر التأويل ،اذلم يعهد اطلاق اسم «التأويل» على الوجود العينى ، وانمايطلق عليه اسم «المصداق» حسب مصطلح الفن . فان كل لفظة لها مفهوم هو مايتصوره الذهن من دلالة ذلك اللفظ . ولها مصداق هو ما ينطبق عليه ذلك المفهوم خارجاً ، كالتفاحة لها مفهوم هو وجودها التصورى الذهنى .ولها مصداق هو وجودها العينى الخارجى ، ذوالآثار والخواص الطبيعية، ولم يعهد اطلاق اسم التأويل على هذا الوجود العينى للتفاحة اصلا .

ومنشأ الاشتباه أخذ التأويل من اصل اشتقاقه اللغوى بمعنى «مآل الامر » اى مايؤول اليه امر الشيء كما فى قوله تعالى : «هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله ، يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء ـ الاحزاب: ٥٣». اى يتنظر هؤلاء لينظروا الى مايؤول امر هذا الدين .. .ويوشك ان يأتى اليوم الذى ينتظرونه ، غير ان الفرصة قد فاتتهم ولات الساعة ساعة مندم .

وأما تأويل الرؤيا فمأخوذ من المعنى الثانى المتقدم ، لانه معنى خفى باطن لايعرفه سوى الذين اوتوا العلم . وقد استعمل فى تعبير الرؤيا فى القرآن فى ثمانى مواضع من سورة يوسف : ٦ و ٢١ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٥ و ١٠٠ و ١٠١ .

واستعمل بمعنى «مآل الامر» فى خمسة مواضع : سورة النساء : ٥٩ .وسورة

١ــ راجع : الميزان ج٥ صفحات : ٢٥ و ٤٥ و ٤٩ و ٥٤ و ٥٥

الاسراء : ٣٥ . وسورة الاعراف : ٣٥ مكررة . وسورة يونس : ٣٩ .

وبمعنى «توجيه المتشابه» في اربعة مواضع : سورة آل عمران : ٧ مكررة . وسورة الكهف : ٧٨ و ٨٢. اما استعماله بمعنى «البطن» فقد جاء في الآثار ـ حسبما تقدم ـ وقد أخذ منه تعبير الرؤيا كما نبهنا .

فهذه اربعة معان للتأويل استعملت في سبعة عشر موضعاً من القرآن ، ولم يكن واحد منها بمعنى العين الخارجية اطلاقاً .

* * *

اما رأى سيدنا الطباطبائي فلا يعدو توجيها لطيفا للمزعومة المتقدمة ، وتبدو عليه مسحة عرفانية غير مستندة ، ومن ثم فهي غريبة شذت عنه ـ دام ظله ـ وقبل ان نتكلم في وجه تفنيدها يجب ان نعرف ان ليس اللوح المحفوظ شيئا ذا وجود بذاته ، كوعاء اولوحة اومكان خاص ، مادياً اومعنوياً ، كلا ، وانما هو كناية عن علمه تعالى الازلي الذي لا يتغير ولا يتبدل وهو المعبر عنه بالكتاب المكنون وام الكتاب ايضاً ، وغيرهما من تعابير لا تعني سوى علمه تعالى المكنون الذي لا يطلع عليه أحد اطلاقاً.

وبعد فقوله تعالى : «وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم ـ الزخرف : ٤ » لا يعني ان للقرآن وجوداً آخر في وعاء « ام الكتاب » ، وانما جاءت هذه الاستفادة الخاطئة من توهم المكان من قوله : « لدينا » . بل المقصود : ان لهذا القرآن شأناً عظيماً عند الله في سابق علمه الازلي. والتعبير بام الكتاب كان بمناسبة ان علمه تعالى هو مصدر الكتاب وأصله المتفرع منه.

وقوله تعالى : « انه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه الا المطهرون ـ الواقعة : ٧٩» يعني نفس هذا القرآن الذي بأيدي الناس ، فهو في كتاب مكنون اي قدر له البقاء في علمه تعالى الازلي ، وجاء هذا المعنى ـ صريحاً ـ بتعبير آخر : «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ الحجر : ٩». وقوله : «لا يمسه الا المطهرون» يعني : لا يدرك كنه معناه ولا يبلغ الاهتداء به على الحقيقة ، الا الذين طهرت نفوسهم

عن الزيغ والانحراف «ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين».

وقوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد ـ اى عظيم شأنه ـ فى لوح محفوظ ـ البروج : ٢٢» اى قدر فى علمه تعالى انه يبقى محفوظاً عن كيد الخائنين وتحريف المبطلين ، لايمسوه بسوء ابداً .

هذا . . ولعلنا او جزنا الكلام عن آيات تمسكوا بها فى المقام ، لانا اجلنا البحث عن دلائلها الى مجال التفسير انشاءالله .

* * *

ثم لنفرض ان وراء هذا القرآن الذى بأيدينا قرآناً آخر ، ذا وجود مستقل فماهى الفائدة المتوخاة من ذلك ، وهوهناك من يعمل به؟ اوانه مذخور ليوم آخر ، كالطعام يدخر لأيام الجدب ، اوالمال يكنز ليوم الحاجة والافتقار. ! وأخيراً ، فما الذى دعا هؤلاء الى تسمية ذلك القرآن المذخور ـ فرضاً ـ تأويلا ووجوداً عينياً لهذا القرآن الحاضر؟ وهل يصح ـ اذا كان للشيء وجودان ، وجود مبذول ووجود محفوظ ـ ان يطلق على وجوده الآخر عنوان التأويل لهذا الوجود ؟!

ان هذا الاكلام شعرى ، مقترح عن ذوق عرفانى صوفى ، بعيد عن مجالات الجدل والاستدلال ، نعم سوى استحسان عقلانى مجرد !

هل يعلم الغيب إلا الله

*- توجيه السؤال بصورة عامة .

*- ماذا يستفاد من الآية بصورة خاصة .

*- شكوك واعتراضات .

*- مزعومة المنكرين .

*- من هم الراسخون في العلم ؟

هنا سؤال ذوجانبين احدهما عام : هل يستطيع احد الوقوف على تأويل المتشابهات ،بل وعلى تأويل آى القرآن كله؟. والثانى خاص : ماذايستفاد من الآية ـ« ومايعلم تأويله الاالله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به كل من عند ربنا ـ آل عمران : ٧»ـ بالذات ، هل الواو للتشريك او الاستيناف ؟

وللاجابة على الجانب الاول للسؤال نقول :لاشك ان القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات ، مشتمل على آيات متشابهات . ولامحالة يقصده اهل الاهواء والاطماع الفاسدة،سعياً وراء المتشابهات ابتغاء تأويلها وانحرافها الى مايلتئم واهدافهم الباطلة ،وقدجاء التصريح بذلك فى نفس الآية :«فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» فلولا وجود علماء ربانيين فى كل عصر ومصر ينفون عنه تأويل المبطلين ـ كما فى الحديث الشريف [1] ـ لاصبح القرآن معرضاً خصباً للشغب والفساد فى الدين . فيجب ـ بقاعدة اللطف ـ وجود علماء عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح ، ليقفوا سداً منيعاً فى وجه اهل الزيغ والباطل ،دفاعاً عن الدين وعن تشويه آى الذكر الحكيم .

١ـ راجع:سفينة البحار ج١ ص٥٥

وايضاً ـ لو كانت الآى المتشابهة مما لايعرف تأويلها الاالله ، لأصبح قسط كبير من آى القرآن لافائدة فى تنزيلها سوى ترداد قراءتها ، وقدقال رسول الله ﷺ: ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبرها . وقال تعالى :«كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الباب ـص :٢٩» .

ولنفرض ان الامة ـعند ماوقفت على آية متشابهة ـراجعت علمائها فى فهم تلك الآية، فابدواعجزهم عن معرفتها ،فذهبوا والعلماء معهم الى أحد الائمة خلفاء الرسول ﷺ فكان الجواب :اختصاص علمها بالله تعالى ، لكنهم لم يقتنعوا بهذا الجواب فهبوا جميعاً الى حضرة الرسول ﷺ ضارعين سائلين : ماتفسير آية انزلها الله اليك لنتدبرها؟فاذا النبى ﷺ لايفترق عن آحاد امته فى الجهل بكتاب الله العزيز الحميد !

او ليست الامم تسخر من أمة عمها وعلمائها وائمتها ونبيها ـ ! ـ الجهل بكتابها الذى هو أساس دينها مع الخلود ؟!

اللهم ان هذا الازعم فاسد وحط من كرامة هذه الامة المفضلة على سائر الامم بنبيها العظيم وكتابها الكريم .

او ليس النبى ﷺ هو الذى ارجع امته الى القرآن اذاما التبست عليهم الأمور كقطع الليل المظلم [1] فبما ذا يرجعون اذا التبس عليهم القرآن ذاته ؟!

وأخيراً فانا لم نجد من علماء الامة ـمنذ العهد الاول فالى الآن ـ من توقف فى تفسير آية قرآنية بحجة انها من المتشابهات لايعلم تأويلها الاالله. وهذه كتب التفسير القديمة والحديثة طافحة باقوال المفسرين فى جميع آى القرآن بصورة عامة ،سوى ان اهل الظاهر يأخذون بظاهر المتشابه ، اما اهل التمحيص والنظر فيتعمقون فيه ويستخرجون تأويله الصحيح ، حسبما يوافقه العقل والنقل الصريح .

قال الشيخ ابوعلى الطبرسى:«ومما يؤيد هذا القول ـاى ان الراسخين يعلمون

١ـ راجع:الكافى الشريف ج٢ ص٥٩٩

التأويل ـ :ان الصحابة والتابعين اجمعوا على تفسير جميع آى القرآن ، ولم نرهم توقفوا على شيء منه لم يفسروه بأن قالوا : هذا متشابه لايعلمه الاالله»[1] .

وقال الامام بدرالدين الزركشى : «ان الله لم ينزل شيئاً من القرآن الالينتفع به عباده ، وليدل به على معنى اراده . ولايسوغ لاحد ان يقول : ان رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه . فاذا جاز ان يعرفه الرسول ﷺ مع قوله : «ومايعلم تأويله الاالله » جاز ان يعرفه الربانيون من صحابته ، والمفسرون من امته. الاترى ان ابن عباس كان يقول : انا من الراسخين فى العلم .ولو لم يكن للراسخين فى العلم حظ من المتشابه الاان يقولوا : «آمنا» لم يكن لهم فضل على الجاهل ، لان الكل قائلون ذلك .قال : ونحن لم نر المفسرين الى هذه الغاية توقفوا عن شيء من القرآن ، فقالوا : هذا متشابه لايعلم تأويله الاالله . بل أمروه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة»[2] .

* * *

اما بالنظر الى ذات الآية،فلعل دلالتها على التشريك واضحة : اذ من الضرورى رعاية المناسبة القريبة بين عنوان المسند اليه وفحوى مدلول المسند . وذلك فيما اذا تعنون المسند اليه بوصف خاص ، فانه يجب ـ حينذاك ـ من مراعاة مابين هذه الصفة ، والحكم المترتب عليها من علاقة سببية اوشبهها ، وهى التى لاحظها علماء الفن فيما اثر منهم : «مناسبة الحكم والموضوع» . وهذا كقولنا : «العلماء باقون مابقى الدهر » حيث كانت صفة العلم وآثاره البناءة هى التى تستدعى الخلود للعلماء.

ومن ثم قد يستشم نوعية الخبر من نفس عنوان الموضوع ،قبل ان ينطق بالمخبر به ،كما فى قول الشاعر .

ان الذى سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه اعز وارفع

١ـ مجمع البيان ج٢ ص٤١٠ س١٨

٢ـ البرهان فى علوم القرآن ج٢ ص٧٢-٧٣

فقد لمسنا عظمة المخبر به ورفعة شأنه من عنوان « سامك السماء » الذى جاء فى الموضوع .

وعليه فعنوان «الراسخون فى العلم» بنفسه يستدعى ان يكون المنسوب اليهم من جنس مايتناسب والمعرفة الكاملة ،اما الايمان الأعمى فلامناسبة بينه وبين الرسوخ فى العلم .

وعليه فرعاية هذه المناسبة هى التى تستدعى وجوب التشريك، ليكون الراسخون فى العلم ـ ايضاً ـ عالمين بتأويل المتشابهات .

واعترض بأن مقتضى التشريك هو تساوى العلماء مع الله ولو فى هذه الجهة الخاصة ، وقد قال تعالى: «ليس كمثله شيء» .

واجيب بان شرف العلم هو الذى رفعهم الى هذه المنزلة المنيعة ، كما فى آية اخرى : « شهد الله انه لااله الا هو والملائكة واولوا العلم قائماً بالقسط ـ آل عمران : ١٧» .

واعتراض آخر: ماذا تكون موقعية قوله :«يقولون آمنا به .. »اذا ما اعتبرنا «والراسخون» عطفا على «الا الله» ؟

والجواب :انها جملة حالية موضعها النصب حالا توضيحياً من الراسخين . قال الزمخشرى : «ويقولون ، كلام مستأنف موضح لحال الراسخين» [1] .ومقصوده من الاستيناف نفى رابطة الاسناد الخبرى بينه وبين الراسخين . وهكذا صرح ابن قتيبة فى تأويل مشكل القرآن ص٧٢. وابو البقاء العكبرى فى املاء مامن به الرحمان ج١ ص١٢٤ . والشريف المرتضى فى اماليه ج١ ص٤٣١ ـ ٤٤٢ المجلس : ٣٣ . والزركشى فى البرهان ج٢ ص٧٣ . والعلامة الطبرسى فى مجمع البيان ج٢ ص٤١٠ . والشيخ محمد عبده فى تفسير المنار ج٣ ص١٦٧ .وغيرهم من اقطاب العلم والادب

١ـ الكشاف ج١ ص٣٣٨ ط بيروت

القدامى والمحدثين .

وللاية نظائر كثيرة فى القرآن وفى الشعر القديم ،جاء فى سورة الحشر ـ فى بيان مصرف الغنائم ـ .قوله تعالى :ماافاءالله على رسوله . . . الى قوله : للفقراء المهاجرين ... الى قوله :والذين تبؤوا الدار والايمان ... الى قوله: والذين جاءوا من بعدهم ،يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان...٧ـ ١٠» .فجملة «يقولون ...» كلام مستأنف حال من «والذين جاؤوا ... » المعطوف على ماقبله ، للتشريك معهم فى استحقاق غنائم دار الحرب .

وكذلك قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفاً صفاً ـ الفجر:٢٢» .فالمنصوب حال من «الملك» المعطوف على «ربك» .

وقال يزيد بن المفرغ الحميرى ـ يهجو عباد بن زياد ـ:

أصرمت حبلك فى أمامة ... من بعد أيام برامة

فالريح تبكى شجوها ... والبرق يلمع فى غمامة [1]

قوله «والبرق» عطف على «فالريح» للتشريك معه فى البكاء . و«يلمع» حال من المعطوف . اى ويبكى البرق ـ ايضاً ـ فى حال كونه لامعاً.

اذن فلاغرو ان تكون «يقولون آمنا به.. .» جملة حالية موضحة لحال الراسخين وسنذكر فائدة هذه الحال هنا .

واعتراض ثالث ـ هو اقوى حجة اعتمدها الامام الرازى ـ قال :«ان الله مدح الراسخين فى العلم بأنهم يقولون : آمنا به . وقال فى اول سورة البقرة : «فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم ـ ٢٦». فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل

١ـ الاغانى لابى الفرج ج١٧ ص١١٢ طبيروت وص٥٥ ط الساسى . وابن خلكان ج٦ ص٣٤٦ رقم : ٨٢١ .وغرر الفوائد للشريف المرتضى ج١ ص٤٤٠

ذلك المتشابه على التفصيل ، لما كان لهم فى الايمان به مدح ، لان كل من عرف شيئاً على سبيل التفصيل ، فانه لابدان يؤمن به ، انما الراسخون فى العلم هم الذين علموا بالدلائل القطعية ان الله تعالى عالم بالمعلومات التى لانهاية لها ، وعلموا ان القرآن كلام الله تعالى ، وعلموا انه لايتكلم بالباطل والعبث . فاذا سمعوا آية ودلت الدلائل القطعية على انه لايجوز ان يكون ظاهرها مراداً لله تعالى ، بل مراده منه غير ذلك الظاهر ، ثم فوضوا تعيين ذلك المراد الى علمه ، وقطعوا بأن ذلك المعنى ـ أى شىء كان ـ فهو الحق والصواب . فهؤلاء هم الراسخون فى العلم بالله ، حيث لم يزعزعهم قطعهم بترك الظاهر ، ولاعلمهم بالمراد على التعيين ، عن الايمان بالله والجزم بصحة القرآن» [1] .

قلت : ليس كل من عرف الحق اعترف به واذعن له ، قال تعالى : «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها واكثرهم الكافرون ـ النحل : ٨٣» . هذا ، والمدح على الايمان عن بصيرة اولى من المدح على ايمان اعمى . قال الامام البيضاوى : «مدح الراسخين فى العلم بجودة الذهن وحسن النظر ، واشارة الى مااستعدوا للابه هتداء الى تأويله ، وهو تجرد العقل عن غواشى الحس» [2] .

والتقييد بـالجملة الحالية ـ هنا ـ جاء للاشارة الى نكتة دقيقة ، هى : ان المتشابه متشابه على كل من العالم والجاهل جميعاً ، سوى ان العالم بفضل علمه بمقام حكمته تعالى ، يجعل من المتشابه موضع تأمله ودقيق نظره ، وبذلك يتوصل الى معرفة تأويله الصحيح فى نهاية المطاف .

توضيح ذلك : ان الناس تجاه المتشابه ثلاث فرق . فرقة تستريح الى ظاهره ، وهم غالبية العامة ممن لامعرفة له باصول معارف الاسلام الجليلة . وفرقة تعمد الى

١ـ التفسير الكبير ج٧ ص١٧٧

٢ـ انوار التنزيل ج٢ ص٥

المتشابه عن قصد التمويه ، لغرض تـأويله الى اهداف باطلة ، ذريعة الى تشويه الحقيقة ، وهم اهل الزيغ والانحراف ممن يبغى الفساد بين العباد . وفرقة ثالثة ـ هم الراسخون فى العلم المؤمنون حقا ـ يقفون عند المتشابه يتأملونه بدقيق النظر ، ولسان حالهم : ان هذا المتشابه ـ كأخيه المحكم ـ صادر عن مقام الحكمة تعالى وتقدس ، فلابد ان وراء ظاهره المتشابه حقيقة راهنة تكون هى المقصودة بالذات. وهذه الفكرة عن المتشابه هى التى تدعو المؤمنين حقاً الراسخين فـى العلم الى البحث والتحقيق عن تخريجه الصحيح .

والباحث الصادق ـ امام المتشابه ـ لا يضطرب اضطراب الجاهل الذى وضع ايمانه على حرف «فان اصابه خير اطمأن به ، وان اصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ـ الحج : ١١» .ولا يتروغ مراوغة المعاند الغاشم ، ليجعل من المتشابه ذريعة للعيث والفساد فى الارض «اما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ـ آل عمران : ٧» . وانما يقف عنده وقفة المتأمـل الفاحص عن جلى الأمر . ولاشك انه سوف يحتضن مطلوبه بفضل استقامته وثباته على ايمانه الصادق .وقد جرت سنة الله فى خلقه :ان من جد وجد ومن لج ولج. قال تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ـ العنكبوت : ٦٩ » .

والخلاصة : ان الراسخين فى العلم ، بفضل ثباتهم على العقيدة الصادقة ، سوف يهتدون الى معرفة تأويل المتشابه كما اراده الله . ويكون قولهم : « آمنا به كل من عند ربنا» تمهيداً لطلب الحقيقة ، ونقطة باعثة الى البحث عن طرق التحقيق والفحص .

وهكذا قال الشيخ محمد عبده : وامادلالة قولهم :«آمنا به كل من عند ربنا» على التسليم المحض ، فهو لاينافى العلم ، فانهم انما سلموا بالمتشابه فى ظاهره

اوبالنسبة الى غيرهم ، لعلمهم باتفاقه مع المحكم، فهم لرسوخهم فى العلم ووقوفهم على حق اليقين ، لايضطربون ولايتزعزعون ،بل يؤمنون بهذا وبذاك على حد سواء، لان كلا منهما من عندالله ربنا . ولاغرو ، فالجاهل فى اضطراب دائم والراسخ فى ثبات لازم . ومن اطلع على ينبوع الحقيقة لاتشتبه عليه المجارى ، فهو يعرف الحق بذاته ، ويرجع كل قول اليه ، قائلا : آمنا به كل من عند ربنا [1] .

بقى هناشيء :وهو ان الامام الرازى ـ تأكيداً لاختياره الاختصاص ـ استمد بالادب الرفيع ! وقال :ان العطف بعيد عن ذوق الفصاحة ، ولو اريد العطف لكان الاولى ان يقال : وهم يقولون آمنا به ، اويقال : ويقولون آمنا به [2] .

ووافقه على هذا الذوق الأدبى ! سيدنا العلامة الطباطبائى ، قائلا : وظاهر الحصر كون العلم بـالتأويل مقصوراً عليه تعالى . وظاهر الكلام ان الواو فـى «والراسخون ...» للاستيناف ، لكونه طرفاً للترديد الواقع فى صدر الآية « فاما الذين . . . » . ولو كان للعطف الدال على التشريك ، لكان من افضل الراسخين ـ حينذاك ـ هو الرسول الاعظم ، فكان من حقه ان يفرد بالذكر ، تشريفاً بمقامه كما فى قوله تعالى : «آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ـ البقرة: ٢٨٥». وقوله : «ثم انزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ـ براءة :٢٦» .وقوله :«وهذا النبى والذين آمنوا ـ آل عمران : ٦٨» .

قلت :ان كنا نرى لهذين العلمين منزلتهما الشامخة فى مجال الحكمة والعلوم العقلية ،فان ذلك ـ بنفس المرتبة ـ أبعدهما عن عالم الأدب اللسنى والعلوم النقلية. لاسيما وانهما لم يذكرا سبب تلك الاستذاقة الغريبة ! وقـد أسلفنا نقل كلام ائمة

١ـ تفسير المنار ج٣ ص١٦٧

٢ـ التفسير الكبير ج٧ ص١٧٧

الادب فی ترجیح العطف علی الاستیناف [1] . هذا ، وقدذهب عن الامام الرازی ان الجملة الحالیة اذا صدرت بالفعل المضارع یجب تجریدها عن الواو البتة ، قال ابن مالك فی باب الحال من الفیته فی النحو :

وذات بدء بمضارع ثبت حوت ضمیراً ومن الواو خلت

کما ذهب عن سیدنا الطباطبائی ان فی القرآن کثیراً من عمومات تشمل النبی الاکرم صلی الله علیه وآله وسلم یقیناً ولم یفرد بالذکر ، منها قوله تعالی : «شهدالله انه لااله الاهو والملائکة واولوا العلم قائماً بالقسط ـ آل عمران : ۱۸» . وقوله : «ان الذین قالوا ربناالله ثم استقاموا تتنزل علیهم الملائکة ـ فصلت : ۳۰» . وقوله : «ان الله یدافع عن الذین آمنوا ـ الحج : ۳۸» . وقوله : «انما یخشی الله من عباده العلماء ـ فاطر : ۲۸» وغیرهن من آیات کثیرة جداً .

مزعومة المنکرین

نسب جلال الدین السیوطی القول باختصاص معرفة التأویل به تعالی ، الی اکثریة السلف خصوصاً اهل السنة ، قال : « واما الاکثرون من الصحابة والتابعین واتباعهم ومن بعدهم ، خصوصاً اهل السنة ، فذهبوا الی الثانی ، ای القول بأن التأویل لایعلمه الاالله» [2] .

واظنه مبالغاً فی هذه النسبة، ولاسیما بعد مراجعتنا لاقوال السلف اتضح عدم صحة النسبة .قال ابن تیمیة : «قول القائل : ان اکثر السلف علی ان التأویل لایعلمه الاالله ،قول بلاعلم [3] .فانه لم یثبت عن احد من الصحابة انه قال: ان الراسخین فی العلم لایعلمون تأویل المتشابه. بل الثابت عن الصحابة ان المتشابه یعلمه الراسخون ...».

۱ـ تقدم فی صفحة :۳۹

۲ـ الاتقان ج۲ ص۳ ط۱ .وص۵ـ ٦ ط۲ .

۳ـ ویل لمن کفره نمرود

وقال ـ قبل ذلك ـ : «ان السلف قد قال كثير منهم: انهم يعلمون تأويله ، منهم مجاهد مع جلالة قدره ، والربيع بن انس، ومحمد بن جعفر بن الزبير ، وابن عباس... وقد تكلم احمد بن حنبل في تأويل كثير من آيات متشابهة ... الى ان يقول : وهذا القول اختيار كثير من اهل السنة ، منهم ابن قتيبة وابو سليمان الدمشقي ...» [1] .

وقال ابو جعفر الطبري : «ان جميع ما انزل الله من آي القرآن على رسوله ﷺ فانما انزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين ، وغير جائز ان يكون فيه ما لا حاجة بهم اليه ، ولا ان يكون فيه ما بهم اليه الحاجة ثم لا يكون لهم الى علم تأويله سبيل» [2] .

وقال مجاهد : «عرضت المصحف على ابن عباس من اوله الى آخره ، أقفه عند كل آية واسأله عنها . وكان يقول : انا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله» [3] .

وقال الراغب ـ في مقدمة تفسيره ـ : «وذهب عامة المتكلمين الى ان كل القرآن يجب ان يكون معلوماً ، والا لأدى الى ابطال فائدة الانتفاع به ، وحملوا قوله : والراسخون ، بالعطف على قوله : الا الله . وقوله : يقولون ، جملة حالية [4].

وذهب ابو الحسن الاشعري ـ شيخ الاشاعرة ـ الى وجوب الوقف على «والراسخون في العلم» لانهم يعلمون تأويل المتشابه. وقد اوضح هذا الرأي وانتصر له ابو اسحاق الشيرازي بقوله : «ليس شيء استأثر الله بعلمه، بل وقف العلماء عليه، لان الله تعالى أورد هذا مدحاً للعلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة» [5].

١ـ بنقل تفسير المنار ج٣ ص١٧٥ ـ ١٧٤

٢ـ جامع البيان للطبري ج٣ ص١١٦

٣ـ تفسير المنار ج٣ ص١٨٢

٤ـ البرهان للزركشي ج٢ ص٧٤

٥ـ المباحث لصبحي الصالح ص٢٨٢

وفيما نقلنا ـ هنا ـ من اقوال الأعلام كفاية فى تزييف ما نسبه جلال الدين الى السلف . ولعل الباحث يجد من اقوال الائمة اكثر .

والعمدة : ان منكرى العطف استندوا الى مزعومة مفضوحة ، قالوا : لان المتشابه هو مالم يكن لأحد الى علمه سبيل ، مما استأثر الله بعلمه دون خلقه ،وذلك نحو الخبر عن وقت مخرج عيسى بن مريم ووقت طلوع الشمس من مغربها وقيام الساعة وفناء الدنيا وما اشبه ذلك ، فان ذلك لايعلمه أحد [1] وقالوا فى تفسير الآية : يعنى جل ثناؤه بذلك ، ومايعلم وقت قيام الساعة وانقضاء مدة اجل محمد وامته وما هو كائن ، الاالله ، دون من سواه من البشر ،الذين أملوا ادراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة . واما الراسخون فى العلم فيقولون آمنا به كل من عند ربنا لايعلمون ذلك ، ولكن فضل علمهم فى ذلك على غيرهم العلم بأن الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه [2] .

ولعل هؤلاء قد غشيتهم غفلة ، فذهب عنهم أن آية آل عمران تقصد تنويع آى القرآن الى محكمات ومتشابهات ،وان المحكمات هن مراجع الأمة بالذات، اما الآيات المتشابهات فيعمد الى تأويلها الباطل اهل الاهواء الفاسدة ولايعلم تأويلها الصحيح سوى الله والراسخين فى العلم .هذا هو فحوى الآية الكريمة ، الامر الذى لايرتبط والامور السبعة التى استأثر الله بعلمها من نحو خروج الدجال ونزول المسيح وطلوع الشمس من المغرب . انها من اشراط الساعة ، ولامساس لها بموضوع آية آل عمران .انها غفلة غريبة لاندرى كيف خفى عليهم ذلك ولم يتنبهوا الى هذا الفضح الواضح ! ؟

١ـ راجع : جامع البيان للطبرى ج٣ ص١١٦

٢ـ المصدر ص١٢٢ . ومجمع البيان ج٢ ص٤١٠ . والبيضاوى ج٢ ص٥ .

من هم الراسخون في العلم ؟

الراسخون في العلم هم من لمسوا من المتشابه وجه التشابه فيه اولا ، ثم تمكنوا من الوصول الى وجه تخريجه الصحيح في نهاية الامر . لان فهم السؤال نصف الجواب كما قيل .

اذ الراسخون في العلم هم من عرفوا من قواعد الدين اسسها المكينة ، ودرسوا من واقع الشريعة اصول مبانيها الرصينة ، ومن ثم اذا ماجوبهوا بما يخالفها في ظاهر اللفظ ، عرفوا ان له تأويلا صحيحاً ، يجب التوصل اليه في ضوء تلكم المعارف الاولية ، ومن جد في طلب شيء ، وكان من اهله ، تحصله في نهاية الطاف . اما الجاهل الاعمى فلا يعرف من الدين شيئاً سوى ظواهره ، من غير ان يميز بين محكماته والمتشابهات .

والخلاصة : ان العلماء الصادقين ، بما انهم واقفون على قواعد الشريعة ، وعارفون بموازين الشرع ومقاييسه الدقيقة ، اذا ماعرضت عليهم متشابكات الامور هم قادرون على استنباط حقائقها وعلى اوجه تخريجاتها الصحيحة .

ومن ثم فانهم يعملون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين بعناية رب العالمين ، « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩» . « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ـ مريم : ٧٦ » . « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ـ فصلت : ٣٠ » . وقد قال تعالى : « وان لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ـ الجن : ١٦» . اوليس العلم بحقائق الشريعة البيضاء من الماء الغدق ؟ انها شربة حياة العلم ، يفيضها الاله تعالى على من يشاء من عباده المؤمنين ، ويطلعهم على اسرار الملك والملكوت في العالمين .

واول الراسخين في العلم هو رسول الله ﷺ . قال الامام محمد بن علي الباقر

عليه السلام : افضل الراسخين في العلم رسول الله صلى الله عليه وآله قد علم جميع ما انزل الله في القرآن من التنزيل والتأويل ، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله [1] ثم باب مدينة علمه امير المؤمنين عليه السلام ـ والأوصياء من بعده ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ قال الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ان الله علم نبيه التنزيل والتأويل ، فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وعلمنا ، والله [2] .

وهكذا استمر بين اظهر المسلمين ـ عبر العصور ـ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فثبتوا واستقاموا على الطريقة فسقاهم ربهم ماء غدقاً . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ : يحمل هذا الدين في كل قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين [3] .

وقد جاء التعبير عن علماء اهل الكتاب الربانيين بالراسخين في العلم «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل اليك ـ النساء : ١٦٢» دليلا على ان العلماء العاملين ، الذين ساروا على منهج الدين القويم ، وكملت معرفتهم بحقايق الشريعة الطاهرة ، هم راسخون في العلم ، ويعلمون التأويل . قال الامام الصادق عليه السلام : نحن الراسخون في العلم ، فنحن نعلم تأويله [4] . وعن ابن عباس ـ تلميذ الامام امير المؤمنين عليه السلام : انا ممن يعلم تأويله [5] . وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم «فما اشتبه عليكم فاسألوا عنه اهل العلم يخبرونكم» [6] . فلولا ان في امته علماء عارفين

١ـ بحار الانوار ج٩٢ ص٧٨

٢ـ مرءآة الانوار ص١٥

٣ـ سفينة البحار ج١ ص٥٥

٤ـ تفسير البرهان للبحراني ج١ ص٢٧١

٥ـ الدر المنثور للسيوطي ج٢ ص٧

٦ـ آلاء الرحمان للبلاغي ج١ ص٢٥٨

بتأويل المتشابهات. لما اوصى ﷺ بمراجعتهم في حل متشابكات الأمور. و«الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله »[1] وصلى الله على محمد وآله الطاهرين .

١ـ الاعراف : ٤٣

تعرف اجمالية الى :

مذاهب سلفية

او جدت التشابه في وجه الآيات

رأينا من الأفضل ـ قبل عرض المتشابهات ـ ان نتعرف الى شيء من مـذاهب سلفية كانت السبب الاول فى نشوء التشابه فى وجه كثير من آيات القرآن الحكيم . وكان اسبقهم الى ذلك «الصفاتية» ، ثم انحدرت عنها «الأشعرية» و«المشبهة» و « الكرامية » ، كما تشعبت منها «الحشوية» و « الجبرية » و«القدرية» . وكانت مذاهب اهل العدل : «العدلية» ـ فى حقيقتها ـ انتفاضة تحقيقية وعقلانية فى وجه السلفيين الظاهريين المتزمتين ، واليك :

تمهيد

تقدم ان غالبية مانعتبره اليوم متشابهاً من آى القرآن ، قدحصل التشابه فيها فى عصر متأخر عن زمن نزولها ، يوم راجت البحوث الجدلية حول مسائل كلامية[1] عن ذاته المقدسة وصفاته الجمال والجلال[2] .

كان اكثر السلف ـ ممن لاعهدلهم بالعلوم العقلية ، ولاوقفوا على كنه حقائق

١ـ يطلق «علم الكلام» على جملة مسائل خلافية تبحث عن الوجود وعن شؤون الواجب تعالى ، تشعباً من فلسفة اليونان ، وتطبيقا مع العقيدة الاسلامية بالذات ، مزيداً عليها مسائل النبوة والامامة والمعاد .

٢ـ تطلق «صفات الجمال» على « الصفات الثبوتية » التى ينعت بهاذاته المقدسة ، ولايجوز اخلاؤه تعالى عنها ولااتصافه باضدادها ، كالحى والقادر والعالم . وتطلق «صفات الجلال» على «الصفات السلبية» التى يتنزه ذاته المقدسة عن الاتصاف بها ، كالحدوث والجسمية والرؤية ونحوها .

الاسلام ، والتى كانت دقيقة للغاية ، ماعدا ظواهر الفاظ كانوا يلوكونهامن غير تعميق ، وبالتالى لم تكن لهم تلك المعرفة الدقيقة بشؤون الواجب تعالى وتفصيل صفاته الثبوتية والسلبية . ولاتمييز صفات الذات عن صفات الفعل [1] ومااالى ذلك ـ كانوا اذا ماوجدوا من نعوته تعالى مذكورة فى الكتاب اوفى اقوال الرسول ﷺ اخذوا بظواهرها مستر يحين بأنفسهم الى مايفهمون منها حسب مااوتوا من افهام ساذجة بداءية ، لايزيدون شيئاً ولاينقصون .

لاشك انهاكانت طريقة الوقف والاحتياط فى الدين ، بالنسبة الى من لم يرتفع مستواه عن مستوى العامة بشيء . وبذلك قد سلموا عن كثير من شبهات اعترضت طرق الخلف ، ممن ولجوا فى مسائل عقلية غامضة ، وكان قد اعوزتهم الوسيلة النافذة ، التى كانت تؤهلهم لسبر تلكم الأغوار .

هذا ابوهريرة سئل عن المبدع الاول كيف وجد ؟ فلم يحر جواباً وجعل يضطرب من مفاجئة هكذا سؤال . قال : وانى لجالس ذات يوم ، اذقال رجل من اهل العراق : ياابا هريرة هذا «الله» خلقنا ، فمن خلق الله تبارك وتعالى ؟ قال ابوهريرة : فوضعت اصبعى فى اذنى وصرخت : صدق الله ورسوله ، الله الواحد الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً احد [2] . اذمسألة « وجود الواجب بالذات » [3]

١ـ صفات الذات : صفات ثابتة قديمة لايجوز اخلاء الذات عنها ابداً ، كالعالم والحى والقادر . وصفات الفعل مايجوز اخلاء الذات عنها فيما لم تتعلق ارادته تعالى بالايجاد ، كالخالق والرازق والمحيى والمميت .

٢ـ راجع : رسالة «الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمى ص٧

٣ـ ينقسم الموجود الى «موجود بالذات» و«موجود بالغير» ، ونعنى بالثانى مايستمد فى وجوده من خارج ذاته ، اى يوجده غيره . وكل «ما بالغير» لابد ان ينتهى الى «ما بالذات» لامحالة ، وهو منتهى سلسلة الموجودات . ومن ثم فالبارىء تعالى هو مبدأ هذه السلسلة ، فهو «موجود بالذات» لم يستمد فى وجوده من خارج ذاته ، والالم تنته السلسلة . ويطلق عليه تعالى ←

لم تكن ممايدركها امثال ابى هريرة ذلك العهد .

وقال ابوبكر: أىارض تقلنى وأى سماء تظلنى اذاقلت فى كلام الله مالااعلم.

وسئل عبيدة السلمانى عن شىء من تفسير القرآن ، فقال : اتق الله وعليك بالسداد[1].

وجاءرجل الى مالك بن انس ـ امام المالكية ـ فقال : ياابا عبدالله ،«الرحمان على العرش استوى» كيف استوى؟فوجدمالك من مقالته،وعلته الرحضاء،واطرق برأسه. وبعدان سرى عنه قال : الكيف غيرمعقول ، والاستواء منه غير مجهول ،والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . وانى لأخاف ان تكون ضالا ، ثم أمر بالرجل فأخرج من المسجد[2] .

وفى رواية :وزاد : من عاد الى هذا السؤال عنه اضرب عنقه .

وسئل الاوزاعى عن تفسير هذه الآية ، فقال :الرحمان على العرش استوى، كما قال عزوجل ، وانى لاراك ضالا .

وسئل ابن راهويه عن الاستواء : أقائم هوام قاعد ؟ فقال : لايمل عن القيام حتى يقعد ، ولايمل عن القعود حتى يقوم ، وانت الى غير هذا السؤال احوج[3] .

تلك كانت طريقة السلف ممن كانت تعوزهم كفاءة التجوال فى ميادين البحوث النظرية العريقة ،وبذلك سموا: «الصفاتية» اى الذين اخذوا بظواهر الصفات وان لم يدركوا حقائقها.وتشعبت منهم «المشبهة» الذين اخذوا من ظاهر الصفات دليلا على

←«واجب الوجود» ، كمايطلق على غيره ـ من سائر الموجودات جميعاً ـ : «ممكن الوجود». فوجوده تعالى وجود كامل غنى بذاته لذاته، وغيره محتاج فقير، ومستمد منه تعالى وتقدس .

١ـ نفس المصدر السابق ص٥

٢ـ نفس المصدر ص٢٧. يقال : وجد على كذا اى غضب .والرحضاء ـ بضم الراء وفتح الحاء ـ عرق الحمى يتصبب من جبين المحموم .

٣ـ البرهان للزركشى ج١ ص٧٨

اثبات مفاهيمها المعهودة عندهم لذاته تعالى ،تشبيها بغيره من المخلوقين . ومنهم: «الكرامية» اصحاب ابى عبدالله محمدبن كرام [1] كانوا ممن يثبتون الصفات الا انهم انتهوا فيها الى التجسيم والتشبيه. اما «الاشعرية» فكانت امتداداً للصفاتية على ماسنذكر. واما «المعتزلة» فكانوا انتفاضة فى وجه السلف الصفاتيين ، على يد واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد تلميذى الحسن البصرى، جرى بين واصل واستاذه نقاش فى مسألة مرتكب الكبائر هل هو مؤمن ام هو خارج عن الايمان ، فقال واصل : لامؤمن ولا كافر ، والتزم بالمنزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن ، فاعتزله واصل الى ناحية المسجد ،وانضم اليه عمرو.

الصفاتية

كان اكثرية السلف يثبتون لله صفات ازلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجود والانعام والجلال والاكرام، ولايفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً. كما كانوا يثبتون مثل اليد والرجل والوجه والعين والنزول والصعود والرؤية، ويسمونها «صفات خبرية» اى انها صفات وردت فى الشريعة وجاء بها الخبر الصحيح . كانوا يعترفون بها وان لم يدركوا من حقيقتها شيئاً، وكانوا لايشبهون ذاته المقدسة بصفات المخلوقين اذليس كمثله شىء ، ولاكانوا يؤولونها . قالوا : عـرفنا بمقتضى العقل ان الله تعالى ليس كمثله شىء ، فلايشبه شيئاً من المخلوقات ، ولايشبهه شىء منها ،وقطعنا بذلك ، الا انا لانعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، مثل قوله تعالى : « الرحمان على العرش استوى ـطه : ٥» . ومثل قوله : « خلقت بيدى ـص : ٧٥» . ومثل قوله :

١ـ سنعقد فى آخر الكتاب فصلا عن ترجمة من يأتى ذكره فى هذا الحقل من اصحاب الاراء الكلامية واضرابهم ، فلانشوش على القارىء ذهنه بمراجعة عدة تراجم ربما فى ذيل صفحة واحدة !

«وجاء ربك ـ الفجر :٢٢» .الى غير ذلك . قالوا : ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها . بل التكليف قدورد بالاعتقاد بانه لاشريك له وليس كمثله شيء، وذلك قدائبتناه يقيناً [١] .

من هؤلاء : مالك بن انس ، واحمد بن حنبل ، وسفيان بن سعيد الثورى ، وداودبن على الاصفهانى ، ومحمدبن ادريس الشافعى ، وشريك بن عبدالله ، وابن ابى ليلى ،ومقاتل بن سليمان ،ومن تابعهم من اصحاب الحديث ، وسموا «الحشوية» ايضاًلانهم كانوا يحشون ملاء كتبهم بماعثروا عليه من احاديث غثة وسمينة ولامبالاة [٢] .

حتى انتهى الزمان الى عبدالله بن سعيد الكلابى وابى العباس القلانسى والحارث ابن اسد المحاسبى . وهؤلاء كانوا من جملة السلف ، الا أنهم باشروا علم الكلام ، وايدوا عقائد السلف بحجج كلامية ، وبراهين اصولية . وصنف بعضهم ودرس بعض ، حتى جرى بين ابى الحسن الأشعرى وبين استاذه ابى على الجبائى مناظرة فى مسألة «الصلاح والاصلح [٣]» فتخاصما،وانحاز الأشعرى الى هذه الطائفة (الصفاتية من السلف) فأيد مقالتهم بمناهج كلامية ، وصارذلك مذهباً لاهل السنة والجماعة وانتقلت سمة «الصفاتية» الى «الاشعرية» [٤] .

١ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٩٢

٢ـ راجع: الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٩٣ و١٠٤ . والمقالات والفرق لسعد ابن عبدالله الاشعرى ص٦.

٣ـ تقول المعتزلة :ان الله لايفعل الامافيه مصلحة، ولايكلف الابما فيه مصلحة ،ولايختار الاماهو الاصلح ،وذلك بمقتضى حكمته تعالى ، وانكرت الاشاعرة ذلك ، قالوا : ان الله يفعل مايشاء ويختار مايريد .

٤ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٩٣

الحشوية

قال ابن المرتضى : «والحشوية لامذهب لهم منفرد ، واجمعوا على الجبر والتشبيه، وجسموا وصوروا وقالوا بالاعضاء والجوارح للرب تعالى ، وقالوا بقدم القرآن . قال الحاكم : ومنهم احمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وداود بن محمد الكرابيسى. ومن متأخريهم: محمد بن اسحاق بن خزيمة صنف كتاباً فى اعضاء الرب تعالى عن ذلك [1]» .

وقال الجرجانى : «وسميت الحشوية حشوية لانهم يحشون الاحاديث التى لاأصل لها فى الاحاديث المروية عن رسول الله ﷺ ،قال :وجميع الحشوية يقولون بالجبر والتشبيه ، وتوصيفه تعالى بالنفس واليد والسمع والبصر . وقالوا : ان كل حديث يأتى به الثقة من العلماء فهو حجة اياً كانت الواسطة» [2] .

وهذا الاسم يطلق ـ كما قدمنا ـ على جماعة السلفيين ، ممن أخذوا بظواهر الفاظ الشريعة ، فلزمهم القول بالجبر والتشبيه واثبات الجوارح والاعضاء لله ،مما هو لازم الجسمية ، تعالى الله عن ذلك . وتمسكوا فى ذلك بظواهر آيات وروايات رووها عن السلف، حسبما يبدو لك فيما نناقش الاشعرى ومن حذا حذوه ، فى القول بالجهة والجوارح والقول بالمعانى والاحوال الزائدة على ذاته تعالى وتقدس .

ووهم فريد وجدى فيما زعم :ان الحشوية فرقة من المعتزلة تمسكوا بظواهر القرآن ووقعوا فى التجسيم ، قال : وهم منسوبون الى الحشو اى رذال الناس [3].

ولعله يقصد بهم اصحاب الحديث من اصحاب الاشعرى، كانوا على مذهب الاعتزال، فانحازوا الى الانتصار لمذهب السلف الصفاتيين. وقد ذكر «الصفدى» :«ان الغالب فى

١ـ الملل والنحل لابن المرتضى اليمنى ص ١١ ـ ١٢

٢ـ التعريفات للجرجانى ص ٣٤١ والحور العين ص ٢٠٤ . ومعرفة المذاهب ص ١٥ .

٣ـ دائرة معارف القرن العشرين ج ٣ ص ٤٤٧ :مادة «حشو» .

الحنفية معتزلة ، والغالب فى الشافعية اشاعرة، والغالب فى المالكية قدرية (لعله يعنى جبرية) والغالب فى الحنابلة حشوية» [1] .

الاشعرية

اصحاب ابى الحسن على بن اسماعيل الاشعرى [2] نسبة الى جده الثامن عبدالله ابن قيس ابى موسى الاشعرى [3] صاحب عمرو بن العاص فى قضية التحكيم. كان ابو الحسن فى بدء امره معتزلياً ، وكان يتتلمذ على امام المعتزلة فى عصره ابى على محمد بن عبدالوهاب الجبائى [4] فخالفه فى مناظرة وقعت بينه وبين استاذه [5].

وفى نهاية المناظرة قال الجبائى للاشعرى : انك مجنون ، فقال لا، بل وقف حمار الشيخ فى العقبة .فرجع الاشعرى عن عقيدة الاعتزال [6] وقام فى نصرة «الصفاتية»

١ــ الغيث المنسجم للصفدى ج٢ ص٤٧ . وراجع : ضحى الاسلام لاحمد امين ج ٣ ص٧١ .ومن اشهر كتبهم كتاب التوحيد والصفات لابن خزيمة ،طبع ١٣٨٧هـ

٢ــ توفى سنة ٣٢٤ هـ.ومن اشهر كتبه «مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين» و«الابانة عن اصول الدين» .

٣ــ هلك سنة ٤٤ ،كان فى وقعة الجمل والياً على الكوفة ،امره امير المؤمنين ــع ــ عليها. فارسل امير المؤمنين يدعو اهل الكوفة لينصروه ، لكن ابا موسى الاشعرى أمرهم بالقعود فعزله امير المؤمنين ،وكان منعزلا حتى ايام التحكيم بصفين فخدعه عمرو بن العاص . فارتد ابو موسى الى الكوفة ومات بها .

٤ــ توفى سنة ٣٠٣ هـ .له فى مذهب الاعتزال مقالات مشهورة .

٥ــ المناظرة نقلها ابن خلكان فى ترجمة الجبائى برقم : ٦٠٧ ج٤ ص٢٦٧ ــ٢٦٨ .

٦ــ قال ابن الجوزى فى المنتظم ص ٧١ : «ان الاشعرى ظل على مذهب المعتزلة زمانا طويلا (اربعين سنة) ثم تركه واتى بمقالة خبط بها عقائد الناس». راجع : هامش الحضارة الاسلامية ج١ ص٣٧٨ .

وتاب من القول بالعدل وخلق القرآن ، فى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ، ورقى كرسياً ونادى باعلا صوته : من عرفنى فقدعرفنى ومن لم يعرفنى فانا اعرفه بنفسى ، انا فلان بن فلان ، كنت اقول بخلق القرآن ، وان الله لاتراه الابصار ، وان افعال الشر انا افعلها ، وانا تائب مقلع ، معتقد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم [1] .

واصبح ابو الحسن الاشعرى ـ بعد ذلك ـ شيخ اهل السنة والجماعة [2] وأخذ مذهبه ينتشر فى الناس انتشاراً بطيئاً حتى اوائل القـرن الخامس ، حيث تدخلت الحكومة تدخلا رسمياً لفض المنازعات المذهبية ، ففى عام ٤٠٨ هـ اصدر الخليفة القادر بالله العباسى كتاباً ضد المعتزلة ، فأمرهم بترك الكلام والتدريس والمناظرة فى الاعتزال ، و انذرهم ـ ان خالفوا امره ـ بحلول النـكال والعقوبة . وانتهج السلطان محمود فـى غزنة نهج الخليفة فى بغداد ، فى صلب المخالفين و نفيهم و حبسهم ، وامر بلعنـهم على المنابر . قال ابن جوزى : « و صار ذلك سنة فى الاسلام [3] ».

١ـ راجع: ابن خلكان برقم: ٤٢٩ ج٣ ص٢٨٥. وقدخص الاشعرى من كتابه «مقالات الاسلاميين» فصولا مشبعة بعرض آراء المعتزلة .

٢ـ هذه السمة وسمه بها ارباب التراجم واصحاب الحديث من الحشوية ، لاسيما ابن تيمية الحرانى فى كتابيه : المنهاج والموافقة . وتقدم عن الشهرستانى فى الملل والنحل ج١ ص٩٣ .

٣ـ المنتظم لابن جوزى ص١٦٥ ب . قلت : ولعل التنكيل بامثال هؤلاء كانت سنة قبل ذلك . فهذا عثمان بن سعيد الدارمى يبتهج بمقتل الجعد بن درهم على يد خالد بن عبدالله القسرى . قال خطب خالد بواسط يوم الاضحى (عام ١١٨) فقال : ايها الناس ، ارجعوا فضحوا تقبل الله مناومنكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليماً ، وتعالى عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . ←

و صدر فی بغـداد کتاب آخر سمی « الاعتقاد القادری » ، و ذلك فی ١٧ المحرم سنة ٤٠٩ هـ وقرىء فی الدواوین ، وکتب الفقهاء فیه: «انهذا اعتقاد المسلمین ومن خالفه فقد فسق و کفر» جاء فی الکتاب :«وهو القادر بقدرة ، والعالم بعلم ازلی غیر مستفاد ، و هو السمیع بسمع والمبصر ببصر، متکلم بکلام ، لا یوصف الا بما وصف بها نبیه ـ ص ـ ، و کل صفة وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله فهی صفة حقیقیة لامجازیة ، وان کلام الله غیر مخلوق ، تکلم به تکلیما ، فهو غیر مخلوق بکل حال ، متلواً ومحفوظاً ومکتوباً ومسموعاً ، ومن قال: انه مخلوق علی حال من الأحوال فهو کافر، حلال الدم بعد الاستتابة منه ... » [١] .

وبهذه المهزلة الحمقانیة انتهت سیطرة العقل علی اصول العقاید ، لیخلفها تقلید مبتذل اعمی ، فلم یعد لبرهان التحقیق والنظر فی اصول العقیدة الاسلامیة مجال ، واصبح الدین فی اعرق اسسه فاقداً لبرهان العقل . هکذا اطاحوا بمعالم

→ انظر : «الرد علی الجهمیة» للدارمی ص٤ . والجعد هذا کان معتزلیاً ، وهو اول من قال بخلق القرآن ، ونفی الصفات عن الذات ، وکان یقول بالقدر . نعم کانت له مخاریق فرجع عنها ، منها: انه جعل فی قارورة تراباً وماء فاستحال دوداً وهوام ، فقال : انا خلقت هذا لانی کنت سبب کونه . فبلغ ذلك الامام جعفر بن محمد الصادق ـ ع ـ فقال : فلیقل : کم هو ، وکم الذکران منه والاناث ، ان کان خلقه . ولیأمر الذی یسعی الی هذا ان یرجع الی غیره . فبلغه ذلك فرجع. لسان المیزان لابن حجر ج٢ ص١٠٥ . والکامل لابن الاثیر ج٤ ص٣٣٢ ـ بیروت. والاعلام للزرکلی ج٢ ص١١٤ والملل والنحل ج١ ص٨٦ ، والبدایة والنهایة لابن کثیر ج٩ ص٣٥٠ .

١ ـ المنتظم ص١٩٥ ب ـ ١٩٦ أ . والحضارة الاسلامیة لادم متز ج١ ص١٨١ ـ ٣٨٢ والبدایة والنهایة لابن کثیر ج١٢ ص٦ ـ ٧ . وهامش تاریخ ابن الاثیر ج٧ ص٢٩٩ ـ ٢٣٠ طبعة دار الکتاب العربی ـ بیروت .

الاسلام وشوهوا من سمعته المجيدة ، الى مظاهر شكلية جوفاء[1] .

واليك من آراء الأشعرى ما صريح لفظه :

* * *

قال ابو الحسن الاشعرى : « قولنا الذى نقول به و ديانتنا التى ندين بها : التمسك بكتاب ربنا وبسنة نبينا ـ ص ـ وماروى عن الصحابة والتابعين وائمة الحديث، وبما يقول به احمد بن محمد بن حنبل قائلون، ولما خالف قوله مخالفون...»

« وان الله مستو على عرشه ، كما قال : الرحمان على العرش استوى. وان له وجها ، كما قال : ويبقى وجه ربك . وان له يدين بلا كيف ، كما قال: خلقت بيدى . وقال : بل يداه مبسوطتان . و ان لـه عينين بلا كيف ، كما قال : تجرى باعيننا . وان لله علماً ، كما قال : انزله بعلمه . ونثبت له السمع والبصر، ولاننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية والخوارج . ونثبت ان لله قوة ، كما قال : هو اشد منهم قوة . ونقول : ان كلام الله غير مخلوق . و ان احداً لايستطيع ان يفعل شيئاً قبل ان يفعله الله . وانه لاخالق الاالله . وان اعمال العبد مخلوقة لله مقدرة، كما قال : خلقكم وماتعملون » .

« وان الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر اليهم واصلحم وهداهم . واضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات ، كما زعم اهل الزيغ والطغيان. ولو لطف بهم واصلحم لكانوا صالحين، ولوهداهم لكانوا مهتدين . وان الله يقدر ان يصلح الكافرين حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه اراد ان يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم » .

١ــ قال الدكتور احمد امين : « وفى رأيى ، لوسادت تعاليم المعتزلة الى اليوم ، لكان للمسلمين موقف آخر فى التاريخ غير موقفهم الحالى ، وقد اعجزهم التسليم ، وشلهم الجبر ، وقعد بهم التواكل » معرضاً بمذهب الاشعرى السائد على عامة المسلمين منذ العهد القادرى حتى اليوم . راجع : ضحى الاسلام ج٣ ص٧٠

« ونقول : ان كلام الله غيرمخلوق ، وان من قال بخلق القرآن فهو كافر . و ندين بأن الله تعالى يرى فى الآخره بالابصار كمـا يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون كما جاءت الروايات عن الرسول ـ ص ـ و ان الكافرين محجوبون عنه ، كما قال : كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . و ان موسى سأل ربـه الرؤية فى الدنيـا ، و ان الله تجلى للجبل فجعله دكاً ، فعلم بذلك موسى انه لا يراه فى الدنيا» .

« وندين الله عزوجل بانه يقلب القلوب بين اصبعين من اصابعه ، وانه عز وجل يضع السماوات على اصبع والارضين على اصبع ، كما جاءت الرواية عن رسول الله ـص ـ » .

« ونصدق بجميع الروايات التى يثبتها اهل النقل من النزول الى السماء الدنيا ، وان الرب عز وجل يقول : هل من سائل ، هل من مستغفر ، وسائرما نقلوه واثبتوه، خلافاً لماقال اهل الزيغ والتضليل » .

« ونقول : ان الله عز وجل يجىء يوم القيامة ، كمـا قال : وجاء ربك والملك صفاً صفاً . و ان الله يقرب من عباده كيف شاء ، كما قال : ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . و قال : ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو ادنى »[1] .

وقال : « البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، مريد بارادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر . قال : وهذه الصفات ازلية قائمة بذاته تعالى ، لا يقال : هى هو ، ولا : هى غيره ، ولا : لاهو ، ولا : لاغيره » .

قال : « وارادته تعالى واحدة قديمة ازليـة ، متعلقة بجميع المرادات من افعاله الخاصة وافعال عباده ، من حيث انها مخلوقة له ، لا من حيث انها مكتسبة

---

١ ـ نقلنا هذه النصوص بألفاظها عن كتابه : «الابانة» ط٢ حيدرآباد ص٥ ـ ٩ . وقد ذكرها بعين الفاظها ايضاً فى كتابه : «مقالات الاسلاميين» ج١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٥ عند حكاية جملة قول اصحاب الحديث واهل السنة ،فراجع.

لهم . قال : اراد الجميع ، خيرها وشرها ، ونفعها وضررها . وكما اراد و علم ، اراد من العباد ما علم ، و امر القلم حتى كتب فى اللوح المحفوظ . فذلك حكمه وقضاؤه و قدره الذى لا يتغير ولا يتبدل . وخلاف المعلوم مقدور الجنس ، محال الوقوع »[1] ،

وسنذكر استدلالاته على هذه العقائد عند ما نعرض الايات .

المشبهة

حكى الاشعرى عن محمد بن عيسى انه حكى عن مضر ، وكهمس ، واحمد الهجيمى : انهم اجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة ، وان المسلمين المخلصين يعانقونه فى الدنيا والاخرة ، اذا بلغوا فى الرياضة والاجتهاد الى حد الاخلاص والاتحاد المحض .

وحكى الكعبى عن بعضهم : انه كان يجوز الرؤية فى دار الدنيا ، وان يزوروه و يزورهم . وحكى عن داود الجواربى انه قال : « اعفونى عن الفرج واللحية واسألونى عماوراء ذلك » وقال : « ان معبوده جسم ولحم و دم ، و له جوارح واعضاء ، من يد ورجل و رأس ولسان وعينين و اذنين ، ومع ذلك جسم لا كالاجسام ، ولحم لا كاللحوم ، و دم لا كالدماء ، وكذلك سائر الصفات وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات ، ولا يشبهه شىء » . وحكى عنه انه قال : « هو اجوف من اعلاه الى صدره ، مصمت ماسوى ذلك ، وان له وفرة (الشعر المتدلى على الأذنين) سوداء ، وله شعر قطط » .

وما ورد فى التنزيل من «الاستواء» و «الوجه» و «اليدين» و « الجنب » و «المجىء» و «الاتيان» و «الفوقية» وغير ذلك ، فقد اجروها على مايفهم من ظاهرها عند الاطلاق على الاجسام .

١ــ الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص ٩٥-٩٦

وكذلك ماورد في الاخبار من الصورة وغيرها، في قوله ـص ـ « خلق الله آدم على صورته » . و قوله : « حتى يضع الجبار قدمه في النار » . وقوله : « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمان » . و قوله : «خمر طينة آدم بيده اربعين صباحاً » . وقوله : « وضع يده أو كفه على كتفي حتى وجدت برد انامله » . الى غير ذلك ، اجروها على مايتعارف في صفات الاجسام .

ورووا عن النبي ـ ص ـ « ان الله تعالى اشتكى عينيه فعادته الملائكة » . و « بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه » . و « ان العرش ليئط من تحته كأطيط الرحل الحديد» . و «انه يفضل من كل جانب اربع اصابع » .

ورووا عن النبي ـص ـ انه قال : «لقيني ربي فصافحني و كافحني ووضع يده بين كتفي حتى وجدت برد انامله » .

ومن المشبهة من مال الى مذهب الحلول الصوفي ، قالوا : يجوز ان يظهر الباري تعالى بصورة شخص ـ كما كان جبرئيل ينزل في صورة دحية الكلبي ـ وقد تمثل تعالى لمريم في صورة بشر سوى . وعليه حملوا قوله ـص ـ : « رأيت ربي في احسن صورة » .[1]

الكرامية

اصحاب محمد بن كرام ، كان من سجستان ثم خرج الى نيسابور، وادعى مخاريق زعمها ظواهر الشرع ، وكانت دعوته ذات صبغة سلفية ، فنصره السلطان محمود بن سبكتكين ، فصب البلاء على اصحاب الاعتزال والشيعة بالخصوص . قال الشهرستاني : « ونبغ رجل متنمس بالزهد [2] من سجستان ، يقال له : ابو عبدالله

١ـ الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص ١٠٥ـ١٠٦ـ١٠٨

٢ـ التنمس : التستر بالشيء

محمد بن كرام ، قليل العلم ، قد قمش [1] من كل مذهب ضغثاً ، و اثبته فى كتابه ، و روجه على اغتام [2] غرجة وغور و سواد بلاد خراسان ، فانتظم ناموسه ، وصار ذلك مذهبا » [3] .

قال : « وانما عدد ناه من « الصفاتية » لانه كان ممن يثبت الصفات، الا انه ينتهى فيها الى التجسيم والتشبيه ـ قال : وهم طوائف بلغ عددهم الى اثنتى عشرة فرقة » .

« نص ابو عبدالله محمـد بن كرام ، على ان معبوده استقر على العرش استقراراً ، وانه بجهة فوق ذاتاً ، واطلق عليه اسم «الجوهر» . وانه مماس للعرش من الصفحة العليا . وجوز الانتقال والتحول والنزول . واطلق بعضهم عليه تعالى لفظ « الجسم » ، والمقاربون منهم قالوا : نعنى بكونه جسماً انه قائم بذاته ».

« ومما اجمعت عليه طوائف الكرامية من اثبات الصفات ، قولهم : البارى تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حى بحياة ، شاء بمشيئة ، و جميع هـذه الصفات قديمة ازلية قائمة بذاته تعالى » . و ربما زادوا «السمع والبصر» كما اثبته الاشعرى. و ربما زادوا «اليدين » و «الوجه» : صفات قديمـة ، قائمة بذاته تعالى . وقالوا : «له يد لا كالايدى ، ووجه لا كالوجوه » . واثبتوا جواز رؤيته من جهة فوق دون سائر الجهات [4] .

١ـ اى أخذ من كل مذهب رذالته

٢ـ اى الهمج الرعاع

٣ـ يقال : ان اتباعه فى خراسان وحدها بلغوا اكثر من عشرين الفاً ، وكان له مثل ذلك فى ارض فلسطين ، راجع : الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٣١ و١٠٨ .

٤ـ الملل والنحل ج١ ص ١٠٨ـ١٠٩ـ١١٢

الجبرية

هم القائلون بعدم قدرة العباد على فعل ما يريدون وترك ما يكرهون، الا ان يشاء الله ذلك «هو خالق كل شيء» ويضيفون القدرة على احداث افعال العباد ،الى الله سبحانه فكل عمل خير اوشر اذا فعله العبد فانما هو من فعله تعالى حقيقة ، وان العبد تجاه مايفعله اويتركه مسلوب الاختيار ،كآلة في يد الفاعل الحقيقي، وهو الله ، قال تعالى: «خلقكم وماتعملون» .

والجبرية صنفان : جبرية صريحة ، وهي التي لاتثبت للعبد قدرة على عمل اطلاقاً ، فتحريك اليد للاخذ والاعطاء، وحركتها الارتعاشية عندهم سواء .ونسب هذا الرأي الى «الجهم بن صفوان» ، قال : «الانسان لايقدر على شيء ،ولايوصف بالاستطاعة .وانما هو مجبور في افعاله، لاقدرة له ولااردة ولااختيار، وانما يخلق الله تعالى الافعال فيه على حسب مايخلق في سائر الجمادات ، وانما تنسب اليه الافعال مجازاً كما تنسب الى الجمادات، فيقال :اثمرت الشجرة، وطلعت الشمس ،وتغيمت السماء ، واهتزت الارض .قال: والثواب والعقاب ـ ايضاً ـ جبر «لايسأل عمايفعل» كما ان التكليف كان جبراً ، فالمؤمن انما يؤمن لاعن اختياره، والكافر انما يكفر لاعن اختياره. قال تعالى :« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس [1] » . ونحن نشك في هذه النسبة التي جاءت من قبل خصوم كانوا لايتورعون الكذب والافتراء في سبيل تفريق شمل المسلمين .

الثانية : جبرية ملتوية ، وهي التي اثبتت لقدرة العبد اثراً ما في الفعل على جهة الكسب لاالايجاد، لان الموجد لافعال العباد كلها هو الله تعالى، فقالوا : العبد مكتسب لفعله ، وليس بقادر على ايجاده ، وهذا القول منسوب الى « النجارية » اصحاب «الحسين بن محمد النجار» المعتزلي .نسب اليه انه قال : «الله خالق اعمال

١ـ الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٨٦ ـ٨٧.والفرق بين الفرق لابن طاهر ص١٢٨

العباد ، خيرها وشرها ، حسنها وقبيحها ، والعبد مكتسب لها» . قال الشهرستانى : «اثبت النجار للقدرة الحادثة ـ اى قدرة العبد ، تجاه قدرة الله القديمة ـ تأثيراً . وسمى ذلك كسباً، على حسب مايثبته الاشعرى [1]» .

وهذا هو مذهب الاشعرى بالذات ، اثبت للعبد اكتساباً تجاه من اثبت له الاختيار والقدرة المستقلة. ولم يفصح عن مذهبه هذا مايكون حداً فاصلا بين الجبر والاختيار، ومن ثم حار اتباعه فى تفسير «الكسب» بوجه مقنع . وقد وجه القاضى عبد الجبار سؤاله الى القائلين بالكسب : « عقلونا معنى الكسب وخبرونا عنه . فان اشتغلوا بالتحديد ، قلنا : الشىء يعقل اولا ثم يحد . ثم يقال لهم : وماهو الذى حددتم به الكسب ؟فان قالوا : ماوقع بقدرة محدثة ، قلنا : ماتعنون بقولكم : ماوقع بقدرة محدثة ؟فان ارد تم به ماحدث ، فهو الذى نقوله ، وان اردتم به ماوقع كسباً ، فعن الكسب سألناكم ، فكيف تفسرونه بنفسه ، وهل هذا الا احالة بالمجهول على المجهول؟ » [2] .

قال سعد الدين مسعود بن عمر التفتازانى ـ بصدد توضيح الكسب ـ: «فان قيل: لامعنى لكون العبد فاعلا بالاختيار ، الا كونه موجداً لأفعاله بالقصد والارادة ، وقد سبق ان الله تعالى مستقل بخلق الافعال وايجادها .ومعلوم ان المقدور الواحد لايدخل تحت قدرتين مستقلتين . قلنا : لاكلام فى قوة هذا الكلام ومتانته ، الا انه لماثبت بالبرهان ان الخالق هو الله تعالى ، وبالضرورة ان لقدرة العبد وارادته مدخلا فى بعض الأفعال كحركة البطش ،دون البعض كحركة الارتعاش ،احتجنا فى التفصى عن هذا المضيق الى القول بأن الله خالق ، والعبد كاسب . وتحقيقه : ان صرف العبد قدرته وارادته الى الفعل كسب ،وايجاد الله تعالى الفعل عقيب ذلك خلق ،والمقدور الواحد داخل تحت قدرتين ،لكن بجهتين مختلفتين، فالفعل مقدور الله تعالى بجهة

١ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٨٩

٢ـ شرح الاصول الخمسة للقاضى ص٣٦٦ ـ٣٦٧

الايجاد ، ومقدور العبد بجهة الكسب ، وهذا القدر من المعنى ضرورى ، وان لم نقدر على ازيد من ذلك فى تلخيص العبارة المفصحة عن تحقيق كون فعل العبد بخلق الله وايجاده ، مع ماللعبد فيه من القدرة والاختيار [1] ».

انظر الى هذا التلوى فى التخريج ، فى حين ان مذهبهم فى الاستطاعة صراحة فى الجبر ، وان الله تعالى مستقل فى ارادته فى ايجاد افعال العباد ، ولم يبينوا ماذا كان الله مستقلا فى ايجاد افعال العباد ، فما موضع تأثير قدرة العبد وارادته الخاصة؟ هذا شىء اعجزهم عن الاجابة الوافية ، وجعلهم فى مأزق مظلم لايدرون اين وجه المخرج .

واليك من عبارات « الاشعرى » الصريحة فى الجبر وسلب قدرة العبد على الاختيار .

قال : «وان الاشياء تكون بمشيئة الله عزوجل ، وان احداً لايستطيع ان يفعل شيئاً قبل ان يفعله الله ، ولايستغنى عن الله ، ولايقدر على الخروج من علم الله عزوجل ، وان لاخالق الا الله ، وان اعمال العباد مخلوقة لله مقدرة ، كما قال تعالى : « خلقكم وماتعملون» .

قال: «وان الله وفق المؤمنين لطاعته ولطف بهم ونظر اليهم وأصلحهم وهداهم واضل الكافرين ولم يهدهم ولم يلطف بهم بالآيات ـ كما زعم اهل الزيغ والطغيان ـ ولو لطف بهم واصلحهم لكانوا صالحين ، ولو هداهم لكانوا مهتدين . وان الله يقدر ان يصلح الكافرين ويلطف بهم حتى يكونوا مؤمنين ، ولكنه اراد ان يكونوا كافرين كما علم ، وخذلهم وطبع على قلوبهم» [2] .

وقال ـ فى المقالات ـ : «وقالوا ـ اى اهل السنة ـ : انه لايكون فى الارض من

١ـ شرح العقائد النسفية للتفتازانى ص٦٥ ـ٦٦ طبعة كابل ـ افغانستان .

٢ـ الابانة ص٦ـ٧

خير اوشر الاماشاءالله. وان الاشياء تكون بمشيئة الله ، كماقال عزوجل :وماتشاؤون الاان يشاءالله . وكما قال المسلمون : ماشاءالله كان ، ومالايشاء لايكون . وقالوا: ان احداً لايستطيع ان يفعل شيئاً قبل ان يفعله ـ اى الله ـ اويكون احد يقدر ان يخرج عن علم الله ، اوان يفعل شيئاً علم الله انه لايفعله» .

الى ان يقول : «ولكنه اراد ان يكونوا ـ اى الكافرون ـ كافرين كما علم ، وخذلهم واضلهم وطبع على قلوبهم»[1]

* * *

تلك مقالة الاشعرى الصريحة فى الجبر ، يرى من علمه تعالى بوقوع الاشياء سببا حتمياً للوقوع، ويكون العبد مرغما فى فعل ماعلم الله انه يفعله. وزاد :ان العبد لاقدرة له على فعل، الااذا كان الله قد اراد ذلك الفعل، فالعبد فى افعاله تابع لارادة الله ومشيئته الخاصة ، وماتشاؤون الاان يشاءالله .

وهكذا زعم ان الكافر مجبر على الكفر ، لايستطيع الاقلاع عنه ، قال ـ فى مسألة «الاستطاعة» ـ : « ويقال لهم ـ اى للقدرية ، ويريد بهم المعتزلة ـ : أليست استطاعة الايمان نعمة من الله وفضلا واحساناً ؟فاذا قالوا :نعم، قيل لهم : فماانكرتم ان يكون توفيقا وتسديداً ،فلابد من الاجابة الى ذلك ، يقال لهم : فاذا كان الكافرون قادرين على الايمان ، فما انكرتم ان يكونوا موفقين للايمان ، ولو كانوا موفقين مسددين لكانوا ممدوحين ، واذالم يجز ذلك لم يجز ان يكونوا على الايمان قادرين ووجب ان يكون الله ـ عزوجل ـ اختص بالقدرة على الايمان المؤمنين» .

وقال ـ فى نهاية المسألة ـ: «وان سألوا عن قول الله عزوجل «وماخلقت الجن والانس الاليعبدون» . فالجواب عن ذلك : ان الله عزوجل انما عنى المؤمنين ،دون الكافرين ، لانه اخبر انه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه ،فالذين خلقهم لجهنم واحصاهم

١ـ مقالات الاسلاميين ج١ ص٣٢٠ ـ ٣٢١ .

وعدهم ، وكتب باسمائهم واسماء آبائهم وامهاتهم ، غير الذين خلقهم لعبادته»[1]

وبمثل ذلك قال فى مسألة «الهداية والضلال» وغيرها من مسائل تكشف عن جزمه بمسألة الجبر فى التكليف والايمان والكفر ، وسلب قدرة العباد عما قدر الله لهم فى الأزل ، ثم يذكر روايات فى القدر يعتمدها فى تشييد مذهبه فى نفى الاستطاعة[2] .

* * *

وقد زعم بعضهم ان عويصة « مسألة الكسب » لا يمكن حلها الا بالكشف الصوفى، اما فى ضوء برهان العقل فانها تبقى غامضة ابداً .

قال الشعرانى : اعلم يا أخى ان هذه المسألة من ادق مسائل الاصول واغمضها ، ولا يزيل اشكالها الا الكشف الصوفى ، اما ارباب العقول من الفرق فهم تائهون فى ادراكها، وآراؤهم فيها مضطربة . اذ كان ابو الحسن الاشعرى يقول: ليس للقدرة الحادثة (يعنى قدرة العبد) أثر ، وانما تعلقها بالمقدور مثل تعلق العلم بالمعلوم فى عدم التأثير.

وقد اعترض عليه بأن القدرة الحادثة اذا لم يكن لها اثر فوجودها وعدمها سواء ـ فان قدرة لايقع بها المقدور بمثابة العجز . ولقوة هذا الاعتراض لجأ بعض اصحاب الاشعرى الى القول بالجبر ، ومال آخرون الى ان لها تأثيراً ما ، وهو اختيار الباقلانى ، لكنه لما سئل عن كيفية هذا التأثير ، فى حين التزامه باستقلال القدرة القديمة فى خلق الافعال ، لم يحر جواباً ، وقال : انا نلتزم بالكسب لانه ثابت بالدليل ، غير انى لا يمكننى الافصاح عنه بعبارة . وتمثل الشيخ ابو طاهر بقول الشاعر :

اذا لم يكن الا الأسنة مركباً فلا رأى للمضطر الا ركوبها

١ـ الابانة ص٥٧ ـ٥٩ . وراجع ص٦٢ و٦٥ و٦٧ فما بعد .

٢ـ المصدر ص٧٠ ـ٧٤

قال الشعرانى : وملخص الامر : ان من زعم ان لا عمل للعبد فقد عاند ، ومن زعم انه مستبد بالعمل فقد اشرك ، فلابد انه مضطر على الاختيار .

اما الكشف الصوفى فقد جاء فى كلام الشيخ محيى الدين ابن العربى - فى الفتوحات المكية باب ٢٢ - : ان صورة مسألة خلق الافعال صورة «لا» من حروف الهجاء ، فان الرائى لا يدرى اى الفخذين هو اللام حتى يكون الآخر هو الألف ، ومن ثم يسمى هذا الحرف حرف الالتباس . وهكذا لم يتخلص الفعل الظاهر على يد المخلوق لمن هو ؟ ولكن ان قلت : هو لله ، صدقت . وان قلت للمخلوق مع الله ، صدقت . ولو لا ذلك لما صح التكليف ولا اضافة العمل اليه بنحو قوله : « اعملوا » .

وقال - فى باب ٤٢٢ - : انما اضاف تعالى الاعمال الينا ، لاننا محل الثواب والعقاب ، وهى لله حقيقة . ولكن لما شهدنا الاعمال بارزة على ايدينا وادعيناها لنا ، اضافها تعالى الينا بحسب دعوانا ، ابتلاء منه لأجل الدعوى . ثم اذا كشف الله تعالى عن بصيرتنا ، رأينا الافعال كلها لله تعالى ، ولم نر الاحسناً ، فهو تعالى فاعل فينا ما نحن العاملون . ثم مع هذا المشهد العظيم لابد من القيام بالأدب ، فما كان من حسن - شرعاً - اضفناه اليه تعالى خلقاً ، والينا محلا . وما كان من سيىء اضفناه الينا باضافة الله تعالى ، فنكون حاكين قول الله عزوجل ، وحينئذ يرينا الله وجه الحكمة فى ذلك المسمى سواءاً فنراه حسناً من حيث الحكمة ، فيبدل الله سيئاتنا حسنات ، تبديل حكم لا تبديل عين .[١]

قلت : لا محيص عن رجوع مسألة الكسب - بهذا التفسير - الى الجبر الخالص ، وليس الا فراراً من المطر الى الميزاب .

---

١ - اليواقيت والجواهر فى بيان عقائد الاكابر ، للعارف الشيخ عبدالوهاب الشعرانى ج١ ص ١٣٩-١٤١ ، المبحث ٢٤ .

القدرية

هذا الاسم اطلقته المعتزلة على الا شاعرة ، باعتبار قولها بالقدر ، وان الله تعالى هو الـذى قدر الشر والكفر ، وان افعال العبـاد خارجة عن استطاعتهم فى الاختيار ، بل هى مقدرة بقدر الله و قضائه فى علمه الازلى القديم ، حسبماتقدم فى كلام الاشعرى .

وحاول الاشعرى رد هذا الاسم على المعتزلة ، بحجة قولهم بقدرة العبد على فعله واستطاعته فيما يختـار . قال : « و زعمت القدرية ـ يريد بهم اصحاب الاعتزال ـ انا نستحق اسم القدر ، لانا نقول : ان الله عزوجل قدر الشر والكفر ، فمن يثبت القدر كان قدرياً ، دون من لم يثبتـه . يقال لهم : القدرى هو من يثبت القدر لنفسه ، دون ربه عزوجل ، وانه يقدر افعاله دون خالقه . و كذلك هـو فى اللغة ، لان الصائغ هو من زعم انه يصوغ ، دون من يقول : انه يصاغ له . فلما كنتم ـ خطاب الى المعتزلة ـ تزعمون انكم تقدرون اعمالكم و تفعلونهـا دون ربكم ، وجب ان تكونوا قدرية ، ولم نكن نحن قدرية ، لا نالم نضف الاعمال الى انفسنا دون ربنا ، ولم نقل : انا نقدرها دونه ، وقلنا : انهاتقدرلنا » .[1]

قال ابو الفتح محمد بن على الكراجكى : «لم نجد فى اسماء الفرق ماينكره اصحابه ويتبرأ منه اهله ، سوى القدرية . فاهل العدل ـ يعنى بهم فرقة الاعتزال ـ يقولون لاهل الجبر ـ يعنى بهم الاشاعرة ـ : انتم القدرية ، واهل الجبر يقولون لاهل العدل : انتم القدرية . وانما تبرأ الجميع من ذلك ، لانهم رووا ـ من طريق ابى هريرة ـ عن النبى ـ ص ـ انه لعن القدرية ، و قال : انهم مجوس هذه الامة ، ان مرضوا فلاتعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم »[2].

١ـ الابانة ص ٦١

٢ـ كنز الفوائد للكراجكى ص ٤٩

قلت : اما الحديث فمفتعل بلا ريب . قال ابو حاتم : « وهذا الحديث باطل». وقال النسائي : « هذا الحديث باطل كذب » . ويذكر ابن الجوزي حديث لعن القدرية ، ثم يعقب : «هذا حديث لاشك في وضعه »[1].

اما استدلال الاشعري فـلا يعدو مغالطة مفضوحة ، اذ « القدرية » نسبة الى القول بالقـدر ـ بفتحتين ـ كالجبرية نسبة الى القول بالجبر ، و ليس اشتقاقاً من القدرة بمعنى الاستطاعة . هـذا فضلا عن ان القياس بالصائغ ، قياس مع الفارق بعد ان كانت الكلمـة المبحوث عنها « قدرية » ـ بياء نسبة ـ لا « قادر » اسم فاعل .

وعليه فلو صح الحديث ـ ولم يصح ـ كان انطباقه على مذهب الاشعري ، القائل بالقدر ، و سلب قدرة العباد، اولى من انطباقه على مذهب الاعتزال ، القائل باستقلال العباد في اختياراتهم للافعال . فالقدرية ـ على ذلك ـ هم الجبرية من غير فرق .

* * *

واذ قد تبينا المذاهب التي عملت في تشويه مفاهيم الاسلام ، و كانت السبب الاول في طروء التشابه على كثير من اوجه آي القرآن الحكيم ، يجدر بنا التعرض لمذهب الاعتزال ـ ايضاً ـ الذي انتهج ـ الى حدما ـ منهج العقل و تحكيم الفطرة في درس القضايا الاسلامية ، اما المـذهب الذي لم يخطىء منهج القرآن و برهان العقـل الرشيد في جميع قضاياه ، فهو مذهب « الامامية » الذي سار في ضوء

١ـ راجع : الموضوعات لابن الجوزي ج١ ص ٢٧٥ـ٢٧٦ . وجاء في مسند احمد و غيره ما يناقض الحديث المذكور . فقد روى ابن عمر عن النبي ـص ـ انه قال : «لكل امة مجوس ، ومجوس امتي الذين يقولون : لا قدر . ان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم » . المسند ج ٢ ص ٨٦

تعاليم الرسول ـ ص ـ مباشرة ، والخلفاء من أهل بيته الأطهار ، فلنتعرض لهما باختصار : ـ

المعتزلة

قلنا : ان «الاعتزال» كان انتفاضة فى وجه « الصفاتية » ، تنزيهاً لساحة قدسه تعالى عما وصفه الجاهلون ، وتحكيماً لبرهان العقل الرشيد فى معرفة شؤون المبدع تعالى ، حيث العقل كان هو الاساس لمعرفة القديم تعالى وعدله وحكمته وسائر صفاته الازلية ، فلا يجوز الاستدلال بالسمع ، فى هكذا مسائل ، على خلاف ما يستدعيه حكم العقل [1] .

ونحن نورد اصول معتقداتهم حسب ما تبينه ألد خصومهم «ابو الحسن الاشعرى» [2] فقد كان معتزلياً قضى اكثر عمره (اربعين سنة) فى الاعتزال ، وعرف من اصول معتقداتهم الشىء الوافى ، مع مراجعتنا لكتبهم ايضاً .

قال : اجمعت المعتزلة على «ان الله واحد ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وليس بجسم ، ولا شبح ، ولا جثة ، ولا صورة ولا لحم ولا دم ، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ، ولا بذى لون ولا طعم ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض ، ولا بذى ابعاض واجزاء وجوارح واعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال وامام وخلف وفوق وتحت ، ولا يحيط به مكان ، ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ، ولا العزلة ، ولا الحلول فى الاماكن ، ولا يوصف بشىء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ، ولا ذهاب فى الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تحيط به الاقدار ،

---

١ ـ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص١٩٤ـ١٩٥ .

٢ ـ تقدم ـ ص٦٠ ـ استهتاره بمذهب الاعتزال حسبما نقله ابن خلكان ج٣ ص٢٨٥ .

ولاتحجبه الأستار ، ولاتدركه الحواس ، ولايقاس بالناس ، ولايشبه الخلق بوجه من الوجوه ، ولاتجرى عليه الآفات ، ولاتحل به العاهات ، وكل ماخطر بالبال ، وقصور بالوهم فغير مشبهله ، لم يزل اولا ، سابقاً ، متقدماً للمحدثات موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل عالماً قادراً حياً ،ولايزال كذلك . لاتراه العيون ، ولاتدركه الابصار ، ولاتحيط به الأوهام ، ولايسمع بالاسماع . شيء لاكالاشياء ، عالم قادر حي لاكالعلماء القادرين الاحياء . وانه القديم وحده ، ولاقديم غيره ، ولاالهسواه ولاشريك له فى ملكه ، ولاوزير له فى سلطانه ، ولامعين على انشاء ماانشأ وخلق ماخلق ،لم يخلق الخلق على مثال سبق ،وليس خلق شيء بأهون عليه من خلق شيء آخر ، ولابأصعب عليه منه ، لايجوز عليه اجترار المنافع ، ولاتلحقه المضار ، ولايناله السرور واللذات ، ولايصل اليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ، ولايجوز عليه الفناء ، ولايلحقه العجز والنقص . تقدس عن ملامسة النساء ، وعن اتخاذ الصاحبة والابناء» . قال : فهذه جملة قولهم فى التوحيد [1] .

وعقد القاضى فصولا فى انه تعالى عالم لابعلم ، قادر لابقدرة ، حى لابحياة ، اى انه تعالى اذا وصف بانه عالم ، لايقصد من ذلك ان ذاته المقدسة قداضيف عليها هذه الصفات فصارت كذلك ، اذذلك يستدعى احد امور وكلها باطلة ، اما انها ايضاً قديمة مقرونة بذاته المقدسة ،فيلزم تعدد القديم تعالى .اوانها حدثت على ذاته المقدسة ، فيلزم ان يكون ذاته المقدسة محلا للحوادث ، كمايلزم خلوه تعالى عن هذه الصفات قبل عروضها ، وهوايضاً باطل [2] .

وقد اصطلحت الاشاعرة على تسمية مبادىء صفات الذات بالمعانى ومبادىء صفات الفعل بالاحوال .فانكرت المعتزلة اقتران ذاته المقدسة لابالمعانى ولابالاحوال،

١ــ «مقالات الاسلاميين» لابى الحسن الاشعرى ج١ ص٢١٦-٢١٧ .

٢ــ راجع : «شرح الاصول الخمسة» من ص١٨٢ فمابعد .

فقالوا :عالم لابعلم كما قالوا :متكلم لابكلام .وهذا معنى نفى الصفات عند المعتزلة، وقد اثبتها الاشاعرة . فقالوا : عالم بعلم ، متكلم بكلام ، حسبما تقدم .

فتوصيفه تعالى بأنه عالم ـ عند المعتزلة ـ يعنى : انه لايجهل ، ولايحتجب عنه شيء . وتوصيفه بانه قادر ، يعنى : انـه لايعجز ، ولايعجزه شيء . لان صفة العلم اوصفة القدرة قـائمة بذاته ، كما فى المخلوقين . ومن ثم قسالوا : « خذ الغايات واترك المبادى » . فـان الغاية من العلم هوالانكشاف ورفع الحجاب عن المعلوم . وهذا شيء يقولونه بشأنه تعالى ، امانه متصف بمبادىء هذه النعوت فلا . ففى صفات الذات قالوا: انه تعالى عالم لابعلم بل بنفسه ،قادر لابقدرة بل بنفسه ، وفى صفات الفعل قالوا : متكلم لابكلام بل بخلقه الكلام ،ومن ثم قالوا :ان كلام الله مخلوق .

و زعمت الاشعرية ان ذاته المقدسة متصفة بمبادىء هـذه النعوت ، كما فى المخلوقين ، لكن لا على نحو اتصا فهم بها ، فخبطوا وخلطوا ، ولم يحققوا من واقع مذهبهم فـى ذلك : ماذا ارادوا ؟ قال القاضى : « ثم نبغ الاشعرى ، و اطلق القول بانه تعالى يستحق هذه الصفات لمعان قديمة ، لوقاحته وقلة مبالاته بالاسلام والمسلمين » .[1]

واتفقت « المعتزلة » ـايضاً ـ على ان العبد قادر مختار فى افعاله ، خيرها وشرها ، وهو الذى يستحق ـ على ما يفعله ـ المدح والثواب ، أو الذم والعقاب، وان الرب تعالى منزه ان يضاف اليه شر أوظلم وفعل الكفر والمعصية. وهذه الطريقة سميت بالاستطاعة ، وسماهم الاشعرية لذلك «قدرية» .

واتفقوا على ان الرب تعالى لايفعل الا الصلاح والخير ، وانه يجب عليه تعالى ـ بمقتضى حكمته ـ رعاية مصالح العباد ، و هـو الذى يعبر عنه بقاعدة

١ـ شرح الاصول الخمسة ص ١٨٣

اللطف . و سميت هذه الطريقة بالعدل . ويعبر عن المعتزلة بالعدلية لذلك .

و من مبادىء المعتزلة تأويل ماورد فى الشرع مخالفافى ظاهره لمعتقدهم فى الأصول ، وبهذه الطريقة افترقوا عن « الصفاتيـة » من اصحاب الاشعرى ، و «الحشوية» من اصحاب الحديث ، ممن احتفظوا على ظواهر الصفات . وسنعرض نماذج من هذا الاختلاف عندمانعرض الآيات.

الامامية

قال الشيخ ابو الفتح محمدبن على الكراجكى ـ فى رسالة «البيان عن جمل اعتقاد اهل الايمان » ـ : « اعلم ان الواجب على المكلف ان يعتقد حدوث العالم باسره ، وانه لم يكن شيئاً قبل وجوده ، و ان الله هـو محدث جميعه من اجسامه و اعراضه ، الا افعال العباد الواقعة منهم ، فانهم محدثوها دونه سبحانه ، وان الله قديم وحـده لا قديم سواه ، وانه موجود لم يزل ، وباق لايزال ، و انـه شيء لا كالاشياء ، لايشبه الموجودات ، ولا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات ، وان له صفات يستحقها لنفسه ، لا لمعان غيره ، وهى كونه حياً عالماً قادراً قديماً باقياً، لا يجوز خروجه عن هذه الصفات الى ضدها ، يعلم الكائنات قبل كونها ، ولا يخفى عليه شيء منها ، وان له صفات افعال لا يصح اضافتها اليه فى الحقيقة الابعـد فعلها ، وهى ماوصف به نفسه ، من انه خالق ورازق ومعط وراحم ومالك ومتكلم ونحو ذلك . وان لـه صفات مجازيات ، و هى ما وصف به نفسه ، من انه يريد و يكره ويرضى و يغضب ، فارادته لفعل هى الفعل المراد بعينه ، و ارادته لفعل غيره هى امره بذلك الفعل ، وليس تسميتها بالارادة حقيقة ، وانما هو على المجاز . وغضبه هو وجود عقابه ، ورضاه هو وجود ثوابه » .

« وانه لا يفتقر الى مكان ، ولا يدرك بشيء من الحواس ، وانه منزه عن القبائح ، لايظلم العباد وان كان قادراً على الظلم ، لانه عالم بقبحه غنى عن فعله.

قوله صدق ، ووعده حق ، لايكلف خلقه ما لايستطاع ، ولا يحرمهم صلاحاً لهم فيه الانتفاع ، ولا يأمر بما لايريد ، ولاينهى عمايريد ، وانه خلق الخلق لمصلحتهم ، وكلفهم لأجل منازل منفعتهم ، وازاح فى التكليف عللهم ، وفعل اصلح الأشياء بهم ، وانه اقدرهم قبل التكليف ، و أوجد لهم العقل والتمييز ، وان القدرة تصلح ان يفعل بها الشيء وضده بدلامنه » .

« وان القرآن كلام رب العالمين ، وانه محدث ليس بقديم ، ويجب ان يعتقد ان جميع ما فيه من الآيات التى يتضمن ظاهرها تشبيه الله تعالى بخلقه ، وانه يجبرهم على طاعته أو معصيته ، أو يضل بعضهم عن طريق هدايته ، فان ذلك كله لايجوز حمله على ظاهره ، و ان له تأويلا يلا ئم ماتشهد به العقول ، مما قدمنامن صفاته تعالى »[1]

قال اميرالمؤمنين ـ عليه السلام ـ : « اول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده[2] ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه[3] ، لشهادة كل صفة[4] انها غير الموصوف ، و شهادة كل موصوف انه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه[5] فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن

١ـ كنز الفوائد للكراجكى ص١٠٩-١١١ .

٢ـ يعنى ـ ع ـ توحيد ذاته المقدسة عن التجزئة والتأليف .

٣ـ يعنى ـ ع ـ بنفى الصفات . نفى مباديها ، فذاته المقدسة اذاوصف بعالم ، فلايعنى هذا التوصيف ان مبدأ العلم قائم بذاته كما فى سائر المخلوقين ، فهو تعالى عالم بذاته لابعلم كما تقول الاشعرية ، حى بذاته لابحياة ، قادر بذاته لابقدرة . فهذه المبادىء من العلم والحياة والقدرة التى هى صفات زائدة على الذات ، منفية عن ذاته تعالى وتقدس .

٤ـ وهى الصفة الزائدة على الذات ، التى هى مبدأ اشتقاق الوصف .

٥ـ اى قال : انه تعالى عالم بعلم ، وحى بحياة ، وقادر بقدرة .

ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله [1] ،ومن جهله فقداشار اليه ، ومن اشار اليه فقد حده [2] ومن حده فقد عده [3] ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه ، و من قـال : علام ؟ فقد اخلى منه [4] ، كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم [5] ، مع كل شيء لابمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة [6] ، فاعل لابمعنى الحركات والآلة ، بصير اذلامنظور اليه من خلقه [7] ...» [8] .

وقال ـ عليه السلام ـ : « لا تراه العيون بمشاهدة العيـان ، و لكن تدركه القلوب بحقائق الايمـان ، قريب من الاشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مريد لا بهمة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لايوصف بالرقة ...» [9] .

و ستبدو الطريقة المثلى التى مشت عليها الامامية ، فى ضوء هـدى اهل البيت ـ عليهم السلام ـ وضوحاً اكثر ، عند مـا نعرض الآيات .و اسلوبنا فى التخرج عن

١ـ لانه زعم ان الواجب القديم مركب ، وهوجهل فاضح بذاته المقدسة المتنزهة عن التركيب المستلزم للحدوث والفناء .

٢ـ لان الاشارة تستدعى الجهة ، وهو تعالى منزه عن الحدود والجهات .

٣ـ لان القول بالجهة فى ذاته المقدسة لاينفى امكان تعدده تعالى .

٤ـ لان القول بجهة فوق يستدعى الاخلاء عن سائر الجهات .

٥ـ اشارة الى قدمته تعالى .

٦ـ لان المقارنة والمزايلة تستدعيان الجهة ، وهو تعالى منزه عنها ،فلايخلومنه مكان ولايحويه مكان .

٧ـ لان السمع والبصر عبارتان عن علمه تعالى القديم .

٨ـ هى اولى خطبةمن نهج البلاغة .

٩ـ من كلام له فى جواب من سأله : هل رأيت ربك ؟ نهج البلاغه ج١ ص٣٣٤ .

متشابهاتها .

* * *

و بعد فيجب علينا تنويع المتشابه من الآيات ، على حسب نوعية الشبهة التى وقعت فيها ارباب المذاهب السالفة ، فى فصول متمايزة ، نذكر فى كل فصل مايخصه من آيات .

نماذج من

متشابهات القرآن

صفات ذات

اجمعت الامة الاسلامية على ان لله تعالى صفات ذاتية قديمة ، كان حياً عالماً قادراً لم يزل و لايزال . انما الكلام فيما تؤديه هذه النعوت من مفاهيم ، فذهب اهل العدل والتنزيه الى ان هذه الاوصاف هى عين ذاتـه المقدسة ، لابصفة زائدة على الذات ، فهو تعالى حى بذاته ، عالم بذاته ، قادر بذاته. وينزهونه عن اقتران مبادىء هذه النعوت بذاته المقدسة ـ بان يكون حيا بحياة ، عالماً بعلم ، قادراً بقدرة، كما زعمه الاشعرى ـ لان اقتران ذاته بهذه المبادىء ـ وهى قديمة فرضاً ـ يستدعى تعدد القديم تعالى عن ذلك .

و من ثم فمعنى انـه حى : انه يدرك ويريد ويفعل . ومعنى انه عالم : ان الاشياء لديه شهود، لايحتجب عنه شيء . و معنى انه قادر : انه يفعل ما يريد ، لا يعجزه شيء ولايحول دون ارادته شيء .

و هذا التفسير التنزيهى لجميع اوصافه تعالى يتلخص فى قولهم : « خـذ الغايات ودع المبادى » . وهذا هـو مرادهم من نفى الصفات : انهم يصفونه تعالى بما وصف به نفسه ، وينزهونه عن اقتران مبادئها بذاته المقدسة .

وقال الاشعرى : انه تعالى عالم بعلم، قادر بقدرة ... الخ و تشبث بظواهر آيات ، منها :

١ـ «فاعلموا انما انزل بعلم الله ـ هود : ١٤» .

٢ـ «لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه ـ النساء : ١٦٦» .

٣ـ «وماتحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه ـ فاطر: ١١ . وفصلت: ٤٧».

٤ـ «ولا يحيطون بشيء من علمه ـ البقرة : ٢٥٥» .

٥ـ «أولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة ـ فصلت : ١٥».

٦ـ ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين ـ الذاريات: ٥٨» .

قال : وزعمت الجهمية ان الله عزوجل لاعلم له ولا قدرة ولاحياة ولاسمع ولابصر له ، وارادوا ان ينفوا ان الله عالم قادر حى سميع بصير ، فمنعهم السيف ، فأتوا بمعناه . لانهم اذاقالوا : لاعلم لله ولاقدرة له فقد قالوا : انه ليس بعالم ولاقادر وهذا انما اخذوه عن اهل الزندقة والتعطيل .

وقال ـ رداً على المعتزلة ـ :أتقولون ان الله علماً سابقاً بالاشياء ؟ فان قالوا : نعم ، فقد اثبتوا العلم ، وان قالوا : لا، قيل لهم : هذا جحد منكم لقول الله عزوجل: «انزله بعلمه» . وذكر بقية الآيات .

واستدل ـ ايضاً ـ بانا وجدنا اسم «الحى» مشتقاً من «الحياة» و«العالم» مشتقا من «العلم» و«القادر» من «القدرة» وهلم جراً. فلاتخلو اسماء الله اما مشتقة ولافادة معانيها اولمجرد التلقيب بلافادة معنى . ولاشك ان الثانى غير جائز . فثبت انها مشتقة ومفيدة لمعانيها ، اذن فمعنى عالم : انه ذوعلم . ومعنى قادر : انه ذوقدرة . ومعنى حى : انه ذوحياة . فقدوجب اثبات العلم والقدرة والحياة لله عزوجل ، كما

هو الشأن فى اثبات هذه المعانى فينا عند ذكر هذه الأوصاف لبعضنا [1] .

* * *

وقد تبين مما قدمنا فساد هذه المغالطة الاشعرية ، اذ لا يريد المعتزلة : انه تعالى لا علم له ، بل يفسرونه بما لا يستلزم زيادة صفة على ذاته المقدسة . ومن ثم فقد حار الاشعرى تجاه شبهة : «تعدد القديم» ولجأ الى قولة مبهمة ، عجز هو واصحابه عن افصاحها ، قالوا : « وهى لا هو ولا غيره » [2] واعترض عليهم بانه رفع للنقيضين ، بل هو فى الحقيقة جمع بينهما ، فأجابوا بما يزيد تيهاً فى الضلال ، وشناعة فى المقال [3] .

صفات فعل

وهكذا اجمعت الامة على انه تعالى مريد ، متكلم ، خالق ، رازق ، محى ، مميت . واصطلح اهل الكلام بتسميتها صفات فعل ، اى انها افعاله تعالى ، قد يتصف بها وقد لا يتصف ، لانه قد يفعلها وقد لا يفعلها ، فهو تعالى قد يريد شيئاً فهو مريد له ، وقد لا يريده فليس بمريد له ، وهو قبل ان يخلق خلقاً لم يكن خالقاً له ، ولما خلق صح اطلاق اسم الخالق عليه تعالى ، وهكذا .

وقد ذهب اهل العدل والتنزيه الى ان مبادىء هذه الصفات غير قائمة بذاته المقدسة ، لانها احوال وحوادث ، والله تعالى متنزه ان يكون محلا للحوادث .

وذهب الاشعرى الى ان مبادىء هذه الصفات ـ ايضاً ـ قائمة بذاته المقدسة ،

١ـ الابانة ص٤٤ ـ٤٨

٢ـ الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص٩٥ . وشرح العقائد النسفية ص٣٢

٣ـ راجع : شرح العقائد النسفية للتفتازانى ص٣٩. وراجع :ص٦٣

فهوتعالى متكلم بكلام هوقائم بذاته تعالى ، مريد بارادة ازلية قائمة بذاته . ومن ثم زعم ان كلامه تعالى قديم ، لان القائم بذات قديمة قديم .

قال اهل العدل والتنزيه :معنى انه تعالى يتكلم :انه يخلق الكلام المسموع، وهى عبارة عن اهتزازات وذبذبات تحدث فى امواج الهواء يخلقها الله تعالى عند ارادة الكلام ،واما غيره فيتكلم بآلة ،وان ذاك التموج يحصل بقرع اللسان والاسنان. قالوا : وارادته تعالى هوفعله ، كالخلق والرزق والاحياء والاماتة ونحوها . ومن ثم قالت المعتزلة : كلام الله مخلوق وقالت الاشاعرة : غير مخلوق ،فكان ذلك الجدل العنيف ، وقدذهبت فى طيه نفوس .

استدلت الاشاعرة بأنها صفات اشتقاق ، فلابد من اثبات مباديها للذات ، كما اذا وصفنا بها بعضنا . قال التفتازانى : «ضرورة امتناع اثبات المشتق للشىء من غير قيام مأخذ الاشتقاق به» [1] .

وتشبث الاشعرى بقوله تعالى : «وكلم الله موسى تكليما» ـ قال :والتكليم هو المشافهة بالكلام ، ولايجوز ان يكون كلام المتكلم حالا فى غيره ،مخلوقاً فى شىء سواه ، كما لايجوز ذلك فى العلم [2] .

وبقوله تعالى :«الا له الخلق والامر ـ الاعراف:٥٤»،دلت الآية على ان الأمر شىء غير الخلق . ثم قال تعالى :«ومن آياته ان تقوم السماء والارض بامره الروم:٢٥ـ»قال: وامر الله ـ هنا ـ هو كلامه تعالى . وبما ان الامر غير مخلوق ـ كما فى الآية الاولى ـ فوجب ان يكون كلامه الذى هو امره غير مخلوق [3] .

وبذلك اثبت قدم كلامه تعالى وقيامه بذاته المقدسة .

١ـ شرح العقائد النسفية ص٤٤ .

٢ـ الابانة ص٢٢ .

٣ـ الابانة ص١٩ .

واظننا فی غنی عن تفنید هذا الاستدلال المزیف ، بعدان کان اشبه بسفاسف الکلام .

صفات تنزیه

کان ماسبق صفات ثبوتیة ،وتسمی «صفات جمال» ، وفی قبالها صفات سلبیة، تسمی «صفات جلال» ، وهی التی تجل ذاته المقدسة عن الاتصاف بها ، واتفق اهل العدل علی تنزیهه تعالی عنها .

اما اهل التجسیم فزعموا من ذاته المقدسة جسماً متر کباً من اعضاء وجوارح، واثبتوا له الجهة والمکان والحرکة ، وامکان رؤیته بالأبصار ، ومسه بالایدی فی مصافحة ومعانقة . قالوا : انه متربع علی کرسی عرشه فوق السماوات ، وسوف ینزل الی الملاء یوم القیامة لیراه المؤمنون بعیونهم ، ویکشف عن ساقه ویضع رجله فی جهنم فتقول : یارب ، قط قط .

هذاقول اوائلهم ، وقدشنع علیهم هذا القول، فقالوا: انه جسم لا کالاجسام، وله لحم لا کاللحوم ، ودم لا کالدماء ... الخ .

وقدتقدم کلامهم عند الکلام عن المجسمة .

ولا کلام لنا معهم الآن ، وقدانقطع دابرهم ، ولم یبق منهم سوی نقل آثار. انما الکلام مع الاشعری الذی لم یبتعد عن القول بالتجسیم کثیراً ، سوی انه قال بمقالتهم فی شیء من اللف والالتواء، وصریح کلامه ـ فی الابانة والمقالات ـ هو الالتزام بالتجسیم ، اخذاً بظواهر آیات وروایات .وقدبقیت آراؤه سائدة حتی هذا العهد . لاسیما فی اوساط مرتجعة لم تنضج فکرتهم عن التوحید والنبوات ، سوی نظرات

سطحية وشكلية محضة وغالبيتهم من المتأثرين بتعاليم ابن تيمية الحراني (٦٦١-٧٢٨) [١] في دعوته السلفية حسب مصطلحه [٢]. اما اليوم فقد اشتهروا بالوهابية [٣] اتباع الشيخ محمد ابن عبدالوهاب النجدي (١١١٥-١٢٠٦) [٤].

١- له ثرثرة غريبة فيما يكتبه، راجع كلامه المسهب في اثبات رؤيته تعالى بالابصار والرد على احتجاج النفاة بقوله تعالى: «لاتدركه الابصار». وكذلك في اثبات الجهة والفوقية له تعالى. (منهاج السنة طبيروت ج٢ ص١٠٥ و٢٤١).

٢- اما المتأثرون بفكرته السلفية فيروقهم التسمية بالتيمية انتماء الى اسم صاحب الدعوة. قال ابن الموصلي مفتخراً بانتسابه لعقيدة ابن تيمية:

ان كان اثبات الصفات جميعها ... من غير كيف موجباً للوم
واصير تيمياً بذلك عندكم ... فالمسلمون جميعهم تيمي

(آخر رسالة ابن شيخ الحزاميين في عقيدة اهل السنة والجماعة، المنشورة في مجموعة «اربح البضاعة» طمكة المكرمة ص٥٥).

٣- نسبة الى والد صاحب الدعوة، وزعم الالوسي انها نسبة غير صحيحة، نسبها اليهم خصومهم، وهم منها براء (تاريخ نجد ص١١١) لكنا وجدناهم يطلقون على انفسهم هذا الاسم فخاراً بصاحب النسبة. راجع: كتاب «الهدية السنية والتحفة الوهابية النجدية» مجموعة خمس رسائل، ترتيب الشيخ سليمان النجدي. يقول في اولها: «من رسائل ائمة نجد وعلمائها في الدعوة الوهابية لتجديد الاسلام» ص٤. وراجع: ٢٧ و ٨٦ و ٩٣ يقول شاعرهم:

نعم نحن وهابية حنفية ... حنيفية نسقى لمن غاظنا المرا

٤- صاحب الحركة الوهابية في ربوع نجد، قامت على اغارة بلاد المسلمين وتكفير وقتل ونهب، باسم الاصلاح الديني السلفي، ولم تكن سوى امتداد مرير للوحشية الجاهلية الاولى نكوصاً على عقب. وقد استغلها الاستعمار الغربي - المنتهض حديثاً ذلك العهد - تمزيقاً لبلاد الاسلام وتفريقاً لكلمة المسلمين. تحقيقاً لمبدأ «فرق تسد». والحركة - شاءت ام لم تشأ - فانها خدمت الاستعمار الكافر اكبر خدمة ممكنة في الذهاب برونق الاسلام -

واليك من تشبثات ابى الحسن الاشعرى دليلا على مذهبه فـى التجسيم والتشبيه :

الرؤية :

١ـ قال ـفى قوله تعالى :«وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـالقيامة :٢٣»ـ يعنى رائية . اذليس يخلو النظر من وجوه ثلاثة ، اما نظر الاعتبار ، كما فى قوله تعالى : « افلاينظرون الى الابل كيف خلقت ـ الغاشية : ١٧ » . اونظر الانتظار ، كما فى قوله : «ماينظرون الاصيحة واحدة ـيس :٤٩» . اونظر الرؤية . اما الاول فلايجوز .لان الآخرة ليست بدار اعتبار .وكذا الثانى ، لان النظر اذا ذكر مع الوجه فمعناه نظر العينين اللتين فى الوجه . ولان نظر الانتظار لايقرن بـ «الى» ، كما فى

← المجيد بـ «ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه ـسبأ :٢٠» . «الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً ـالكهف : ١٠٤» .

والعقيدة الوهابية فى الصفات هى العقيدة السلفية الظاهرية ، قال شاعرهم :

لله وجه لايحد بصورة ولربنا عينان ناظرتان
وله يدان كما يقول الهنا ويمينه جلت عن الايمان
كلتا يديه يمين وصفها فهما على الثقلان منفقتان
كرسيه وسع السماوات العلى والارض وهو يعمه القدمان
والله يضحك لاكضحك عبيده والكيف ممتنع على الرحمان
والله ينزل كل آخر ليلة لسمائه الدنيا بلاكتمان
فيقول : هل من سائل فاجيبه ؟ فانا القريب اجيب من نادانى

(من قصيدة عبدالله بن محمد الاندلسى المالكى ، نشرت فى «اربح البضاعة فى معتقد اهل السنة والجماعة » ص ٣٢ جمع على بن سليمان آل يوسف ـ منشور مكة المكرمة سنة ١٣٩٣) ،

قوله تعالى:«فناظرة بم يرجع المرسلون ـ النمل :٣٥» .فان قال قائل: لم لايجوز ان يراد «الى ثواب ربها ناظرة» ؟ ، قيل له : ثواب الله غيره : وقد قال تعالى : الى ربها ناظرة ، ولم يقل : الى غيره ناظرة . والقرآن على ظاهره . وليس لنا ان نزيله عن ظاهره ، الالحجة . الاترى انه لما قال:صلوا لى واعبدونى لم يجز ان يقول قائل :انه اراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره ، فلذلك لما قال : الى ربها ناظرة ،لم يجز لنا،ان نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة .

٢ـ وتشبث ـايضاً ـ بقوله تعالى : «رب ارنى انظر اليك ـ الاعراف :١٤٣» قال : دلت الآية على ان الله تعالى يرى بالأبصار ، اذلايجوز ان يكون موسى عليه السلام قدسأل ربه مايستحيل عليه ، وقدالبسه الله جلباب النبوة وعصمه بعصمة المرسلين . واذالم يجز ذلك على موسى عليه السلام فقدعلمنا انه لم يسأل ربه مستحيلا ، وان الرؤية جائزة على ربنا عزوجل .

٣ـ قال : ودليل آخر ، مما يدل على جواز رؤية الله بالأبصار ، قوله تعالى لموسى : «فان استقر مكانه فسوف ترانى ـ الاعراف : ١٤٣» . فلما كان الله قادراً على ان يجعل الجبل مستقراً ، كان قادراً على الامر الذى لوفعله لرآه موسى . فدل ذلك على ان الله تعالى قادر على ان يرى نفسه ، وانه جائز رؤيته . فان قال قائل : فلم لاقلتم ان هذه الآية تبعيد للرؤية ؟،قيل له :لو اراد الله تبعيد الرؤية ، لقرن الكلام بما يستحيل وقوعه ، ولم يقرنه بمايجوز وقوعه ،فلما قرنه باستقرار الجبل ،وذلك امر مقدور لله عزوجل ، دل ذلك على انه جائز ان يرى الله . الاترى ان الخنساء لما ارادت تبعيد صلحها لمن كان حرباً مع اخيها، قرنت الكلام بمستحيل ،فقالت:

ولااصالح قوماً كنت حربهم حتى تعود بياضاً حلكة القار [١]

قال : والله تعالى انما خاطب العرب بلغتها ، وما نجده مفهوماً فى كلامها ومعقولا فى خطابها ، فلما قرن الرؤية بأمر مقدور جائز ،علمنا ان رؤية الله بالابصار

١ـ الحلكة :شدة السواد .والقار : القير

جائزة غير مستحيلة .

٤ـ قال :ودليل آخر،قال تعالى:«للذين احسنوا الحسنى وزيادة ـ يونس:٢٦» قال اهل التأويل : الزيادة الموعودة هناهو النظر اليه تعالى ، قالوا : ولم ينعم الله عزوجل اهل جنانه بافضل من نظرهم اليه [١] .

٥ـ وهكذا قوله تعالى : « لهم فيها مايشاؤون ولدينا مزيد ـ ق : ٣٥ » قيل : المزيد هو النظر الى الله عزوجل [٢].

٦ـ وقال تعالى : «تحيتهم يوم يلقونه سلام ـ الاحزاب :٤٤» قال : واذا لقيه المؤمنون رأوه .

٧ـ وقال تعالى : «كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ المطففين : ١٥ »

١ـ قال ابن كثير : وافضل ماينعم به اهل الجنة واعلاه هو النظر الى وجهه الكريم ،وقد روى ذلك عن ابى بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبدالله بن العباس ، وسعيد بن المسيب وعبدالرحمان بن ابى ليلى، وعبدالرحمان بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ،وعطاء والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن اسحاق ، وغيرهم من السلف والخلف . وقد وردت فيه احاديث كثيرة .التفسير ج٢ ص٤١٤ . وراجع : الطبرى ـ التفسير ـ ج١١ ص٧٣ ـ ٧٥. وغيره من اصحاب التفسير بالمأثور .وهكذا ارباب التفسير الصوفى كالقشيرى فى«لطائف الاشارات» ج٣ ص٩١ .والخواجا عبدالله الانصارى فى تفسيره العرفانى .راجع ملخصه للامام احمد الميبدى ج١ ص٤٢٩ . يقول الخواجا :«وشرط است كه ميزبان ديدار خودرا ازمهمانان بازنگيرد» .

٢ـ قال ابن كثير : فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى :انها النظر الى وجه الله الكريم . وعن انس بن مالك قال: يظهر لهم الرب عزوجل فى كل جمعة . التفسير ج٤ ص٢٢٨

فحجبهم (ای الکفار) عن رؤیته ، ولایحجب عنها المؤمن .

٨ـ واستدل ـ ایضاً ـ بماروی عن النبی ﷺ قال : «ترون ربکم کما ترون القمر لیلة البدر ، لاتضارون فی رؤیته» .قال : وهوحدیث متواتر [١] .

٩ـ قال : ودلیل آخر علی جواز الرؤیة : انه لاموجود الاوجائز ان یریناه الله، ماسوی المعدوم . فلما کان الله موجوداً مثبتاً کان غیر مستحیل ان یرینا نفسه وایضاً فانه تعالی یری الاشیاء ، ولیس یصح ان یری احد الاشیاء الااذا صح ان یری نفسه، واذا کان الله لنفسه رائیاً، فجائز ان یرینا نفسه، کما انه تعالی لما کان عالماً بالاشیاء، کان عالماً بنفسه ، ولما کان عالماً بنفسه ، جاز ان یعلمناها .

قال ومن زعم ان الله لایجوز ان یری بالابصار ، یلزمه ان لایجوز ان یکون الله رائیاً ولاعالماً ولاقادراً ، لان العالم القادر الرائی ، جائز ان یری ، وقدقال تعالی : «اننی معکما اسمع واری ـ طه : ٤٦» .

١٠ـ واجاب عن قوله تعالی :«لاتدرکه الابصار ـ الانعام : ١٠٣» بأنه یحتمل ان یکون لاتدرکه الابصار فی الدنیا ،وتدرکه فی الآخرة ، لأن رؤیة الله تعالی افضل اللذات وافضل اللذات یکون فی افضل الدارین .قال: ویحتمل: لاتدرکه ابصار الکافرین

١ـ قال التفتازانی : رواه احد وعشرون من اکابر الصحابة . شرح العقائد النسفیة ص٥٨ . و«لاتضارون» موافق لروایة احمد فی مسنده ج٣ ص١٦ . قال الاعمش : لاتضارون ای لاتمارون . وفی روایة البخاری فی جامعه ج١ ص١٤٥ باب ١٦ . وص١٥٠ باب٢٦ من المواقیت :«لاتضامون» وفی نسخة :«لاتضاهون» . قال ابن الاثیر : لاتضامون ـ بالتشدید ـ ای لایزدحم بعضکم بعضاً فی رؤیته .

وذکر الامام الرازی نحوهذه الادلة ـ نقلا عن اصحابه الاشاعرة ـ فی تفسیره الکبیر ج١٣ ص١٣١ ـ ١٣٢ .

المكذبين [1] .

هذه عقيدة الاشعرى ـ شيخ اهل السنة والجماعة ـ فى جواز رؤية الله تعالى بالأبصار ، وعبثاً حاول الشيخ محمد عبده تأويل كلامه وكلام اصحابه ، بارادة : كمال المعرفة بالذات [2] حيث احس بشناعة مذهب اسلافه ، فحاول تغطيتها بهكذا تأويل مفضوح ، وقد صرح شيخهم الاشعرى بأنه النظر بهاتين العينين اللتين فى الوجه [3] وتقدم نقله .

وقد سبق الاشعرى الى هذه الشنعة امامهم الآخر ابوسعيد عثمان بن سعيد الدارمى (٢٠٠ ـ ٢٨٠) ، فى رسالة ردبها على الجهمية فيما زعم . حشاها باخبار زعمها ادلة قاطعة على اثبات الرؤية والجهة والمكان والحركة فى ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك .

منها ما رواه عن شيخ بغدادى لايعرفه بالاسناد الى انس بن مالك ، قال : يتجلى لأهل الجنة فى كل جمعة، تفسيراً لقوله تعالى : «ولدينا مزيد» . وباسناد آخر فيه ضعف وجهالة ، عن جابر بن عبدالله الانصارى ، يحكى ـ فيما زعم ـ حالة المسلمين يوم القيامة ، قال : ونحن على كوم يوم القيامة، اذ يأتينا ربنا ، فيقول : ماذا تنتظرون فنقول . ننتظر ربنا : فيقول: انا ربكم ، فنقول : حتى ننظر اليك : فيتجلى لنا وهو يضحك ، فنتبعه الى الجنة .

وروى عن ابى بكر فى قوله تعالى : «للذين احسنوا الحسنى وزيادة » قال : النظر الى وجه الله [4] الى غيرها من مخاريق وترهات ألصقوها بساحة قدس النبى

١ـ الابانة ـ باب الكلام فى اثبات رؤية الله تعالى بالابصار فى الاخرة ـ ص ١٠ ـ ١٩ ط ٢ حيدرآباد الدكن .

٢ـ تفسير المنار ج ١١ ص ١٢٨ ـ ١٧٨

٣ـ الابانة ص ١١ . وتقدم فى ص ٩٠

٤ـ رسالة « الرد على الجهمية» للدارمى ص ٤٥ ـ ٥٨

ـصلى الله عليه وآله ـ وكبار صحابته ، وهم منها براء . وانما اولع بها اصحاب الحديث من الحشوية ، حسبما تقدم [1] .

نعم تسترت الأشعرية بسفسفة اخرى ، اتخذوها شعاراً لمذهبهم ، فقالوا : انه تعالى يرى بلا كيف ، وله وجه بلا كيف ، وله يد بلا كيف ، وهلم جراً وحاولوا بذلك الفرار عما يوجه اليهم من اعتراض : كيف يرى ؟ وهل تكون رؤيته تعالى كرؤية بعضنا بعضاً ؟ اراد وا بذلك إلجاءهم الى محاذير التجسيم والجهة والاشارة. فقالوا : لايسئل بكيف ! ومن ثم هجاهم المعتزلة بأنه قول بلا علم ، ورواية بلا دراية ، قال الزمخشري : ثم تعجب من المتسمين بالاسلام ، المتسمين باهل السنة والجماعة (يعنى بهم الاشاعرة) كيف اتخذوا هذه العظيمة (جواز النظر اليه تعالى) مذهباً ، ولايغرنك تسترهم بالبلكفة [2] فانه من منصوبات اشياخهم (اى حبائلهم المغرية) . والقول ماقال بعض العدلية فيهم :

وجماعة سموا هواهم سنة ... لجماعة حمر لعمرى موكفة [3]

قد شبهوه بخلقه وتخوفوا ... شنع الورى فتستروا بالبلكفة [4]

* * *

اما اهل العدل والتنزيه فكانت نظرتهم فى توحيد الله نظرة فى غاية السمو والرفعة ، فطبقوا قوله تعالى : «ليس كمثله شيء» ابدع تطبيق وفصلوه خير تفصيل ، وحاربوا الانظار الوضعية التى تثبت لله تعالى جسماً ، له وجه ويدان وعينان ، وله جهة هى الفوقية وان له عرشاً يستوى عليه ، وانه يرى بالأبصار ، وانه خلق آدم بيده ، الى

١ـ راجع : الطبرى ـ التفسير ـ ج ١١ ص ٧٣ ـ ٧٥ . والدر المنثور ج ٣ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧

٢ـ البلكفة : مخفف «بلا كيف» مصدر جعلى . كالحوقلة والبسملة .

٣ـ الوكاف : البرذعة وهو مايلقى على ظهر الدابة.

٤ـ راجع : تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٥٦ ذيل الاية : ١٤٣ من سورة الاعراف .

آخر ماقالته الأشاعرة واذنابهم من المشبهة والكرامية ـ حسبما تقدم ـ فأتى اهل العدل وسموا على هذه الأنظار ، وفهموا من روح القرآن تجريد الله عن المادية ، فساروا فى تفسيرها تفسيراً دقيقا واسعاً ، واولوا مايخالف هذا المبدأ ، وسلسلوا عقائدهم تسلسلا منطقيا . فاذا كان الله تعالى ليس مادة ، ولا مركباً من مادة ، فليس له يدان ولا وجه ولا عينان ، لان ذلك يدل على جزء من كل ، والله تعالى ليس كلا مركباً من اجزاء ، والا كان مادة . واذا كان كذلك فليس تدركه عيوننا التى خلقت ، وليس قدرتها الان ترى ماهو مادة ، وماهو فى جهة ، وهكذا ساروا فى هدى العقل جريئين ، ويقررون مايرشد اليه فى شجاعة واقدام . وهم امام النقل يسلمون مايوافق منها البرهان العقلى ويؤولون مايخالفه بكل صراحة ، من غير خوف من النتائج مهما كانت ، متى اطمأنوا الى انهم يسايرون العقل ، فالعقل هو الحكم عندهم بين الآيات المتشابهات ، وهو الحكم على الحديث ، ليقرر عدم صحته ان لم يوافق العقل ولم يحتمل التأويل [1] وهم انما يؤولون المتشابه على حساب تحقيق المحكم من العقل والنقل ، على عكس الاشاعـرة ، الذين يعمدون الى تأويل المحكم على حساب التحفظ على ظاهر المتشابه ، كما تقدم تأويل ابى الحسن الاشعرى قوله تعالى : « لاتدركه الأبصار » على حساب التحفظ على ظاهر قوله تعالى : « الى ربها ناظرة » . هذا هو الفارق الاساسى بين الفريقين ، فريق اهل العدل والتنزيه ، وفريق اهل السنة والجماعة ، حسب تعبيرهم هم .

* * *

وقد فصل الكلام ـ فى نفى رؤيته تعالى ـ القاضى عبدالجبار فى كتابه : « شرح الاصول الخمسة [2] » واوفى البحث حقه . وهكذا الخواجا نصير الـدين

١ـ راجع : ضحى الاسلام للاستاذ احمد امين ج٣ ص٦٨ـ٦٩ .

٢ـ باب نفى الرؤية ص٢٣٢ ـ٢٧٧ .

الطوسى فى مختصره: «تجريد الاعتقاد»[1] بايجاز وايفاء، وغيرهما من اصول معتمدة.

وملخص الكلام فى نفى الرؤية: ان النظر بالعين، عبارة عن اشعاع نورى يحيط بالجسم المرئى، الواقع فى جهة مقابلة لعين الرائى، فتنطبع فيها صورته الخارجية. وهذا مستحيل عليه تعالى، لانه يستدعى تجسيماً وجهة ومحدودية، وقبولا للاشارة الحسية، وكل ذلك باطل - بشأنه تعالى - فى ضرورة العقل ومحكم الكتاب العزيز، قال تعالى: «ليس كمثله شىء - الشورى: ١١». ولاشك ان التجسيم ومستتبعاته تشبيه محض. وكذا قوله تعالى: «لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير - الانعام: ١٠٣». والادراك المقرون بالبصر يعنى النظر بالعين، كما ان الادراك بالقلب عرفان نفسى مجرد. وبما ان الآية مدح بشأن من الشؤون الكلية الالهية، فدلالتها على تأبيد النفى واضحة، ولاسيما بتلك الصيغة العامة.

واما الآيات التى استشهد بها الاشعرى، فان لها تأويلات صحيحة ومعقولة لم يعرفها اصحاب الحشو، واليك بايجاز: -

* * *

١- اما الآية الاولى: «وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة - القيامة: ٢٣» فانها مسوقة لبيان الحصر، نظراً لتقديم الجار. فهى تصف موقف المؤمنين فى ذلك اليوم الرهيب، انهم على رغم اهوال الجسام مسرورون مبتهجون، ليس لشىء الا لأنهم منصرفون عن غيره تعالى، ومتوجهون بكل وجودهم الى الله، تحقيقاً لقوله تعالى: «انا لله وانا اليه راجعون». فلا نظر منهم الا اليه سبحانه، وقد صار علم يقينهم عين يقين. وانكشف لهم من اسرار الملك والملكوت ما كانوا يعلمونه بالدلائل والآيات.

والنظر الى كذا، لايختص بمعنى تحديق العين اليه، بل يستعمل بمعنى القصد اليه وكمال التوجه اليه ايضاً، كما يقال: ان هذه القصيدة تنظر الى قصة كذا، اوان هذه الاية تنظر الى مناسبة كذا. اى تهدف فى مضمونها. وهكذا يقال: نظرى اليك، اى رجائى منقطع عمن سواك، كقول الشاعر:

١- شرح العلامة الحسن ابن المطهر الحلى ص١٦٣-١٦٥.

واذا نظرت اليك من ملك والبحر دونك جدتني نعماً

وقال آخر :

انى اليك لماوعدت لناظر نظر الفقير الى الغنى الموسر

ولم يقصدا سوى الرجاء والتوجه بكل وجودهما ، لابالجارحة.

قال جارالله الزمخشرى : سمعت سروية مستجدية بمكة وقت الظهر ، حين غلق الناس ابوابهم وأووا الى مقائلهم ، تقول : « عيينتى نويظرة الى الله واليكم » تقصد راجية ومتوقعة لاحسانهم اليها .وقال :قولهم:انا انظر الى الله ثم اليك ،معناه: اتوقع فضل الله ثم فضلك [1] .

قال الامام الرازى ـ فى قول الشاعر :

وجوه يوم بدر ناظرات الى الرحمان تنتظر الفلاحا

ـ: ان الرواية الصحيحة :يوم بكر. والمرادمن هذا الرحمان مسيلمة الكذاب.

قلت : فليكن ، بعد ان لم يكن النظر هنا هو تحديق العين . بل الرجاء وتوقع الفرج، سواء أكان هو رحمان العالمين أم رحمان اليمامة .

فمعنى الآية ـ على هذا ـ ان المؤمنين يوم القيامة فى بهجة وسرور ،لانهم لايتوقعون النعمة والكرامة الامن عندربهم ،وقد تحققت امانيهم بعين شهود .

* * *

٢ـ وهكذا قول تعالى ـ حكاية عن سؤال موسى عليه السلام ـ : «رب أرنى انظر اليك ـ الاعراف : ١٤٣» لايدل على جواز الرؤية .لان سؤاله ذلك كان من تجاهل العارف ، على اثر ضغط من قومه الجاهلين ،فقد جاء فى التفسير : ان قومه ابوا ان يصدقوه الا ان يسمعهم كلام الرب تعالى ، فاختار منهم سبعين ليصحبوه الى الميقات ، فلما كلمه الله تعالى واسمعهم ايضاً ،ابوا الا ان ينظروا اليه يتكلم فيرونه جهاراً ، وبذلك احرجوا من موقف نبى الله موسى عليه السلام تجاه ربه ومسئولية رسالته

١ـ راجع : الكشاف واساس البلاغة .

الى بنى اسرائيل . روى انه عليه السلام لم يستطع التفوه بتلك العظيمة ـ لمكان علمه باستحالتها ـ غير ان موقفه ذاك قداحرجه ، فقال : يارب انك قد سمعت مقالة بنى اسرائيل ، وانت اعلم بصلاحهم . فاوحى الله اليه : ياموسى ، سلنى ماسألوك ، فلاأؤاخذك بجهلهم . فعند ذلك تجرأ موسى عليه السلام على ابداء تلك المسألة .

ودليلا على ذلك ماجاء فى سورة النساء ـ ١٥٣ ـ : «يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم كتاباً من السماء ، فقد سألوا موسى اكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة» .

فقد جاءت تبعة تلك المسألة العظيمة موجهة الى بنى اسرائيل ، فكانوا هم الذين طلبوا من موسى عليه السلام ان يريهم الله جهرة ، فأحرجوه الى ان يسأل ربه فيما طلبوا .

واصرح منهاقوله تعالى فى سورة البقرة ـ ٥٥ ـ: «واذقلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون» . وهذا يؤكد ماجاء فى الرواية : ان الذين سألوه هذا السؤال كانوا السبعين الذين اختارهم لميقاته تعالى فأخذتهم الرجفة لهيبة مانزل بهم من صاعقة النكال ، فجعل بعضهم ينظر الى بعض وهم يتهافتون على الارض ، ثم بعثهم الله ، بعد التضرع والتذلل من موسى عليه السلام قال تعالى : « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال رب لوشئت اهلكتهم من قبل واياى، اتهلكنا بمافعل السفهاء منا ـ الاعراف :١٥٦» اى بما فعل السفهاء منا من التجاسر على سؤال الرؤية . فاضافة ذلك الى السفهاء تدل على انه كان بسببهم ومن اجلهم ، وانما سألوا مالايجوز عليه [١] .

واما قوله: «سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين» فانما هو تعليم لقومه كما فى قوله تعالى : «ومالى لااعبد الذى فطرنى واليه ترجعون ، ءأتخذ من دونه آلهة

١ـ راجع فى ذلك : امالى المرتضى ج٢ ص٢١٥ مجلس ٧٠ . ومتشابهات القرآن لابن شهرآشوب ج١ ص٩٦ .وقصص الانبياء للنجار ص٢٩٢ .وشرح الاصول الخمسة للقاضى ص٢٦٢ . ومتشابه القرآن ـ ايضاً ـ له ج١ ص٢٩١.

ان يردن الرحمان بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون ،انى اذاً لفى ضلال مبين، انى آمنت بربكم فاسمعون ـ يس :٢٥» . ومن ثم جاء فى موضع آخر : «انت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين. واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك ـ الاعراف :١٥٧». فكما ان السؤال كان عن قومه ، كانت التوبة ـ ايضاً ـ استغفاراً لقومه .

وقد حمل بعضهم الرؤية فى سؤال موسى عليه السلام على العلم الضرورى الذى لاحاجة معه الى اقامة برهان، وهذا هو جواب ابى الهذيل العلاف المعتزلى ، واختاره وايده سيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ [١] . لكن القاضى عبد الجبار ، وكذا الشريف المرتضى ، لم يرتضياه ، اما القاضى ، فقال : لان الرؤية انما تكون بمعنى العلم متى تجردت ، فأما اذا قارنها النظر فلاتكون بمعنى العلم. واما الشريف المرتضى ، فقال: لان ذكر الجهرة فى الرؤية لاتليق الا برؤية البصر دون العلم . قال وهذا يقوى ان الطلب لم يكن للعلم الضرورى .

وربما يقال : ان موسى ـ ع ـ سأل الرؤية لنفسه ، ولا يمتنع ان لا يعرف النبى استحالته، أو يطلب زيادة معرفة بزيادة الأدلة وترادفها.

واجاب القاضى بأن الانبياء لايجوز عليهم ان يجهلوا ما يرجع الى معرفة الله تعالى وشؤونه ، لما فى ذلك من النفرة عنهم ، حيث يؤدى الى جواز ان يسألوا عن ذلك فيجهلوه ويعرفه غيرهم [٢] .

* * *

٣ـ واما الاستدلال بامكان استقرار الجبل دليلا على امكان الرؤية ، فيرده : ان التعليق فى الاية كان على نفس الاستقرار و فعليته ، لا على امكانه ، « فان استقر مكانه فسوف ترانى » ، فاذا علم انه لا يستقر ، علم انه تعالى لايرى .

١ـ تفسير الميزان ج ٨ ص ٢٥٢ .

٢ـ متشابه القرآن للقاضى ج ١ ص ٢٩٥ .

ثم من اين علم المستدل امكان الاستقرار للجبل عند تجلى عظمة الله له ، فلعل الكون باسره لا يطيق استقراراً تجاه تلك العظمة والجبروت ، اذ التناسب بين جبروت كبريائه تعالى و دائرة نطاق هـذا الكون ، لأكبر مما بين الجمل و سم الخياط ـ الاعراف : ٤٠ ـ فكما ان ذلك غير ممكن فكذا هذا بالأولى اذا مالاحظنا الفارق بين النسبتين .

* * *

واما التجلى فى قوله تعـالى : « فلما تجلى ربه للجبل » فهو اظهار عظيم قدرته وتجلى جبروته تبارك و تعالى ، بما أوجب دكاً فى الجبل ، اذ لم يستطع المقاومة . والتجلى : شدة ظهور الشيء و وضوحه ولو بالدلائل والآثار ، قال الشاعر .

تجلى لنـا بالمشرفية والقنا وقد كان عن وقع الأسنة نائياً

اراد أن تدبيره فى تخطيط القتال دل عليه حتى علم انه المدبر له ، وان كان نائياً عن وقع الأسنة ولم يحضر الحرب بنفسه . فاقام ما ظهر من دلالة فعله مقام مشاهدته، وعبر عنه بانه تجلى منه .

ويستعمل « تجلى » بمعنى « جلى » ايضاً ، كمـا يقال : تحدث وحدث . و تصدق و صدق . فيجوز فى معنى « تجلى ربه للجبـل » : « جلى شيئا من عظيم قدرته للجبل » . كما قال تعالى : « لا يجليهـا لوقتها الا هو ـ الاعراف : ١٨٧ » [١] .

على انه لابد من الحمل على هذا المعنى ، بعد ان لم تكن المقابلة مع الجبل امراً معقولا، ولا كانت للجبل تلك الرؤية التى تحققها المقابلة المذكورة، والتى يرومها المستدل بالاية . فلابد انه بمعنى اظهار القدرة والجبروت ، التى لا يطيق المقاومة امامها اى موجود !

١ـ راجع : امالى الشريف المرتضى ج ٢ ص ٢٢٠ . ومتشابه القرآن لابن شهر آشوب ج ١ ص ٩٨ .

وليس يجب فى المعلق على شىء ان يكون من جنس المعلق عليه ، كما فى قول الخنساء الآنف . وكما فى قوله تعالى : « ولايدخلون الجنة ـ كناية عن التنعم بنعيم الرضوان ـ حتى يلج الجمل ـ و هو حبل غليظ ـ فى سم الخياط ـ الاعراف : ٤٠ » . أذ يكفى لابداء امتناع المعلق مجرد امتناع الشىء المعلق عليه ايأكان جنسه .

* * *

٤ـ اما الزيادة فى قوله تعالى : « للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ـ يونس : ٢٦ » فهى تضعيف الحسنات ، بقرينة ما بعدها : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ـ : ٢٧ » . فهى نظيرة قوله تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها الانعام : ١٦٠ » . وقوله تعالى : « ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله ـ فاطر : ٣٠ » . والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

والتفسير بزيادة المثوبة والأجر هو المأثور عن ائمة اهل البيت ـ ع ـ[1] وعن كبار الصحابة والتابعين بأسانيد جياد[2] فعن ابن عباس قال: « هو مثل قوله: ولدينا مزيد . يقول : يجزيهم بعملهم ويزيدهم من فضله وقال : من جاء بالحسنة فله عشر امثالها، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون » .وعن علقمة بن قيس، سئل عن الزيادة ، فقال : « الم تر ان الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر امثالها». و قال قتادة : « كان الحسن يقول فى هذه الآية : الزيادة بالحسنة عشر امثالها الى سبعمئة ضعف » .وقال مجاهد : « زيادة مغفرة ورضوان » . وهكذا .[3]

١ـ راجع : البرهان فى تفسير القرآن للمحدث البحرانى ج ٢ ص ١٨٣ و ج ٣ ص ٢٨٥ ط ٢ .

٢ـ راجع : جامع البيان للطبرى ج ١١ ص ٧٦ .

٣ـ الدر المنثور للسيوطى ج ٣ ص ٣٠٦ . والطبرى ج ١١ ص ٧٦ .

* * *

وماورد فی تفسیرها بالنظر الی وجه الله ، مطروح رأساً ، للاسباب التالیة .

اولا ـ مخالفتها مع ظاهر القرآن ، لان تناسق لفظ الآیة یستدعی ان تکون الزیادة من جنس المزید علیه کما لو قیل اعطیك من هذا العسل رطلا وزیادة ، ولایحسن لو کان اراد من الزیادة کتاباً او مسحاة مثلا . وهکذا فی الآیة ، وعدهم الله الجزاء الحسنی ، وهو اجر عملهم ، وزیادة فضل علی الاجر والجزاء .

نعم لو کان اراد من الزیادة من غیر الجنس لوجب التصریح ،فیقول :وزیادة کتاب مثلا ، اما اذا اطلق ـ کما فی الآیة ـ فلایحسن الامن جنس المزید علیه . هذا ماتستدعیه بلاغة اللفظ فی ذاته .

وثانیاً ـ انها معارضة بمثلها ، بـل واصح منها سنداً واصرح دلالة ، کما تقدم .

وثالثاً ـ مباینتها مع سائر الآیات التی کانت تصلح تفسیراً لهذه الآیة ،والقرآن اذا کان هو المفسر لنفسه ، فلا حاجة الی غیره مما یتهم شأنه ، وقد تقدمت الاشارة الی هذا التفسیر الذاتی .

ورابعاً ـ ضعف اسانیدها طراً بما لایصلح حجة اطلاقاً ، فضلا عن صلاحیة تفسیر کلام الله الحکیم .

اذ فی طریق الاسناد ـ الی ابی بکر وکذا الی حذیفة من الاصحاب [1] ـ ابو اسحاق ، وهو : عمرو بن عبدالله السبیعی الهمدانی، محدث کوفی طعن فی السن [2]

۱ـ روی ابوجعفر الطبری ، عن ابن بشار عن عبدالرحمان عن اسرائیل عن ابی اسحاق عن عامر بن سعد عن ابی بکر . وبنفس الاسناد ، عن اسرائیل عن ابی اسحاق عن مسلم بن نذیر عن حذیفة . جامع البیان ج ۱۱ ص ۷۳ـ۷٤ .

۲ـ قد جاوز المئة . ولد علی عهد عثمان ، ومات حدود سنة مئة وثلاثین .

حتى خرف وكان يختلط فى الحديث . وكان قبل ذلك مدلساً يروى عمن لم يره أو كان يسقط الواسطة ، و من ثم رفضوه . قال اهل الحديث : لم يفسد حديث اهل الكوفة غير ابى اسحاق . و فرض له معاوية العطاء ثلاثمئة فى الشهر. وكان احمد بن حنبـل لا يرى الرواية عنه ، قال : لان الذين حملوا عنه ادركوه فى مؤخرة حياته [1] .

ثم ان الذى يروى عنه هوحفيده « اسرائيل » ـ تارة عنه بلاواسطة ،واخرى بواسطة ابيه « يونس » عن جده « ابى اسحاق » . اذنفهل ياترى من صلة بين هذا النسب الاسرائيلى النزعة ، وهذه الرواية التى هى اشبه بالاسرائيليات ؟ ! وهلاتتهم هذه الاسرة المتأثرة ببيئة اسرائيلية فى تسمية ابناءها، ألاتتأثر فى عقائدها وافكارها عن الألوهية والتوحيد ؟ !

وهكذا بقية الاساتيد هى اضعف وأوهن ولانطيل [2] .

قال ابن شهر آشوب : واما الحديث المروى فى ذلك عن ابى بكر فاسناده غير مرضى [3] قلت : ومن ثم فان محمد بن اسماعيل البخارى ، عند تفسيره لسورة يونس من جامعه ، عفى تلك الروايات رأساً ، و فسر الزيادة ـ كماعن مجاهد ـ بزيادة مغفرة ورضوان [4] .

* * *

١ـ راجع : الجرح والتعديل لابن ابى حاتم الرازى ج ٦ ص ٢٤٣ . وميزان الاعتدال للذهبى ج ٣ ص ٢٧٠ . وتهذيب التهذيب لابن حجر ج٨ص ٦٦ .

٢ـ تجدها مجموعة فى جامع البيان ج ١١ ص ٧٤ ، و هـى تربو على ٢٠ اسناداً كلهاضعاف .

٣ـ متشابهات القرآن ومختلفه ج ١ ص ١٠٠ .

٤ـ صحيح البخارى ـ تفسير سورة يونس ـ ج ٦ ص ٩٠ .

٥ـ وقوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ـ ق : ٣٥ » قدفسرتها الآية « فلا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بماكانوا يعملون ـ السجدة: ١٧ ». يقول تعالى: اعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأت ولااذن سمعت ولاخطر على قلب بشر [١] . فيجد المؤمن من نعيم الجنة مالم يكن يترقبه ولاكان يتصوره ، فتقر عينه بتلك النعم الجسام التى منحه الله فوق ماكان يشتهيه، و زيادة عماكان يتوقعه. وفـى سورة الزخرف : « وفيهاماتشتهيه الأنفس و تلذ الأعين ـ ٧١ » . فالاول : ما كان يتصوره من نعيم و ينتظره ، و ان كان قد اتى به متشابها ـ البقرة : ٢٥ـ والثانى : ما لم يكن يتوقعه ، وستقرعينه برؤيتها، وهذا هوالمزيد الموعودبه.

اما تفسيره بالنظر الى وجه الله ـ كما زعمه المستدل ـ فشىء غريب عن ظاهر اللفظ و متناف مع سائر الايات ، والكلام فيه عين الكلام فى آية يونس ، فلا نعيد .

* * *

٦ـ وقولـه تعالى : « تحيتم يوم يلقونه سلام ، و اعدلهم اجراً كريماً ـ الاحزاب : ٤٤ » لا يعنى اللقاء بالنظر اليه تعالى وجها لوجه . اذ نفس التعبير وارد بشأن الكفار المنافقين ايضاً : « فاعقبهـم نفاقاً الى يوم يلقونه ـ التوبة : ٧٧ » وقد قال تعالى بشأنهم : « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ المطففين: ١٦ » . وانما عنى بيوم التلاق ـ غافر : ١٥ ـ يوم القيامة ، وهو يوم الرجعى ـ العلق : ٨ ـ « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وانهم اليه راجعون ـ البقرة : ٤٦» و « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ـ الانعام : ٣١ » . فيوم اللقاء هويوم الرجوع والانتهاء اليه تعالى : « انالله وانا اليه راجعون ـ البقرة : ١٥٦ » : سواءالمؤمن

١ـ حديث قدسى مأثور . راجع : الطبرى ج ٢١ ص ٦٥ . و مجمع البيان ج ٨ ص ٣٣١ .

والكافر ، « يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه ـ الانشقاق : ٦».

والمقصود من هذا اللقاء هو الانتهاء الى حيث لا حكم الاحكمه تعالى ، « ويعلمون ان الله هو الحق المبين ـ النور : ٢٥ » . « وله الملك يوم ينفخ فى الصور ـ الانعام : ٧٣ » . « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ـ غافر : ١٦» . « الملك يومئذ لله يحكم بينهم ـ الحج : ٥٦ » فكل من المؤمن والكافر يلاقى جزاء عمله، انخيراً فخير، وان شرأفشر . «فلا انساب بينهم يومئذ ولايتسائلون ـ المؤمنون : ١٠١ » . «ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض : فمن ينصرنا من بأس الله انجاءنا ـ غافر : ٢٩ » .

ومن ثم جاء التعبير بلقاء يوم الحساب ولقاء الاخرة ايضاً ، كناية عن نفس المعنى ، ففى سورة الاعراف : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت اعمالهم ـ ١٤٧ » وفى سورة الكهف : « الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحطبت اعمالهم ـ ١٠٥ » . «فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ـ الزخرف: ٨٣» . « انى ظننت انى ملاق حسابيه ـ الحاقة : ٢٠» . وفى سورة البقرة: «يظنون انهم ملاقوا ربهم ـ ٤٦» .

* * *

٧ـ واما الحجب فى قوله تعالى : « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ـ المطففين: ١٥ » فهو الحرمان عن فيض قدسه تعالى ، ومن ثم جاء التعقيب بقوله: « ثم انهم لصالوا الجحيم ـ ١٦» ، « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ـ الاعراف : ٥١ » . حيث الذنوب حالت بينهم وبين ادراك الحق ، فحرموا عنايته تعالى الخاصة بأولى البصائر من اصحاب الايمان . « و رحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ الاعراف : ١٥٦ » .

* * *

٨ـ واما حديث : « سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»[١] فان صح السند ـ ولم يصح كما نذكر ـ فلابد من تأويله بالعلم الضرورى ، فمن كان له شك فى وجوده تعالى ، فسوف لا يبقى مجال لاى شك بعد وضوح الحق كالعيان ، اما الأخـذ بالظاهر فمتناف مع قوله تعالى : « ولا تدر كه الابصار » وحكم العقل القاطع بامتناع الجهة والتقابل بشانه تعالى. فلابد امامن الطرح، شأن كل معارض لصريح القرآن . أوالتأويل ، على فرض صحة الاسناد .

لكن الاسناد غير نقى ، ورجاله غير موثوق بهم ، اذ أشف مايتعلقون به هو هذا الحديث ، الذى يروونه عن قيس بن ابى حازم ، عن جرير بن عبدالله البجلى ، عن النبى صلى الله عليه وآله . وقيس هذا مطعون فيه من وجهين ، الاول : انه كان يرى رأى الخوارج . وكان ممن يبغض اميرالمؤمنين علياً عليه السلام[٢] الذى هو نفس الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ ومثال الاسلام الكامل ، فلايبغضه الامنافق وغد، وهو مبغض للنبى صلى الله عليه وآله وللاسلام جميعاً . قال صلى الله عليه وآله : «من زعم انه آمن بى وهو يبعض علياً فهو كاذب». وقال ـ لعلى ـ :«من ابغضك فقدابغضنى» .«ولايحبك الامؤمن ولايبغضك الا منافق» . وكان الصحابة يعرفون المنافقين على عهده صلى الله عليه وآله ببغض على عليه السلام . وروى انس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : امتحنوا اولادكم بحب على . وقال احمد بن حنبل : ان الحديث الذى لالبس عليه، هو قول النبى صلى الله عليه وآله: ياعلى، لايحبك الامؤمن ، ولايبغضك الامنافق. وقال الله عزوجل : «ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ـ النساء : ٤» . قال احمد : فمن ابغض علياً فهو فى الدرك الاسفل

١ـ صحيح البخارى ج ١ باب ١٦ ص ١٤٥ وباب ٢٦ ص ١٥٠ من المواقيت .

٢ـ شرح الاصول الخمسة للقاضى ص٢٦٩ . واسد الغابة لابن الاثير ج٤ ص٢١١ وميزان الاعتدال للذهبى ج٣ ص٣٩٣ .

من النار [1] .

هذا ، وقد قال قيس : منذ سمعت علياً على منبر الكوفة يقول : انفروا الى بقية الاحزاب ـ يعني اهل النهروان ـ دخل بغضه قلبي. قال القاضي : ومن دخل بغض امير المؤمنين قلبه ، فأقل احواله ان لا يعتمد على قوله ولا يحتج بخبره . وقد تجنب قدماء الكوفيين الرواية عنه لذلك، اذ لا ينبغي الرواية عن منافق هو في الدرك الاسفل من النار ـ كما قال ابن حنبل ـ وقد تكلم فيه ائمة النقد ، فبين من حمل عليه ، رعاية للمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن هؤلاء الاوغاد . ومن وثقه ، لانحراف في نفسه « ان الطيور على اشكالها تقع» لكنه اعترف بان له مناكير . قال يحيى بن سعيد : قيس بن ابي حازم منكر الحديث [2].

والوجه الثاني : انه طعن في السن حتى كبر وشاخ وذهب عقله وخرف [3] . قال القاضي : انه خولط في عقله في آخر عمره . والكتبة يكتبون عنه على عادتهم في حال عدم التمييز .ولا ندري ان هذا الخبر ـ المنكر ـ رواه وهو صحيح العقل او مختلط العقل [4].

* * *

٩ـ واما قوله : « لا موجود الاوجائز ان يريناه الله» فلا يعدو سفسطة ومصادرة

١ـ راجع: ابن عساكر في ترجمة الامام امير المؤمنين ج٢ ص٢٥٣ وص٢١٨ ـ ٢١٩ وكفاية الطالب ص٧٢ . وراجع : المسند ج١ ص٨٤ و٩٥ . والترمذي ج١٣ ص١٧٧ . ومسلم ج١ ص٦٠ .وابن ماجة ج١ ص٥٥ .وشرح النهج ج٤ ص٨٣ . قال : حديث صحيح متفق عليه بين المحدثين .

٢ـ راجع : تهذيب التهذيب لابن حجر ج٨ ص٣٨٨

٣ـ نفس المصدر . والذهبي في الميزان ج٣ ص٣٩٣ .

٤ـ شرح الاصول الخمسة ص٢٦٩ .

على المطلوب ، اذلاملازمة بين مطلق الوجود وامكان الرؤية ، بعدان لم يثبت ذلك ببرهان ، ولاكان ضرورى الثبوت فى الوجدان .

نعم استدل متفلسفوهم ببرهان « السبر والتقسيم» ، قالوا : انا قاطعون برؤية الاعيان والاعراض ، ضرورة انانفرق بالبصر بين جسم وجسم ، وعرض وعرض ، ولابد من علة مشتركة بين الجسم والعرض لهذا الحكم المشترك بينهما ، وهى :اما الوجود ، او الحدوث ، او الامكان ، اذ لارابع يشترك بينهما . غير ان الحدوث عبارة عن الوجود بعد العدم ، والامكان عبارة عن عدم ضرورة الوجود . والعدم لامدخل له فى العلية، فتعين الوجود. «وهو مشترك بين الصانع تعالى وغيره من الاجسام والاعراض» اذن جاز رؤيته تعالى لانه موجود [1] .

ومغالطة هذا الاستدلال واضحة ، اذالعرض بما هو عرض لايقبل تعلق الرؤية به ، مالم يقم بجسم ، فيرى من حيث كونه جسماً . وذلك كالكم والكيف والأين والوضع والجدة والاضافة والفعل والانفعال ومتى [2] ، الاعراض التسعة المشهورة لاتقبل تعلق احساس بها فى انفسها . فان العدد بما هو عدد لايرى وانما يرى المعدود. وهكذا بقية الاعراض .

اذن فالذى يرى هو الجسم . والعلة هى الجسمية ، المفقودة فى ذاته المقدسة.

واما قياس الاشعرى الرؤية بالعلم فهو قياس مع الفارق ولاجامع بينهما . مضافاً الى ان الاستدلال بالوجود والعلم على جواز الرؤية باطل فى نفسه ، بعدان نجد فى بداهة العقل اشياء لها وجود كالعلم والعقل والارادة والكراهة والحب والبغض [3]، هى موجودة ومعلومة ، ولكن لاتصح رؤيتها لانها ليست اجساماً ، ومالیس جسماً لايمكن تحقق التقابل بينه وبين نظر الرائى ، وهو شرط فى تحقق الرؤية .

١ــ شرح العقائد النسفية لعمر بن مسعود التفتازانى ص٥٦ ط كابل

٢ــ شرح تجريد الاعتقاد لابن المطهر الحلى ــ قدس سره ــ ص١٠٧

٣ــ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى ص٢٧٤

* * *

١٠ـ واماتقييد عموم النفى فى قوله تعالى: «لاتدركه الابصار ـ الانعام :١٠٣» بالرؤية فى الدنيا ، اوبرؤية الكافرين ، فهو تأويل قبيح بعد ان كانت الآية اشادة بشأن من شؤون الرب تعالى ومدحاً لائقا بمقام قدسه جل ثناؤه .قال تعالى : «بديع السماوات والارض : انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء . وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم ، لااله الاهو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير . قدجاءكم بصائر من ربكم فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها ، وماانا عليكم بحفيظ ١٠٠ ـ ١٠٤» .

انظر الى هذا الاطراء الجميل بمقام الألوهية الكريمة، نوهت عن صفات ونعوت جليلة كانت صبغتها العموم المطلق ، لاالاختصاص بهذه الحياة القصيرة المدى او بأناس دون أناس ، الذى يتنافى وكونها صفات جلال واكرام . هذا ، فضلا عن تذييل الآية بشبه تعليل للنعوت المذكورة : « وهو اللطيف الخبير » . اذ اللطيف مقابل الكثيف ، لايمكن مسه ولاالنظر اليه ، والخبير هر المحيط بخصوصيات الشىء «ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولافى السماء ـ يونس : ٦١» . فاذا ماقارننا هذا التعليل الذى فى الذيل ، مع تلكم النعوت فى صدر الآية ، يتضح جانب عموم تلك الصفات بجلاء، الامر الذى لايكاد يخفى على ذوى الاذواق الأدبية الدقيقة !

ولابن تيمية هنا محاولة فاشلة ، قال : «المراد من الادراك فى الآية هى الرؤية المقيدة بالاحاطة ، ومن رآى جوانب الجيش او الجبل لايقال انه أدركها ، وانما يقال ادركها اذا احاط بها رؤية . قال : ونحن فى هذا المقام ليس علينا بيان ذلك ، وانما ذكرنا هذا بياناً لسند المنع ، بل المستدل بالآية عليه ان يبين ان الادراك فى

لغة العرب مرادف للرؤية ، وان كل من رآى شيئاً يقال في لغتهم انه ادركه ،وهذا لاسبيل اليه، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الادراك عموم وخصوص ، فقد تقع رؤية بلاادراك ، وقديقع ادراك بلارؤية ...» .

واضاف : «ان الاية مدح ، ومعلوم ان كون الشيء لايرى ليس صفة مدح ، لان النفي المحض لايكون مدحاً ان لم يتضمن امراً ثبوتياً، ولان المعدوم ايضاً لايرى، والمعدوم لايمدح ، فعلم ان مجرد نفي الرؤية لامدح فيه»[1] .

وقدغفل ان الادراك جاء في الاية مقيداً بالأبصار، وهو من اوضح القرائن على ان المراد به «الرؤية بالعين» تجاه تقييده بالقلب، المراد به الدرك النفساني المجرد ، يقال : ادركته ببصري، ويراد معنى يغاير قولهم :ادركته بقلبي .وهذا كاف مستنداً للمستدلين بالآية على نفي رؤيته تعالى ، الامر الذي لم يتنبه له شيخ حران .

هذا، ونفي الرؤية في الآية جاء معللا بانه تعالى «لطيف»، وهو من النفي المتضمن للاثبات لا النفي المحض،فهو كقوله تعالى:«لاتأخذه سنة ولانوم» لكونه «حياً قيوماً» وقوله : «ولايحيطون بشيء من علمه» كناية عن عظم احاطته تعالى . وامثال ذلك كثير في القرآن . وهكذا قوله تعالى، «لايدركه الابصار» ، لكونه «لطيفا» . كما ان قوله : «وهو يدرك الابصار» جاء معللا بكونه «خبيراً» .

وهذا من اللطائف الدقيقة التي تضمنتها الايات الكريمة، لاتنالها افهام القشريين من اهل الحشو .

وهذا الشيخ عدى بن مسافر الاموى (ت٥٥٧) احسن تقديساً لمقام الالوهية من هؤلاء المقلدة السلفيين ،قال: «وانه تعالى ليس بجوهر ولاعرض ولاجسم ، وانه ليس في جهة من الجهات، وليس مستقراً على مكان وانه مرئي بالقلوب والابصار ـ بكسر الهمز ـ ولاتحويه الاقطار والأبصار ـ بالفتح ـ ولاتحيط به الجهات ، وانه واحد فرد صمد ، لاثاني معه ولاشيء مثله» .

١ـ منهاج السنة ، تحقيق محمد رشاد طبيروت ج٢ ص٢٤٣ ـ ٢٤٤

قال: «فهذا هو العلم بذاته، مستو على عرشه بالمعنى الذى اراده تعالى، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والمقدار، لا يحمله العرش، بل العرش وحملة العرش واللوح والكرسى والسماوات والارض وما بينهما ومافيهما وماتحتهما وماوراءهما وجميع المخلوقين والمخلوقات، محمولون بقدرة الله تعالى ومقهورون فى قبضته ...»[1].

الجهة والمكان

ذهب الاشعرى واذنابه من مشبهة ومجسمة الى انه تعالى كائن فى جهة «فوق» مستوياً على عرشه فوق اطباق الثرى. وانه ينزل ويصعد ويتحرك من مكان الى مكان، فيحويه مكان ويخلو منه مكان. وتشبثوا بآيات و روايات حسبوها دالة على ما فهموا منها وفق ظواهرها، ونحن نذكرها جميعاً، ثم نتبعها بماصح لدينا من تأويلها المعقول تباعاً حسب الارقام:

١ـ قال تعالى: «الرحمان على العرش استوى ـ ط: ٥».

٢ـ وقال: «اليه يصعد الكلم الطيب ـ فاطر: ١٠».

٣ـ وقال: «بل رفعه الله اليه ـ النساء: ١٥٨».

٤ـ وقال: «يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه ـ السجدة: ٥».

٥ـ وقال ـ حكاية عن فرعون ـ: «ياهامان ابن لى صرحاً لعلى ابلغ الاسباب اسباب السماوات فاطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذباً ـ غافر: ٣٧». كذب موسى ـ عليه السلام ـ فى قوله: «ان الله فوق السماوات».

٦ـ وقال: «أأمنتم من فى السماء ان يخسف بكم الارض ـ الملك: ١٦»

١ـ فى رسالته «اعتقاد اهل السنة والجماعة» ط بغداد سنة ١٣٩٥هـ ص ١٥.

٧ـ وقال : «يخافون ربهم من فوقهم ـ النحل : ٥٠» .

٨ـ وقال : «تعرج الملائكة والروح اليه ـ المعار ج : ٤» .

٩ـ وقال : « ثم استوى الى السماء وهي دخان ـ فصلت : ١١» .

١٠ـ وقال : «ثم استوى على العرش فاسأل به خبيراً ـ الفرقان : ٥٩» .

١١ـ وقال : « ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع ـ السجدة : ٤» .

١٢ـ وقال : «وجاء ربك والملك صفاً صفاً ـ الفجر : ٢٢» .

١٣ـ وقال : « هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل من الغمام ـ البقرة : ٢٢٠» .

١٤ـ وقال : « ثم دنافتدلى فكان قاب قوسين أوادنى ـ النجم : ٩».

١٥ـ وقال : « وماكان لبشر ان يكلمه الله الاوحياً أومن وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء ـ الشورى : ٥١» .

١٦ـ وقال : «ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ـ الانعام : ٦٢» .

١٧ـ وقال : « ولوترى اذ وقفوا على ربهم ـ الانعام : ٣٠» .

١٨ـ وقال : « ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ـ السجدة: ١٢» .

١٩ـ وقال : « وعرضوا على ربك صفاً ـ الكهف : ٤٨» .

قال : كل ذلك يدل على انه تعالى ليس في خلقه ، ولا خلقه فيه، وانه مستو على عرشه [١] .

١ـ الابانة ص ٣٨ باب ذكر الاستواء على العرش .

٢٠ـ وقال تعالى : «الله نور السماوات والأرض ـ النور: ٣٥»[١] .

٢١ـ واستدل ايضاً بماروى : ان الله تعالى ينزل كل ليلة الى السماء الدنيا، فيقول : هل من سائل فاعطيه : هل من مستغفر فاغفرله ؟ حتى يطلع الفجر . الى امثالها من روايات نسبت النزول اليه تعالى[٢] .

٢٢ـ وبما روى ـ ايضاً ـ عن ابن عباس ، انه قال : تفكروا فى خلق الله ، ولا تفكروا فى الله ، فان بين كرسيه الى السماء الف عام ، والله عز و جل فوق ذلك .

٢٣ـ وبما روى عن النبى ـص ـ انه قال : ان العبدلاتزول قدماه من بين يدى الله عزوجل حتى يسأله عن عمله .

٢٤ـ وبما روى : ان رجلا اتى النبى ـص ـ بامة سوداء ، فقال : يا رسول الله ﷺ انى اريد ان اعتقها فى كفارة ، فهل يجوز عتقها ؟ فقال لها النبى ﷺ : اين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : فمن أنا ؟ قالت : انت رسول الله ﷺ . فقال النبى ﷺ : اعتقها فانها مؤمنة . قال الاشعرى : فهذا يدل على ان الله على عرشه فوق السماء[٣] .

٢٥ ـ وزاد ابوسعيد الدارمى : ان هذه العصابة ـ يعنى بهم المعتزلة ـ اقرت بهذه الآيات بألسنتها ثم نقضوا دعواهم بدعوى غيرها ، فقالوا : الله فى كل مكان ولا يخلو منه مكان . ثم ذكر حديث الجارية السوداء وقال : ففى هذا دليل على ان الرجل اذا لم يعلم ان الله فى السماء دون الارض فليس بمؤمن ، الاترى ان النبى ﷺ جعل امارة ايمانها معرفتها ان الله فى السماء .

١ـ نفس المصدر ص ٣٥ ـ ٣٨ .

٢ـ نفس المصدر ص ٣٧ . وكتاب التوحيد والصفات لابن خزيمة ص ١٢٦ .

٣ـ نفس المصدر ص ٣٩ .

وفي قول رسول الله ﷺ « أين الله ؟ » تكذيب لقول من يقول : هو في كل مكان ، لا يوصف بأين . لان شيئاً لا يخلو منه مكان يستحيل ان يقال : اين هو ؟ ولا يقال : أين ؟ الا لمن هو في مكان ويخلو منه مكان [1] .

واستدل ابو سعيد باحاديث أخر ايضاً منها :

٢٦ـ حديث الاعرابي، جاء الى النبي ﷺ يشكو الجدب ، فقال: يا محمد هلكت المواشي ونهكت الاموال ، وانا نستشفع بك على الله ، وبالله عليك فادع الله ان يسقينا ! فقال النبي ﷺ يا أعرابي ويحك ، وهل تدري ما تقول ؟ ان الله اعظم من ان يستشفع عليه بأحـد من خلقه ، ان الله فوق عرشه ، فوق سماواته ، وسماواته فوق ارضيه مثل القبة ، وانه ليئط به أطيط الرحل بالراكب .

٢٧ـ وحديث المطر ، حسر النبي ﷺ عن ثوبه حتى اصابه ، قيل : يا رسول الله ﷺ لم صنعت هذا ؟ قال : لانه حديث عهد بربه . قال ابو سعيد: ولو كان على ما يقول هؤلاء الزائغة ـ يعني بهم المعتزلة ـ انه تعالى في كل مكان، ما كان المطر احدث عهداً بالله من غيره من المياه والخلائق .

٢٨ـ وحديث ابي بكر : ايها الناس ان كان محمد الهكم فان الهكم قدمات، وان كان الهكم الله الذي في السماء ، فان الهكم لم يمت !

٢٩ـ وحديث بني اسرائيل : قالوا : يارب انت في السماء ونحن في الارض فكيف لنا ان نعرف رضاك وغضبك ؟ قال : اذا رضيت عنكم استعملت عليكم خياركم ، واذا غضبت عليكم استعملت عليكم شراركم .

٣٠ـ وحديث كعب الاحبار: ما من سماء الا لها اطيط كأطيط الرحل العلافي، اول ما يرتحل، من ثقل الجبار فوقهن [2] .

١ـ رسالة «الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمي ص ١٤ و١٧ .

٢ـ نفس المصدر ص ١٨ـ٢٥ .

واستدل ـ ايضاً ـ بآيات جاء فيها التعبير بالنزول من عندالله تعالى :

٣١ ـ منهـا قوله تعالى : « الحمد لله الذى انزل على عبـده الكتاب ـ الكهف : ١ » .

٣٢ـ وقوله : « نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لمابين يديه وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان ـ آل عمران : ٣» .

٣٣ـ وقوله : « حم تنزيل من الرحمان الرحيم ـ فصلت : ٢» .

٣٤ـ وقوله : «تنزيل من حكيم حميد ـ فصلت : ٤٢» .

٣٥ـ وقوله : «انا انزلناه فى ليلة القدر ـ القدر : ١» .

٣٦ـ وقوله : «انا انزلنا فى ليلة مباركة ـ الدخان . ٣» .

٣٧ـ وقوله : « سورة انزلناهـا و فرضناها و انزلنا فيها آيـات بينات ـ النور : ١ » .

٣٨ـ وقوله : « ومانتنزل الا بامر ربك ـ مريم : ٦٤» .

٣٩ـ وقوله : « نزل به الروح الامين على قلبك ـ الشعراء : ١٩٣» .

٤٠ـ وقوله : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ـ النحل : ١٠٢» [١] .

وعقبها باحاديث نزوله تعالى عن عرشه :

٤١ـ منها: حديث : نزوله تعالى فى كل ليلة الى السماء الدنيا اذا مضى منه شطره فيقول: هل من مستغفر ؟

٤٢ـ وحديث : نزوله تعالى فى ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل نفس الا مشرك أومشاحن .

٤٣ـ وحديث : نزوله يوم القيامة للحساب وتجليه للمؤمنين فيتبعونه الى الجنة .

١ـ نفس المصدر ص ٢٦

٤٤- وحديث : نزوله لأهل الجنة ، فيقول : سلونى ، فيقولون باجمعهم : نسألك الرضا .

٤٥- وحديث عمر بن عبدالعزيز : فاذا فرغ الله من اهل الجنة والنار، اقبل « فى ظلل من الغمام والملائكة -البقرة: ٢١٠» فسلم على اهل الجنة فى اول درجة ، فيردون عليه السلام. قال القرظى :وهذا فى القرآن «سلام قولا من رب رحيم -يس: ٥٨». فيقول : سلونى . قال : ففعل بهم ذلك فى درجهم حتى يستوى فى مجلسه، ثم يأتيهم التحف من الله تحملها الملائكة اليهم .

قال ابو سعيد : فان قالوا : كيف نزوله هذا ؟ قلنا : لم نكلف كيفية نزوله فى ديننا، ولاتعقله قلوبنا، وليس كمثله شيء من خلقه فنشبه منه فعلا أوصفة بفعالهم وصفتهم . ولكن ينزل بقدرته ولطف ربوبيته كيف يشاء ، فالكيف منه غير معقول، والايمان بقول رسول الله ﷺ فى نزوله واجب ولايسأل الرب عما يفعل ، كيف يفعل ، وهم يسألون . قال : واذ لو آمنتم باستوائه على العرش كايمان المصلين به ، لقلنا لكم: ليس نزوله من سماء الى سماء بأشد عليه من ذلك فكما قدر على الاولى قدر على الأخرى كيف يشاء [١] .

٤٦- واستدل ابن خزيمة بأن فطرة المسلمين علمائهم وجها لهم ، احرارهم ومماليكهم ، ذكرانهم وإناثهم ، بالغيهم واطفالهم ، كل من دعا الله جل وعلا ،فانما يرفع رأسه الى السماء ،ويمد يده الى الله الى اعلاه لا الى اسفل . وزاد المعلق(محمد خليل هراس) فى هامش الكتاب : ان التوجه الى السماء فى الدعاء . ليس فطرة فى المسلمين وحدهم ، بل هو فطرة عامة فى سائر الناس ، بل ان الحيوانات نفسها لترفع رأسها الى السماء زمان الجدب ، كأنها تستمطر ربها ، ولايجحد هذه الفطرة الا معطل قد فسدت فطرته [٢] . وهكذا استدل ابو الحسن الاشعرى .

١- نفس المصدر ص ٢٧-٣٩ .

٢- كتاب التوحيد والصفات ص ١١٠. وراجع :الابانة ص ٣٥-٣٦

هذا جل ماتشبث به القوم فى هذا المجال ، فانتظر للاجابة على جميع ذلك واحدة واحدة تباعاً حسب الارقام .

وللاشاعرة ومن لف لفهم ـ هنا ـ كلام سيء : زعموه نقضاً على اهل التنزيه قال ابو الحسن الاشعرى : زعمت المعتزلة ان الله فى كل مكان ، فلزمهم انه فى بطن مريم ، وفى الحشوش ، وفى الأخلية ، وهذا خلاف الدين ، تعالى الله عن قولهم ![1]

وقال ابو سعيد : فما الذى دعا الملك القدوس ، اذ هو على عرشه فى عزه وبهائه ، ان يصير فى الامكنة القذرة واجواف الناس والطير والبهائم ، ويصير بزعمكم ـ خطاب الى اهل التنزيه ـ فى كل زاوية وحجرة ومكان منه شيء ؟![2] .

والحشوش : الكنف ومواضع قضاء الحاجة ، الواحد : حش ، واصله من الحش : البستان ، لانهم كانوا كثيراً مايتغوطون فى البساتين . قاله ابن الاثير . والأخلية : الخلاء . وهو الكنيف ايضاً . انظر الى هذا التعبير السيء فى مقام التكلم عن شؤون رب العزة ، ولاغرو فان الغريق يتشبث بكل حشيش ، ونحن نقدرهم اذ عبروا ببطن مريم !

هكذا لفق اصحاب التشبيه تلفيقاتهم لاثبات الجهة له تعالى ، وقد أتى عليها اهل العدل والتنزيه بعاصفة البرهان القاطع ، فنسفوها نسفاً وذروها ادراج الرياح .

* * *

قال اهل التنزيه : انه تعالى ليس بجسم ولافيه شيء من خواص الاجسام ، فليس يوصف تعالى بالابعاد الثلاثة ، من طول وعرض وعمق ، ولاهو ذو حركة وسكون ، ولاخفة ولاثقل ولاوزن ، ولاهو محدود بجهة ، ولايحويه مكان ، وان كان لايخلو منه مكان ، ولاهو معروض الحوادث من الاجتماع والافتراق ، والحضور والغياب ،

---

١ ـ الابانة ص٣٦

٢ ـ الرد على الجهمية ص١٤

والانتقال والذهاب والاياب . اذكل ذلك هومن ملزومات الجسمية ، وهي عوارض حادثة ، والله تعالى قديم فى ذاته وصفاته ، متنزه عن كل عروض اوحدوث [1] «ليس كمثله شيء وهو السميع العليم ـ الشورى : ١١» .

قال امير المؤمنين عليه السلام : «من اشار اليه فقد حده [2] . ومن حده فقد عده [3] . ومن قال : فيم ؟ فقد ضمنه . ومن قال : علام ؟ فقداخلى منه [4] . كائن لاعن حدث ، موجود لاعن عدم [5] مع كل شيء لابمقارنة ، وغير كل شيء لابمزايلة [6]» .

وقال عليه السلام : « لايشغله شأن ، ولايغيره زمان ، ولايحويه مكان [7] » . وقال : « لايدرك بوهم ، ولايقدر بفهم ، ولايشغله سائل ، ولاينقصه نائل . ولاينظر بعين ، ولايحد بأين ، ولايوصف بالازواج ، ولايخلق بعلاج ، ولايدرك بالحواس ، ولايقاس بالناس [8]» .

وقال الامام جعفر بن محمد الصادق ـ عليهما السلام ـ : « ان الله عظيم رفيع لايقدر العباد على صفته ، ولايبلغون كنه عظمته ، لاتدركه الابصار . وهو يدرك

١ـ راجع فى ذلك بالخصوص : تجريد الاعتقاد لنصير الدين الطوسى ، بشرح العلامة ابن المطهر الحلى ، بحث الالهيات ، المسألة : ١٢ ـ ٢٠ ، ص ١٦١ ـ ١٦٤ . وشرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص ٢١٦ ـ ٢٣٠ .

٢ـ لان الاشارة الحسية تستدعى حصر المشار اليه . فى جهة منقطعاً عن غيرها من الجهات فيكون محدوداً ، اى ذا طرف ينتهى اليه . فمن اشار اليه فقد حده .

٣ـ لان التحديد هو منشأ العد ، فلولا الانتهاء الى حد لما صح العد .

٤ـ لانه لو كان على شيء ـ كالعرش مثلا ـ لزم اخلاء سائر الامكنة منه .

٥ـ فهو تعالى موجود ازلى قديم .

٦ـ من اولى خطبة من نهج البلاغة ط ١ ج ١ ص ١٥ ـ ١٦

٧ـ شرح النهج لابن ابى الحديد ج ١٠ ص ٥٨ رقم : ١٧٩

٨ـ المصدر ص ٨٨ رقم : ١٨٣ : من رواية نوف البكالى .

الابصار ، وهو اللطيف الخبير . ولايوصف بكيف ،ولاأين ولاحيث .وكيف اصفه بالكيف ؟ وهو الذى كيف الكيف حتى صار كيفاً ، فعرفت الكيف بما كيف لنامن الكيف . ام كيف أصفه بأين ؟ وهو الذى أين الأين حتى صار أيناً ، فعرفت الأين بما أين لنا من الأين . ام كيف اصفه بحيث ؟ وهو الذى حيث الحيث حتى صار حيثاً ، فعرفت الحيث بما حيث لنا من الحيث . فالله تعالى داخل فى كل مكان، وخارج من كل شيء [1] ، لاتدركه الابصار . وهو يدرك الابصار ، لااله الاهو العلى العظيم،وهو اللطيف الخبير» [2] .وقال فى جواب ابن ابى العوجاء: «فاما الله العظيم الشأن الملك الديان ، فلايخلو منه مكان ، ولايشتغل بهمكان . ولايكون الى مكان اقرب منه الى مكان» [3] .

وقال الامام ابو ابراهيم موسى بن جعفر ـعليهما السلامـ وقد ذكر عنده ان قوماً يزعمون ان الله تبارك وتعالى ينزل الى السماء الدنيا ! ـ:«ان الله لاينزل ، ولايحتاج الى ان ينزل . انما منظره (اى علمه المحيط) فى القرب والبعد سواء ، لم يبعد منه قريب ، ولم يقرب منه بعيد،ولم يحتج الى شيء ،بل يحتاج اليه كل شيء،وهو ذو الطول لااله الاهو العزيز الحكيم . اماقول الواصفين : انه ينزل ـ تبارك وتعالى ـ فانما يقول ذلك من ينسبه الى نقص وزيادة . وكل متحرك محتاج الى من يحركه او يتحرك به ، فمن ظن بالله الظنون هلك ، فاحذروا فى صفاته من ان تقفوا له على حد تحدونه بنقص اوزيادة ، او تحريك اوتحرك ، اوزوال او استنزال ، او نهوض او قعود ، ،فان الله جل وعز عن صفة الواصفين، ونعت الناعتين،وتوهم المتوهمين [4]» .

١ـ اشارة الى مسألة . «لايحويه مكان ولايخلو منه مكان» . وقدمر فى كلام الامام امير المؤمنين ـعـ : «مع كل شيء لابمقارنة . وغير كل شيء لابمزايلة» .

٢ـ الكافى الشريف ـالاصول ـج١ ص١٠٣ ـ١٠٤ .

٣ـ المصدر ص١٢٦ رقم :٣ باب الحركة والانتقال .

٤ـ المصدر ص١٢٥ رقم :١

هكذا جاء تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين ، فى كلام الائمة ومحققى العلماء،وحتى من متأخرى الاشاعرة ممن اول كلام اوائلهم،ماعدى اصحاب الحشو منهم فجروا على سلفيتهم القديمة حتى هذا العهد ، ولنتعرض لتفنيد مازعمته المشبهة ادلة على ثبوت الجهة له تعالى : ـ

* * *

قال تعالى : «ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم ـ البقرة : ١١٥» .هذه الآية من المحكمات ، دلت على انه تعالى ليس بجسم ، ولاهو محدود بجهة دون اخرى ، «وكان الله بكل شيء محيطاً ـ النساء :١٢٦» .

قال الامام الرازى ـ فى الاية الاولى ـ : « الآية من اقوى الدلائل على نفى التجسيم واثبات التنزيه ،لانه تعالى خالق الجهات ، والخالق متقدم على المخلوق لامحالة ، فقد كان البارى تعالى خلق العالم منزهاً عن الجهات والاحياز ، فوجب ان يبقى بعد خلق العالم كذلك . وايضاً ، فانه لو كان جسماً وله وجه جسمانى لكان وجهه مختصاً بجانب معين وجهة معينة،فلم يكن يصدق قوله تعالى : « فاينما تولوا فثم وجه الله» [1] .

هذا مضافا الى قوله تعالى:«ليس كمثله شيء ـ الشورى : ١١» نزهته عن مشابهة المخلوقين، ولاريب ان كونه تعالى فى جهة يستدعى محدودية، وهو تشبيه بمحدودية المخلوقين ، تعالى الله عن ذلك .

فهو تعالى ليس بجسم ولافيه خواص الجسمانيات ،التى منها التحيز والتحديد بجهة دون اخرى . فكل ماورد ـ بظاهره ثبوت الجهة له تعالى ـ يجب ان يؤول وفق سائر المحكمات . وعلى ضوء هذا المقياس نستعرض الآيات التى تمسك بها اهل التشبيه ، مع بيان وجه تخريجها الصحيح :

١ـ التفسير الكبير ج٤ ص٢١ «المسألة الرابعة» .

* * *

اماقوله تعالى : «الرحمان على العرش استوى ـ طه :٥» فالكلام فيه يستدعى النظر فى جهتين ، الاولى : ماهى حقيقة العرش الذى تكرر ذكره فى القرآن فى أحد وعشرين موضعاً [١] ؟ .الثانية : مامفهوم الاستواء الذى جاء ذكره فى القرآن فى سبعة مواضع [٢] مما يتناسب وشأنه تعالى ؟

العرش والكرسى :

رغم تكرر ذكر «العرش» فى القرآن اكثر من عشرين مرة، لم يأت ذكر «الكرسى» الامرة واحدة فى سورة البقرة :٢٥٥. وهل هما تعبيران عن شىء واحد ام هما شيئان ؟ ذهب اهل الحشو من اصحاب الحديث الى ان العرش هو سرير ملكه تعالى متربع عليه، والكرسى دكة او مصطبة دون العرش ، يكون موضع قدميه تعالى ، وهو يئط [٣] من ثقله تعالى أطيط الرحل الجديد . ورووا فى ذلك أحاديث اعتمدوا ظواهرها من غير تعمق او تحقيق [٤] .

اما اهل النظر والتمحيص فقد شطبوا على هكذا روايات هى مخالفة لضرورة العقل ومحكم الشريعة ، وفسروا العرش والكرسى بالعلم والقدرة ، لمناسبة جلية

١ـ الاعراف :٥٤ .التوبة :١٢٩ .يونس :٣. هود :٧ .الرعد :٢ . الاسراء : ٤٢. طه :٥ .الانبياء :٢٢ . المؤمنون :٨٦ و١١٦ . الفرقان .٥٩ . النمل : ٢٦ .السجدة : ٤ . الزمر :٧٥ . غافر :٧و١٥ . الزخرف : ٨٢ . الحديد:٤. الحاقة : ١٧ . التكوير :٢٠ . البروج: ١٥ .

٢ـ الاعراف : ٥٤ . يونس :٣ .الرعد :٢. طه: ٥ .الفرقان : ٥٩ . السجدة : ٤ . الحديد : ٤ .

٣ـ أط أطيطا اى صوت .

٤ـ راجع بالخصوص : تفسير ابن كثير ـ ذيل آية الكرسى ج١ ص٣٠٩ ـ ٣١٠

من نفس الآيات ، وشواهد من اللغة والآثار[1] .

والذى نستخلصه من مفاد الآيات والروايات الصحيحة: ان العرش والكرسى تعبيران عن معنى واحد ، هو :جليل قدرته تعالى وسعة علمه المحيط بكل شيء . غير ان «الكرسى» جاء تعبيراً عن «ملكه» تعالى بالذات.و«العرش» تعبيراً عن جانب «تدبيره» لشؤون الخلق كله . فالكرسى كرسى الملك ، والعرش عرش التدبير . وكلاهما يشفان عن سعة علمه وعظيم قدرته تعالى ، حيث القدرة الشاملة والعلم المحيط يستدعيان ملكاً يسع السماوات والارض ، وتدبيراً شاملا لعالم الوجود اجمع .

قال ابن فارس : الكرسى اصل عربى يدل على تلبد شيء فوق شيء وتجمعه ومنه اشتقت الكراسة اسماً لمجموع اوراق يكتب فيها بعضها على بعض .والكرسى اصل البناء ايضاً، لضخامته .قال الزمخشرى : يقال هو طيب الكرسى اى الأصل[2]. والكرسى منسوب الى كرس الملك. وهو ما يعتمد عليه، كما يقال دهرى ـ بالضم ـ نسبة الى الدهر . ومن ثم اطلق على العلماء « الكراسى » لانهم عماد الامة ومرجعها فيما ينوب .وقد انشد قطرب .

تحف بها بيض الوجوه وعصبة كراسى بالأحداث حين تنوب

اراد بهم علماء خبراء بحوادث الامور ونوازلها . وقد قيل ، خير الحيوان الأناسى ، وخير الأناسى الكراسى ، اى العلماء العقلاء العارفون بشؤون التدبير[3].

قال تعالى: «وسع كرسيه السماوات والارض ولا يؤده حفظهما ـ البقرة :٢٥٥»

١ـ راجع بالخصوص: تفسير الطبرى هنا «جامع البيان» ج٣ص٨ وسننقل بعض كلامه فى آخر الفصل .

٢ـ كما قال العجاج :

ان ابا العباس اولى نفس بمعدن الملك الكريم الكرس

٣ـ راجع : معجم مقاييس اللغة، واساس البلاغة.

اى وسع ملكه ارجاء عالم الوجود من غير ان يعجز عن ادارة شؤونه بما يدوم مزدهراً مع الابدية . فهذا التعبير (لايؤوده) يدلنا بوضوح على ارادة الملك من «وسع كرسيه» بالذات . ومن عبر عن الكرسى بالعلم ـ كابن عباس ومجاهد وغيرهما ـ اراد نفس المعنى ، اذ ملكه تعالى منبعث عن علمه المحيط المعبر عنه بالعرش ايضاً ، حيث التدبير الحكيم يستدعى الاحاطة والعلم بمزايا الامور .

قال تعالى: «ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ـ يونس :٣». وقال: «ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، الا له الخلق والامر ـ الاعراف :٥٤» .

انظر الى الآية الاولى كيف رتبت التدبير على قوله : «استوى على العرش» ليكون المعنى: استوى على عرش التدبير . وتوضحه الآية التالية «الا له الخلق والامر» فالخلق هو ماعبر اولا من خلق السماوات والارض. والأمر هو اقامة شؤونهن وحفظهن عن الفساد والاختلال .

وهكذا جاء التعبير فى سورة الرعد : ٢ «ثم استوى على العرش . . . يدبر الامر» . وفى سورة الفرقان : ٥٩ «ثم استوى على العرش الرحمان ، فاسأل به خبيراً». وفى سورة السجدة: ٥ «ثم استوى على العرش ... يدبر الامر من السماء الى الارض» وعلى نفس النمط فى سورة الحديد : ٥ . وغافر : ١٥ . وطه : ٨ . وغيرهن من آيات .

وفى سورة الحاقة : « فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ـ ١٣ـ١٨» .

فالعرش فى هذه الآية هو عرش التدبير وادارة شؤون الملك يوم لاملك الا

ملكه، كماجاء في آية اخرى: «كلااذا دكت الارض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً ـالفجر: ٢٢» . وقوله :«لمن الملك اليوم؟ للهالواحد القهار ـغافر :١٦» وقوله : « وله الملك يوم ينفخ في الصور ـالانعام : ٧٣ » . كلها تعابير عن معنى واحد ، وهو تصوير سيطرة حكمه تعالى في ذلك اليوم الرهيب «الاله الحكم وهو اسرع الحاسبين ـالانعام: ٦٢» .«ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً ، وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة ـالكهف : ٤٨».«هنالك الولايةلله الحق هوخير ثواباً وخير عقباً ـالكهف : ٤٤».

وقدجاء تأويل «العرش» فيروايات اهل البيت عليهم السلام الى وجهين ، احدهما: العلم . والثاني : كل ماسوى الله تعالى .ففي الحديث الصحيح عن الامام ابي الحسن الرضا عليه السلام : « والعرش اسم علم وقدرة . وعرش فيه كل شيء . ثم اضاف تعالى الحمل الى غيره ـفي قوله : «الذين يحملون العرش» ـخلق من خلقه ، لانه تعالى استعبد خلقاً بحمل عرشه ، وهم حملة علمه . وخلقاً يسبحون حول عرشه ، وهم يعملون بعلمه . . .»[1]

اراد ـعليه السلام ـ تدبيره تعالى الشامل ، المنبعث عن علم وقدرة ، ومن ثم قال : هم حملة علمه . وهم يعملون بعلمه. اى ينفذون تدبيراته في شؤون هذا العالم. كما ان قوله تعالى : « وهو الذى خلق السماوات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ـ هود : ٧ » يعني : ان تدبيره تعالى قبل خلق السماوات و الارض لم يكن قد تعلق بشيء سوى الماء . اذلم يكن في عالم الطبيعة يومذاك موجود ولامعلوم سوى الماء ، لان اول شيء خلقه الله من الماديات هو الماء كمافي الأثر[2] .

قال ابوجعفر الطبري : « واما الذى يدل على صحته ظاهر القرآن فقول

١ـ الكافي الشريف ـاصول ـ ج١ص١٣١

٢ـ راجع : بحارالانوار ج١ ص١٠٢ وج ٥٧ص٣٠٨

ابن عباس الذى رواه جعفر بن ابـى المغيرة عن سعيد بن جبير عنه انه قال : هو علمه . و ذلك لدلالة قوله تعالى «ولايؤده حفظهما» على ان ذلك كذلك ،فأخبر انه لايؤده حفظ ماعلم واحاط به ممافى السماوات والارض . وكماأخبر عن ملائكته انهم قالوا فى دعائهم «ربناوسعت كل شيء رحمة وعلماً ـ غافر : ٧» فأخبر انعلمه وسع كل شيء ،فكذلك قوله «وسع كرسيه السماوات والارض» [١] .

الاستواء

و الاستواء هـو التمكن و الاستيلاء الـتام ، دون الجلوس كما ز عمت المجسمة، كقول الأخطل يمدح بشراً اخا عبدالملك بن مروان حين ولى على امرة العراقين :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف و دم مهراق [٢]

وجاء بمعنى استقامة الأمر ايضاً ، كماقال الطرماح بن حكيم :

طال علـى رسم مهدد أبـده و عفا و استـوى به بلده [٣]

و هكذا جاء بمعنى عمد و قصد ، كقوله تعالى : « ثم استوى الى السماء ـ البقرة : ٢٩» . وكلما جاءذكر «الاستواء على العرش» فى القرآن، انمايعنى الاستيلاء التام بتدبير شؤون العالم ، بعدان كان «العرش» كناية عن مجموع الخلق ،كماجاء فى تعبير الصدوق ـ عليه الرحمة ـ [٤] .

١ـ جامع البيان ج٣ ص٨ط الاميرية

٢ـ البداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص٧

٣ـ جامع البيان للطبرى ،ج١ ص١٥٠

٤ـ راجع : بحارالانوار ج ٥٨ص ٧

الفوقية

واما الايات التي جاء فيها ذكر العلو والفوقية له تعالى [1] . او انه في السماء [2] او انه يدبر الامر من السماء [3] . او تعرج اليه الروح [4] . او تنزل الملائكة من عنده [5] وامثال ذلك ، فهذه الفوقية والعلو لا تعني الجهة التي هي احدى الجهات الست التي تحدد بها الأجسام ، من فوق وتحت ويمين ويسار وخلف وأمام . اذ بعدما انتفت الجسمية عن ذاته المقدسة ، لم يبق مجال لتصوير الجهة له تعالى اطلاقاً . واما هذه التعابير الواردة في الايات ، فان لها تأويلات حكمية دقيقة ، اوضحها علماء الكلام ، وجاء بعض تفاصيلها في رسالة كتبها ابو العباس احمد بن ابراهيم الواسطي ، المعروف بابن شيخ الحزاميين (٦٥٧-٧١١) . [6] ونحن نذكر منها ما يجيب على غالبية الأسئلة الموجهة بهذا الصدد :

انه تعالى كان و لامكان ، لاخلاء ، ولاملاء ، فلم يكن فوق ولا تحت و لا جهة من الجهات ، اذ لا موجود سواه تعالى . ولما خلق الله هذا الكون ذا الجهات الست ، انتزعت له تعالى صفة الخالقية والابداع وتكوين الأكوان ، ولاشك انه تعالى قبل ان يخلق الكون لم يكن في كون ، وهكذا بعدما خلق الكون لم يحل في كون ، فلم يزل كائناً لا في كون . ولم يزل موجوداً لا في جهة ، كما كان قبل ان يكون الكون

١- تقدمت في كلام الاشعري برقم : ٢ و ٣ و ٥ و ٧

٢- تقدم برقم : ٦ «أأمنتم من في السماء»

٣- تقدم برقم : ٤ «يدبر الامر من السماء» .

٤- تقدم برقم : ٨ «تعرج الملائكة والروح اليه» .

٥- تقدم في كلام الدارمي برقم : ٣١-٤٠

٦- نشرت ضمن مجموعة « اربح البضاعة » بمكة المكرمة : ١٣٩٣ هـ ص ٣٩ - ٥٥ .

ويوجه الجهات :

وبعد فنسبة ذاته المقدسة الى الأكوان والجهات نسبة الترفع والتعالى عنها ، لانها محدثات ، ولاتناسب بين الحادث الممكن بالذات والازلى الواجب بالذات انه تعالى فوق كل شيء ومتعال عنها ،لانه اوجدها واحدثها، والمخلوق تحت الخالق والصانع فوق المصنوع ، تحتية لابالجهة وفوقية لابالجهة ، بل بالاعتبار والسببية المنتزعة مما بينهما من نسبة قائمة .

وهذا اذاما لاحظنا من تباين مابين عالم المادة وعالم ماوراء المادة ، وبما اننا عائشون فى وسط من العالم المادى ،فاذا اردنا الاشارة الى العالم الآخر غير المادى، اشرنا ـ طبعاً ـ الى خارج عالمنا هذا ، وهذه الاشارة تقع الى جهة «فوق» لابما انه «فوق» ، بل باعتبار ان كل خارج عن هذا العالم المادى ـ فى المحسوس ـ فوق من كل الجهات ، حيث الواقف فى مركز كرة اذا اراد الاشارة الى خارجها ، لابدان يشير الى خارج سطح الكرة ، الذى هو فوق بالنسبة اليه من كل الجهات .

وهكذا بالنسبة الينا ونحن عائشون على الارض اذا اردنا الاشارة الى خارج عالمنا هذا ، اشارة بالحس ، لابد ان تقع اشارتنا الى خارج هذا المحيط ، وهو فوق فى جميع جوانب هذه الارض .

وعليه فاذا ما اعتبرنا ان تدابير هذا العالم المادى فى جميع ارجائه، تنحدر من عالم ماوراء المادة من عند ربنا العزيز الحكيم ، صح اطلاق الفوق عليه تعالى ، وهكذا التعبير بالنزول من عنده والصعود اليه وما اشبه .لاارادة التحديد والجهة الماديين ، بل الاعتباريين بالنظر الى مابين العالمين من تباين وفرق ، ذاك الى ذروة العلى والشرف والغنى وهذا الى حضيض الخسة والذل والافتقار .

قال تعالى: «وان من شيء الا عندنا خزائنه ،وما ننزله الا بقدر معلوم ـ الحجر: ٢١» . اى ننزله الى عالم المادة تنزيلا بالاعتبار . حتى اذا ما نبت زرع او استخرج معدن من تحت الارض او اصطيد سمك من جوف الماء، قلنا انه من بركات الله النازل

علينا اهل الأرض .

* * *

وعلى ضوء هذا البيان يبدو ان لاغموض على وجه الايات التى تمسك بها الاشعرى واتباعه ، مما لادلالة لها على مقصودهم لودققنا فيها الانظار .

واليك الاجابة الوافيةعلى كل واحدة من الآيات حسب الارقام المتقدمة :

١ـ اماقوله : «الرحمان على العرش استوى ـ طه : ٥»، فقدتقدم ان العرش هوعرش التدبير كناية ، والاستواء هو الاستيلاء التام والتمكن الكامل من الاحاطة بشؤون التدبير .

٢ـ وقوله : «اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ـ فاطر : ١٠» ، فانه صعود ورفع معنوى، لاحسى، اى الاعمال الحسنة ترتفع من هذا العالم المادى ، لتنقلب درجات فى عالم آخر لامادى هو فوق هذا العالم شأناً ورفعة .

٣ـ وقوله: «بل رفعه الله اليه ـ النساء ١٥٨» يعنى الرفع المعنوى ، وتخليصه من شرور هذه الحياة السفلى الكدرة ، الى حياة عليا كريمة ، كما جاء فى سورة آل عمران : ٥٥ « ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا » . وكقوله تعالى : « ثم الى مرجعكم ـ آل عمران : ٥٥» . وقوله فى شأن ادريس عليه السلام : « ورفعناه مكانا علياً ـ مريم : ٥٧». وقوله بشأن الشهداء فى سبيل الله : «احياء عند ربهم ـ آل عمران: ١٦٩» . وغيرها من نظائر كثيرة كان المقصود فيها من التعبير بـ «عندالله» او «الرفع اليه» هو شرف القرب والرفع المعنوى ، لاالقرب المكانى والصعود الحسى .

٤ـ وقوله :«يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون ـ السجدة : ٥» ، هذه الآية عبارة أخرى عن قوله تعالى : «وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم ـ الحجر : ٢١»، فالسماء والارض

اخذتا هنا كناية عن عالم العلو اللامادى وعالم السفل المادى، وان تدابير هذه الحياة انما تتخذ فى عالم اعلى من عند ربنا عزوجل .ومن ثم عقبها بقوله: «ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم . الذى احسن كل شىء خلقه ـ السجدة : ٦ـ ٧» .

٥ـ وقوله : « فاطلع الى اله موسى ـ غافر : ٣٧ » : ليس فيه دلالة على ان موسى ـ عليه السلام ـ قال له :«الله فوق السماوات» ، فلعله هو توهم ذلك ، اذلم ير فى الارض من يصلح ان يكون الاله الذى يدعيه موسى ـ ع ـ فتوهمه موجوداً جسمانياً فى احدى طبقات الجو . اونفرض ان موسى ـ ع ـ قال له ذلك ، لكنه لقصور فهمه زعم من السماء طبقة جوية كانت مسكن إله موسى ـ ع ـ ولم يدر ان كون الاله فى السماء ،انه متعال عن الماديات وانه فوق اطباق العلى لا بالجهة والحدود، بل بالرفعة والشموخ . وهكذا الاشعرى واذنانه لم يعد افهامهم فهم فرعون من امثال هذا المقال .

٦ـ وقوله : «أأمنتم من فى السماء ان يخسف بكم الارض ـ الملك : ١٦ » . قيل : المراد بمن فى السماء هم الملائكة الموكلون بشؤون الارض . لكن الصحيح ان المراد به هو الله تعالى كما فى آية اخرى: «أفأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض ـ النحل :٤٥» . والمقصود بكونه فى السماء كون تدابيره لشؤون الخلق تنزل من مكان على هو عالم ماوراء المادة ، حسبما تقدم.

٧ـ وقوله: «يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون ـ النحل : ٥٠» فوقية بالغلبة والقهر لا بالجهة والحدود ، اذ الملائكة رهن اوامره تعالى وتحت ارادته « لايعصون الله ماامرهم ويفعلون مايؤمرون ـ التحريم : ٦» . وهذا كفوقية الرئيس على المرؤوس والامير على المأمور .

٨ـ وقوله : «تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة ـ المعارج :٤» ، عروجاً الى الملاء الأعلى بعد انتهاء أمد هذه الحياة السفلى ،

رجوعاً اليه تعالى «الى الله مرجعكم جميعاً ، وعدالله حقاً ، انه يبدؤ الخلق ثم يعيده ـ يونس : ٤» .

٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ و استوى فى سورتى البقرة : ٢٩ . وفصلت : ١١ . جاء بمعنى عمد وتوجه . وهو لايستلزم الحركة ولا هو بمعنى الجلوس والاستقرار كما زعم الاشعرى . وفى السور السبع الباقية ـ التى جاء فيها ذكر الاستواء على العرش ـ كان بمعنى الاستيلاء والتمكن من التدبير التام لشؤون عوالم الخلق ، تعبيراً كنائياً لاغير ، وقد تقدم ذلك .

١٢ ـ ١٣ ـ وقوله : «وجاء ربك : الفجر : ٢٢ » . وقوله : «يأتيهم الله : البقرة : ٢٢٠» فمجاز الحذف ، و قد صرح بهذا المحذوف فى قوله : « فاذاجاء امرالله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ـ غافر : ٧٨ » .وقوله : « هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة اويأتى أمر ربك ـ النحل : ٣٣ » . ونظائر ذلك فى الاضمار فى آية والاظهار فى اخرى كثيرة فى القرآن ، كما فى آية الانعام « اويأتى ربك ربك ١٥٨ » وآية النحل « او ياتى امرربك ـ ٣٣ » . و كما فى آية الزمر : « الله يتوفى الأ نفس حين موتها ـ ٤٢ » وآية السجدة : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى و كل بكم ـ ١١ » . و لكن أنى لذوى الافهام المتحجرة فى اطار « الدعوة السلفية » من ادراك فنون كلام الله البديع .

١٤ ـ و قوله : « ثم دنى فتدلى ـ النجم : ٩ » الضمير يعود الى جبرائيل المعبر عنه قبل الاية بقوله : «علمه شديد القوى ، ذومرة فاستوى ، و هو بالافق الاعلى ، ثم دنى فتدلى ، فكان قاب قوسين او ادنى ، فأوحى ـ اى جبرئيل بما حمله الله اوالله برسالة جبرائيل ـ الى عبده ماأوحى ـ النجم : ٤ ـ ١٠ » وقد تقدم شرحه[1] .

وعلى تقدير عودالضمير الى الله ، فالمقصود من هذا الدنو هوقرب الشرف

---

١ ـ فى الجزء الاول ص ٣٤ فما بعد .

ودنو الكرامة لديه تعالى ، لاالقرب المكانى المحدود بالجهات .

١٥ ـ وقوله : « اومن وراءحجاب اويرسل رسولا ـ الشورى : ٥١ » لايدل على انه تعالى منحاز عن خلقه انحيازاً بالمكان والجهة ، ليكون هو فى جهة اوبقعة والخلق فى جهة وفى رقعة اخرى من هذا العالم الفسيح ، كلا ، بل هو حجاب ذاتى لما بين الواجب تعالى و سائر الممكنات من بينونة ذاتية ، لا سنخية بينهما و لا تجانس . ذاك كمال مطلق فى علو العزو شرف الغنى والاقتدار ، وهذا غاية فى النقص والعجز والافتقار . وتقدم « ان الحجاب ـ هنا ـ حجاب معنوى ، لبعد الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن » .

١٦ ـ وقوله : «ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ـ الانعام . ٦٢ » ، كقوله : «ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون ـ الجمعة : ٨ » ردالى حكمه تعالى يوم لاحكم الا حكمه ، حسبما تقدم فى آيات مشابهة لذلك. و من ثم تعقبها قوله « الاله الحكم وهو اسرع الحاسبين ـ نفس الآية » . قال تعالى : « كل شىء هالك الاوجهه ، له الحكم واليه ترجعون ـ القصص : ٧٠ » .

١٧ ـ وقوله : « ولوترى اذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ـ الانعام : ٣٠ » .

المقصود : الوقوف على صدق ما انذروا به على لسان انبيائهم ، فقد وضح الحق لهم حينذاك وكانوا قبل ذلك فى شك من لقائهم هذا . حيث « قالوا ان هى الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ـ الانعام : ٢٩» .«لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد ـ ق : ٢٢ » . « بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لمانهوا عنه وانهم لكاذبون ـ الانعام : ٢٨ » . و من ثم جاء التعقيب بقوله : « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة

قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ـ ٣٠ » .

١٨ ـ و قوله : « و لو ترى اذالمجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً انا موقنون ـ السجدة : ١٢ » كالاية المتقدمة المقصود هو كشف الحق ووضوح الامر . و من ثم جاء فى الاية قبلها : « و قالوا أاذا ضللنا فى الارض أانا لفى خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون ـ ١٠ » . و جاء التعقيب :«فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم ـ ١٤ » .

١٩ـ وقوله: « وعرضوا على ربك ـ الكهف : ٤٨ » كقوله : « انهم ملاقوا ربهم ـ هود : ٢٩ » كناية عن إلجائهم للمثول بين يدى حكمه تعالى يوم لا حكم الا حكمه .

٢٠ـ وقوله : « الله نور السماوات والارض ـ النور : ٣٥ » تعبير رمزى عن كونه تعالى هو منبعث الحياة والازدهار فى عالم الوجود ، كقوله : « واشرقت الارض بنور ربها ـ الزمر : ٦٩ » . ومن ثم قال المفسرون : اى منور السماوات والارض ، اذالنور جسم وهو تعالى ليس بجسم ، بل هو خالق الاجسام كلها ، وقد تقدم وجه استعارة النور لـذاته المقدسة ، حيث النور ظاهر بنفسه ومظهر لغيره ، ولا يظهر شىء فى المحسوس الا باشعاعه عليه . وكذلك ربنا تعالى موجود بنفسه ولنفسه ، وموجد لغيره ، ولم يوجد ولايوجد شىء الا بايجاده تعالى ، فكل شىء ظهر فى عالم الوجود ، فانما هو باشراق فيضه تعالى شأنه .

٢١ـ اما احاديث نزوله تعالى الى السماء الدنيا ـ ان صحت [1] ـ فهى كناية

١ـ وقد ورد بهذا اللفظ فى رواياتنا ايضاً بشأن ليلة الجمعة . راجع : التهذيب ج ٣ ص ٣ رقم : ٣.واما فى حديث العامة فقد ورد بالفاظ منكرة لاشك انها مختلقة وضعتها الايادى الاثيمة . راجع : الموضوعات لابن جوزى ج ١ ص ١٢٢

عن نزول رحمته قريباً من الناس ، مطلة على رؤوسهم ، رحمة بعباده ورأفة ، والا فهل هناك فرق ـ في محسوسنا نحن اهل الارض ـ بين ان ينزل الى السماء الدنيا ام يبقى فوق السماوات العلى ، او ينادى « هل من مستغفر » ام لم يناد . بعد ان لانحس بهذا الاقتراب الودى ، ولا نسمع ذلك النداء العطوف ، لولا انه مجاز وكناية عن قرب رحمته تعالى وتواصل دعوته الى الانابة والاستغفار .

وفي روايات اهل البيت ـ عليهم السلام ـ : ان في الليل لساعة اذا ما وافقها العبد وهو يصلي ويدعو الله عزوجل استجاب الله له ، وهي اولى ساعة بعد منتصف الليل من كل ليلة [1] .

وروى محمد بن علي بن الحسين الصدوق باسناده عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب ـ عليه السلام ـ قال : « من كان له الى ربه حاجة فيطلبها في ثلاث ساعات : ساعة في يوم الجمعة . وساعة تزول الشمس . وساعة في آخر الليل . فان ملكين يناديان : هل من تائب يتاب عليه ؟ هل من سائل يعطى ؟ هل من مستغفر فيغفر له ؟ هل من طالب حاجة فتقضى له ؟ فاجيبوا داعي الله واطلبوا الرزق فيما بين طلوع الفجر الى طلوع الشمس ، فانه اسرع في طلب الرزق من الضرب في الارض ، وهي الساعة التي يقسم الله فيها الرزق بين عباده » [2] .

٢٢ـ والفواصل المأثورة لتحديد ما بين أجرام السماء ، كلها تقريبية حسب افهام البسطاء ذلك العهد ، كما اثر عن امير المؤمنين (ع) انه سئل عن مسافة ما بين المشرق والمغرب ، فقال : مسيرة يوم للشمس . وسئل : كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم ؟ فقال : كما يرزقهم على كثرتهم : فقيل : وكيف يحاسبهم ولا يرونه ؟

١ـ الكافي الشريف ج ٢ ص ٤٧٨ رواها ثقة الاسلام الكليني عن الامام جعفر بن محمد الصادق (ع) .

٢ـ الخصال (ط نجف) ص ٥٨٠ من حديث الاربعمئة .

فقال : كما يرزقهم ولايرونه . وسئل : كم بين السماء والارض ؟ فقال : مدالبصر ودعوةالمظلوم [1] .

وهذا الاجمال المقنع لافهام العامة فى كلام الامام (ع) ابعـد عن التمويه والدجل الذى جاءفى كلام غيره من تحديدات مقياسية لاأصل لها ولا توصلت اليها آراء علماء الفلك آنذاك فكيف بعرب الجزيرة الجاهلة .

٢٣ـ وقوله : «بين يدى الرب» اى بين يدى حكمه وقضائه .

٢٤ـ وحديث « الأمة السوداء » يعنى شيئاً آخر غيرماظنه الاشعرى واتباعه، وذلك : ان العرب يومـذاك كانت تعبد اوثاناًهم نحتوها بايديهم من احجار و اخشاب ، وكانوا يزعمونها آلهة فى الأرض تمثل اله السماء ، « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ـ الزمر : ٣ » فلما جاء الاسلام وأمر بنبذالآلهة غير الله ، اصبح عنوان التوحيد هو الاعتراف باله السماء ونبذ آلهـة الارض ، كناية عن الاعتقاد بالله الهاً واحداً لاشريك له ولانظير ولا مثيل ، فاذا قال انسان : انى لا اعبد سوى الاله الذى فى السماء ، اعتبر ـ ذلك اليوم ـ موحداً، بالنظر الى هذاالمعنى، اى بالنظر الى جانب سلب القضية ، وهو نفى آلهة الارض المزعومة ، لا اثبات كون الاله فى السماء مكانا له بالخصوص، وقد قال تعالى ـ اشارة الى هذاالمعنى ـ « وهو الله فى السماء اله وفى الارض اله ـ الزخرف : ٨٤ » . فهو الـه الارض والسماء جميعاً ، « فاينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة : ١١٥ » . لكن من المؤسف ان الاشاعرة لم يهتدوا الى فهم هذا المعنى .

والقصة التالية ـ ايضاً ـ شاهدة صدق لهذا المعنى الذى تنبهنا له ، رواها عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين . قال : حدثنى ابى عن

١ـ قضاء اميرالمؤمنين للتسترى ص ١٨٩ـ١٩٠ عن نهج البلاغـة باب قصار كلماته ٢٩٤/٣ و ٣٩٦/٣ . وكتاب الغارات للثقفى .

ابيه عن جده :« ان قريشاً جاءت الى الحصين وكانت تعظمه ، فقالوا له : كلم لنا هذا الرجل ـ يعنون محمداً (ص) ـ فانه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبى ـص ـ ودخل الحصين ، فلما رآه النبى ـص ـ قال : أوسعوا للشيخ ـ وعمران واصحابه متوا فدون .فقال الحصين :ما هذا الذى يبلغنا عنك ، انك تشتم آلهتنا وتذكرهم ، وقد كان ابوك جفنة وخبزاً ـ يريد بسط جوده وكرمه على قريش ـ فقال : يا حصين كم الهاً تعبد اليوم ؟ قال : سبعة ، ستة فى الارض واله فى السماء . قال : فاذا اصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذى فى السماء. قال : فاذا هلك المال من تدعو ؟ قال : الـذى فى السماء . فقال له النبى ﷺ : فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ ! [1]

٢٥ـ وأسوأ فهما وأردأ ادراكاً لحقائق الدين ومفاهيمه العليا، هم الحشوية من اصحاب الحديث ، امثال ابى سعيد عثمان بن سعيد الدارمى (٢٠٠ ـ ٢٨٠) ، وابى بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة السلمى (٢٢٣ ـ ٣١١) ، ومن لف لفهما فى كرف حثالات الأخبار والأسقاط وحشو كتبهم منها ، من غير دراية ولا تمحيص . هذا ابن خزيمـة حشى كتابه الذى اسماه « التوحيـد والصفات » من خز عبلات اسرائيلية كانت رائجة ذلك العهد ، فاثبت بها للرب تعالى اعضاء وجوارح، وبذلك انحرفوا عن مسير الاسلام واخـذوا فى اتجاه معاكس ، مغبة اعراضهم عن مسائلة اهل الذكر الذين هم آل بيت الرسول ﷺ وذريته الأطيبين . وقد قال تعالى : « فأسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون ـ النحل : ٤٣ » . لكنهم اعرضوا فعموا فأعمى الله قلوبهم « فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ الحج : ٤٦» .

٢٦ـ وهكذا استدلال ابى سعيد بحديث الاعرابى الذى جاء الى النبى ﷺ

١ـ كتاب التوحيد لمحمد بن اسحاق ص ١٢٠ـ١٢١ .

يشكو الجـدب ـ الى قوله ـ ان الله فوق عرشه ، فوق سماواته ، وسماواته فوق ارضيه مثل القبة ، وانه ليئط به أطيط الرحل بالراكب . فان مضمون ما استشهدبه باطل ، اصطنعه اهل التجسيم افكاً وزوراً . هذا فضلا عن ان هذا الحديث يرويه ابو سعيد عن محمد بن اسحاق عن يعقوب بن عتبة بن المغيرة عن جبير، وقد ذكر الذهبى يعقوب فى «المغنى» فى الضفعاء ، قال :روى حديث الأطيط عن جبير بن محمد ، ولم يرو عنه هذا الحديث سوى ابى اسحاق . وابو اسحاق هذا ايضاً فيه مافيه .

٢٧ـ وحديث المطر ، يرويه ثابت بن انس عن ابيه ، وهو مجهول فى رواة الحديث، صرح بذلك الذهبى فى «المغنى» .

٢٨ـ وحديث ابى بكر لايصلح للاستناد اليه ،لاسنداً ولامدلولا ،بعد ان كان تعبيراً من نفسه لا غير .

٢٩ـ٣٠ـ وهكذا حديث بنى اسرائيل ، وحديث كعب احبارهم ، اذلا ينبغى لمسلم ان يتشبث بكلام عليه صبغة يهودية .

٣١ـ٤٠ـ وآيات جاء فيها التعبير بالنزول من عندالله، قد تقدم حل اشكالها، وانه نزول من مكان على ، علواً بالشرف والمنزلة ، لا علواً بالحس والجهة . اذ كان لعالم ماوراء المادة رفعة شأنية على عالم المادة ،وباعتبار احاطة ذلك العالم بهذا الكون المحسوس ، احاطة تدبير وتربية ، توجه اهل الارض الى خارج محيطها، لتصور هذا المعنى فى مرتكزهم فصوروه فى صورة المحسوس ، ومن ثم توقعوا نزول البركات من جهة العلو، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس، وقياساً للغايب بالمشهود .

٤١ ـ ٤٢ ـ واحاديث نزوله تعالى ، قد تقدم انه تعبير عن اقتراب رحمته من الناس وترفرف بركائه عليهم ، « ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ـ ق:١٦».

٤٣- وحديث نزوله يوم القيامة وتجليه للمؤمنين ، قد تقدم الجواب عنه في احاديث الرؤية . وانها احاديث مفتعلة سوى التي دلت على معنى معقول قابل لتأويل صحيح .

٤٤ - ٤٥ - وهكذا احاديث اقباله تعالى على اهل الجنة ، فانها لم تصح ، والصحيح منها لايدل على ماحسبه القوم من المقابلة الحسية وما اشبه ، وانماهي زلفى في دار رضوان .

رفع اليدين الى السماء

٤٦- وامارفع الرأس واليدين الى السماء حالة الضراعة الى الله والدعاء ،فقد تقدم (ص١٢٧)ان الانسان في فطرته يعلم بأن تدابير شؤون هذه الحياة المادية ، انما تتخذ في عالم آخر غير مادى ،حيث يشاهد انما احاط به من مظاهر هذا الكون جميعاً أمثاله ، ذوات حاجة وافتقار الى من يدبر شؤونها، ومن يقوم بسداد خللها ، فلابد ان وراء هذا المظهر ذى النقص والعجز ، من جهاز مقتدر غنى ذى قدرة وكمال ، هو الذى يقوم بهذا التدبير وذاك السداد ، وما هو الا عالم خارج عن المادة المفتقرة في ذاتها .

واذا كان الانسان يرى من ذاك العالم اللامادى وراء هذا العالم ، فانه يراه محيطاً به من كل الجوانب ، احاطة المدبر - بالكسر -بالمدبر- بالفتح - ، واعلى منه ، علو الكمال على النقص ، ومتبائناً منه ، تبائن القدرة عن العجز .

وبعد فاذا كان الانسان يرى مابين العالمين هذا التباعد ، وكان يرى من عالم الشهود مدبصره في جميع جوانبه ، ياترى ،فأين يقع عالم الغيب ؟! لابد انه محيط بهذا العالم ، واذا كان محيطاً به فهو فوقه ، لان كل محيط بجسم كرى فهو فوقه من جميع الجهات لامحالة ، هكذا يتصوره تجسيم الخيال . اذن فعالم الغيب هو فوق هذا العالم الذى نعيش فيه هذه العيشة المادية، قياساً لغير المحسوس بالمحسوس

فی کـل مایتصوره الانسان من شؤون ماوراء محسوسه اذا ماقاسها بمالديه من محسوسات .

قال تعالى : «وان من شیء الاعندنا خزائنه ومانتزله الابقدر معلوم ـ الحجر: ۲۱» تنزيلا من عالم الغيب الى عالم الشهود، الامر الذی دعا بالمؤمنين وغير المؤمنين من سائر الموحدين ، بل ومن كل من يعتقد بما وراء الحس والشهود ، ان الرحمة والبركات تنزل من عندالله العلى القدير ، من عالم هو اسمى واسنى : «وفی السماء رزقكم وماتوعدون ـ الذاريات :۲۲» .

الى هنا قد انتهينا ـ والحمدلله ـ عن حل شبهات القائلين بالجهة له تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وله الشكر المتواصل على هذا التوفيق والاهتداء الى الصواب .

الاعضاء

تقدم ان المشبهة اثبتوا لله سبحانه اعضاء وجوارح كما فی المخلوقين ، وحكى عن داوود الجواربی انه قال : اعفونی عن الفرج واللحية واسألونی عما وراء ذلك . وقال : ان معبوده جسم ولحم ودم ، وله جوارح واعضاء ، من يد ورجل ورأس ولسان وعينين واذنين ، ومع ذلك هو جسم لا كالاجسام، وله لحم لا كاللحوم، ودم لا كالدماء وكذلك سائر الصفات ، وهو لايشبه شيئا من المخلوقات ، ولايشبهه شیء [۱] .

وماورد فی التنزيل من الاستواء والوجه والعين واليدين والجنب والمجیء والاتيان والفوقية ، اجروها على ظاهرها ، وكذلك ماورد فی الاخبار من الصورة وغيرها ، اجروها على مايتعارف من صفات الاجسام ، وزادوا فی الاخبار اكاذيب وضعوها ونسبوها الى النبی ﷺ زوراً وبهتانا . وقد تقدم نقل بعضها عند الكلام عن مذهب اهل التشبيه والتجسيم .

۱ـ الملل والنحل للشهرستانی ج۱ ص۱۰۵

ونحن فی هذا المجال لانتعرض لهم بالذات ، لأنهم قوم بادوا ولم يبق منهم سوى نقل آثار فی بطون الكتب وقد اكل عليهم الزمان وشرب. انما المهم التعرض لأناس زعموا انهم من صميم الاسلام ، فی حين انهم لم يبتعدوا عن القول بالتشبيه والتجسيم مايفصلهم عنه ، سوى اعادة ماقالوه فی شیء من اللف والالتواء فی مراوغة خبيثة ، وبذلك شوهوا من وجه الاسلام الأغر ، فضلوا واضلوا .

وهؤلاء هم الاشاعرة بالذات ومن لف لفهم من المتشدقين بالسلفية من غير دراية «واذا قيل لهم اتبعوا ماانزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولايهتدون ـ البقرة : ١٧٠» .

وفيما يلی بعض ماذكره ابو الحسن الاشعری واذنابه ومن حذا حذوه فی الأخذ بظاهر المتشابهات، لاثبات الوجه والعين واليد والرجل وسائر الاعضاء والجوارح لله سبحانه ، من غير بيان الكيف ولاتشبيها بشیء من المخلوقين ـ فيما زعموا ـ على غرار مانقلنا من كلام الجواربی حرفاً بحرف .

قال ابو الحسن علی بن اسماعيل الاشعری : بالله نستهدی واياه نستكفی ولاحول ولاقوة الا بالله وهو الله المستعان . اما بعد فمن سألنا فقال : اتقولون ان لله سبحانه وجهاً ؟ قيل له : نقول ذلك ، خلافاً لما قاله المبتدعون ، وقد دل على ذلك قوله عزوجل :

١ـ «ويبقى وجه ربك ذوالجلال والاكرام ـ الرحمان : ٢٧» .

قال : فان سألنا أتقولون ان لله يدين ؟ قيل : نقول ذلك ، وقد دل عليه قوله عزوجل :

٢ـ «يدالله فوق ايديهم ـ الفتح : ١٠» .

٣ـ وقوله عزوجل : «لما خلقت بيدی ـ ص : ٧٥» .

٤ـ وروی عن النبی ﷺ انه قال: «ان الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته». قال: فثبتت اليد.

٥ـ وقدجاء فى الخبر المأثور عن النبى ﷺ ان الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده .

٦ـ وقال عزوجل: «بل يداه مبسوطتان ـ المائدة :٦٤» .

٧ـ وجاء عن النبى ﷺ انه قال : كلتا يديه يمين .

٨ـ وقال عزوجل : «لأخذنا منه باليمين ـ الحاقة :٤٥» .

قال : وليس يجوز فى لسان العرب ولا فى عادة اهل الخطاب ان يقول القائل: عملت كذا بيدى ويعنى به النعمة ، واذا كان الله عزوجل انما خاطب العرب بلغتها ومايجرى مفهوماً فى كلامها ومعقولا فى خطابها ،وكان لايجوز فى لسان اهل البيان ان يقول القائل : فعلت بيدى ويعنى النعمة، بطل ان يكون معنى قوله عزوجل بيدى النعمة . وذلك انه لايجوز ان يقول القائل : لى عليه يدبمعنى : عليه نعمة [١] .

قال :وقداعتل معتل بقول الله عزوجل :«والسماء بنيناها بأيد ـ الذاريات:٤٧» قالوا : الأيد القوة . قيل لهم : هذا التأويل فاسد من وجوه ، احدها : ان الايد ليس بجمع لليد التى بمعنى النعمة ، لانها تجمع على «أيادى» . الثانى: ان مخالفنا لايثبت قدرة واحدة فكيف بقدرتين. الثالث: لما ثبتت لآدم مزية على ابليس فى قوله عزوجل « لما خلقت بيدى » لـو كانت اليد بمعنى القدرة ،لان ابليس ايضاً مخلوق بقدرته تعالى [٢] .

وعقد محمد بن اسحاق بن خزيمة باباً فى كتابه «التوحيد والصفات» حاول فيه اثبات الوجه وسائر الجوارح له تعالى ، وتشبث بآيات وروايات ، منها قوله تعالى «ويبقى وجه ربك» المتقدم فى كلام الاشعرى ، ومنها :ـ

٩ـ قوله تعالى : «كل شىء هالك الا وجهه ـ القصص :٨٨» .

١ـ الابانه للاشعرى طحيدرآباد ص٤٠ ـ ٤١

٢ـ نفس المصدر ص٤١ـ ٤٢

١٠ـ وقال: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ـ الكهف :٢٨».

١١ـ وقال : «فاينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة :١١٥» .

١٢ـ وقال : «للذين يريدون وجه الله ـ الروم :٣٨» .

١٣ـ وقال : «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ـ الروم :٣٩» .

١٤ـ وقال : «انما نطعكم لوجه الله ـ الانسان :٩» .

١٥ ـ وقال : « وما لأحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى ـ الليل : ٢٠» .

١٦ـ ولما نزلت الآية «قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ـ الانعام : ٦٥» قال رسول الله ﷺ : «اعوذ بوجهك» .

١٧ـ وقال رسول الله ﷺ فى دعاء : «وأسألك لذة النظر الى وجهك» .

قال ابن خزيمة . الايعقل ذو الحجا ـ ياطلاب العلم ـ ان النبى ﷺ لايسأل ربه مالا يجوز كونه ! ففى مسألة النبى ﷺ ربه لذة النظر الى وجهه ابين البيان واوضح الوضوح ان الله ـ عزوجل ـ وجهاً يتلذذ بالنظر اليه [١] وقد اكثر ابن خزيمة من سرد روايات جاء فيها ذكر «وجه الله» ، لافائدة فى تكرارها .

كما عقد بابا آخر [٢] ذكر فيه صورة ربنا جل وعلا ! واسهب بغير طائل .

ثم ذكر حديث ابى هريرة :«اذا ضرب احدكم فليجتنب الوجه ولايقل قبح الله وجهك ووجه من اشبه وجهك فان الله خلق آدم على صورته» اى صورة هذا المضروب [٣] وحديثه الآخر : «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً ، فلم يزل الخلق

١ـ رسالة «التوحيد والصفات» لابن خزيمة ص١٠ـ١٣

٢ـ نفس المصدر ص١٩ـ ٣٦

٣ـ نفس المصدر ص٣٦ـ٣٧ . وراجع :كتاب الاسماء والصفات للبيهقى ص٢٩٠ .

ينقص حتى الآن»[1].

وهكذا عقد الحافظ ابو بكر احمد بن الحسين البيهقي فصلا ـ في كتابه «الاعتقاد» الذي الفه على مذهب السلف ـ ذكر فيه آيات وأخباراً في اثبات صفة الوجه واليدين والعين[2].

لكنه في آخر الفصل اول ذلك كله بما لا يستلزم التشبيه، تمسكاً بقوله تعالى «ليس كمثله شيء» وبدلائل من العقل والنقل. ومن ثم نعتبره الحد الوسط بين الاشاعرة ومشرب الاعتزال.

وعقد ابن خزيمة في كتابه «الصفات» باباً لاثبات الرجل والقدم لله تعالى، حاملا على اصحاب التنزيه الذين ينفون الاعضاء عنه تعالى، قائلا: رغم انوف المعطلة الجهمية الذين يكفرون بصفات خالقنا التي اثبتها الله في محكم تنزيله وعلى لسان نبيه ﷺ وقد قال تعالى: «ألهم ارجل يمشون بها ام لهم ايد يبطشون بها ام لهم اعين يبصرون بها ام لهم آذان يسمعون بها ـ الاعراف: ١٩٥» فاعلم ربنا جل وعلا ان من لا رجل له ولا يد ولا عين ولا سمع فهو كالانعام بل هو اضل.

ثم جعل يسرد من اخبار جاء فيها ذكر «الرجل» لله تعالى، منها: ـ

١٨ ـ ما رواه المغيرة بن الأخنس عن عكرمة مولى ابن عباس «ان رسول الله ﷺ انشد قول امية بن الصلت ـ وكان ممن تنصر في الجاهلية وكان ينشد الاشعار في تمجيد الله ـ:

رجل وثور تحت رجل يمينه ... والنسر للاخرى وليث مرصد

قال ﷺ: صدق. ثم قال:

والشمس تصبح كل آخر ليلة ... حمراء يصبح لونها يتورد

---

١ ـ المصدر ص٤٠ ـ ٤١. والبيهقي ـ كتاب الاسماء والصفات ص٢٨٩ ـ ٢٩٠.

٢ ـ الاعتقاد على مذهب السلف اهل السنة والجماعة ص٢٩ ـ ٣٠.

تأبى فما تطلع لنا فى رسلها الا معـذبـة والا تجلـد

فقال رسول الله ﷺ : صدق [1] » .

١٩ ـ ومارواه ابن سيرين عن ابى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : «واما النار فيلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ ويلقون فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه ، هناك تمتلىء ويدنو بعضها الى بعض وتقول : قط قط» . هذا الحديث رواه اهل الحشو فى تفسير قوله تعالى : «يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد ـ ق : ٣٠» [2] .

٢٠ـ قال تعالى : «يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلايستطيعون خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون ـ القلم: ٤٢» .

اخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن ابى سعيد ، قال :سمعت النبى ﷺ يقول : «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً» .وهكذا اخرج ابن منده فى كتابه «الرد على الجهمية» عن ابى هريرة، الحديث.

واخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن منده عن ابن مسعود ،قال : «يكشف عن ساقيه تبارك وتعالى» [3] .

* * *

هكذا زعمت المشبهة ومن على شاكلتهم من حشوية واشاعرة ، ان لله تعالى يداً ورجلا وساقاً ، ووجهاً وعيناً وغيرها من اعضاء وجوارح . هى حاجة المفتقر

١ـ رواه احمد فى مسنده ج١ ص٢٥٦ . وابن خزيمة فى التوحيد والصفات ص٩٠ .

٢ـ رواه البخارى فى صحيحه ج٦ص١٧٣ عند تفسير سورة ق .وابن خزيمة فى التوحيد والصفات ص٩٤ . والسيوطى فى الدر المنثور ج٦ ص١٠٧ .

٣ـ الدر المنثور ـ جلال الدين السيوطى ـ ج٦ ص٢٥٤. وراجع : صحيح البخارى ج٦ ص١٩٨ عند تفسير سورة القلم .

الى عضو وآلة فى مزاولة الأمور ..! ونحن فى غنى عن اقامة البرهان على استغنائه تعالى عن الاستعانة بشىء على الاطلاق ، لان الحاجة مطلقاً صفة الممكن بالذات ، والله تعالى واجب الوجود بالذات ، وهو مرجع الحوائج والافتقارات وملجأ كل ذى حاجة وفقير ، ويستحيل ان تعرضه تعالى حاجة اوافتقار الى شىء سوى ذاته المقدسة ، والا لانقلب الغنى الواجب بالذات الى الفقير الممكن ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . « يـاايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هـو الغنى الحميد ـ فاطر : ١٥» .

واذا لاحظنا صفة الغنى فى ذاته المقدسة «وربك الغنى ذو الرحمة ـ الانعام : ١٣٣» ورجعنا الى الآيات الكريمة التى تصفه تعالى بالغنى الذاتى فى جميع شؤونه تبارك وتعالى «فان ربى غنى كريم ـ النمل : ٤٠» . «وانه هو أغنى وأقنى ـ النجم: ٤٨ » كفانا مؤونة البحث عن تنزيهه تعالى عن الاعضاء والجوارح . انها آيات محكمات لها صراحة وموافقة لحكم العقل الرشيد ، هن ام الكتاب ويجب ارجاع ما ظاهره التنافى لها اليها فى ضرورة الدين . وعليه فكل آية اوقول مأثور جاء فيه ذكر الوجه اواليد او العين لله تعالى فمؤول الى معانى اخر غير ظاهرها اللغوى البحت .

وحاول بعض المشبهة وكذا الاشاعرة تحويراً فى اسناد الجوارح الى الله ، فقالوا : له يد لاكالايدى ، ووجه لاكالوجوه ، وعين لاكالعيون ، اوان له يداً بلا كيف . . . الخ ، اى لاينبغى ان يسأل : كيف هذه اليد التى اثبتموها لله تعالى ، وكيف هذه الرجل التى يضعها الجبار فى جهنم فتقول : قط قط ؟!

لكنها محاولة عقيمة وفاشلة الى حد بعيد ، اذلايفرق فى حكم العقل بين يد ويد اوجارحة وجارحة ، انه تعالى مستغن عن استعمال جارحة اطلاقاً ، سواء أكانت على نحو جوارح الناس ام كانت نحواً آخر ، اذلو كانت له تعالى جارحة ، فمعناه انه تعالى بحاجة اليها ، مهما كانت نوعيتها . كما ان اثبات الاعضاء ـ على اى نحو

كانت ـ يستدعى تركبه تعالى منها ، والتركيب فى ذاته المقدسة مستحيل ، نظراً لان المتركب من الاجزاء محتاج اليها فى تركيبه ، الامر الذى يمتنع بشأنه تعالى اطلاقاً .

* * *

اما الآيات التى تمسكوا بها فلادلالة لها على ثبوت عضو له تعالى ، حتى فى ظاهر تعابيرها البديعة ، فضلا عن امكان تأويلها الى مايتوافق ومحكمات الآيات والعقول . ولنذكر من الآيات ماجاء فيها ذكر الوجه والعين واليد واليمين والساق على الترتيب . وننظر فيما خرجه العلماء فى تأويلاتها الحكيمة ، ثم لنتعرض لما تشبثوا به من احاديث .

الوجه

ذكر «الوجه» مضافاً اليه تعالى فى القرآن فى احد عشر موضعاً ، فى البقرة: ١١٥ و ٢٧٢ . والانعام : ٥٢ . والرعد : ٢٢ . والكهف : ٢٨ . والقصص : ٨٨ . والروم ٣٨ و ٣٩ . والرحمان : ٢٧ . والانسان : ٩ . والليل : ٢٠ . وليس واحد من هذه المواضع مراداً به العضو الذى فيه الأنف والعينان . بل اما بمعنى الذات او بمعنى القصد او التقرب او الزلفى لديه تعالى، لايمكن ارادة الوجه بمعنى العضو المعروف بتاتاً : ـ

قال تعالى : «كل شىء هالك الا وجهه ـ القصص : ٨٨ » . وقال : «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام : الرحمان ٢٧» . ليس المعنى ان الباقى بعد فناء كل شىء هو وجهه بمعنى العضو ، بل المراد : لايبقى شىء سوى ذاته المقدسة تبارك وتعالى ، اى كل شىء هالك الا هو . فجاء الوجه فى هاتين الآيتين بمعنى الذات لاغير . ونستغرب كيف فسر الاشعرى وتابعوه «الوجه» فى الآية بمعنى العضو ! فى حين ان هذا التفسير تحريف واضح بمدلول الآية الظاهرى ، يعرفه

كل من ألقى الى الآية نظرته ولو بدوية . نعم قد يخفى ذلك على من كان على بصره غشاوة .

وقال تعالى : « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة : ١١٥» . ايضاً بمعنى ذاته المقدسة ، المحيطة بهذا العالم احاطة علم وتدبير ، لا يخلو منه مكان ولا يحويه مكان دون مكان . والاية رد على اليهود كانت تزعم ان الصلاة تجب الى بيت المقدس كما كانت قبل تحويل القبلة الى البيت الحرام ، وقامت تعير على المسلمين هذا التحويل المفاجيء : ان كان الاتجاه الى البيت المقدس اتجاهاً الى الله ـ كما كان من ذى قبل ـ فالاتجاه الى الكعبة اتجاه الى غيره تعالى . وان كان الاتجاه اليه هو الاتجاه الى الكعبة ، فالاتجاه السابق كان الى غيره تعالى هذا هو الاعتراض الذى وجهه اليهود الى المسلمين . «سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ـ البقرة : ١٤٢» .

فجاءت الآية الكريمة رداً حاسماً على هذا الاعتراض ، انه تعالى لم ينحصر فى جهة او مكان ، «قل لله المشرق والمغرب ـ البقرة : ١٤٢» . «ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله ـ البقرة : ١١٥» . اى ان الجهات كلها لله وتحت ملكه ، لا يختص به مكان دون مكان ، وانما كانت النسبة اليه تشريفية محضة ، فان كان الله امركم بالاتجاه الى البيت المقدس ، لم يكن ذلك لسبب غير التشريف والاعتبار ، لا لانه مكانه الخاص او انه تعالى حال فيه جل شأنه . فهكذا اقتضت المصلحة تحويل هذا الاتجاه العبادى الى الكعبة وهو بيت الله العتيق ، له نسبة تشريفية قديمة اليه تعالى ، لا لشيء آخر سواه . « وماجعلنا القبلة التى كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وان كانت لكبيرة الا على الذين هدى الله ـ البقرة: ١٤٣ » .

فقوله : «فثم وجه الله» يعنى : اينما اتجهتم فى عباداتكم فثم اتجاه الى الله تعالى ، لانه هو المقصود بالعبادة الخالصة لوجهه الكريم . وانما جاء الامر باتجاه

خاص ، لمصلحة فی ذلك ، ربما كانت وحدة الاتجاه العبادی لجميع المسلمين فی عامة عباداتهم ، الامر الذی كان يشد من وحدتهم فی سائر الامور .

وقال تعالى: «انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكوراً ـ الانسان: ٩» ، اى لقصده ، وان ليس المقصود من هذا الاحسان سوى التقرب والزلفى لديه تعالى ، فهو المقصود بالذات لاالمكافئة ولاالثناء .وهكذا قوله : «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله ـ الروم : ٣٩» اى كانت خالصة لله . الى غيرها من آيات نظائر . والوجه بمعنى القصد كثير فی القرآن وفی الشعر . قال تعالى : « ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله ـ النساء : ١٢٥» اى اخلص قصده الى الله . وانشد الفراء .

استغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد اليه الوجه والعمل

اى اليه القصد والعمل . وغيره من اشعار استشهد بها الشريف المرتضى لبيان اوجه المعانى المقصودة من «الوجه» فی الاستعمال ، وقد استوفى البحث حقه، فراجع [1] .

العين

ذكر العين ـ مضافة اليه تعالى ـ فی القرآن فی خمسة مواضع ،احدها مفردة فی سورة طه : «والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ـ ٣٩ » . خطابا مع موسى عليه السلام . والباقى جمعاً : « واصنع الفلك باعيننا ووحينا ـ هود : ٣٧ » . «فاوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا ـ المؤمنون : ٢٧» . «تجرى باعيننا ـ القمر : ١٤» . الثلاثة خطاباً مع نوح عليه السلام . « واصبر لحكم ربك فانك باعيننا الطور : ٤٨» .خطابا مع محمد صلى الله عليه وآله .والمراد فی الجميع هی الرعاية الخاصة . اذ هذا النحو من الاستعمال لايقصد منه سوى هذا المعنى حتى فيمن كانت له

١ـ الامالی ج١ ص٥٩٠ـ٥٩٣ . المجلس :٤٥ .

الجارحة المعهودة .

وذلك لان دخول الباء عليها متعلقة بفعل مذكور ، يجعلها ظاهرة فى معنى الرعاية ، اما الجمود على ظاهر اللفظ حينئذ فيقتضى وقوع الفعل المذكور فى نفس الجارحة ، وهو فاسد قطعاً ، فليس المراد سوى وقوعه تحت الرعاية الخاصة .

وايضاً لو كان المراد نفس الجارحة ، لم يصح الافراد ولاالجمع فى مثل الآيات المذكورة ، حيث اضافتهاالى شخص واحد .فاذا قلت : انك تفعل بعينى اوباعيننا ، لم يصح وانت ذوعينين اذاكنت قصدت الجارحة الخاصة . امـا ارادة الرعاية والعناية الخاصة فصحيحة ، كما فىقولهم ـ عند تشييع مسافر ـ سر فعين الله ترعاك ، اى رعايته الخاصة تحفظك عن الأخطار .

اليد

ذكرت اليد فى القرآن مضافة اليه سبحانه فى اثنى عشر موضعاً [1] ، منها فى سورة المائدة ـ٦٤ ـ « وقالت اليهود يدالله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء» . غل اليد وبسطها كنايتان عن الامساك والانفاق ، كما فى قوله تعالى : « ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط ـ الاسراء : ٦٩» . اذليس المقصود شد يديه الى رقبته كالكسير ، ومدهما الى طرفيه افقياً كلاعب رياضة . غير ان صاحب الذوق الاشعرى لايرى سوى الجمود على ظاهر التعبير ، بعيداً عن ذوق العرب الرقيق .

وفى سورة آل عمران : « لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن

١ـ آل عمران : ٧٣ و٢٦ . المائدة : ٦٤ مكررة . المؤمنون : ٨٨ . يس : ٧١ و٨٣ ص : ٧٥ . الفتح : ١٠ . الحديد : ٢٩ . الملك : ١ . الذاريات . ٤٧

اغنياء ـ ١٨١ » . تعبير آخر عما جاء في سورة المائدة ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقوله تعالى : « قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ـ آل عمران : ٧٣ » . وقوله : « وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ـ الحديد : ٢٩ » . اى في ملكه وتحت اختياره ، ومن ثم عقبه بايتاء من يشاء دليلا على ارادة هذا المعنى ، اذ ليس الفضل شيئاً ملموساً قابلا للامساك باليد.

وكذا قوله : « فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون ـ يس : ٨٣ » . وقوله : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ـ الملك : ١ ». عبارة أخرى عن قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير ـ آل عمران : ٢٦ » . يكون المقصود استقلاله تعالى بملكوت كل شيء « وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون ـ المؤمنون : ٨٨ » . اى يمنع من يشاء ويعطى من يشاء لا يزاحمه في ملكه أحد وهو الله الواحد القهار .

وقوله تعالى : « ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى ـ ص : ٧٥ » كناية عن مزيد عناية بشأن الانسان ، خلقه تعالى بلا توسيط سبب كما في سائر المخلوقات. وهكذا قوله : « اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاماً فهم لها مالكون ـ يس : ٧١ » كناية عن تفرده تعالى بخلقهن لم يشركه أحد في الخلق ، يعنى انهن مصنوعات لله تعالى ، وهم يتصرفون فيها تصرف الملاك كانها مصنوعات انفسهم ، فبدلا من الشكر يكفرون .

وقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ـ الذاريات : ٤٧ » اى بقوة واحكام ، كما في قوله : « واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب اولى ـ

الايدى والابصار ـ ص : ٤٥ » .اى اولى قوة وبصيرة ، زادهم بصطة فى العلم والجسم .

واما قولة الاشعرى : لايجوز فى لسان العرب ان يقول القائل : عملت كذا بيدى يعنى بهالنعمة .. فكلام شعرى ودعوى بلا علم ، اذاليد فى الآيات المذكورة كان المقصود بها الحصرفى ملكه تعالى . وفى آية الذاريات القوة والاحكام. وقد خبط الاشعرى فى انكاره الجمع على « الايدى » اذ التى لاتجمع على «الايدى» هى التى بمعنى النعمة، التى تجمع على « الايادى » . ولابحث عنهافى آية الذاريات المقصود منها القوة ، وهى تجمع على « الايدى » بلا كلام ، كما فى سورة ص: ٤٥ « اولى الايدى والابصار » . كما ان النافى للقدرة انما ينفى قيام مبدئها بذاته المقدسة صفة زائدة ، ولاينفى قدرته تعالى على الاطلاق . وهذا تلبيس من الاشعرى فى اسناد مالم يقل به خصمه .

كما ان اليد فى «خلقت بيدى» كانت بمعنى العناية الخاصة ولم تكن بمعنى القدرة كمازعمه الاشعرى رداً على خصومه اهل العدل والتنزيه .

وقوله تعالى : « ان الذين يبايعونك انما يبا يعون الله ، يدالله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ـ : الفتح : ١٠ » . اى ان يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التى فوق ايديهم فى المبايعة ، هى يد الله العليا، لان يد الرسول يد المرسل،فمن كان يبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانما يبايع الله ، ومن ثم فان الناكث لبيعته ناكث لما عاهد عليه الله .

واما قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ـ الحاقة : ٤٤-٤٦» . فاليمين يمين المأخوذ ، اى لوادعى علينا شيئا لم نقله لقتلناه صبراً ، كما يفعل الأقوياء بمن يتكذب عليهم ،معالجة بالسخط والانتقام . فصور قتل الصبر بصورته ليكون اهول ، وهو أن يؤخذ بيد المقتول

وتضرب رقبته . وخص اليمين عن اليسار لان القاتل اذا اراد ايقاع الضرب فى قفاه اخذ بيساره ، واذا اراد ايقاعه فى جيده و ان يكفحه بالسيف ـ وهو اشد على المصبور لنظره الى السيف وهو واقع به ـ اخذ بيمينه [1]. وعلى اى حال فهذا التعبير كناية عن قتل الذل والهوان ، وليس كما ذهب اهل الحشو الذين ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

الساق

قال تعالى : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ـ القلم : ٤٢ » . قال الزمخشرى : الكشف عن الساق والابداء عن الخدام [2] : مثل يضرب لشدة الأمر وصعوبة الخطب. وأصله فى الروع والهزيمة وتشمير المخدرات عن سوقهن وابداء خدامهن عند الهرب . قال حاتم :

اخو الحرب ان عضت به الحرب عضها ... وان شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقال ابن الرقيات :

كيف نومى على الفراش ولما ... تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ... عن خدام العقيلة العذراء

فمعنى « يوم يكشف عن ساق » : يوم يشتد الامر ويتفاقم ، ولا كشف ثم ولا ساق ، كما تقول للا قطع الشحيح : يده مغلولة ، ولا يد ثم ولا غل. وانما هو مثل فى البخل . واما من شبه [3] فلضيق عطنه [4] وقلة نظره فى علم البيان . والذى غره

١ـ راجع : الكشاف للزمخشرى ج ٤ ص ٦٠٧ ط بيروت .

٢ـ الخدام جمع خدمة وهى الخلخال، وذلك كرقاب جمع رقبة .

٣ـ اى من تشبث بهذه الاية من اصحاب التشبيه لاثبات ساق له تعالى ورجل ، كما تقدم نقله .

٤ـ اى ضيق مجال فكرته وقصور عقله

حديث ابن مسعود : « يكشف الرحمان عن ساقه : فاما المؤمنون فيخرون سجداً، واما المنافقون فتكون ظهورهم طبقا طبقا كأن فيها سفافيد [1] » . ومعناه : يشتد الامر ذلك اليوم ويتفاقم هوله ، وهو الفزع الاكبر يوم القيامة .قال :ولو كان حيث ذهب المشبهة لكان من حق الساق ان تعرف، لانها ساق معهودة عندهم وهى ساق الرحمان سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون [2] .

الرجل والقدم

لم يأت فى القرآن ذكر رجل أو قدم لله تعالى ،وانما تشبث المشبهة باحاديث زعمتها دالة على ذلك حسبما تقدم.

واغرب من الجميع استدلال ابن خزيمة بآية الاعراف : ١٩٥ ، اذ تعيير الآلهة (الاصنام) بعدم الاعضاء والجوارح انما كان بالقياس الى سائر الناس ، حيث هم افضل مما يعبدون مما لا حركة له ولانشاط . فلا دليل على وجودها لله تعالى ، اذ الكل معترفون بانه خالق السماوات والارض رب العالمين . اما هذه الاصنام التى يعبدونها من دون الله،فانها خشب مسندة جماد لافعالية لها ولا عمل،فهى لاتضر ولا تنفع ، فكيف يعبدونها ! ؟

اما رواية عكرمة لشعر امية بن الصلت ، فواضحة الفساد ، لاحتوائها على مناكير ، فضلا عن اتهام عكرمة ذاته ، فقد كذبه مجاهد وابن سيرين ومالك ،وكان يرى رأى الخوارج ،وهكذا انسان لايعتمد على رواياته ،لاسيما فيما يخص جانب التوحيد والصفات ، وعلى غرارها رواية ابى هريرة لحديث جهنم ، فان اباهريرة بنفسه متهم فى احاديثه ، فضلا عن استدعائها التجسيم فى ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك .

١ــ جمع سفود ــ بالتشديد ــ وهى حديدة يشوى بها اللحم .

٢ــ راجع : الكشاف ج ٤ ص ٥٩٢ــ٥٩٤ .

ثم لو صح الحديث ـ حسبما ـ زعمه اهل السنة ـ فان له تأويلا تعرض له العلماء من وجوه ذكرها الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى . منها: ان يكون المراد اذلال جهنم حيث بالغت فى الطغيان وطلب الزيادة ، فاذلها الله بان وضعها تحت قدمه ، وليس المراد حقيقة القدم ، والعرب تستعمل الفاظ الاعضاء فى ضرب الامثال ولا تريد اعيانها ، كقولهم : رغم انفه وسقط فى يده ونحو ذلك [1] وذكر تأويلات اخر لابأس ببعضها ، فراجع.

واما ماذكره الاشعرى من وجوب الوقوف عند ظاهر اللفظ حتى يقوم دليل على خلافه ،فحق . لولا مايبدو عليه من مراوغة خبيثة ، اذ حجية ظواهر الكلام مما ثبتت فى الاصول ، وهو اصل من الاصول العقلائية ، وعليه بنيت مجارى الافادات والاستفادات لدى اهل المحاورة من جميع الأعراف العامة والخاصة. لكن هذا فيما لم يقم دليل من عقل او نقل قطعى يصلح قرينة صارفة لظاهر الكلام ، وعند ذلك تكون القرينة هى حجة قاطعة دون اصل وضع الكلمة اللغوى . هذا صحيح ،غير ان امثال الأشعرى انما تفوهوا بهذا الكلام تمويهاً وتدليساً على العوام، اذلم يتعرض اهل العدل والتنزيه لتأويل كل ظاهر من الكلام ، سوى ماقام دليل قاطع على ارادة خلاف ظاهره من عقل رشيد اومحكم فى الكتاب والسنة .

وقد تقدم الفارق بين الاشاعرة الذين يؤولون المحكم على حساب المتشابه كتأويل الاشعرى « لاتدركه الابصار » على حساب التحفظ على ظاهر « الى ربها ناظرة » واهل العدل الذين يؤولون المتشابه على حساب المحكم ،وكم بين الطريقتين من فرق واضح، وكم ابتعدت الاشاعرة عن منهج الاستقامة فى استنباط المفاهيم الاسلامية العريقة ، لان الابتعاد عن منهج العقل ابتعاد عن صميم الاسلام ، فضلا عن استدعاء منهج الاشعرى تشويها لمبادىء الاسلام واصوله الضافية ، وذلك حط من كرامة

١ـ فتح البارى ج٨ ص٤٥٧ .وراجع :مشكل الحديث لابن فورك ص٤٤

هذا الدين وتحريف بمواضع الكلم ، وذنب لايغفر .

مسألة الاستطاعة

من المسائل التى وقع فيها الخلاف بين الأشاعرة واهل العدل ، هى مسألة «الاستطاعة» : هل للعبد قدرة على اختيار مايريد وترك مايكره ، ام ليس له اختيار لاعلى فعل ولاعلى ترك ، وانما هومضطر على الفعل اوالترك وفق ماارادالله.

وبعبارة اوجز : هل للعبد ارادة فيما يوجده من افعال ، ام لاارادةله ، وانما يفعل مايفعل بارادةالله ، كآلة صماء فى يد الفاعل المختار. وهوالله الواحدالقهار ؟

ذهب اهل الجبر ـ وفى مقدمتهم ابو الحسن الاشعرى ـ الى سلب اختيار العباد، وانماهى ارادةالله مسيطرة على عالم الوجود، فلايقع فعل ولايتحقق عمل من الاعمال الابارادته تعالى ، لامدخل لاختيار العباد وارادتهم ، بل لااختيار لهم ولاارادة .

ولشناعة هذا المذهب وبداهة بطلانه ، ابتدع الاشعرى مسألة هى مسألة «الكسب» قال : ليس للعباد اختيار فيما يفعلونه، وانما لهم اكتساب فى الافعال ، بسبب الارادة الحادثة .

قالوا : هناك ارادتان ، قديمة وحادثة ، فارادةالله القديمة هى العلة الاصلية لوقوع مايقع من افعال واعمال ، وانكانت منسوبة الى العباد ، وهذه النسبة انما جاءتهم من قبل ارادتهم الحادثه ، حيث انهم ارادوا فعل شىء اوتركه، وهذه الارادة وان كانت لم تؤثر فى وقوع ماوقع ، لكنها صارت سبب هذا الانتساب ، ومن ثم كانت نسبة الافعال الى العباد نسبة اكتساب ، فهم مكتسبون لهابسبب ارادتهم هذه الحادثة تجاه ارادةالله القديمة التى هى العلة والسبب ، وسابقة على ارادات العباد. وعليه فالعباد مكتسبون لافعالهم وليسوا مختارين فيها ، وبذلك قال : ان لارادة العباد تأثيراً ما ، واراد جهة الاكتساب والانتساب لاالتأثير فى الوقوع ، اما تأثير ارادتهم فى وقوع الافعال وعدمه فينفيه ، لانه تحت ارادةالله المستقلة السابقة على هذه الارادات الحادثة .

وقدشنع عليهم هذاالرأى ـ ايضاً ـ بأنه اذالم يكن لارادة العبد واختياره تأثير فى الفعل وعدمه ، فما موقعية مسألة الكسب لتكون فاصلة بين الجبر والاختيار ؟ !

وقد تقدم[1] ان الاشعرى مهما حاول التخلص عن شناعة القول بالجبر ، فانه جبرى خالص ، وانما محاولته تلك مراوغة ونفاق ، ولامفهوم لمسألة الكسب اطلاقاً .!

واليك من تشبثات الاشاعرة وسائر اهل الجبر فيمازعموه دليلاعلى نفى الاستطاعة وسلب القدرة عن العباد :ـ

١ـ قال تعالى :«قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون ـ الصافات : ٩٦» اى عملكم ، على ان «ما» مصدرية . اومعمولكم ، على ان «ما» موصولة . فعلى الاول يكون نفس الايجاد والايقاع من فعله تعالى . وعلى الثانى فالعمل المتحقق خارجاً هو فعله تعالى . وعلى كلا التقديرين يثبت ان لاعمل للعبد . قاله التفتازانى .

٢ـ وقوله تعالى : «وخلق كل شىء فقدره تقديراً ـ الفرقان : ٢» .

٣ـ وقوله : « ذلكم الله ربكم لااله الاهو خالق كل شىء فاعبدوه ـ الانعام : ١٠٢ » .

٤ـ وقوله: «قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ـ الرعد :١٦».

٥ـ وقوله : «الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ـ الزمر :٦٢» .

٦ـ وقوله :ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لااله الاهو ـ غافر:٦٢» .

قال التفتازانى : اى خالق كل شىء ممكن ، بدلالة العقل ، وفعل العبد شىء فهو داخل فى عموم مخلوقاته تعالى .

٧ـ وقوله تعالى : «أفمن يخلق كمن لايخلق افلاتذكرون ـ النحل :١٧» ،

١ـ تقدم فى ص ٧١ ان ابا الحسن الاشعرى يرى من تعلق القدرة الحادثة بالمقدور كتعلق العلم بالمعلوم ليس له تأثير أصلا. وقدتكلمناهناك عن مذهب الاشعرى فى الجبر ، ووهن مسألة الكسب التى ابتدعها للتخلص عن شناعة القول بالجبر ، الامر الذى كان فراراً من المطر الى الميزاب .

قال التفتازانی: وهذا مقام التمدح بالخالقية، وان الخالقية هی مناط استحقاق العبادة فلو كان غيره تعالى خالقاً لاستحق العبادة ايضاً .

٨ـ وقوله : «هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ـ فاطر :٣» .

٩ـ وقوله : « هو الله الخالق البارىء المصور له الاسماء الحسنى ـ الحشر : ٢٤ » .

١٠ـ وقوله : « الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ـ الاعراف :٥٤» .

١١ـ وقوله : « والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون ـ النحل : ٢٠» .

١٢ـ وقوله :«ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض ومابينهما ـ الفرقان ٥٩» . قالوا :واعمال العباد فيما بين السماوات والارض ،فيجب ان تكون من خلق الله .

١٣ـ وقوله : «ان ربك فعال لمايريد ـ هود : ١٠٧» . قالوا : وفى افعال العباد مايريده الله تعالى فيجب ان يكون فاعلا لها .

١٤ـ وقوله : «ما أصاب من مصيبة فى الارض ولافى انفسكم الافى كتاب من قبل ان نبرأها ـ الحديد :٢٢» .

١٥ـ وقوله : «واختلاف السنتكم والوانكم ـ الروم :٢٢» . فما يخرج من اللسان كاللون مخلوق لله.

١٦ـ وقوله: «واسروا قولكم اواجهروا به انه عليم بذات الصدور، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ـ الملك : ١٣ و١٤» . فكل سر اوجهر من القول فهو مما خلقه الله.

١٧ـ وقوله : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ـ البقرة : ١٢٨ » . يدل على ان الاسلام والايمان من قبله تعالى .

١٨ـ وقوله : «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ـ الحديد :٢٧».

١٩ـ وقوله : «وانه هو اضحك وابكى ـ النجم : ٤٣» .

٢٠ـ وقوله: «امخلقوا من غير شيء امهم الخالقون ـ الطور : ٣٥» .

٢١ـ وقوله : « امجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ـ الرعد : ١٦» .

٢٢ـ قالوا :ان الواحد منا لو كان محدثا لتصرفاته لوجب ان يسمى خالقاً لها، والأمة قد اتفقت على ان «لا خالق الا الله» .

٢٣ـ وقالوا : لا تجتمع قدرتان على مقدور واحد ، فاما ان يكون المؤثر في ايجاد الفعل هي القدرة القديمة (قدرة الله) او القدرة الحادثة (قدرة العبد) . وبما ان القدرة القديمة سبقت الحادثة ، فهي المستقلة بالتأثير المستغنية عن علة اخرى هي متأخرة وهي القدرة الحادثة .

٢٤ـ وايضاً فان لازم القول بتأثير قدرة العبد ـ في ايجاد الافعال ـ هو الشرك مع الله في الخلق والايجاد ، ولا مؤثر في الوجود الا الله .

٢٥ـ وقالوا : لو كان العبد خالقاً لأفعاله لكان عالماً بتفاصيلها ، ضرورة ان ايجاد الشيء بالقدرة والاختيار لا يكون الا كذلك، واللازم باطل، فان المشي من موضع الى موضع قد يشتمل على سكنات متخللة وعلى حركات بعضها اسرع وبعضها أبطأ ، ولا شعور للماشي بذلك . وليس هذا ذهولا عن العلم ،بل لو سئل لم يعلم . وهذا في اظهر افعاله . واما اذا تأملت في حركات اعضائه في المشي والأخذ والبطش ونحو ذلك وما يحتاج اليه من تحريك العضلات ومد الاعصاب ونحو ذلك فالأمر اظهر .

٢٦ـ وزادت المجبرة الصريحة تمسكاً بقوله تعالى:«ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم اعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون ـ الاعراف :١٧٩».

٢٧ـ وبقوله تعالى : ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول مني لأملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين ـ السجدة :١٣»ـ

٢٨ـ وبقوله : «ما كانوا ليؤمنوا الا ان يشاء الله ـ الانعام :١١١» .

٢٩ـ وبقوله : «وماتشاؤون الا ان يشاءالله ـ الانسان : ٣٠» .

٣٠ـ وبقوله : «ولوشاءالله ماشركوا ـ الانعام : ١٠٧» .

٣١ـ وبقوله : «ولوشاءالله ماقتتلوا ـ البقرة : ٢٥٣» .وغيرها من آيات جاء فيها ذكر المشيئة .وبآيات الهدايةوالضلالة منسوبتين الى الله[١] سنعرض لها فى فصل قادم .

٣٢ـ واجاب ابو الحسن الاشعرى عن قوله تعالى: «وماخلقت الجن والانس الاليعبدون ـ الذاريات : ٥٦» بأن الله عزوجل انما عنى المؤمنين دون الكافرين ، لانه أخبر انه ذرأ لجهنم كثيراً من خلقه ، فالذين خلقهم لجهنم واحصاهم وعدهم وكتب باسمائهم واسماء آبائهم وامهاتهم غير الذين خلقهم لعبادته .

٣٣ـ وعن قوله تعالى: «ومأصابك من سيئة فمن نفسك ـ النساء:٧٩» بالحمل على الاستفهام الانكارى ، اى اتزعم انها من نفسك ؟! . جمعاً بينه وبين قوله : «قل كل من عندالله ـ النساء : ٧٨»[٢] .

٣٤ـ وعن قوله تعالى : « ومالله يريد ظلما للعباد ـ غافر : ٣١ » . وقوله : «ومالله يريد ظلما للعالمين ـ آل عمران : ١٠٨» بانه تعالى لايريد ان يظلمهم ، لان يظلم بعضهم بعضاً ، اذلم يقل : لايريد ظلم بعضهم لبعض. فلم يردان يظلمهم ،وان كان اراد ظلم بعضهم لبعض[٣] .

٣٥ـ وقالوا ـ فى قوله تعالى :«فتبارك الله احسن الخالقين ـ المؤمنون:١٤».وقوله تعالى : « واذتخلق من الطين كهيئة الطير ـ المائدة : ١١٠ » . ـ : ان الخلق هاهنا

١ـ راجع: الابانة لابى الحسن الاشعرى ص٦ وص٤٩ـ٥٩ .وشرح الاصول الخمسة للقاضى ص٣٨٢ ـ٣٨٧ وص٤٦٤ و٤٧٥. وشرح العقائد النسفية للتفتازانى ص٦٠ ـ٦١.

٢ـ الابانة ص٥٩

٣ـ الابانة ص٥٨

بمعنى التقدير [1] .

٣٦ـ واعترض عليهم بان الكافر و الفاسق حينذاك مجبوران على الكفر والفسق فلايصح تكليفهما بالايمان والطاعة . فاجابوا : انه تعالى اراد منهما الكفر والفسق باختيارهما فلاجبر . كما انه علم منهما الكفر والفسق بالاختيار ولم يلزم تكليف المحال [2] .

والكلام في هذا المجال كثير اقتبسنا نماذج هي رؤوس مطالب القوم [3] حاولوا فيها اثبات شمول قدرته تعالى، بما يستلزم سلب القدرة عن العباد اطلاقاً على ايجاد فعل اوترك ، وانماهم مضطرون فيما يفعلون لاارادة لهم ولااختيار . وبذلك حاولوا ـ فيما حسبوا ـ نفي الشريك عنه تعالى ، وطعنوا على اهل العدل بانهم يثبتون لله شركاء لاحصر لها ولاحد . قالوا : المجوس اسعد حالا منهم ، حيث لم يثبتوا الاشريكاً واحداً ، وهؤلاء يثبتون شركاء لاتحصى [4] .

ونحن ـ في هذا العرض ـ نقدم فصولا نبحث خلالها عن مسائل : «الاختيار» و«الارادة» و«الامر بين الامرين» وعن نسبة مابين قدرة العبد وقدرته تعالى . وعن السر في اضافة الافعال والمولدات اليه سبحانه . ومالى ذلك من بحوث لها صلة بالموضوع ،واخيراً نتعرج الى شبهات اهل الجبر وحل متشابهات آيات تشبثوا بها في هذا المجال ، وتخريج تأويلها الصحيح انشاءالله تعالى ، ومنه التوفيق :ـ

١ـ شرح العقائد النسفية ص٦٢

٢ـ شرح العقائد النسفية ص٦٣

٣ـ ولتفصيل اكثر راجع اصل نظرية الجبر ، في شرح المواقف للشريف الجرجاني ـ المرصد السادس ص٥١٥ .وراجع نقد النظرية باسلوب منطقي حكيم، في محاضرات سيدنا الاستاد ـ بقلم الفياض ـ ج٢ ص٤٤ـ ٧٧ .

٤ـ شرح العقائد النسفية ص٦١

الافعال الاختيارية

اما اهل العدل والتنزيه فوقفوا من مسألة «الاستطاعة» موقفاً نزيهاً ، وقدسوا ساحة قدسه تعالى اجمل تقديس، فى هدى العقل الرشيد ومحكمات الآيات والآثار الصحيحة .

قالوا : ان الله خلق الخلائق لاشريك له فى الخلق ، ولاخالق سواه ،وركب فى كل مخلوق صفة وجعل لكل موجود أثراً .وجعل من اوصاف الاشياء وآثارها نوعين ، منها مايصدر عنها صدوراً لا باختيارها ولاهى مقيدة بارادتها ، كطلوع الشمس واشراقها ،ونبت الشجر واثماره .ومنها مايصدر عنها صدوراً تحت اختيارها ومقيدة بارادتها ، كمشى الدابة ووقوفها وطلبها للحشائش وأكلها.

قالوا : هناك فرق ضرورى بين حركة يد المرتعش الحادثة لاعن اختياره ، وتحريك اليد لتناول الطعام والشراب ، المنضبط تحت الاختيار . كالفرق بين التنفس والتكلم ، وهكذا بين نبات الشعر وحلقه ، الاول لا اختيارى والثانى اختيارى .

والفعل الاختيارى هو ماذا شاء الانسان فعله اوشاء تركه ، الامر الذى يجده الانسان فى صميم فطرته فارقاً بين الامرين بديهياً لاغبار عليه .

كمايجد الانسان من نفسه الفرق بين تعلق الارادة بالعمل الذى يريده ،وتعلق العلم به .حيث لااثر للعلم فى تحقق المعلوم، اماالارادة فهى الباعثة على تحقق المراد. وكذا القدرة على عمل هى التى جعلته تحت اختياره انشاء فعله اوتركه ،ولاهكذا اثر للعلم بالنسبة الى المعلوم .

والخلاصة : انهناك افعالا اختيارية تصدر من الفاعل المختار حسب ارادته واختياره ،يكون هو المسؤول عنها ، تحسينا اوتقبيحاً، مدحاًاوذماً ، ثواباً اوعقاباً . ولايسأل عنها غيره بتاتاً . لايؤخذ الجار بذنب الجار. ولاتزر وازرة وزر اخرى ،

ومضاعفات كل عمل انما ترجع على العامل وتستند اليه تبعاته من خير اوشر، صلاح اوفساد، حق اوباطل.

هذا ماتشهد به ضرورة العقل وبداهة الوجدان، وعليه صح التكليف والتشريع وبعث الرسل وانزال الكتب، والامر والنهى، والوعد والوعيد، والمثوبة والعقوبة وماإليها، والالغى التكليف وبطل التشريع والبعث والزجر، ولم يكن موقع لتحسين اوتقبيح ولااستحقاق جزاء. ولأصبح تحسين المحسن على احسانه عبثاً كمدح الجميل على حسن صورته. وهكذا لغى ذم المسيء على اسائته كذم الدميم على قبح منظره وقدح القصير على قصر قامته اوالاعرج على عرج رجله.

ولنتساءل الاشاعرة: هل تجدون من انفسكم الفرق بين جود الكريم وصفاء اللؤلؤ؟ اوشح البخيل وسواد الفحم؟ فان قالوا: نعم، سألناهم فالى من يرجع مدح الجود اذا جاد الكريم، والى من يعود ذم الشح اذا بخل البخيل؟ فان قالوا: الى الله قلنا: فلم يكن فرق بين الكريم واللئيم اذا كان كرم ذاك ولؤم هذا كلاهما من عند الله، غير داخلين تحت اختيارهما وارادتهما، وبالتالى لم يكن فرق بين كرم الكريم وصفاء اللؤلؤ، اوبين شح البخيل وسواد الفحم، فقد نقضتم ماعترفتم به اولا!

* * *

وقد دل صريح القرآن فى محكمات آياته الكريمة على صحة ماشهدت به العقول واعترفت به العقلاء، وذلك جميع الآيات التى جاء فيها ذكر الوعد والوعيد والامر والنهى، والتكليف والتشريع، والمثوبة والجزاء، والدعوة الى الايمان والخروج عن طاعة الشيطان، ومدح المؤمنين وذم الكفار والمنافقين. وهى تشكل غالبية آى القرآن الكريم ولنذكر منها شواهد:

١ـ قال تعالى: «ألاتزر وازرة وزر اخرى، وان ليس للانسان الاماسعى، وان سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ـ النجم: ٣٨ـ ٤١».

٢ـ وقال: «ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم

مشكوراً ـ الاسراء : ١٩» .

٣ـ وقال: «ان الساعة آتية أكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ـ طه: ١٥».

٤ـ وقال: «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له لكاتبون ـ الانبياء : ٩٤».

٥ـ وقال : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ـ الزلزله : ٧ـ ٨».

٦ـ وقال : «ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله تواباً رحيماً ـ النساء : ١١٠» .

٧ـ وقال : «من يعمل سوءاً يجز به ـ النساء : ١٢٣» .

٨ـ وقال : «ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات ـ الطلاق : ١١».

٩ـ وقال: «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ـ الانسان : ١٢» .

١٠ـ وقال : «ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون ـ الانعام : ١٤٦» .

١١ ـ وقال : « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ـ الانعام : ١٥٧» .

١٢ ـ وقال : « ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ـ النحل : ٩٦» .

١٣ـ وقال : « كل نفس بما كسبت رهينة ـ المدثر : ٣٨» .

١٤ـ وقال : «فأصابهم سيئات ما كسبوا ـ الزمر : ٥١».

١٥ ـ وقال : « لايكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت البقرة : ٢٨٦» .

١٦ـ وقال : «كل امرء بما كسب رهين ـ الطور : ٢١» .

١٧ـ وقال :«للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ـ النساء:

١٨ـ وقال :«ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت ايدى الناس ـ الروم: ٤١».

١٩ـ وقال: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ـ غافر :١٧».

٢٠ـ وقال تعالى : «كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم ـ البقرة : ٢٨».

لو كان الله هو خلق الكفر فى الكافر لم يتوجه هذا التوبيخ . كما لا توبيخ على الصحة والمرض والموت والحياة.

٢١ـ وقال: «ومامنع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ـ الاسراء :٩٤».

ماهذا الاستفهام الانكارى اذا كان الله هو الذى منعهم عن الايمان ؟!

٢٢ـ وقال : «وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر ـ النساء : ٧٩» .

٢٣ـ وقال: «ومالكم لاتؤمنون بالله ـ الحديد :٨». فلولا ان الايمان موقوف على اختيارنا لم يستقم هذا الكلام ،ولجرى مجرى ان يقول لهم :لم لاتطول قوائمهم اولاتبيض ابدانهم ونحو ذلك. ولكان للممتنع عن الايمان ان يقول :انت الذى منعتنى عن الايمان ولم تخلقه فى ، فكيف توبخنى عليه ؟!

٢٤ـ وقال : «فما لهم عن التذكرة معرضين ـ المدثر :٤٩» . ماهذا الانكار لو كان اعراضهم بفعل الله ؟!

٢٥ـ وقال تعالى : «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ـ الكهف : ٢٩». دليلا على ان الكفر والايمان كليهما واقعان تحت اختيارنا وليسا مخلوقين فينا من غير جهة ارادتنا، والالم يصح هذا الكلام . ولما فى الآية التالية :

٢٦ـ « لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ـ البقرة : ٢٥٦» .فان اعتناق الايمان والكفر يأبى الاكراه والاجبار ، مادام الاعتقاد بشىء رهن وضوح الحق واقتناع النفس به .

٢٧ـ وقال : «وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون ـ الذاريات : ٥٦» . دليلا

على ان الله تعالى لا يريد من العباد جميعاً سوى الاطاعة والانقياد، ارادة تشريع وحكم فكيف يخلق فيهم الكفر والعصيان بارادة تكوينية، ثم يطلب منهم الاطاعة والانقياد تشريعاً ؟!

٢٨ـ وقد قال تعالى : «وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ـ ص:٢٧».

٢٩ـ وقال تعالى : «ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ـ المزمل : ١٩ » .

٣٠ـ وقال : «لمن شاء ان يتقدم منكم او يتأخر ـ المدثر : ٣٧» .

٣١ـ وقال : «كلا انه تذكرة فمن شاء ذكره ـ المدثر : ٥٥».

٣٢ـ وقال : « كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره ـ عبس : ١٢» .

٣٣ـ و قال : « ان هو الا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم ان يستقيم ـ التكوير : ٢٨» .

٣٤ـ وقال تعالى: « سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا و لا آباونا ، و لا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن و ان انتم الا تخرصون ـ الانعام : ١٤٨ » .

لا تعدو قولة المشركين ـ في الجبر وان اشراكهم مفروض عليهم من قبل الله ـ قولة الاشاعرة في ان الكفر والايمان مخلوقان في الكافر و المؤمن بمعزل عن اختيارهما ـ كما تقدم في كلام الاشعري بالذات ـ ومن ثم فهذه الاية الكريمة رد صريح على مذهبهم الفاسد ، و يوجه اليهم الاعتراض : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم ـ ايتها العصابة الاشعرية ـ الا تخرصون.

و اما الاية التي بعدها : « قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين ـ الانعام : ١٤٩ » فالمشيئة هنا هي المشيئة التكوينية ، اما المشيئة التشريعية فقد شاءها

الله تعالى بلاشك ، لانه تعالى وجه دعوته الى عامة الناس : « يا ايها الناس اعبدوا ربكم ـ البقرة : ٢١» . «واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ـ النساء : ٣٦» . « اطيعوا الله واطيعوا الرسول و اولى الامر منكم ـ آل عمران: ٣٢» . « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا ـ التغابن : ١٦» .

٣٥ـ وقال : «وقالوا لو شاء الرحمان ما عبدناهم مالهم بذلك من علم ـ الزخرف: ٢٠ » . وهكذا الاشاعرة قالوا : لو شاء الرحمان ما كفر الكافر و لا عصى العاصى . مالهم بهذا الكلام الباطل من علم « انهم الا يخرصون » .

٣٦ـ وقال تعالى : «واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ـ آل عمران : ١٣٢» . ماهذا الامر وماهذا الطلب ، لو كانت الاطاعة والعصيان خارجتين عن تحت قدرتهما ، ولايستطيعان الايمان ولا الكفر الا اذا خلق الله ذلك فيهم ، فهل هذا الا طلب مالايقدر العباد على فعله ؟!

٣٧ـ وقال : « اطيعوا الله و رسوله ولاتولوا عنه و انتم تسمعون ـ الانفال : ٢٠ » .

٣٨ـ وقال : « وان ربكم الرحمان فاتبعونى واطيعوا امرى ـ طه: ٩٠» .

٣٩ـ و قال : « واطيعوا الله واطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين ـ التغابن: ١٢ » .

والايات من هذا القبيل ـ تسند الاطاعة والعصيان ، والكفر والايمان، وسائر افعال العباد الى انفسهم و اختيارهم ، ان شاؤوا فعلوا وان شاؤوا تركوا ـ كثير فى القرآن ، وقد ارجعت تبعات اعمال العباد الى انفسهم بالذات ، من خير او شر ، صلاح او فساد. ـ ٤٠ـ «وقال موسى: ان تكفروا انتم ومن فى الارض جميعاً فان الله لغنى حميد ـ ابراهيم : ٨ » . فكيف هذا الكلام لو كان الله هو خلق فيهم الكفر ؟ !

ومن ثم نقول للاشاعرة بالذات : « ان تكفروا ـ انتم ايضاً ـ فان الله غنى عنكم

ولايرضى لعباده الكفر ـ الزمر : ٧ » . اذ كيف يخلق فيهم الكفر مريداً منهم الكفر ـ حسب تعبير الاشعرى[1] ـ وهو تعالى لايرضى لعباده الكفر ؟! نعم «فعميت عليكم أنلزمكموها وانتم لها كارهون ـ هود : ٢٨» . « فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـ الحج : ٤٦ » .

و بعد هذا العماء وا لعمه و الانحراف فى قلوبكم ـ ايتها الاشاعرة حتى اليوم ـ « لاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم ـ هود : ٣٣» .

ارادة تكوينية وارادة تشريعية

اصطلح اهل الفن على تسمية ارادة الله المتعلقة بتكوين شىء بالارادة التكوينية وتسمية طلبه وامره لشىء بالارادة التشريعية ، وهو يشكل طرفاً من بحث «الطلب والارادة » فى علم الاصول .

فمن الاول قوله تعالى : « انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ـ يس : ٨٢ » : وقوله : « قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءاً اوارادبكم رحمة ـ الاحزاب : ١٧» . وقوله : « واذا اراد الله بقوم سوءاً فلامرد له ـ الرعد : ١١» . الى غيرهن من آيات .

ومن الثانى قوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ـ البقرة : ١٨٥ » . وقوله : «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد ان يتوب عليكم . ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلاعظيماً . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً ـ النساء : ٢٦ ـ ٢٨» . وقوله : «مايريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم و ليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ـ المائدة : ٦» .

---

١ ـ الابانة ص ٦ ـ ٧ وص ٦٦ ـ ٦٧ .

والارادة التكوينية لاتتخلف عن تحقق المراد ، ماارادالله كان ومالم يرد لم يكن ، «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون ـ النحل : ٤٠ » بل لا حاجة الى قولة «كن » . وانما هى تقدير ، وبعبارة فنية : ان نفس ارادته تعالى لتكوين شيء كافية فى تحققه وجوداً ، والامر فى قوله « كن» أمر تكوينى ايضاً ، حيث ارادته تعالى هو فعله .

قال الشيخ ابوعبدالله المفيد : ان ارادةالله تعالى لافعاله هى نفس افعاله ، و ارادته لافعال خلقه أمره بالأفعال ، وبهذا جاءت الآثار عن أئمة الهدى من آل محمد ـ صلى الله عليه وآله ـ و هو مذهب سائر الامامية الامن شذ منها عن قرب [1] وفارق ما كان عليه الاسلاف .واليه يذهب جمهور البغداديين من المعتزلة وابو القاسم

١ـ شاع تفسير الارادة بالعلم بالمصلحة الداعية فى عصر متأخر عن الشيخ المفيد ، ومن ثم اعتبروا الارادة صفة ذاتية ، ولم يعتبروها من صفات الافعال . راجع : تجريد الاعتقاد للطوسى بشرح العلامة الحلى ، بحث الالهيات ـ المسألة الرابعة ـ ص١٥٩ ط الهند .وشرح الباب الحاديعشر للفاضل المقداد فى الصفة الرابعة، اختار مذهب الحسن البصرى قال : هى عبارة عن علمه تعالى بما فى الفعل من المصلحة الداعية الى ايجاده .ص٢٩ ط١٣٩٥ هـ .

ومن ثم قال العلامة المجلسى فى ذيل الرواية : اعلم ان ارادةالله تعالى ـ كما ذهب اليه اكثر متكلمى الامامية ـ هى العلم بالخير والنفع وماهو الاصلح ، ولايثبتون فيه تعالى وراء العلم شيئاً . بحار الانوار ج٤ ص١٣٧ .

واعترض عليه السيد الطباطبائى فى الهامش ، بأن الذى ذكروه انما هو فى الارادة الذاتية، التى هى عين الذات ـ ان صح تصويرهم لذلك ـ واما الارادة التى جاءت فى الاخبار فهى الارادة التى هى من الصفات الفعلية كالخلق والرزق ، وهى نفس الموجود الخارجى من زيد وعمرو والسماء والارض ، كما ذكره شيخنا المفيد رحمه الله .

قلت : اتفق علماؤنا ـ الامامية ـ فى هذا العصر المتأخر، على ان الارادة ـ فيه تعالى ـ من صفات الفعل ، كما كانت عليه علماؤنا السلف ، وجاء فى روايات اهل البيت ـ عليهم السلام ـ ←

البلخي خاصة وجماعة من المرجئة [1] .

وروى ثقة الاسلام الكليني عن صفوان بن يحيى ، قال : قلت لابى الحسن (الامام الرضا) ـ عليه السلام ـ : اخبرني عن الارادة من الله ومن الخلق ؟ قال : فقال عليه السلام : «الارادة من الخلق الضمير ومايبدولهم بعد ذلك من الفعل . واما من الله تعالى فارادته احداثه لاغير ذلك ، لانه لايروى ولايهم ولايتفكر .وهذه الصفات منفية عنه ، وهي صفات الخلق . فارادة الله : الفعل [2] ، لاغير ذلك . يقول له : كن ، فيكون . بلالفظ ولانطق بلسان ولاهمة ولاتفكر و لاكيف لذلك ، كمانه لاكيف له » .

وروى ـ ايضاً باسناده الصحيح عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام سأله عاصم بن حميد عن ذلك ، قال : قلت لـه : لم يزل الله مريداً ؟ فقال : « ان المريد لايكون الالمراد معه ، لم يزل الله عالماً قادراً ثم اراد » فقد فرق عليه السلام بين العلم والقدرة وبين الارادة ،رداً على مازعمه بعض المتفلسفين من تفسير الارادة بالعلم والقدرة [3] يدلنا على ذلك مافي حديث بكير بن أعين ، قال : قلت لابى عبدالله

←وشطبوا على ماذكره لفيف من المتكلمين في العصور الوسطى ،بعدان وضح لديهم ان الارادة فعل النفس في غيره تعالى ، فتكون فيه تعالى فعله خارجاً واحداثه كما في نص الخبر . وقد عرضت على سيدنا الاستاد الامام الخوئي ـ دام ظله ـ تجديد النظر في البحوث الكلامية التي صيغت على نهج المتكلمين في العصور الوسطى، في صيغة حديثة تتوافق مع ماتجدد من انظار ، وعادت سليمة طبق آراء السلف المستقاة من نصوص اهل البيت عليهم السلام ، فوعد ـ دام ظله ـ بالانجاز . وراجع بالخصوص: محاضرات سيدنا الاستاد بقلم محمد اسحاق الفياض ج٢ ص٣٤ ـ ٤٣ .

١ـ اوائل المقالات للشيخ المفيد ص١٩

٢ـ وفي رواية الصدوق في كتاب التوحيد : « فارادة الله هي الفعل » . راجع البحار ج٤ ص١٣٧ .

٣ـ تقدم في كلام الحسن البصري واختيار الفاضل المقداد ص١٨٦ بالهامش

(الامام الصادق) عليه السلام : علم الله ومشيئته هما مختلفان او متفقان ؟ فقال: « العلم ليس هو المشيئة ، الاترى انك تقول : سأفعل كذا ان شاء الله : و لاتقول : سأفعل كذا ان علم الله . فقولك : ان شاء الله ، دليل على أنه لم يشأ، فاذا شاء كان الذى شاء كما شاء . و علم الله السابق للمشيئة » .

وباسناده الصحيح ـ ايضاً ـ عن محمد بن مسلم عن ابى عبد الله عليه السلام قال: «المشيئة محدثة » .[1]

وروى الصدوق باسناده عن الامام على بن موسى الرضا عليه السلام قال : «المشيئة من صفات الافعال فمن زعم ان الله لم يزل مريداً شائياً فليس بموحد »[2] .

ولعل ما فى ذيل الحديث تعريض بمذهب اهل الصفات (الاشاعرة) حيث زعموا من الارادة صفة ذاتية قائمة به تعالى زائدة على ذاته المقدسة ، فلزمهم القول بتعدد القديم تعالى عن ذلك[3] . اما من ذهب من متكلمى الامامية الى ان الارادة صفة ذات ، فلم يعتبرها زائدة على ذاته المقدسة ، بل اعتبرها عين ذاته تعالى كما فى سائر الصفات الذاتية من العلم والقدرة والحياة ، ومن ثم لا يشملهم الحديث .

* * *

واما الارادة التشريعية فهى عبارة عن أمره تعالى ونهيه ،بعثاً وزجراً للعباد، فيما يعود عليهم من مصالح ومفاسد كامنة وراء التكاليف .

١ـ الاحاديث الثلاثة مستخرجة من الكافى الشريف ـ الاصول ـ ج ١ ص ١٠٩ـ١١٠ باب الارادة : انها من الصفات الفعل برقم : ٢و١و٧ . وراجع: مرءاة العقول بشرح الكافى للعلامة المجلسى ج ٢ ص ١٥ـ٢٢ . وبحار الانوار ج ٤ ص ١٣٧ .

٢ـ كتاب التوحيد للصدوق ص ٩٣ باب صفات الافعال . وراجع : بحار الانوار ج ٥٧ ص ٣٧ .

٣ـ راجع : تجريد الاعتقاد بشرح العلامة الحلى ص ١٥٩ . واوائل المقالات للشيخ المفيد ص ١٩ .

وهذه الارادة قد تتخلف عن المراد ، حيث يعصى العباد ويخالفون أمره تعالى ، ولا محذور فى ذلك بعد ان كانت دار التكليف دار اختيار ، حيث لا موقع للتكليف لولا اختيار المكلفين فى الاطاعة والعصيان ، وان مصلحة التكليف هى التى تستدعى اختيار العباد فى الامتثال والترك تمهيداً لاختبارهم فى هذه الحياة ، « ليميز الله الخبيث من الطيب ـ الانفال : ٣٧ » . « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ـ آل عمران : ١٧٩ » .

والتفكيك بين الارادتين شىء معروف فى روايات اهل البيت ـ عليهم السلام ـ منها : ما رواه الصدوق باسناده عن الامام على بن موسى الرضا عليه السلام قال : « ان الله ارادتين ومشيئتين ، ارادة حتم ، وارادة عزم » .

ثم شرح عليه السلام الثانية بقوله : « ينهى وهو يشاء » اى يشاء ان يقع وان كان نهى عنه ـ فى الظاهر ـ ان لا يقع . فنهيه نهى تشريع ، اما اشاءته فاشاءة تكوين ، وقد مثل له الامام ـ ع ـ بنهى آدم عن اكل الشجرة ، وقد كانت المصلحة تستدعى الأكل منها ، حيث خلق آدم ليعيش على الارض ويكون خليفة الله فيها . فتخلفت ارادته التشريعية عن ارادته التكوينية .

ثم قال ـ ع ـ : « ويأمر وهو لا يشاء » ومثل بأمره تعالى ابراهيم بذبح ابنه اسماعيل ـ عليهما السلام ـ حيث تخلف التشريع عن التكوين .[1]

وعلى هذا الضوء من البيان الوارد عن ائمة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ نستطيع دفع الشبهة عن كثير من آى القرآن ، مثل قوله تعالى : « ولو شاء لهداكم اجمعين ـ النحل : ٩ » . وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً ـ يونس : ٩٩ » . وامثالهما من الآيات وهى كثيرة جداً . والمشاءة فيها هى التكوينية ،

---

١ ـ راجع : بحار الانوار ج ٤ ص ١٣٩ . ومرءاة العقول ج ٢ ص ١٦١ . والكافى الشريف ج ١ ص ١٥١ باب المشيئة والارادة .

اى لو اراد ربك ان يجعل الناس كلهم مؤمنين بارادته التكوينية لفعل ، ولما تخلفت ارادته عن المراد ، كما فى قوله تعالى : « فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ـ فصلت : ١١ » .

لكنه تعالى لم يشأ الايمان الا عن اختيارهم لغرض الاختبار ، حيث لاتمييز مع الالجاء .

وبذلك يرتفع ايهام التناقض بين امثال هذه الآيات ، وآيات اخر جاء فيها : انه تعالى هدى الناس جميعاً ، ولايرضى لعباده الكفر ، حيث هذه الطائفة من الآيات تعنى مشيئته تعالى التشريعية ، امراً ونهياً ، بعثاً وزجراً ، فى هداية شاملة وارشاد عام . قال تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكراً او كفوراً ـ الانسان : ٣» . وقال : « واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ـ فصلت : ١٧». وقال: «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ـ الاحزاب : ٤» . وسنبحث عن انحاء الهداية ودرجاتها فى فصل قادم .

مسألة التوحيد فى الافعال

التوحيد الكامل هو الاعتقاد بانه تعالى واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى افعاله . ثلاث مسائل تبحث عن توحيده تعالى ، الاولى : توحيد الذات « ليس متركباً من اجزاء» . الثانية: توحيد الصفات «ان صفاته الثبوتية جمع لاتنم عن تعدد معان قائمة بذاته المقدسة ، بل كمال توحيده نفى الصفات عنه ، ولاشىء هناك سوى ذاته القديمة انتزعت لها تلك النعوت» . الثالثة : توحيد الافعال «لاشريك له فى الخلق والايجاد» .

وهذه المسألة الأخيرة هى موضوع بحثنا الآن : اذا كان العبد مستقلا فى افعاله ، وكان هو الذى يوجدها ويحدثها وفق مايريد ، ان شاء فعل وان شاء ترك ، ـ كما عليه مذهب اهل العدل ـ فهلا يصدق حينذاك ان فى عالم الخلق والايجاد مؤثرين:

الله فيما يختص به من افعال . والعبد فيما يختص به من افعال ؟! وان قلنا : انما يصدر من العبد من افعال اختيارية ، ليس مستقلا فى ايجادها ، بل الله يشركه فى الاحداث والايجاد ، فالأمر أسوأ ، لانه يقتضى التشريك فى الخلق والايجاد ، المنافى لمسألة توحيد الافعال؟!

قلت: لامنافاة بين الأمرين، استقلال العبد فيما يحدثه من افعال (الافعال الاختيارية) وكونها لاتحدث ولاتتحقق خارجاً الا باذنه تعالى وايجاده، تحقيقاً لقاعدة «لامؤثر فى الوجود الا الله» ولقوله تعالى : « الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ـ الزمر : ٦٢» .

وذلك انه تعالى جرت سنته فى ايجاد ما يريد العباد ايجاده ، تحقيقاً لمبدء الاختيار الذى منحه لعباده ، وليصح تكليفهم واختبار نياتهم . وان شئت فقل : انه لايوجد شىء الا باذنه تعالى ، لكن الله جعل من سنته ان توجد الاشياء عند مايريد العباد ايجادها ، فهو تعالى الموجد لكن عند ارادة العبد ، وقد جعل اختيار وجودها رهناً باختيار العباد ان شاؤوا وجدت باذن الله، وان لم يشاؤوا لم توجد، حيث ذلك الارتباط هو من صنع الله الذى اتقن كل شىء .

وبذلك صح القول: «ان لاخالق الا الله» و«لاموجد الا الله» و«لامؤثر فى الوجود الا الله» . كما صح القول بان العباد هم يحدثون مايريدون فعله ويتركون مايكرهون وجوده من افعال اختيارية .

كما ان مسألة «الامر بين الامرين» عبارة عن هذا المعنى ، واليك توضيحها بالبيان التالى :

مسألة الامر بين الامرين

ان مسألة «الامر بين الامرين» تعود فى أساسها حداً فاصلا بين مسألة «الجبر الاشعرى» ومسألة «التفويض الاعتزالى» ، ارشد اليها ائمة اهل البيت ـ عليهم السلام ـ

فی نصوص و تصریحات کثیرة ،مما جعل مذهب الامامیة طریقاً وسطاً بین المسلکین لاجبر ولاتفویض بل أمر بین امرین [1] .

هذه المسألة مرتبطة مع عدة مسائل متشابکة مع بعضها ، یصعب التوفیق بینها غالبیاً ،الا من عصم الله ، وأجاد التفکیر فیما اثر عن اهل بیت العصمة ـ علیهم السلام ـ منها : مسألة «التوحید المطلق» . ومسألة « العدل المطلق » . ومسألة « الحکمة فی التکلیف». ومسألة «الحسن والقبح العقلیین». ومسألة «استحقاق الثواب والعقاب» . الی غیرها من مسائل مشابهة.

وقد احتار القوم فی التخرج عن هذه المسائل جمیعاً بما لایستلزم تناقضاً او معارضة مع بعضها . فی رؤام ووفاق بسلام . ومن ثم اخذوا یمنة ویسرة ، فی اعتراف ببعض ونکران لبعض ،بما ازدادوا شکاً فی ریب .

اما الاشاعرة فزعمت انها أخذت بجانب مسألة التوحید المطلق ، وقالت : لاخالق الاالله ، ولامؤثر فی الوجود الاالله ، ومن ثم نفت صحة استناد الافعال الی العباد . و اسندتها الی الله. فلزمها القول بالجبر ، وان العباد مضطرون فیما یفعلون، وبذلك خسرت مسألة العدل المطلق ، وانکرت الحکمة فی التکلیف ، ولم تدع مجالا لمسألة الحسن والقبح العقلیین ولالمسألة استحقاق المثوبة والجزاء.

واما المعتزلة فاسندت الافعال الی العباد بصورة مطلقة، وقالت: انهم مختارون فی فعل مایریدون وترك مایکرهون. تحکیما لمسألة العدل المطلق ، ومسألة الحسن والقبح والثواب والعقاب، وتحقیقاً لمسألة الحکمة فی التکلیف وبعث الرسل وانزال

١ـ بهکذا لفظ ورد مستفیضاً عن ائمة الهدی علیهم السلام . راجع : الکافی الشریف ـ الاصول ـ ج١ ص ١٦٠ حدیث ١٣ باب الجبر و القدر والامر بین الامرین . وکذا باب الاستطاعة .وراجع :بحار الانوار للعلامة المجلسی ، باب نفی الظلم والجور عنه تعالی وابطال الجبر والتفویض ، واثبات الامر بین الامرین واثبات الاختیار والاستطاعة . ج٥ ص٢ـ٦٧ .

الكتب .. لكنهم اسرفوا فى القول بالاستطاعة المطلقة ، حتى نفوا كل تأثير لارادة الله وحوله وقوته فى افعال العباد ، ومن ثم لزمهم القول بالتفويض ، وان العباد هم المحدثون لافعالهم باختيارهم وارادتهم وقدرتهم الخاصة . وان القدرة وان كانت منحة من الله منحها لعباده ، لكن إعمال هذه القدرة وتأثيرها فى الايجاد والاحداث منوطة كل الاناطة باختيارهم واستقلالهم فى الارادة والاقتدار .

واختارت الامامية ـ فى ضوء تعاليم ائمة الهدى ـ مذهباً وسطاً فى مسألة القدرة والاستطاعة . فلم يعترفوا للعبد استقلاله الكامل فى الخلق والايجاد ، ولم ينفوا عنه القدرة والاختيار رأساً، قالوا: لاشك ان كل مافى الوجود واقع تحت ارادته تعالى، فلايحدث أمر ولايوجد شيء الا باذن الله ، لكن ارادته تعالى قد تعلقت بأن توجد الأشياء وفق قوانين كلية ركبها فى طبيعة الموجودات ، فهى تتفاعل مع بعضها ، اما بنفسها كما فى الأمور الطبيعية ـ حسب تعبيرنا ـ مثل دورة الماء فى الطبيعة، تبخيراً وتكاثفاً وتقاطراً وخزنا ثم جرياً وأخيراً عوداً الى البحر. وفق نظام رتيب لايتخلف عبر الدهور . واما بعلاج كيمياوى او فيزيائى تزاولها يد بشرية حسب مآربه فى الحياة .

كل ذلك واقع تحت قوانين عامة فى سلسلة من العلل والمعلولات « قانون العلية العامة» .

مثلا اذا بذر الانسان حبة فى الارض الصالحة ، واهتم بشأنها من تسميد وسقى ودفع آفات ، فانها تنبت ، لكن بفضل تفاعلها مع املاح الارض وغيرها من مواد كامنة فى التراب والماء ومايصل اليها من شعاع الشمس وهبوب الرياح وما الى ذلك، فاذا ما اجتمعت الأسباب المؤاتية لنبات الزرع ونمائه ، حصل الزارع على نتيجة، لم تكن هى وليدة يده فحسب، وانما ساعده على ذلك عوامل طبيعية كثيرة لاتحصى، كان لها القسط الأوفر ،بل علة العلل لهذا الاثمار والانتاج .

ومع ذلك فانا ننسب الزرع اليه ، فنقول : هوالذى بذر الحبة وزرع النبتة وغرس الشجرة وأثمرها ، ونطلق عليه اسم الزارع والفلاح اطلاقاً حقيقياً ، من غير عناية مجاز اواستعارة . فى حين انالودققنا النظر لوجدنا الفضل الاكبر بل كل الفضل يعود الى عوامل أخر كانت هى المؤثرة لهذا الاثر والمنتجة لهذه النتيجة .

وعليه فبماان هذه العوامل ـ التى نعبر عنها بعوامل طبيعية ـ ليست سوى قوانين كلية ركبها الله فى ذوات الأشياء، فاذاماتفاعلت مع بعضها انتجت تلكم النتائج العظام، فهى فى ذات وجودها وفى بقاءها على التأثير رهن قدرته وارادته تعالى ، ومن ثم فان نسبة الانبات والزرع والاثمار وماشاكل، اليه تعالى اولى من نسبتها الى ذلك الانسان الذى لم يكن حظه منها سوى تقارب وتؤالف بين عدة عوامل قليلة لتتفاعل هى بنفسها مع البعض ، وتستمد من قوى اخرى كثيرة اودعها الله فى هذا الكون .

قال تعالى : «أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون» . وقال: «أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون» . وقال : «أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها ام نحن المنشؤون. نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ـ الواقعة : ٦٤ ـ ٧٤» .

واوضح مثال لذلك هى ظاهرة الولادة ، لم يكن حظ الوالد والوالدة من تكوين الولد ، سوى تلقيح النطفة ، وليس تحققه ـ ايضاً ـ واقعاً تحت اختيارهما الكامل وقدرتهما ، ومع ذلك فان الولد فى وجوده منسوب الى والديه، فى حين ان جميع العوامل التى أثرت فى اللقاح والانعقاد وقضاء المراحل الجنينية الى مرحلة التولد ، كانت طبيعية مودعة فى ذات الرحم والنطفة بقدرة الله ، وبارادته فى اصل التأثير والبقاء على التأثير . قال تعالى : « أفرأيتم ماتمنون ، أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون ـ الواقعة : ٦٠» .

والخلاصة : انمايوجد ويتحقق فى عالم الوجود ، انما يوجد بفضل تفاعل القوى المودعة فى هذا الكون ،وان حظ الانسان من ذلك هو مجرد تقارب مابين هذه

القوى لتتفاعل هي مع بعضها . وبعبارة اوجز : ان الانسان انما يوجد شرط التفاعل اما أصل الايجاد فهو من فعل العوامل والقوى الطبيعية ، وهي بدورها مجعولة ومنتظمة بارادة الله وحوله وقوته ابدياً .

* * *

وبذلك نستطيع ان ندرك وجه انتساب الأفعال الاختيارية الى فاعليها ، في حين صحة انتسابها الى الله والى القوى الطبيعية التي اودعها الله في هذا الكون .

اما وجه انتسابها الى العباد : فلانهم هم اوجدوا شرائط وجودها باختيارهم وقصدهم الخاص ، ولولا ذلك لما وجدت. فان الزارع انما عمد الى الحرث والزرع بمحاولته الخاصة للحصول على الثمرة . فقد تصور الفائدة اولا واشتاقتها نفسه ، فعمد ـ باختياره وارادته الخاصة ـ الى ترتيب المقدمات المنتجة لما كان يتوخاه . وهذا دليل اختيارية العمل.

ومن ثم تقع تبعات كل عمل اختياري على عاتق العامل، ويكون هو المسؤول عنها مدحاً اوذماً ، مثوبة اوعقوبة . حتى في مثل الايلاد ، لولا انه واقع امرأته لما حصل الولد ، ويكون حصول الولد منتسباً اليه بالذات .

فلو فرضنا ان عملا خارجياً يوصف بالقبح او الحسن ، فان المسؤول عن ذلك هو العامل ، ولا يمكنه الاعتذار بأن اكثر القوى العاملة في تكوينه كانت خارجة عن اختياره ، حيث كانت تلك القوى بانفسها معدات ومقتضيات ، اما الذي وافق بينها واوجد شرط تفاعلها مع البعض ، فهو هذا العامل الذي عمد باختياره الى ايجاد شرط الوجود .

واما وجه انتسابها الى الله تعالى ، فمن جهة ان القوى العاملة في تكوين الاشياء، كلها مخلوقة ومقدرة بقدرة الله ، وهو الذي اكسبها تلك الخاصيات بحيث اذا تقاربت مع بعضها تفاعلت في الايجاد والتكوين وهو تعالى لا يزال يمدها بتلك الخاصيات

وفق مامنحها اولا ، فهو تعالى كما افاض عليها حدوثاً ، هو يمدها بالافاضة بقاء ، فلاتزال تلك القوى تستمد ـ في تأثيراتها المتواصلة طول وجودها ـ من فيوضه تعالى المتواصلة ، سنة الله التي جرت في الخلق.

وهذا هو الذي يعبر عنه بـ «اذن الله» في لسان الشريعة المقدسة. فلولا انه تعالى يمد القوى في تأثيراتها آناً فآناً ، لما امكنها التأثير شيئاً اصلا .

وليس معنى ايداعه تعالى الخاصية في شيء : أنه اودعها فيه وتركها تعمل بذاتها وتؤثر بنفسها فيما بعد . ان هذا الا التفويض الذي يتحاشاه مذهب اهل الحق . بل كما اودعها الله حدوثاً ، فهو تعالى لايزال يمدها بتلك الخاصية والتأثير بقاء حسب الآنات باستمرار .

فكل قوة من القوى الطبيعية اذا اثرت في شيء ، فان هذا التأثير يعود الى اذنه تعالى ، حيث امدها بخاصية ذلك التأثير في نفس الوقت ولولاه لما امكنها التأثير اطلاقاً . قال تعالى ـ بشأن تأثير سحر السحرة ـ : « وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ـ البقرة : ١٠٢ » . حيث الساحر يسخر خواص الاشياء في سحره ، لكن هذه الخواص مما اودعها الله في ذوات الاشياء ، ان لم يشأ لم يمدها فينقطع اثرها ، غير ان سنته تعالى جرت في امداد القوى وان كانت مستخدمة في تأثير الفساد في الارض . وهكذا قوله تعالى : «والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ـ الاعراف: ٥٨» . وقوله : «كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي اكلها كل حين باذن ربها ـ ابراهيم : ٢٥» .

حتى انه تعالى ليضيف فعل العباد الى اذنه «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني ـ المائدة: ١١٠» ـ حيث خاصية تشكل الطين وتماسك اجزاءه ، مما اودعها الله في الطين ولم يزل يمده بهذه الخاصية ابدياً ولم يكن من عيسى عليه السلام سوى جعل اجزاء الطين على بعضها في نسبة معينة ، اما نفس التماسك فكان بفعل الله ، كما ان نفس عمل عيسى ـ ايضاً ـ كان باقداره تعالى وافاضته القدرة عليه آنذاك ، ومن ثم كان جميع ماوقع انما وقع باذن الله .

واقرب مايمثل هذه القاعدة في مثل المقام ، انك اذا عرضت يدك للنار ، فانها

تحترق . ولكن هذا الاحتراق لايكون الاباذن الله ، فالله هو الذى اودع النار خاصية الحرق ، ولايزال يمدها بتلك الخاصية ، كمااودع يدك خاصية الاحتراق بالنار. ولايزال يمدها بتلك الخاصية ، وهوقادر على ان يوقف تلك الخاصية حين لايمدها ولا يأذن ، لحكمة خاصة يريدها ، كما فعل فى قصة ذبح اسماعيل ، سلب السكين خاصية القطع ، وسلب حلقوم اسماعيل خاصية الانقطاع ، اى لم يمدهما فى هذه الخاصية فلم يأذن لهما فى القطع والانقطاع ، فلم يتحقق الذبح .

ومثال آخر تمثل به سيدنا الاستاد ـ دام ظله ـ قال : ان الأشياء (الممكنة بالذات) كما تفتقر فى حدوثها الى افاضة المبدأ تعالى، كذلك فى بقائها ـ الذى هو حدوث فى آن ثان ـ فلابد فى بقائها واستمرارها من استمرار افاضة الوجود عليها من المبدأ تعالى .فلو انقطعت الافاضة عليها فى آن لانعدمت من فورها. بداهة استحالة بقاء الممكن بالذات (وهو المفتقر فى وجوده الى مبدء يفيض عليه الوجود حدوثا وبقاء) بدون تلك الافاضة المستمرة .

نظير وجود النور داخل الزجاجة الكهربائية ، تشع به مادامت الطاقة الكهربائية تتصل اليها من مركز التوليد عبر الاسلاك، لايمكن تحقق هذا الوجود النورى ـ داخل الزجاجة ـ حدوثاً وبقاء الا باستمرار ذلك الاتصال المفاض عليها من المركز ومتى ما انقطعت تلك الافاضة او انقطع السلك ، فان النور ينقطع فى آنه .

وحينئذ لو فرضنا ان انسانا وضع يده على زر الكهرباء ، كانت انارة الزجاجة واقعة تحت اختياره بالمباشرة ، ان شاء ضغط على الزر فتتنور الزجاجة، وان شاء رفع يده فتنطفى . وصحت نسبة انارة الغرفة واظلامها اليه بنفس هذا الاعتبار ،وان كان حظه من ذلك هو نفس القطع والوصل لااكثر .وهكذا حظ الانسان فى احداث مايريد من اعمال وايجادها ، فتدبر جيداً [1] .

١ـ راجع: المحاضرات بقلم محمد اسحاق الفياض ج٢ ص٩١

وبعد ،فقدتبين ـفي ضوء ماقدمنا ـصحة اسناد حدوث جميع المحدثات الى الله سبحانه ، واطلاق القول بأن لاخالق الاالله ولامؤثر في الوجود الاالله . اذ ترجع جميع القوى في تأثيراتها الى امداد فيضه تعالى باستمرار.

كماصحت نسبة الأفعال الاختيارية الى فاعليها وارادتهم الخاصة ، بماأوجدوا من جوصالح لذلك التفاعل الطبيعي والتأثيرات والتأثرات .

ومن ثـم فان مضاعفات الاعمال السيئة تعود الى مرتكبيها بالذات ، حيث استخدموا من القوى الصالحة، في سبيل العيث والفساد .واما نتائج الاعمال الحسنة فان القسط الاكبر من فضلها يعود الى الله سبحانه ، نظراً لاعداده سبل الخير والسلام، واقداره العباد على الاستفادة منها والاستخدام .فكان حقاً توجيه المحامد كلها الى الله ، « سبحان الذى سخرلنا هذا وماكنا له مقرنين ـالزخرف : ١٣» . « الحمدلله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ـالاعراف : ٤٣».

وبهذا المعنى جاءت الآثار عن ائمة اهل البيت ـعليهم السلام ـفقد روى ثقة الاسلام الكليني عن الحسن بن على الوشاء ، قال : سألت ابا الحسن الرضا عليه السلام فقلت : الله فوض الأمر الى العباد ؟ قال : الله اعز من ذلك . قلت : فجبرهم على المعاصى ؟ قال : الله اعدل واحكم من ذلك . ثم قال الامام عليه السلام : « قال الله : يا ابن آدم ، انا اولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك منى، عملت المعاصى بقوتى التى جعلتها فيك» .

وعن الامام الصادق عليه السلام قال:قال رسول الله صلى الله عليه وآله :«من زعم ان الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله . ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج من سلطانه .ومن زعم ان المعاصى بغير قوة الله فقد كذب على الله. ومن كذب على الله ادخله الله النار» . وقوله صلى الله عليه وآله : « بغير قوة الله » يعنى الامداد بافاضة القوى ،حسبما ذكرنا .

وسأل رجل الامام الصادق عليه السلام : أجبر الله العباد على المعاصى ؟ فقال عليه السلام :

لا .قال: ففوض اليهم الامر ؟ فقال : لا. قال :فماذا ؟ قال : لطف من ربك بين ذلك.
يعنى عليه السلام الامداد والاقدار بما يجعل العباد مستقلين فى الارادة والاختيار .

وعن الامامين الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ قالا : «ان الله ارحم بخلقه من ان يجبرهم على الذنوب ثم يعذبهم عليها ،والله اعزمن ان يريد امر أفلا يكون ،قيل: فهل بين الجبر والقدر (التفويض) منزلة ثالثة؟ قالا :نعم ،اوسع مما بين السماء والارض».

وسئل الامام الصادق عليه السلام عن الجبر والقدر [1] . فقال : «لاجبر ولاقدر ولكن منزلة بينهما فيها الحق ، لايعلمها الا العالم اومن علمها اياه العالم » . يعنى عليه السلام : العالم من اهل بيت العصمة .

وقال لهرجل : جعلت فداك ، أجبر الله العباد على المعاصى ؟ فقال: الله اعدل من ان يجبرهم على المعاصى ثم يعذبهم عليها . فقال له: جعلت فداك ، ففوض الله الى العباد ؟ فقال : لوفوض اليهم لم يحصر بالأمر والنهى . قال له : جعلت فداك ، فبينهما منزلة ؟ فقال : نعم ،اوسع مابين السماء والارض [2] .

اختيارية الارادة

قالوا :دليل اختيارية كل عمل هو ان يصدر عن ارادة فاعله وعن اختياره الخاص فلا يوصف عمل بالاختيارية الااذا سبقته ارادة ، فرقاً بينه وبين الآثار المتولدة من اشياء لاارادة لها ولااختيار فى التوليد .

وعليه فقد يستشكل فى نفس الارادة، هل هى اختيارية ام غير اختيارية، نظراً لانها لو كانت اختيارية لوجب ان تسبقها ارادة اخرى ، وهذا يتسلسل الى غير نهاية ، ومن ثم انكر بعض المتفلسفين ان تكون الارادة بنفسها اختيارية، وان كانت هى السبب لاختيارية سائر الافعال الاختيارية [3] . وبذلك ربما انتقضت القاعدة المعروفة «فاقد

١ـ كثيراً مايطلق «القدرية» ـ فى روايات اهل البيت ـ على اهل التفويض .

٢ـ الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف ـ كتاب التوحيد ـ باب الجبر والقدر والامر بين الامرين ج١ ص١٥٥ ـ ١٦٠ رقم :٣ و ٦ و ٩ و ١٠ و ١١.

٣ـ راجع : كفاية الاصول ـ للمحقق الخراسانى ـ بحث الطلب والارادة ج١ ص١٠٠

الشيء لايعطى» !

قلت: كل مابالغير لابد ان ينتهى الى مابالذات، والالتسلسلت حلقات الحاجة والافتقار .فاختيارية كل عمل انما هى بمسبوقيته بارادة الفاعل المختار، والارادة هى التى تكسبه وصف الاختيارية .هذا صحيح ،غير ان نفس الارادة توصف بالاختيارية ذاتاً ، لابسبب غير ذاتها. كما ان ملوحة الاشياء مكتسبة من الملح ، اما ملوحة الملح فذاتية له، وكذا تنور الاشياء بالنور، وتنور النور ذاتى .وهكذا الارادة بذاتها اختيارية، واما سائر الافعال فانما تكون اختيارية اذا كانت تحت الاختيار، وكانت تصدر عن ارادة الفاعل المختار .

وايضاً فان معنى اختيارية الافعال الاختيارية ـ على ما اسلفنا ـ انها تتحقق باذن الله وارادته ان توجد عند ارادة فاعليها واختيارهم الخاص . امانفس الارادة والاختيار من العباد فانهم مستقلون فيها عند تحقق مباديها، من تصور العمل وفائدته والشوق اليها وما الى ذلك . فالارادة من العباد انما تتحقق بتكوين نفسى منهم ، وتنبعث بذاتها من داخل كيانهم وباطن وجودهم بالذات ، وليست معلولة لشيء آخر ، من قبيل جوهر النفس اللااختيارى ـ كما ذهب اليه المحقق الخراسانى ـ اوارادة الواجب تعالى ـ كماذهب اليه مجبرة الفلاسفة ـ .اذكل ذلك نقض لاساس الاختيار ورجوع ملتو عن القول باختيارية الافعال .

ارادة الله الحادثة

تقدم ان الارادة من صفات الفعل [1] ومن ثم فهى حادثة وقائمة بمتعلقاتها ، كما هو الشأن فى سائر الصفات الفعلية كالخلق والرزق والاحياء والاماتة.

وهذه الارادة من الله بالنسبة الى أفعال العباد الاختيارية واقعة فى رتبة التابع من

١ـ صفحة :١٦٨ـ١٦٩

المتبوع ، حيث جرت سنته تعالى على تحقق ما يريد العباد فعله ، وقد عبر عنها في القرآن بالاذن. فما يريد العباد ايجاده من افعال اختيارية ، فانه تعالى يأذن في تحققها وفق ما يريدون ـ حسبما تقدم ـ وعليه فلم تكن ارادة العبد معلولة لارادته تعالى ، ولا منبعثة عنها ، كما توهمه بعض المتفلسفين . وانما ارادته منبعثة عن داخل ذاته عند حصول مقدماتها السالفة ، لا عن شيء آخر. وبذلك اثبتنا اختيارية الارادة من العباد اختيارية تامة . هكذا جعل الله العباد مختارين تمام الاختيار في الارادة ، لئلا يكون اجبار او اضطرار الى هذا النمط من الافعال ، ومن ثم صح التكليف، وجازت المؤاخذة ، وحسن المدح والذم.

انتساب الحوادث الى الله

في كثير من تعابير القرآن الكريم جاءت نسبة الحوادث ، سواء أكانت ذوات علل وعوامل طبيعية ، ام كانت وليدة صنع الانسان وعمله [1] .

قال تعالى : «انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ـ الحاقة : ١١» . وقال : «وله الجوار المنشئآت في البحر كالأعلام ـ الرحمان : ٢٤» . وقال: «والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الانعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ـ الى قوله ـ وجعل لكم من الجبال اكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ـ النحل : ٨١» .

وقال تعالى: «جعلنا لاحدهما جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ـ الكهف : ٣٢» . وقال : «والذى اخرج المرعى فجعله غثاء احوى ـ الاعلى: ٥» . وقال : «الم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ـ النور : ٤٣» وقال : «الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً ـ الروم : ٤٨» . وقال : « ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ـ الزمر : ٢١ » .

---

١ ـ راجع في ذلك : اوائل المقالات للمفيد ص ٨٦ ـ ٨٧ .

والآيات من هذا القبيل كثيرة جداً. وسبب ذلك يعود الى ماذكرنا : ان جميع ظواهر هذا الكون، سواءاً كانت طبيعية ام اصطناعية، فانها تتكون وفق قوانين عامة جعلها الله في جبلة الاشياء، وهي تتفاعل مع بعضها في نظام متسق، من غير ان تستغني عن امداد افاضته تعالى في كل آن. فمن ألقى حطبا في النار واحترق الحطب، صح القول : انه تعالى أحرقه ، لما أودع في طبيعة النار من خاصية الاحراق وفي طبيعة الخشب من خاصية الاحتراق ، وهو تعالى يمدهما بابقاء تلك الخاصية في كل آن . كما صح القول بأن الملقى في النار هو الذي احرق الحطب ، لانه اوجد شرط هذا التفاعل الكيمياوي بين النار والخشب .

حل شبهات المجبرة

وبعد فقد حان وقت التعرض لما تشبث به اهل الجبر (الاشاعرة واذنابهم) من آيات وروايات حسبوها دالة على نفي استطاعة العبد وسلب قدرته وارادته في الفعل والترك... وماهي الاشبهات تنقشع على ضوء ماقدمنا من بيان. واليك الاجابة ـ تفصيلا ـ على مالفقوها ، تباعاً حسب الارقام المتقدمة : ـ

١ ـ اما قوله تعالى : «والله خلقكم وماتعملون ـ الصافات : ٩٦» فسواء اريد الاصنام ام الأعمال ذاتها، فانها مخلوقة لله بالمعنى المتقدم، حيث لم يكن صنع البشر سوى ايجاد شرط التفاعل بين قوى التكوين ، ولم يكونوا هم مستقلين في تحقيق اي صنع او عمل مادامت القوى الطبيعية هي التي تتجاذب وتتماسك مع بعضها باذن الله فهي بالانتساب الى الله اولى من انتسابها الى العباد ، غير ان مضاعفاتها السيئة تعود عليهم حسب ارادتهم واختيارهم للعمل ، وبالفعل هم اوجدوا شرط تحققه بارادتهم الخاصة . ومن ثم قال المفسرون : « وما تعملونه ، فان جوهرها بخلقه ، ونحتها باقداره » .

وقال القاضي : ظاهر الآية كون «ما» موصولة ، لان ظاهر قولهم :«اعطيتك

ماتأكل وماتشرب» هو ارادة المأكول والمشروب ، لانفس الأكل والشرب . نظير قوله تعالى : «تلقف مايأفكون ـ الاعراف : ١١٧» . وقوله : « تلقف ماصنعوا ـ طه : ٦٩» . وذلك لان الكلام ظاهر فى التعليل ، وهو يتناسب وكونه تعالى خالقاً لانفسهم ولمانحتوه ، اما كون نفس النحت فعله تعالى ، فهو يصلح تبريراً لفعلهم وعذراً لهم ، اذحينئذ تكون عبادتهم ايضاً من فعله تعالى ، فلم يصح توجيه اللائمة اليهم بالذات[1] .

٢ـ الى ٦ـ والآيات من سورة الفرقان :٢ . وسورة الانعام: ١٠٢ .والرعد: ١٦ . والزمر : ٦٢ . وغافر : ٦٢ . ايضاً بنفس المعنى ، ولاسيما والتعقيب فى سورة الفرقان : « فقدره تقديراً » شاهد على ارادة ايداع القوى التى تتماسك مع بعضها فى نظام واتقان . وهكذا التعقيب فى سورة الزمر : « وهـو على كل شىء وكيل» دليل على ذلك النظم والتدبير ، وافاضة القوى الفاعلة عبر الوجود .

وقال القاضى : «ظاهر (خلق) ـ هنا ـ يقتضى انه قدرودبر» . قال ابن منظور ـ فى لسان العرب ـ :«والخلق : التقدير . وخلق الأديم يخلقه خلقاً : قدره لمايريد قبل القطع ، وقاسه ليقطع منه مزادة اوقربة اوخفا» . وقال ابن قتيبة ـ فى تأويل مشكل القرآن ص٣٨٨ ـ : «وأصل الخلق : التقدير . ومنه قيل : خالقة الأديم» .

قال القاضى : ولذلك قال الشاعر [2] :

ولأنت تفرى ماخلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لايفرى [3]

قال : ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته : انه تعالى قد قـدر

١ـ متشابهات القرآن ج٢ ص٥٨٠ـ٥٨٦

٢ـ هو: زهير بن ابى سلمى . راجع : ديوان زهير ص٥٤ ط دار الكتب .ولسان العرب وشرح الاصول الخمسة ص٣٨٠ .

٣ـ قال ابن منظور فى معنى البيت : انت اذاقدرت امراً قطعته وأمضيته ، وغيرك يقدر مالايقطعه ، لانه ليس بماضى العزم ، وانت مضاء على ماعزمت عليه .

افعال العباد ودبرها وبين احوالها . فكان الخلق خلق تدبير لاخلق ايجاد واحداث.

قلت : حتى ولو كان بمعنى الاحداث والايجاد ، صح ايضاً على مابينا من صحة اضافة الأحداث والمولدات اليه تعالى حقيقة ، وان كان الفاعل لها غيره باعتبار خلق الجو الملائم لذلك التفاعل والتماسك الطبيعى العام .

قال : ووجه آخر : ان هذه اللفظة ليست للتعميم : كقول القائل :اكلت من كل شيء، وتحدثنا بكل شيء، وفعلت كل شيء .وقدقال تعالى : «تبيانا لكل شيء- النحل : ٨٩ » . وقال : « مافرطنا فى الكتاب من شيء - الانعام : ٣٨ » . وقال : تدمر كل شيء بأمر ربها - الاحقاف : ٢٥» . وقال :«يجبى اليه ثمرات كل شيء- القصص : ٥٧» . الى غيرهن من آيات . حيث المقصد بذلك هى المبالغة فى الكثير من ذلك النوع المذكور [١] .

وروى الصدوق فى الخصال عن الامام الباقر عليه السلام وكذا فى عيون الأخبار عن الامام الرضا عليه السلام : «ان افعال العباد مخلوقة خلق تقدير لاخلق تكوين . والله خالق كل شيء ، ولانقول بالجبر والتفويض» [٢] .

وايضاً فان الآية بذاتها تعبير صريح عن هذا المعنى ، قال تعالى : « بديع السماوات والارض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ،وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لااله الاهو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل- الانعام : ١٠١-١٠٣» . انظر الى هذه الدقة فى التعبير ، ذكر خلق كل شيء اولا ثم عقبه بعلمه بكل شيء . ثم ذكر خلق الاشياء ثانياً وعقبه بكفالته لحفظها وتدبير شؤونها . . . فلو فرضنا الآية تشمل خلق افعال العباد ايضاً ، فان ذلك خير قرينة على ارادة علمه الشامل وتدبيره العام لشؤون المحدثات على الاطلاق .

١- متشابهات القرآن ج١ص٢٥١-٢٥٤ .

٢- تفسير الصافى ج١ ص٥٣٦ نقلاعن الخصال وعيون اخبار الرضا

٧ـ الى ١١ـ وقوله « «أفمن يخلق كمن لايخلق ـ النحل : ١٧» يريدالخلق بمعنى الايجاد والابداع ، الذى لاحظ لمخلوق فىذلك سوى خلق الجوالملائم وفعل الشرط لااكثر . وهكذا بقية الآيات التى تنفى قدرة غيره تعالى على الخلق يعنى الاستقلال التام فىالخلق والتكوين . الذى هوشأن المعبود تعالى وتقدس .

١٢ ـ وقوله : «خلق السماوات والارض ومابينهما ـ الفرقان : ٥٩ » ظاهر فى الموجـودات العينية ، لمناسبة السنخية الملحوظة بين المتعاطفات : السماء والارض وكل موجودجسمانى واقع بينهما . والدليل على ذلك تمامالآية :«الذى خلق السماوات والارض ومابينهمانى ستة أيام ثم استوى على العرش ـ الفرقان : ٥٩» . ولو كانت تشمل افعال العباد ايضالوجب حملها على ارادة التقديروالتدبير، لان الافعال متدرجة الحدوث بعدالستة الايام التى تم فيها خلق السماوات والارض ومابينهما من موجودات . ويشهد لذلك التعبير بالرب فىآيات مماثلة : « رب السماوات والارض ومابينهما ـ الشعراء : ٢٤ » . وفى قـوله تعالى : «وماخلقنا السماوات والارض ومابينهما الابالحق ـ الحجر : ٨٥»لدليل على اخبار خلقسبق وجود العباد وافعالهم ، وشاهد صدق على ارادة الموجودات العينية .

١٣ ـ والارادة فىقوله تعالى : «فعال لمايريد ـ هود :١٠٧» ارادة تكوين. اىيفعل مايريد ان يفعله هوتعالى «انما امره اذا اراد شيئاان يقول لهكن فيكون ـ يس : ٨٢» . وهذا هوالظاهر منامثال هذا الكلام عند حذف المتعلق .. اما ارادته تعالى المتعلقة ببعض افعال العباد ، فهى ارادة تشريعية قد تتخلف عن المراد على ماسبق البحث عنذلك اجمالياً [١] .

١٤ـ وقوله : «ماأصاب منمصيبة فىالارض (كجدب وآفة) ولافى انفسكم

١ـ راجع : صفحة ١٦٧

(كمرض وعاهة) الافي كتاب من قبل ان نبرأها ـ الحديد : ٢٢» . اشارة الى مسألة القضاء والقدر ،التى ليست سوى علمه تعالى بماسيحدث وعلى الصفة التى يحدث فى علمه القديم . من غير ان يكون علمه تعالى علة لتكوين المعلوم ، حيث لاشأن للعلم ان يكون مؤثراً فى تحقق المعلوم ، سواء تعلق به قبل حدوثه ام بعده ام مقارناً له . وسبحث عن هذه المسألة فى فصل قادم ، ان شاءالله .

١٥ـ وقوله :«واختلاف ألسنتكم ـ الروم :٢٢» لايعنى تكلماتهم فيماينطقون، وانما عنى اختلاف لهجاتهم ، واقدارهم على النطق بمختلف اللغات . وقـدفسر باختلاف نبرات الصوت ، حتى لاتشتبه نغمات صوتين، كمالاتشتبه لمحات وجهين حتى ولو تشابهت الالوان .

قال القاضى :وذلك ان اللسان آلة فى الكلام ،وبحسبه يختلف الكلام ،فاراد تعالى ان يبين انه خالف بين الألسنة لكى تختلف الأصوات والنغم فى الكلام، فيفصل بين متكلم ومتكلم ، كما خالف بين الالوان ، ليقع للمشاهد التميز [١] .

١٦ ـ وقوله : « واسروا قولكم اواجهروا به انه عليم بذات الصدور ـ الملك :١٤» كان المشركون يتكلمون فيما بينهم بأشياء فيخبر الله نبيه ،فقال بعضهم: اسروا قولكم لئلا يسمعه إله محمد ،فنزلت :انه لافرق عندالله بين الجهر والاخفات، انه يعلم ماتختلج به صدوركم قبل النطق به . ثم جاء التعقيب معللا : « الايعلم » ـ اى خفايا جوانحكم ـ «من خلق» ـ اى من خلقكم ، فهو اعرف بخبايـاكم قبل مظاهركم ـ « وهو اللطيف الخبير ـ الملك : ١٥ » فلايعزب عنه شيء وان دق ولطف .

اذن فلادلالة فى الآية الكريمة انه تعالى خلق الخواطر والالفاظ ، كما زعمه الاشعرى واذنابه ممن يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

١ـ متشابهات القرآن ج٢ ص٥٥٣ـ٥٥٤ . وتفسير الصافى ج٢ ص٢٩٨ .

١٧ـ وقوله : «ربنا واجعلنا مسلمين لك ـ البقرة : ١٢٨» اى وفقنا لنكون مسلمين لك ،وذلك بافاضة ألطاف خاصة يفيضها الله على من استهدى من عباده وجاهد فيه ، «والذين اهتدوا زادهم هدى و آتاهم تقواهم ـ محمد:١٧» . «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩ » وسنتكلم عن مراتب الهداية ، وانها عامة وخاصة ، منها ما عم الناس جميعاً ابتداء منه تعالى . ومنها ما خص المستر شدين المستهدين ممن ساروا على مناهج الهدى وكانت لهم سابقة جد واجتهاد .

والدليل على ذلك ماجاء فى تعقيب الآية : «ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علينا انك انت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك انت العزيز الحكيم ـ البقرة: ١٣٠» . فهو دعاء وابتهال الى الله ان يمنحهم بلطفه ومعونته وتأييده الخاص .لاان يخلق فيهم الاسلام ديناً قهرياً مجبرين عليه ، كمازعمه الاشعرى .

١٨ ـ وهكذا قوله : «وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ـ الحديد: ٢٧ » تعبير عن لطفه وعنايته الخاصة بشأن متبعى المسيح عليه السلام جزاء بماصبروا وصدقوا ماعاهدوا الله عليه . «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولاتحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن اولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ـ فصلت . ٣١» .

١٩ ـ وقوله : «وانه هو أضحك وابكى ـ النجم : ٤٣» كناية عن منا شىء الأفراح والسرور . وعوامل الأحزان والغموم . وبدليل مابعدها من آيات : «وانه هو أمات وأحى» .«وانه هو أقنى وأغنى» .«وانه اهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى».

اذلو كان المقصود :انه تعالى هو يخلق الضحك والبكاء ـ جموداً مع ظاهر اللفظ ـ لتنافى مع قوله:«وان ليس للانسان الاماسعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ـ النجم : ٤٢ » قبل هذه الآيـة ، الصريحة فى ان للعباد نشاطات

ومساعي هم يحاولونها عن ارادة واختيار ، وتعود عليهم بالذات مضاعفات اعمالهم في هذه الحياة .

٢٠ـ وقوله : «ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون ـ الطور :٢٥» .لايعني سلب قدرة العباد عن الاحداث والايجاد حتى لمثل افعالهم الاختيارية ، لان وجه هذه الاية الى غير هذه الجهة ، وانما تعني نفي انهم خالقون لانفسهم ، بصدد اثبات انه تعالى هو خالق الارض والسماء وجميع الخلائق ، ببرهان السبر والتقسيم : اذ يدور أمر الخلق بين ثلاث : الاولى ـ انهم خلقوا من غير شيء ، فلم يكن هناك مبدع ولا صانع ، وانما وجدوا صدفة من العدم المحض . الثانية ـ انهم هم الذين خلقوا انفسهم .الثالثة ـ ان الله خلقهم كما خلق سائر المخلوقات .

قال تعالى : «ام خلقوا من غير شيء ، ام هم الخالقون ، ام خلقوا السماوات والارض بل لايوقنون ـ الطور : ٣٠» .

وبما ان الصدفة والخروج عن العدم المحض من غير علة ولاسبب موجد مستحيلة ، في بداهة العقل الرشيد ، وكذا ان يكون موجود هو أوجد نفسه فيكون بذاته علة لذاته وفي نفس الوقت معلولا عن ذاته ،ليتحد العلة والمعلول ، هذا ايضاً مستحيل . فثبتت الثالثة ، وان هناك صانعاً مدبراً هو الذى خلق وقدر .

٢١ ـ وقوله : «شركاء خلقوا كخلقه ـ الرعد :١٦» نفي ان يكون من زعموه شريكاً مع الله في العبادة ان يكون شريكاً معه في الخلق . فاذا لم يكونوا شركاء في الخلق ،فكيف اصبحوا شركاء في العبادة ؟! والخلق المنفي هنا هو الاستقلال والاستبداد في الاحداث والابداع ، الامر الذى لايتنافى واختيارية افعال العباد ، الذين هم غير مستقلين فيها ، فلم يكونوا شركاء له تعالى في الخلق والتدبير التام . اذ نسبة الفعل الى فاعله ـ باعتبار انه موجد لشرطه ـ لاتقتضي استقلاله في الاحداث.

٢٢ـ والاجماع على انه لاخالق الا الله ، كالآيات المتقدمة ،ينفي استقلال غيره

فى الاحداث والايجاد، اما ايجاد شرط الشيء لتفاعل القوى الطبيعية مع بعضها تماسكاً وتجاذباً ، وفق سنة الله التى جرت فى الخلق ، فهذا شيء لاينفيه الاجماع المذكور ولا الآيات السابقة . وقد تقدم الكلام فى ذلك . واطلاق الخلق على هذا النمط من الاحداث والصنع ليس شيئاً ينكر ، قال تعالى ـ خطاباً مع عيسى عليه السلام : «واذ تخلق من الطين كهيئة الطير ـ المائدة : ١١٠» اى تصنع . فاسند الخلق الى عيسى ذاته . وقال تعالى: «فتبارك الله احسن الخالقين ـ المؤمنون : ١٤». «اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين ـ الصافات : ١٢٥». اى احسن الصانعين، حيث استقلاله واستغناؤه فى الصنع والاحداث . وافتقار غيره من الصناع الى فعل القوى التى اودعها الله فى جبلة الأشياء .

٢٣ـ اما عدم اجتماع قدرتين على مقدور واحد ، فان اريد قدرتان مستقلتان على ايجاد الشيء خارجاً . فحق . ولا كلام لنا فى ذلك ، انما الكلام فى قدرتين احداهما على ايداع القوى فى طبيعة الاشياء والافاضة عليها فى خط البقاء . والثانية على ايجاد شرط التفاعل بين هذه القوى . كما فى مثال الاحراق والاحتراق بالنار وهذا شيء بديهى لاغبار عليه .

٢٤ـ واما التشريك فى الخلق فانما يلزم لو قيل بتأثير قدرتين مستقلتين كل على مقدور غير مقدور الأخرى ، كما ذهب اليه الثنوية . اما لو كانت هناك قدرتان احداهما فى طول الاخرى وفى امتدادها .وفق سنة الله التى جرت فى الخلق. لحكمة التكليف والاختبار ، فلا شرك ، بل هو توحيد خالص ، كما لايخفى على اولى النهى .

٢٥ـ اما العلم بتفاصيل المصنوع فواجب لو كانت جميع تلك التفاصيل من صنعه وواقعة تحت اختياره وعن قصده ،اما لو كانت جملة المصنوع اجمالياً واقعة عن قصده ، لكن لزمتها بعض الخصوصيات لاعن اختياره ، فلايجب تعلق علم

الصانع بها .

ففي مثال المشي ، كان الذي قصده الماشي هو : رفع رجله ووضعها الى الامام في اتجاه خاص . وهذا المقدار هو الذي ينسب اليه ويكون عن اختياره وقصده وارادته الخاصه . اما قدر ما بين قدميه من مسافة . وكم خطوة يريد تخطيها ، فهذا لم يقصده ولا واقع تحت ارادته ، ولا هو منسوب اليه كعمل اختياري . وهكذا حركات اعضائه عند الأخذ والبطش ، ومد الاعصاب والايعازات العصبية ، وما اليها كلها خارجة عن اختياره وارادته الخاصة ، ولا ينسب اليه شيء من ذلك [1] .

٢٦ ـ واما قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ـ الاعراف : ١٧٩ » فهو كقوله : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ـ القصص : ٨» . كانت اللام في امثال هذا الكلام للعاقبة والنتيجة ، كقول الامام امير المؤمنين عليه السلام : لدوا للموت وابنوا للخراب . اي كل ولادة لابد ان تنتهي الى الموت . وكل بناء لابد ان ينتهي الى الخراب . وهكذا كثير ممن خلقهم الله تؤول عاقبة امرهم الى جهنم . بدليل التعليل في ذيل الآية : لهم قلوب لا يريدون ان يفقهوا بها . ولهم اعين لا يحاولون الابصار بها . ولهم آذان لا يسترعون الاستماع بها . وقد جعلوا من انفسهم كالأنعام بل اضل . الامر الذي هم طلبوه ومهدوا السبيل الى تحقيقه ، كأنهم يجتهدون مساعيهم لدخول النار وبئس المصير .

وأخيراً فالذي يدلنا بوضوح على ان دخولهم النار كان لسوء اختيارهم ـ لانه تعالى خلقهم لذلك بحيث اراد منهم فعل المعاصي ليدخلوا جهنم ، كما زعمه الاشعري واذنابه الاغبياء ـ قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ـ الذاريات : ٥٦ » . وهذه الآية صريحة ومحكمة ، فيجب رد غيرها من متشابهات اليها .

---

١ ـ راجع ـ بالخصوص ـ محاضرات سيدنا الاستاذ ـ دام ظله ـ ج٢ ص٤٤ ـ ٤٥ .

٢٧ ـ وقوله : « ولوشئنا لآتينا كل نفس هداها ـ السجدة : ١٣» . المشيئة فيها تكوينية ، اى لواردنا اجبارهم على الهدى لفعلنا ، غير انه «لااكراه فى الدين». اذ حكمة التكليف تقتضى منح المكلفين اختيارهم فى الاهتداء او البقاء على الضلال. ولولا ذلك لم يحصل اختبار ولا تمييز الخبيث من الطيب .ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وقوله ـ بعدذلك ـ :«ولكن حق القول منى لأملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين» لايدل على انه تعالى حتم عليهم الكفر والعصيان ليدخلوا جهنم . بل المعنى :انه تعالى حق القول منه انلايكره الناس على الطاعة والايمان ،بل يجعلهم مختارين فى الاهتداء والبقاء على الضلال تحقيقا لحكمة التكليف . ومن ثم فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ـ الكهف : ٢٩» ،الامر الذى ينتهى بامتلاء جهنم من العصاة والكفار ، لسوء اختيارهم الفسوق والطغيان.

وتدلنا على ذلك الآية بعدها: «فذوقوا بمانسيتم لقاء يومكم هذا ، انانسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بماكنتم تعملون ـ السجدة : ١٤» فكان استحقاقهم العقاب، لسوء تصرفاتهم فى هذه الحياة ، وتناسيهم لقاء يوم الحساب . الامر الذى يتنافى ومقصود الاشعرى فى الجبر على الكفر والعقاب .

٢٨ ـ والآيات التى جاء فيها تعليق الايمان على مشيئة الله ، انما تعنى ارادته التكوينية للايمان المتنافية مع حكمة التكليف: «ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً ـ يونس : ٩٩» . لكنه تعالى لم يشأ ذلك ، بل خول الناس اختيارهم فى الكفر والايمان «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ـ الانفال:٤٢».

وبذلك اتضح تفسير قوله تعالى : «ماكانوا ليؤمنوا ـاى باختيارهم ـالاان يشاء الله ـان يجبرهم على الايمان .لكنه تعالى لايفعل مايخالف حكمته فى التكليف ـ الانعام : ١١١» .

٢٩ ـ وقوله : « وماتشاؤون الاان يشاء الله ـ الانسان : ٣٠ » يعنى اذنه فى

تحقق الأشياء ـ على ماسلف تحقيقه ـ فكل مايريده العباد فعله ، لايقع الاباذن الله، وبارادته الحادثة . الواقعة اثر ارادة العباد ، وفق سنته الجارية فى الخلق .

٣٠ ـ ٣١ ـ وكل آية جاء فيها تعليق الايمان اوعدم الشرك اوعدم القتال على مشيئة الله تعالى ، فـانما هى المشيئة التكوينية ، بنفس التقريب المتقدم برقم : ٢٨ .

٣٢ ـ وتأويل الاشعرى آية الذاريات : ٥٦ بأنه تعالى انما عنى المؤمنين ، فهو تخصيص لحكم عام من غير مخصص ، ولايعدو تأويلا باطلا وتحريفاً بالكلم عن مواضعه من غير مبرر . اذلم يخلق الله خلقاً لجهنم ـ كما زعمه اهـل الزيغ والانحراف ـ ليكون ذلك تخصيصاً فى آية الذاريات . وقدتقدم الكلام عن آيـة الاعراف : ١٧٩ برقم : ٢٦ .

٣٣ـ وهكذا تأويله آية النساء :٧٩ بالحمل على الاستفهام الانكارى تأويل غير مستند ، وتحريف بظاهر الكلام لايعمد اليه غير الذين فى قلوبهم زيغ ،ابتغاء الفتنة وطلب الفساد بين العباد .

قال القاضى ـ معرضاً بالاشعرى ـ: فاما من حرف التنزيل لكيلا يلزمه بطلان مذهبه ، وزعم ان المراد به :فمن نفسك ؟!على جهة الانكار ،فقدبلغ فى التجاهل، ورد التلاوة الظاهرة الى حيث يستغنى عن مكالمته [١] .

* * *

(ملحوظة) قديزعم البعض وجود التنافى بين الآيتين التاليتين :

الاولى ـ قوله تعالى : « وان تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عندالله . وان تصبهم سيئة يقولوا :هذه من عندك .قل :كل من عندالله . فمالهؤلاء القوم لايكادون

١ـ متشابهات القاضى ج١ ص١٩٩ .

يفقهون حديثاً ـ النساء : ٧٨» .

الثانية ـ قوله تعالى ـ بعقب الاولى ـ : «ما أصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ـ النساء : ٧٩» .

حيث الاولى دلت على ان كل من الحسنة والسيئة من عند الله ، ودلت الثانية ان الحسنة خاصة من عند الله ، واما السيئة فمن العباد انفسهم . فما وجه التوفيق ؟

وتخلص الاشعرى بنفسه بحمل الاولى على الاستفهام الانكارى ، وقد تقدم برقم : ٣٣ فيما سبق وهنا . وقد شنعوا عليه هذا التأويل الذى لايعدو تحريفاً ظاهراً لامبرر له سوى قلة الورع وعدم المبالاة بالدين .

وقد جاء مثل التعبيرين فى قصة موسى عليه السلام ، قال تعالى : «فاذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه . وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ـ الاعراف : ١٣١» . فقال تعالى مكذباً لهم فى ذلك : «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ـ الاعراف : ١٦٨» . فبين انه تعالى هو الذى يفعل الامرين بلاء ومصلحة ، لكى يرجع العاصى ويقتلع عن كفره ومعصيته .

وتفسيرهما الصحيح : ان الحسنة هنا : الرخاء ووفور النعم . والسيئة : الجدب والقحط والبلايا . فكلتاهما من عند الله ابتلاء لعباده بالنعم شكراً ام كفرانا ؟ وبالبلايا ارعواء ام زيادة طغيان ؟ . وقد تكون النعم تفضلا ومزيداً فى الاحسان جزاء لشكرهم «لئن شكرتم لازيدنكم ـ ابراهيم : ٧» . وتكون البلايا نقمة وعقاباً « ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ـ الاعراف : ٩٧» . «فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ـ الانعام : ٤٣» .

فالسيئة ـ كالحسنة نازلة من عند الله لحكمة الرجوع الى الرشد والارعواء عن الباطل لطفا . او نكالا وعقاباً على المرود والطغيان . غير ان السبب الموجب

لنزول البلاء عليهم هم انفسهم جزاء بما كسبوا .

وبهذا يجمع بين قوله ـ بشأن الحسنة والسيئة ـ : «كل من عندالله» .وقوله ـ بشأن السيئة ـ : «فمن نفسك» . نعم لما كانت الحسنة (النعم والرخاء) تفضلا من الله محضاً ،حيث لااستحقاق ذاتياً للجزاء على الحسنات الاماوعدالله من المثوبة والاحسان والتفضل والرضوان .

٣٤ـ وماأقبح قول الاشعرى : انه تعالى لم يردان يظلم العباد بنفسه وان كان قداراد ان يظلم بعضهم بعضاً !!

وقد قال هذا القول الشنيع تبريراً لمذهبه الباطل ، أن افعال العباد منسوبة الى الله لاتأثير لارادتهم ولالقدرتهم فى تحققها . فهو تعالى اراد ظلم الظالمين وعيث الفاسدين !!

لكن ذهب عنه اولم يستطع فهم هذه الحقيقة : ان الله تعالى وان كان قداقدر الظالم على ظلمه ، وجعل له الاختيار فيما يريدفعله ، لحكمة التكليف والاختبار. لكنه تعالى لم يرد هذا الظلم بارادته التشريعية ، حيث نهاه ونهره عن الظلم والفساد فكيف يجبره ـ بما يخرج عن استطاعته ـ على الظلم والعصيان ؟!

٣٥ ـ ولاندرى كيف جازلهم تفسير الخلق بالتقدير فى آيتى المائدة :١١٠. والمؤمنون : ١٤ . ونسوه فيما دل على انه تعالى خالق افعال العباد « خالق كل شيء »؟!

وقدتقدم [١] ان الخلق فى قوله «احسن الخالقين» . وقوله «تخلق من الطين» بمعنى الصنع والاحداث باعتبار ان العباد ـ فيما يصنعون ـ هم موجدون لشرائط الحدوث والتحقق بفعل القوى تجاذباً مع بعضها .وبذلك صح اطلاق الخالق ـ بمعنى الصانع للشيء ـ عليهم .

١ـ راجع صفحة ١٧٨ و١٩١

٣٦ ـ وجوابهم ـ عن اعتراض لزوم الجبر ، بأنه تعالى اراد منهم الكفر والفسوق عن اختيارهما ـ كلام فارغ لامحصل له ، اذ كيف يريد تعالى منهم الكفر بارادته التكوينية التى لاتتخلف عن المراد ، وتكون علة تامة لتحقق المراد ، ثم ينسب ذلك الى اختيارهم ، ولااختيار لهم مساكين الى جنب سلطان ارادة الله القديمة، حسبما زعموا ! !

واى معنى لارادة العباد الى جنب ارادة الله اذالم يكن لارادة العبد تأثير فى تحقق المراد ، كما لاتأثير للعلم فى تحقق العلوم ، حسب تصريح الاشعرى؟!

والغريب : انهم قاسوا ارادته تعالى المتعلق بافعال العباد بعلمه تعالى المتعلق بها ؟! اذ لو كانت ارادته كعلمه ، كانت لاتأثير لها كما لاتأثير للعلم . وهم انما يرون ان كل التأثير لارادته تعالى ، تحقيقاً لقانون « لامؤثر فى الوجود الاالله » . وينفون أى تأثير لارادة العباد ، فكيف هذا التناقض المفضوح ؟!

ولنختم الكلام بأصرح آية تقضى على مزعومة الجبر نهائياً ، وتنسب افعال العباد ومايترتب عليها من تبعات ومضاعفات الى انفسهم . وهى فى نفس الوقت تبكيت قاطع ومكافحة صارمة فى وجه امثال الاشعرى ممن يجادلون فى الله بغير علم ، ويحاولون تحريف الكلم عن مواضعه زوراً وبهتاناً .

قال تعالى : «ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير. ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق. ذلك بماقدمت يداك [1] وان الله ليس بظلام للعبيد ـ الحج : ٧ـ٩» .

١ـ انظر الى هذا التعبير الذى لايحتمل أى التباس فى ان العباد هم فاعلون لاعمالهم ان حسنة وان سيئة .

مسألة الهداية والتوفيق

اصل الهداية: الدلالة والارشاد[1] ،غير ان انحاء الدلالة تختلف حسب نوعيتها ومرتبتها في التأثير والبلوغ . فمن دل غيره على طريق يؤدي الى مقصده فقد هداه ، كما ان الذي أخذ بيده واوصله الى مطلوبه ايضاً هداه . ففي الاول يحتمل الضلال، والثاني لا يحتمله . فقوله تعالى : «واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ـ فصلت : ١٧ » ، هداية من النوع الاول . وقوله تعالى : «ومن يهدي الله فماله من مضل ـ الزمر : ٣٧» هداية من النوع الثاني. وقد استعملت «الهداية» في القرآن على انحاء ودرجات ، نلخصها فيما يلي : ـ

الاولى : هداية فطرية مرتكزة في جبلة الاشياء ، سواء أكان حيوانا ام نباتاً ام جماداً. اذ ما من موجود الا وهو يهتدي ـ اهتداء ذاتياً ـ الى طرق الصلاح والفساد، مما يتلائم وطبعه فيسعى في جلبه ، او يتنافره طبعه فيقوم في وجهه، بدافع من فطرته التي فطره الله عليها «ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ـ طه : ٥٠» . «والذي قدر فهدى ـ الأعلى : ٣» . الامر الذي نشاهده ـ بوضوح ـ في مظاهر هذا الكون. كل يسعى الى كماله في الوجود ، واستجلاب المنافع ودفع المضار ، دار تنازع في البقاء .

الثانية ـ ركب تعالى في هذا الانسان قدرة تفكيرية جبارة (العقل) بها يستطيع التغلب على قوى الارض والسماء وتسخيرها في سبيل منافعه ، كما استخدم ما امكنه من حيوان ونبات وجماد، وسائر ما في الوجود من قوى وطاقات، في سبيل تحضره

١ـ كما في قوله تعالى : «فاهدوهم الى صراط الجحيم ـ الصافات :٢٣» .وقوله : «أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ـ اي بالاهتداء بالنجوم ـ النمل : ٦٣» ، كما في قوله : :«وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ـ الانعام : ٩٧» .

والصعود على مدارج الترقي والكمال المدني ، ولايزال .

وبهذه المقدرة العقلية يستطيع تمييز الخير عن الشر والحق عن الباطل ، كما ميز بين المنافع والمضار والصلاح والفساد ، نعم اذا لم يغلبه هواه ولم يستسلم لقيادة النفس الأمارة بالسوء !

قال تعالى : «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين ـ البلد : ١٠» . ومن ثم جاء في روايات اهل البيت ـ عليهم السلام ـ : ان العقل رسول باطني ، وانما جاء الانبياء الى البشرية ليؤيدوا ماهداهم اليه نور العقل ، وهو حجة الله ودليله المتركب في صميم الانسان . ولولاه لم ينفع هدى رسول ولا ارشاد نبي .

روى ثقة الاسلام الكليني عن هشام بن الحكم ، قال له الامام موسى بن جعفر ـ عليهما السلام ـ : «ياهشام ، ان الله تبارك وتعالى اكمل للناس الحجج بالعقول ، ونصر النبيين بالبيان ، ودلهم على ربوبيته بالأدلة ـ الى ان قال ـ : ياهشام ، ان لله على الناس حجتين ، حجة ظاهرة وحجة باطنة ، فاما الظاهرة فالرسل والانبياء والأئمة ـ عليهم السلام ـ واما الباطنة فالعقول»[1] .

الثالثة : نصب الدلائل وبعث الرسل وانزال الكتب والشرائع ، هداية خارجية تؤيد تلك الهداية الباطنية ، كما في الحديث الآنف .

وهذه الانحاء الثلاثة من الهداية عامة ، شاملة لجميع المخلوقين . ولعامة الناس على مختلف الأمم والطوائف . « انا هديناه السبيل اما شاكراً ـ بالاجابة والعمل ـ او كفوراً ـ بالاعراض والتولي ـ الانسان : ٣» . « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات ـ الانبياء : ٧٣» . « وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون ـ الاعراف : ١٨٦» . «والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ـ الاحزاب : ٤» . وقال تعالى مخاطباً لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله : «وانك لتهدى الى صراط مستقيم ـ الشورى :

---

١ ـ الكافي الشريف ـ الاصول ـ ج١ ص١٣ ـ ١٦ .

٥٢» . وقال عن القرآن الحكيم : «ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم ـ الاسراء : ٩» . والهداية ـ فى امثال الآيات ـ هداية بالدلالة والاشاد ، المصطلح عنها بالهداية التشريعية ، التى هى وظيفة النبى ﷺ الواجبة عليه . اما الهداية التى ينفيها تعالى عن نبيه ﷺ فهى من النوع الآتى ، المصطلح عنها بالتكوينية قال تعالى : « انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو اعلم بالمهتدين ـ القصص : ٥٦» . وبذلك يرتفع التنافى بين هذه الآية وآية الشورى: ٥٢ . كما يحصل بذلك التوفيق بين كثير من آيات كانت بظاهرها متخالفة ، على ماسننبه .

الرابعة : توفيق رحمانى وتسديد للخطى نحو الصواب ، منحة الهية خاصة، لأولئك الساعين فى سبل الاهتداء . «ومن يؤمن بالله يهد قلبه ـ التغابن : ١١» .«الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه، اولئك الذين هداهم الله ،واولئك هم اولوا الالباب ـ الزمر :١٨» .«أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ـ الانعام: ٩٠» .«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت:٦٩» . «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ـ سورة محمد:١٧» .«ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ـ سورة مريم:٧٦» .الى غير هن من آيات جاءت الهداية فيهن بمعنى العناية الخاصة واللطف الخاص ،يختص بها المؤمنون حقاً ، المتنورون بنور العقل ،السائرون على هدى الرسل بسلام. «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ـ المائدة : ١٦» .

واما المعاكسون لهدى الفطرة فلم يجيبوا دعوة الانبياء، فقد حرموا على انفسهم سعادة هذا الاهتداء الرحمانى فعمو وصموا، «ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم ولهم عذاب أليم ـ النحل : ١٠٤» .«ان الله لايهدى من هو كاذب كفار ـ الزمر :٣» . «كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءتهم البينات والله لايهدى القوم الظالمين ـ آل عمران :٨٦» .

* * *

والهداية ـ بهذا المعنى الرابع ـ هي التي يمنحها الله من يشاء ، ويمنعها عمن يشاء. لايمنحها الا اولئك الذين جاهدوا في الله وحاولوا البلوغ الى كمال الاهتداء سيراً حثيثا من مرحلة «علم اليقين» الى مرحلة «عين اليقين» . ومن جد وجد . «ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكوراً ـ الاسراء: ١٩».

وهكذا لايمنعها الا عن اولئك الذين اعرضوا عن ذكره وسعوا في آياته معاجزين . «ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة اعمى، قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها فكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزي من اسرف ولم يؤمن بآيات ربه، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ـ طه : ١٢٥ ـ ١٢٧» .

وبذلك تفسر مشيئته تعالى المتعلقة بهداية من يشاء واضلال من يشاء «فيضل الله من يشاء و يهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم ـ ابراهيم : ٤ » . اى يخذل [١] من اعرض عن ذكره ، ويهدى من سعى اليه . اذ ليست مشيئته تعالى اعتباطاً متنافياً لمقام حكمته عز شأنه ، ولا يرضى لعباده الكفر [٢] ، وما الله يريد ظلماً للعالمين [٣].

الخامسة : قدرة ايمانية عاصمة عن الخطل والزلل، وعن الخطأ والانحراف، هي عصمة ربانية تتحلى بها نفوس قدسية من عباد الله المصطفين الاخيار « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن اولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ـ فصلت: ٣٠ » . وهذا جزاء استقامتهم على هدى الفطرة وصبرهم في جنب الله « وان لو استقاموا على الطريقة لا سقيناهم ماء غدقا ـ الجن : ١٨ » . ومن ثم فان العصمة

١ـ وسنشرح ـ في فصل قادم ـ ان الاضلال من الله هو الخذلان بمعنى ترك المتمرد ونفسه، حيث أصر على العناد والاستكبار .

٢ـ سورة الزمر :٧

٣ـ سورة آل عمران : ١٠٨

خاصة بالانبياء والائمة الأولياء ، هداهم الله اليها جزاء بماصبروا ، وجعلهم الأئمة المقتدى بهم في الناس ، حيث «لايعصون الله ما امرهم ويفعلون مايؤمرون ـ التحريم: ٦».

قال تعالى: «ووهبنا له (لابراهيم) اسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحاً هدينا من قبل، ومن ذريته داود وسليمان وايوب ويوسف وموسى وهارون، وكذلك نجزى المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس، كل من الصالحين، واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ،وكلا فضلنا على العالمين ـ الى قوله ـ اولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ـ الى قوله ـ اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ـ الانعام : ٨٤ ـ ٩٠ » .

وسنتكلم عن مختلف جوانب هذه العصمة الرحمانية الخاصة في فصل قادم ان شاء الله .

* * *

وهناك هداية اخرى هي : هداية إلجاء ، لم يشأ الله ـ فيما عدا هدى الفطرة ونور العقل ـ ان يلجيء عباده عليها ، ولا ان يكرههم على الطاعة والايمان ، حيث هذه الحياة الدنيا دار اختيار واختبار ، ولا اختبار مع الالجاء والاكراه .وبذلك نوه الذكر الحكيم ، قال تعالى : «فلو شاء لهداكم اجمعين ـ الانعام : ١٤٩ » . وقال : « أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ـ الرعد : ٣١» . لكنه تعالى لم يشأها، حيث منافاتها للتكليف والاختبار .

* * *

وقسم سيدنا الاستاذ ـ دام ظله ـ انحاء الهداية الى ثلاثة :

الاولى ـ هداية تكوينية عامة ، اعدها الله في طبيعة الموجودات ، وهي تسير بطبعها نحو الكمال ، وتهتدي بنفسها الى طرق الاستكمال « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ـ طه: ٥٠» .

الثانية ـ هداية تشريعية عامة ، أفاض على الانسان العقل وقدرة تمييز الحق

عن الباطل، وايده بارسال رسل وانزال كتب وشرايع «اناهديناه السبيل اماشاكراً او كفوراً ـ الانسان :٣» .

الثالثة ـ هداية تكوينية خاصة ،عناية ربانية خص الله بها بعض عباده ممن وفقهم وسددهم نحو الصواب وفق اقتضاء حكمته ولطفه «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩».

وبذلك فسر ـ دام ظله ـ طلب الهداية فى قوله : «اهدنا الصراط المستقيم ـ سورة الفاتحة» .حيث المسلم بعدما اعترف بان الله قد من عليه بهدايته العامة التشريعية، يطلب من الله ان يمنحه هدايته الخاصة التى يختص بها من يشاء من عباده [١] .

* * *

والهداية فى كل مرتبة من مراتبها الخمس المتقدمة هى ذات درجات أعلاها أعلا ، يتدرجها عباد الله النابهون درجة بعد درجة ومرحلة بعد اخرى الى غير نهاية حيث لانهاية ولاغاية لرحمته تعالى الواسعة ،فكلما بلغ العبد منزلة رفيعة من رحمته تعالى تكون ورائها مراتب ارفع واعلا واقرب الى فيض قدسه تعالى ، ولايزال مثل نبينا صلى الله عليه وآله وسلم يرتفع درجات الى قرب رضوانه تعالى ، كلما صلت عليه أمته عبر الدهور ، صلى الله عليه اكمل صلاة وارفع تحيات ، وعلى آله الميامين الأطهار .

ومن ذلك يتضح لنا السبب فى ترغيب وتكليف طلب الاهتداء عبر الساعات والأيام ، حيث تتواصل رحمة الله الواسعة ، الشاملة لعباده المؤمنين عبر الدقائق والآنات .

واذا لاحظنا من درجات النور المتصاعدة الى الأقوى ، واعتبرنا كل درجة لاحقة هى اشد تنوراً من سابقتها ، كانت الدرجة السابقة فاقدة لهذا المقدار الأشد وكانت هذه بنفس النسبة مظلمة بالاضافة الى الدرجة اللاحقة ذات التنوير الاقوى

١ـ راجع : البيان ـ عند تفسير سورة الفاتحة ـ ص٥٢٧ ـ ٥٢٩

ـ وهكذا درجات الهداية التي هي نور في حقيقتها ـ فحيثما بتدرج العبد على مدارج الهداية صعوداً الى الأكمل ، فانما هو ينتقل من درجة هي ضلال بالنسبة الى تاليتها وظلمة انتقل عنها بتوفيق الله وهديه الخاص الى نور هي درجة جديدة من نور هدايته تعالى .

وبهذا المعنى فسرنا قوله تعالى : «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ـ البقرة : ٢٥٧» ، حيث الفعل المضارع دل على استمرار وجودي لهذا الانتقال التدرجي ، وماذاك الا عنايته تعالى بشأن المؤمنين من عباده ، أخذاً بأيديهم صعداً على مدارج الهداية والكمال ، من نور هي ظلمة نسبية الى أنور ، سيراً تقدمياً مع الأبدية . اما الكافر العنود فانه في سير تقهقري ، رجوعاً من نور عقله وهدى فطرته الى ظلمات الغي والجهالة المردية «والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» . عصمنا الله من غواية النفس وانقذنا من حبائل الشيطان ، وهدانا الى سبيل رشده هدياً متواصلا مع الأبد ، آمين رب العالمين .

* * *

اضلال أم خذلان ؟

تلك هدايته تعالى بالمعاني الخمسة المتقدمة ، منها ما كانت اختيارية ، وهي المتوسطة بين سابق «فطرة وعقل» ولاحق «توفيق وتسديد» فاذا ما لبى العبد نداء فطرته وسار على رشد عقله ، انقاد لهدى الشريعة واطاع ربه ، ومن ثم أدركه توفيق رباني وانشرح صدره فبلغ الحقيقة والصواب بعنايته تعالى ولطفه الخاص .

اما اذا عاكس فطرته وخالف رشد عقله ، فانه لا يجيب الى دعوة الأنبياء ولا يمتثل تكليف ربه ، ومن ثم لم يستعد بنفسه لشمول نفحات قدسه تعالى ، فأخطأه التوفيق وضاق صدره فلم ينل الاهتداء الى الصواب ، فكان قدحرم سعادة الحياة في شقاء دائم .

وعليه فمعنى اضلاله تعالى لمن يشاء ، هو خذلان عبده المتمرد الطاغى ، يتركه يعمه فى ظلمات غيه ، جزاء متناسباً مع عناده واصراره على الجهالة والطغيان. كسائر على مزالق هاوية سحيقة، لايعرف درب النجاة وغمته ظلمات السماء والارض، فيناديه الدليل العارف: ناولنى من يدك لأهديك سواء السبيل، واتبعنى اهدك صراطاً سوياً، لكنه لسوء اختياره يترفع بنفسه ـ علواً واستكباراً ـ ان ينخرط مع سائر المهتدين اويسير مع ركب المؤمنين «واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » ؟! «الا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ـ البقرة : ١٣» . « اذقال لهم اخوهم نوح : ألاتتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله واطيعونى » . « قالوا : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟! ـ الشعراء : ١٠٦ ـ ١١١» . «فقالوا : أبشراً منا واحداً نتبعه إنا اذاً لفى ضلال وسعر ـ القمر : ٢٤» .

هكذا أطاحوا بحظهم وألقوا بأيديهم الى التهلكة «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ـ الصف : ٥» ، قال تعالى: «سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق، وان يروا كل آية لايؤمنوا بها، وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ـ الاعراف ـ ١٤٦» .

هذا هو اضلاله تعالى بمعنى خذلانه الطغاة وتركهم فى ظلمات الغى يعمهون معاكسة طبيعية وحتمية مع اتجاههم ذاك العاتى «وما الله يريد ظلماً للعباد ـ غافر: ٣١» « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ـ ابراهيم : ٢٧» . وهو تفسير قوله : «يضل من يشاء» بدليل قوله: «قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب ـ الرعد : ١٣ » . فالذين يريد الله اضلالهم ـ اى خذلانهم ـ هم الذين لاينيبون الى الله مولاهم الحق[1] وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون[2] .

---

١ ـ مقتبس من قوله تعالى : «ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ـ الانعام: ٦٢» .

٢ ـ سورة آل عمران : ٢٤ .

«فاماالذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيد خلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ـ النساء : ١٧٤» .

قال سيدنا الطباطبائي ـ دام ظله ـ : قد وقع المؤمنون حقاً بين هدايتين : هداية اولى فطرية وانصياع الى رشد العقل ، فشملتهم عناية ربانية في نهاية المطاف . كما ان الكافر وكذا المنافق ، واقع بين ضلالين : ضلال سابق هي معاكسة نداء الفطرة وهدى العقل ، فلحقهم ضلال وعمه عن سبيل الحق مع الأبدية ، «كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون ، صم بكم عمى فهم لايرجعون ـ البقرة : ١٧»[1] .

اذن فكما ان الهداية اللاحقة منحة الهية يكتسبها العبد بفضل جهوده في سبيل لقاء ربه . كذلك الضلال اللاحق خذلان من الله استوجبه العبد لنفسه ، مغبة اعراضه عن الحق وصموده على الغي والضلال ، وفي كلا الجانبين يكون العبد هو السبب العامل لما يصيبه من سعادة وشقاء في نهاية المطاف . « فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انا عليكم بوكيل ـ يونس : ١٠٨ » .

* * *

وزعم الأشعري ومن على شاكلته من اهل الجبر ، أن لاسبيل للعبد الى اختيار طرق الهداية او الضلال اطلاقاً ، وانما هي ارادته تعالى يهدي من يشاء بلاسبب ذاتي ، ويضل من يشاء بلااستحقاق موجب ، لانه تعالى يفعل مايريد ، ولايسأل عما يفعل وهم يسألون .

قال : ان الله هدى البعض الى الايمان ولطف به واصلحه فكان مؤمنا ، وأضل البعض ولم يلطف به ولم يصلحه فكان كافراً ، ولو اصلحه ولطف به لكان مؤمناً ، لكنه تعالى اراد ان يكون هذا كافراً ومن ثم خذله وطبع على قلبه .

وتشبث في ذلك بظواهر آيات تنسب اليه تعالى الهدى والضلال مطلقا «يهدي

---

١ ـ راجع : تفسير الميزان ج١ ص٤٢ طدار الكتب الاسلامية .

من يشاء ويضل من يشاء». قال: الايمان والكفر كلاهما من فعله تعالى يخلقهما في من يشاء من عباده، من شاء جعله مؤمنا، ومن شاء جعله كافراً. والخلاصة: انه فسر الهداية - حيثما وردت في القرآن - بخلق الايمان مباشرة او القدرة عليه، ومن ثم فهي خاصة بالمؤمنين وحدهم، لانهم هم الذين أراد منهم الايمان، فأقدرهم عليه ووفقهم له، دون غيرهم من الكفار والمنافقين، ولو كان اراد من هؤلاء الايمان أيضاً لاقدرهم عليه لكنه تعالى اراد ان يكونوا كافرين فلم يقدرهم على الايمان.

وقال - في قوله تعالى: «واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى» -: ان الضمير في «فهديناهم» يعود على المؤمنين من قوم ثمود خاصة، والضمير في «فاستحبوا العمى» يعود على الكافرين منهم خاصة. ليكون المعنى: ان الله هدى البعض من قوم ثمود الى الايمان واقدرهم عليه فآمنوا، كما لم يهد غيرهم ولم يقدرهم فاستحبوا العمى على الهدى وصاروا كافرين.

وقد تكلم الاشعري في ذلك باسهاب، في فصول عقدها من كتابه: «الابانة» فراجع [1].

ورمى ابو محمد علي بن احمد بن حزم الظاهري (ت٤٥٦) القائلين بمثل هذه التفسيرات بالجهالة، قال: وقال بعض من يتعسف القول بلا علم - معرضاً بالاشعري - ان قول الله عز وجل: «واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى». وقوله تعالى: «انا هديناه السبيل». وقوله تعالى: «وهديناه النجدين»: انما اراد تعالى بكل ذلك المؤمنين خاصة!

قال: وهذا باطل من وجهين، احدهما: تخصيص الآيات بلا برهان، وما كان هكذا فهو باطل. والثاني: ان نص الآيات يمنع من التخصيص - ثم أخذ في الاستدلال بآيات رداً على تلك المزعومة [2].

---

١ - من طبعة حيدر آباد الدكن عام ١٣٦٧هـ صفحات: ٦-٧ و ٥٦ و ٥٩ و ٦١ - ٦٣ و ٦٥ - ٧٠.

٢ - الفصل في الملل والنحل ج٣ ص٤٥ - ٤٦

قلت : ونحن قداسلفنا ـ في مقدمة الفصل ـ البحث عن الهداية والضلال وان لاموقع للالجاء مع التكليف ، كما لاملامة ولاذم ولاعقاب ولاجزاء مع عدم الارادة والاختيار . وان للهداية مراتب : اولى ووسطى ونهاية، والوسطى اختيارية محضة واقعة بين هدايتين كانتا منحتين الهيتين . وبذلك استطعنا التوفيق بين الايات الكريمة وله الحمد .

(ملحوظة) قديقال : لامانع من حمل قوله تعالى : «يضل من يشاء» على حقيقة الاضلال ، من غير تأويله الى معنى الخذلان والحرمان . وذلك لانه تعالى انما يزيد في ضلال العاتي المتمرد عقوبة على استكباره وعناده مع الحق الصريح. فهي عقوبة اكتسبها العاصي بيده ، فكان جديراً بهذا الجزاء المماثل «وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى : ٤٠» .

لكنا اذا مالاحظنا من امداد التائه في تيهه ـ مهما كان السبب ـ قباحة يستنكرها العقلاء في الاوساط المتحضرة ، ويستقبحون الاغراء بالجاهل المغرور ، زيادة في غيه وجهالته ، حتى ولو كان هو السبب في غروره وكان قد عاند الحق ولم يعر اهتمامه لنصح الناصحين . اذليس من حكمة العقل ان يقوم الدليل بدفع التائه المغرور الى مهاوى الهلكة بحجة جموحه عن قبول النصح والرشاد .

فلنفرض ان انسانا معجباً بنفسه لم يستسلم لقيادة من كان يدله على الطريق ، ولم ينصت لنصح من كان ينصحه ، فجعل يسير على مضلات الطريق ومتعرجاته حتى وقف على حافة هاوية سحيقة حائراً في ضلاله . فهل يجوز العقل حينئذ ان يعود الدليل فيدفع به الى السقوط في فوهتها، اويزلق برجله حتى يقع هو في قعرها ؟!

واذا كان العقل لايجوز أمراً فهو ظلم وقبيح ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً اذن لامحيص عن تفسير اضلاله تعالى بالخذلان والخيبة والحرمان ، بمعنى ترك العتاة في ظلمات غيهم يعمهون.

عرض آيات الهداية والضلال

(التي وقعت موضع تشابه)

وبعد فلنتعرض الآن لآيات ربما وقعت موضع تشبث اهل الجبر فى الهداية والضلال ، والاجابة عليها وفق مااسلفنا من البيان : ـ

١ـ قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم ـ الفاتحة : ٦» : قالت الاشاعرة: لو كان المراد بالهداية الدلالة لكانت حاصلة لهم ، فلم يكن لطلبها معنى ، فوجب ان يكون المراد : نفس الايمان او القدرة عليه .

والجواب: ان للهداية مراتب متلاحقة لايقف المؤمن منها عند حد ، فعلى أية درجة كان فانه يطلب المزيد والبلوغ لدرجة اعلا. ولانهاية لرحمته تعالى مع الأبدية، «والذين اهتدوا زادهم هدى ـ سورة محمد :١٧» . «ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً ـ مريم :٧٦» .

وايضاً فانا قد بينا فى التفسير : ان العبد يطلب من الله الاستقامة فى جميع شؤون حياته المادية والمعنوية ، الامر الذى لايستغنى عن هدايته تعالى بالتوفيق والتسديد الى الصواب مع الليالى والأيام .

٢ـ «هدى للمتقين ـ البقرة :٢» . قالوا : ماوجه اختصاص الهداية بالمتقين، لو كانت هى الدلالة والارشاد ؟

والجواب : وجه الاختصاص : انهم هم الذين استعدوا بانفسهم للاهتداء بهذا الكتاب الذى جاء هدى للعالمين . قال تعالى : « شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس ـ البقرة : ١٨٥» . والآية نظيرة قوله تعالى : « انما انت منذر

من يخشاها ـ النازعات : ٤٥» . ولاشك انه ﷺ جاء منذراً للخلق كلهم ، كما قال تعالى : «وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ـ سبأ : ٢٨».

٣ـ «ان الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون ـ البقرة: ٦» يدل على انهم لايقدرون على الايمان .

والجواب : انه تيئيس للنبى ﷺ عن تأثير دعوته ، بالنسبة الى اولئك المردة العتاة ، فهو اخبار عن عدم وقوع ، لااخبار عن عدم قدرة ، والالم يصح ذلك الذم والتوبيخ ، والوعيد بعذاب عظيم .

٤ـ «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ـ البقرة :٧». فاذا كان الله قد ختم قلوبهم ، كان ذلك من ادل دليل على انه تعالى هو الخالق للايمان والكفر ، وللاسباب الموجبة لها !.

والجواب : ان ذلك تشبيه واستعارة ، وكناية عن ذلك الاعتياد على العناد مع الحق والصمود على التمرد والطغيان . كما جاء فى تعبير انفسهم فيما حكى الله عنهم «فاعرض عنهم فهم لايسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل اننا عاملون ـ فصلت : ٥» .

انظر الى هذا التعبير الجافى ، جعلوا من انفسهم صخرة صماء وحجراً صلداً لايتأثر بشىء. وانما هى تعابير كنائية عن تلك القسوة والجفاء العارم «ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ـ الانعام : ٤٣» . وقال تعالى ـ مخاطباً لامثالهم فى انكار لاذع ـ : «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة او اشد قسوة ـ البقرة : ٧٤» . ومن ثم رد عليهم هذا التبرير الكاذب بقوله تعالى : «وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ـ البقرة :٨٨» .

وانما اسند تعالى الختم الى نفسه، فى حين انهم فى آية اخرى جعلوه من ذات انفسهم «قلوبنا فى اكنة» ، لانه تعالى باقداره لهم على فعل كل من الطاعة والعصيان، تمهيداً لصحة التكليف والاختبار ، فقد مكنهم على هذا الجموح و تلك المقاومة

تجاه الحق .

وايضاً فان خذلانه تعالى لهم ومنعهم شمول لطفه الخاص، على اثر استكبارهم عن قبول الهدى ، جعله تعالى كأنه هو الذى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة .قال تعالى : «أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه .وجعل على بصره غشاوة .فمن يهديه من بعد الله، أفلا تذكرون ـ الجاثية : ٢٢». فقد جاء فى هذه الاية الختم والغشاء تفسيراً لاضلاله تعالى الذى هو خذلان ، وترك لهم فى ظلمات لايبصرون . قال تعالى : «ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً ـ الكهف ٢٨» . والآيات يفسر بعضها بعضاً.

وأخيراً فلو كان الله هو ختم على قلوبهم فلا يؤمنون الا قليلا ، فما هو السبب المبرر لتوجيه الملامة اليهم وذلك الاستنكار فى قوله تعالى : « فما لهم لا يؤمنون ـ الانشقاق : ٢٠» .وقوله : «وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ـ الاسراء : ٩٤» . الى غيرهما من آيات ؟!

٥ـ «فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ـ البقرة : ١٠» يعنى : كفراً وشكاً . وذلك يدل على انه تعالى يخلق الشك والكفر فى قلوب الكافرين والمنافقين.

والجواب : ان المقصود بالمرض فى الآية هو الانحراف والميل الى الفساد، كما ان الجسم اذا انحرف عن استقامته فى الصحة كان مريضاً ، كذلك الروح اذا انحرفت عن جادة العقل واخذت فى معاكسة الفطرة ، فانها مريضة ، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس .

والسبب فى هذا المرض الروحى هو التفريط فى عدم تموين الروح بما يلائمها من من غذاء سليم فى هدى العقل الرشيد . وكلما استبد صاحبه فى هذا الانعطاف غير الطبيعى ، ازداد اعوجاجاً عـن الجادة الوسطى المستقيمة ، واقتراباً الى ملتويات الطريق، واخيراً الى سقوط هائل فى مهاوى الضلال السحيق .«فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ـ الصف : ٥».

ولاشك ان الأخذ فی زيادة الانحراف كان باصرارهم على العناد واللجاج ، وتمكن ابليس من قلوبهم واستحواذه على مشاعرهم فهم لايفقهون، غير ان نسبة ذلك الى الله كانت بمناسبة انه ـ عزوجل ـ اقدرهم على ذلك لحكمة التكليف والاختبار «لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ـ النساء :١٦٥».

ومن ثم قد نرى نسبة مايفعله الشيطان الى الله تعالى ، لنفس السبب . قال تعالى «ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم اعمالهم ـ النمل: ٤» ، مع انه قال تعالى :«وزين لهم الشيطان اعمالهم ـ العنكبوت :٣٨ . والنمل : ٢٤» وقال : «فزين لهم الشيطان اعمالهم ـ النحل : ٦٣» . وقال : «واذ زين لهم الشيطان اعمالهم ـ الانفال : ٤٨» . الى غيرها من آيات .

٦ـ «الله يستهزىء بهم ويمدهم فی طغيانهم يعمهون ـ البقرة : ١٥» . فذكر ان الطغيان من فعله تعالى فيهم ، مضافاً الى اسناد الاستهزاء الى نفسه تعالى ،دليلا على انه يخلق فيهم هذه الافعال !

والجواب : ان المد فی الطغيان عبارة اخرى عن الخذلان الذی استوجبوه لانفسهم مغبة لجاجهم فی الجموح. بدليل مابعده من قوله : «اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ـ١٦» .اذلايصح هذا الوصف الااذا كانوا هم اختاروا الضلالة على الهدى ، والافلو كان ذلك من فعل غيرهم لم يجز اطلاق لفظ «الاشتراء» هنا ، كما لايخفى .

واما نسبة الاستهزاء اليه تعالى فهی معاكسة طبيعية كانت على اثر تقصيرهم فی العمل الانسانی ، حيث المنافق ـ فی سلوكه المزدوج ـ يستهدف مصالح يبتغيها وراء اعماله الاجرامية ، ويظن انه يبلغها فی ستار نفاقه المراوغ . غير ان الواقعية تعاكسه فی كل مايبتغيه من أهداف،وتفضحه بين حين وآخر فی سلوكه ذلك المزدوج الخبيث غير الانسانی ، فضلاعن عيشته تلك القلقة المضطربة «يحسبون كل صيحة

علبهم ـ المنافقون : ٤» .

اذن فسلوك المنافق المزدوج هو الذى جلب على نفسه الفشل ودوام الاضطراب فى عيشة غير هنيئة ، الامر الذى جعله سخرية الواقع وموضع استهزاء عارم .انها واقعية مرة يجابهها المنافق مغبة خطئه فى السلوك .

٧ـ «صم بكم عمى فهم لايرجعون ـ البقرة : ١٨» يدل على انهم ممنوعين من الايمان .

والجواب : انه مبالغة وتشبيه ، لانهم لما لم ينتفعوا بهذه الحواس صاروا كانهم فاقدين لها ، كما فى قوله تعالى : «انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ـ النمل : ٨٠» . وقال الشاعر :

لقد اسمعت لو ناديت حياً ولكن لاحياة لمن تنادى

٨ـ «يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ـ البقرة :٢٦» هلايدل على ان الاضلال من فعله تعالى ؟

والجواب : ان هذا من كلام اولئك الذين كفروا ، ومن ثم جاءهم الرد والاستنكار على هذا الكلام : «وما يضل به الا الفاسقين» . اى لاينحرف بالأمثال التى يضربها الله ، الا الذين فى قلوبهم مرض ، فهم الذين تضجرهم الامثال ،حيث انها تفضحهم وتنهكم من موقفهم الشانىء .فمعنى الاضلال على ذلك :انه يزيد فى عتوهم وغيظا فى صدور .

٩ـ «واشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ـ البقرة : ٩٣» يدل على انه تعالى خلق الاشراك مزجاً فى قلوبهم .

والجواب : ان ذلك مبالغة فى تمكن حب الشىء من القلب ، كانه اشرب قلبه ذلك ،فهو كناية عن شدة تمسكهم بالعجل واعجابهم بعبادته .

١٠ـ «وماهم بضارين به من أحد الا باذن الله ـ البقرة : ١٠٢» يدل على ان اضرار السحر انما هو بارادته تعالى .

والجواب : قد اسلفنا ان اذنه تعالى في التأثير والتأثر عبارة عن تحكيم قانون العلية ربطاً بين الحوادث، وفق سنة الله التي جرت في الخلق . فهو تعالى افاض على القوى تأثيراتها من فاعل وقابل ، وهو تعالى يمدها كذلك ،ولو شاء لأوقف تأثيراتها اذا قطع عنها افاضته الدائمة . وقد تقدم تفصيله [١] .

١١ـ « ربنا واجعلنا مسلمين لك ـ البقرة : ١٢٨ » يدل على ان الاسلام من فعله تعالى يجعله حيث يشاء .

والجواب :تقدم ان ذلك طلب التوفيق والتسديد وتمهيد السبل نحو المطلوب الحق ، بدليل «وأرنا منا سكنا وتب علينا» .

١٢ـ «يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ـ البقرة : ١٤٢» ولو كان تعالى هدى الكل لم يستقم هذا الكلام .

والجواب : ان الهداية هنا بمعنى اللطف الخاص يمنحها للذين جاهدوا في الله واتبعوا رضوانه فهدا هم سبل السلام . وقد تقدم ذلك .

١٣ـ «ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ـ البقرة : ٢٥٣».

المشيئة هنا تكوينية ـ حسبما أسلفنا ـ اى لو شاء ربك ان يمنعهم عن المقاتلة منع الجاء لفعل ،لكنه تعالى يفعل ما يريد ، اى يجعلهم مختارين فيما يشاؤون لحكمة التكليف والاختبار .

١٤ـ «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ـ البقرة:٢٥٧».

١ـ راجع : صفحة ١٧٧ و١٨٣

تقدم : ان الهدى درجات متلاحقة ، وكل درجة فهى بالاضافة الى سابقتها نور . وبالاضافة الى لاحقتها ظلمة ، حسب درجات النور المتفاوتة . والمؤمن فى سيره التصاعدى آخذ دائماً من مرحلة نورانية الى أنور ، بحيث لو رجع اليها لكان رجوعاً من نور الى ظلام ، كما هو فى الكافر ـ فعلاً ـ كذلك ، انه يسير سيراً قهقرياً من نور الى ظلمة والى اظلم وهكذا .

١٥ـ «والله لا يهدى القوم الظالمين ـ البقرة : ٢٥٨» .

تقدم : انه بمعنى انهم لا ينتفعون بهديه تعالى لتوغلهم فى الضلال ومرونتهم على العصيان والطغيان . فمنعهم الله لطفه الخاص لعدم استعدادهم وعدم قابليتهم للاستفاضة من ذلك المنهل الالهى العذب .

١٦ـ «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ـ البقرة : ٢٧٢» .

اى « فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر ـ الغاشية : ٢٢» . والآية تسلية للنبى ﷺ وبيان عدم مسؤوليته تجاه عدم قبول دعوته من هؤلاء العتاة الطغاة ، حيث هو مسؤول عن البلاغ والاداء . اما التأثير والقبول فهذا شىء لا يمسه « فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ ـ الشورى : ٤٨» .

نعم لو شاء الله ان يهديهم بالجاءهم على الهدى لفعل ، لكنه تعالى جعل لهم الاختيار فى قبول الدعوة ، لحكمة التكليف والاختبار . فالمشيئة على هذا تكوينية ويمكن ان تكون الهداية المقصودة هنا هو التوفيق والتسديد ، وقد شاء ها الله لعباده المجاهدين فى سبيله .

١٧ـ «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ـ آل عمران : ٨» طلب للمزيد من التوفيق وتسديد الخطى نحو الصواب ، لئلا ينحرف بهم الهوى ونزعات هذه الحياة الدنيا الى مهاوى الضلال ، فتزيغ قلوبهم عن ذكر الله ، فلا يسلموا من شرور الشيطان

ووساوسة الخداعة ، نستعيذ منه الى الله .

ويوضح هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: «وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب» .

١٨ـ «والله يؤيد بنصره من يشاء ـ آل عمران : ١٣» . وهم الذين جاهدوا في سبيل الله ابتغاء وجهه وابتغاء رضوانه ، وليس اعتباطاً كما زعم الخصم .

١٩ـ «زين للناس حب الشهوات ـ آل عمران : ١٤» . زينتها لهم انفسهم فرأوها جمالا وزينة .

على ان في هذا التزيين حكمة ربانية ، ولولاه لما عمرت الارض ولما ازدهرت الحضارة الانسانية التي طبقت ارجاء العالم وتكاد تسرى الى جو السماء . ولانقطع التناسل البشرى المتوسع عبر الساعات والأيام .

نعم حدد الشارع المقدس لاستعمالها حدوداً وموازين ، ان هم جاوزوها كانت وبالا واعقبت آثاماً ، «انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم ـ التغابن : ١٥» .

٢٠ـ « قل ان الهدى هدى الله ـ آل عمران : ٧٣ » اى الدلالة التي ينبغي السير في ضوءها هي دلالة الله التي جاءت في شرايعه واحكامه وتكاليفه ، على يد رسله وانبيائه . واما الدلالة على غير هذا السبيل فمسلكها الى الضلال البعيد «أفغير دين الله يبغون ؟!» (آل عمران :٨٣).

٢١ـ «قل ان الفضل بيد الله ـ آل عمران : ٧٣» هو التفضل بمزيد التوفيق ، وافاضة الفيوض القدسية ، لايبتغيها احد من سوى الله عز شأنه .

٢٢ـ «أفغير دين الله يبغون وله اسلم من في السماوات والارض طوعاً وكرهاً

واليه يرجعون ـ آل عمران : ٨٣» . اى استسلم وخضع . وهذه مقايسة بين عبادة رب خضعت له ارجاء الكون . وعبادة اصنام يبول عليها الثعلبان ؟ !

قال شاعرهم :

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

٢٣ـ «كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم ـ آل عمران : ٨٦» تقدم انها هداية توفيق وتسديد ومزيد لطف وعناية، لايستأهلها اولئك الذى سعوا فى آيات الله معاجزين .

٢٤ـ «وما النصر الا من عند الله ـ آل عمران : ١٢٦» اى بتوفيقه تعالى وتسديده ومزيد عنايته، بتقوية ايمان المنتصرين وارعاب جانبهم .

٢٥ـ «ليس لك من الأمر شىء ـ آل عمران : ١٢٨» نفى لمسؤولية تجاه الدعوة ، وتأثيرها فى قلوب القوم . «انما انت منذر ولكل قوم هاد ـ الرعد : ٧» . «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ـ فاطر : ٨» . «ان عليك الا البلاغ ـ الشورى : ٤٨» .

والا فالرسول ﷺ مسؤول عن تبليغ الدعوة والبيان : « وانك لتهدى الى صراط مستقيم ـ الشورى : ٥٢» .

٢٦ـ «ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا منكم ويتخذ منكم شهداء، والله لايحب الظالمين ـ آل عمران: ١٤٠» .

اى ان الحروب لاتستمر على وتيرة واحدة ، فربما كانت لهم وربما كانت عليهم ، وان كانت النصرة على جميع الأحوال ، وفى نهاية المطاف تكون مع المؤمنين ، لانه تعالى لايخذلهم، وهم ان غلبوا أحياناً فهو اختبار لايمانهم والمزيد

من مثوبتهم على الصبر والثبات ، وليعلموا انهذه الحياة منغضة ، لاتستمراحوالها على سواء ، فلاينبغى الركون اليها ، وانما الهناء الخالص مع الآخرة ، وانها هى التى يجب السعى اليها ، ومن ثم قال : وليعلم ... الخ اى ليتبين الثابت ايمانهعن الذى يعبدالله على حرف .وقوله : لايحب الظالمين .بيان ان ماقديحصل للكافرمن الكرة له ، ليس اكراماً لجانبه ، وانما هو استدراج له فضلا عمافيه من المصلحة للمؤمنين . فلم تكن تلك نصرة وحباً للظالم فى الحقيقة .

٢٧- « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم - آل عمران : ١٥٢ » تبين معناه من الآية المتقدمة . فضلا عن كونه عقوبة لمابدر منهم من تنازع وفشل ورغبة فى حطام الدنيا يوم أحد .

٢٨- وهكذا قوله :«فأثابكم غماً بغم -١٥٣» .

وقد تقدم وجه نسبة مايقع -خارجاً من حوادث ومظاهر - اليه تعالى ، حيث امداده القوى واستمرار الافاضة عليها عبر الآنات ، سنةالله التى جرت فى الخلق .

٢٩- «قل ان الامر كلهلله - ١٥٤» يدل على ان الامور كلها بيدالله ، يدبرها كيف شاء وفق مصلحته الكبرى الشاملة وهورب العالمين . لكن ذلك لايستدعى الاجبار والالجاء بعد ان كانت المصلحة تستدعى اختيار الناس فيما يزاولون ، لحكمة التكليف والاختبار .فالله تعالى جعل من الامور تترتب بعضها على بعض حسب سلسلة المعاليل التى ركبها فى طبيعة الاشياء .فاذا مافعل الانسان امراً فان له آثاراً تترتب عليه لامحالة فهو بذاته مسؤول عنها وان كان ذلكم الترتب هو صنيعه تعالى ، حسبما تقدم تحقيقه .

٣٠- «ولايحزنك الذين يسارعون فى الكفر ، انهم لن يضروا الله شيئاً ، يريدالله ان لايجعل لهم حظاً فى الآخرة - آل عمران : ١٧٦» .

قالت الاشاعرة : يدل على انه تعالى هو الذى يريد منهم الكفر وان يصيروا الى جهنم !

والجواب : انه تعالى انما يريد ان لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ، بسبب كفرهم وهذا كقولنا : اريد معاقبة فلان لأنه خالف امري . والا فلو كان تعالى هو الذي اراد منهم الكفر لم يصح كون الآية تسلية للنبي ﷺ ولا كونها انكاراً لاذعاً بمسارعتهم الى الكفر !

وغاية الامر ان في الآية تلميحاً الى استدراجهم على الكفر معاقبة لهم، ومعاكسة مع لجاجهم مع الحق .

٣١- وهكذا قوله : «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لانفسهم ، انما نملي لهم ليزدادوا إثماً - آل عمران : ١٧٨» . ايضاً استدراج ، عقوبة على اصرارهم في الغي والعناد.

واللام في «ليزدادوا» لام العاقبة ، كما في قوله : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً - القصص : ٨» . اي يكون اثر هذا الاستدراج هي الزيادة في الاثم والكفر . وسنبحث عن مسألة «الاستدراج» في فصل خاص.

٣٢- «ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء - النساء : ٤٩» . استدلت الأشاعرة بهذه الآية على ان الايمان ليس اختيارياً، وانما هو فعله تعالى يجعل من يشاء مؤمناً ومن يشاء كافراً .

والجواب : ان التزكية - هنا - اخبار عن طهارة النفس ومدح بحسن الأحوال فلا ينبغي لأحد ان يخبر عن نفسه بحسن النية وطيب السيرة ، بل الله هو الذي يعلم الخبيث من الطيب .

٣٣- «أتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فما له من هاد - النساء : ٨٨» . والاضلال - هنا - خذلان وعقوبة عاجلة على لجاجهم في الكفر، بدليل صدر الآية «فما لكم في المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا» .

٣٤- «ولوشاءالله لسلطهم عليكم -النساء :٩٠» . المشيئة هنا تكوينية ، ولم يردهاالله بشأن هذه الحياة فيما يخص باب التكاليف والتمحيص والاختبار .

٣٥- «ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً ، لم يكن الله ليغفرلهم ولاليهديهم سبيلا -النساء : ١٣٧» . تمسك بها الأشعرى على انه تعالى أضل الكافر ولم يهده السبيل .

والجواب : انهذه المعاودة على الكفر واللعب بأمرالدين، هوالذى جعلهم بمعزل عن جادة الهدى والطريق الوسطى ، فلم يهتدوا الى سبل السلام ، وحرموا غفرانه تعالى واستحقوا الخذلان .

٣٦- «فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف .بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون الاقليلا -النساء : ١٥٥» .

تقدم ان الطبع والختم على القلوب كناية عن استفزازهم لقبول الحق، فكأنهم وقبول الحق شيئان متنافران أحدهما عن الآخر . وهى حالة جمود نفسى تحصل على أثر الانهماك فى الفساد والاصرار على الكفر والطغيان «فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم» . ومن ثم علل الطبع بكفرهم . وسنتكلم عن الطبع والختم فى فصل قادم .

٣٧- «مايريدالله ليجعل عليكم فى الدين من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم ولعلكم تشكرون -المائدة :٦» .

الارادة -هنا- تشريعية . ومن ثم قد تتخلف عن المراد ، حسبما اسفلنا البحث عنها [١] .

٣٨- «فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية -المائدة: ١٣» .قالت

١- راجع صفحة : ١٧٠

الاشاعرة: ومعلوم من قسوة قلوبهم انه بالكفر ، فاذا كان الله قد جعلها قاسية فقد خلق فيها الكفر .

والجواب : ان هذا القساء والجفاء انما كان على اثر ذلك اللجاج والعناد مع الحق، وقد عبر عن هذه القسوة في مواضع آخر من القرآن بالختم والطبع وفي غلاف وأمثال ذلك من تعابير ، كلها تنم عن حالة نفسية جافية كانت لليهود ، هم أوجدوها لأنفسهم بعد اعراضهم عن الحق واصرارهم على الباطل.

اما النسبة الى الله فقد تقدم انها باعتبار انه تعالى أقدرهم على رفض الحق كما اقدرهم على القبول لحكمة التكليف والاختبار ، فرفضوه باختيارهم ، لانه تعالى اجبرهم على الرفض او ارادمنهم الكفر، سواء بارادة تكوينية ام بارادة تشريعية . لان ذلك يتنافى وتوجيه ذلك الانكار والذم اليهم بالذات .

ومعنى الآية : انهم نقضوا الميثاق وخالفوا عهد ربهم، فلعنهم وابعدهم عن رحمته، ومن ثم قست قلوبهم فجعلوا يحرفون الكلم عن مواضعه بهتاناً وزوراً.

٣٩ـ وعلى هذا النمط جاءت الاية التالية بشأن النصارى : «ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ـ المائدة : ١٤».

اى بما انهم تركوا شريعة الله المستقيمة ، ونبذوا منهاجه القويم ، اخذت دواعي الاختلاف والتكالب على حطام الدنيا ، تدب في اعراقهم وترسب جذوره في اعماقهم ، حيث مختلف النزعات والاهواء ، «فماذا بعد الحق الا الضلال ـ يونس : ٣٢» . ووجه النسبة اليه تعالى هو الوجه في الآية المتقدمة .

٤٠ـ «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ـ المائدة : ٤١»:

هؤلاء هم الذين عاندوا الحق وأخذوا في اتجاه معاكس للانسانية ، ومن ثم

ابتعدوا عن معالم الهدى وعن المنهج المستقيم فتحملو اخزى الحياة واستحقوا سوء العذاب .

بدليل صدر الآية : «يا ايها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بافواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ، لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه ...» .

والفتنة هى العقاب الصارم «يوم هم على النار يفتنون ـ الذاريات : ١٣» . او الامتحان بالتكليف «ان هى الا فتنتك ـ الاعراف : ١٥٥» .

فمعنى الآية: ان من يرد الله ان يعاقبه لمعاندته ، للحق ولسوء اعماله الهدامة ، فلن تملك له من الله شيئاً . انهم ممن استحقوا الخذلان وسوء العذاب .

٤١ـ «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم فينبؤكم بما كنتم فيه تختلفون ـ المائدة : ٤٨» .

المشيئة فى الآية تكوينية ، ومن ثم لم يشأها ، لمنافاتها لحكمة التكليف والاختبار يدل على ذلك نفس التعليل الوارد فى الآية «ولكن ليبلوكم» اى لم يشأ الالجاء على الايمان لغرض الاختبار . ولذلك عقبها بالأمر ـ وهى ارادة تشريعية ـ بالاستباق الى الخيرات .

٤٢ـ «قل هل أنبؤكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، اولئك شر مكانا واضل عن سواء السبيل ـ المائدة : ٦٠» .

قالت الاشاعرة : تدل الآية انه تعالى هو خلق من عبد الطاغوت وجعله كذلك .

والجواب : ان ذلك عقوبة على كفرهم ولجاجهم مع الحق ، ومداومتهم على الدسائس الفتاكة ، فخذلهم الله وأخزاهم وسلبهم الشعور بموقفهم الانسانى الكريم ، فذلوا وابتذلت شخصيتهم المنحطة ، واذا هم أمة منفورة فاقدة لحقوقها الاممية ، داخلة فى طاعة امم اخرى ، متحملة نير المذلة عبر الحياة . الامر الذى هو من اشد

العقوبات أصابت اليهود طول التاريخ ولايزال. انهم اليوم اصبحوا آلة صماء فى يد طواغيت الارض يعبثون بهم كيف شاءت اهواؤهم الخبيثة فى العيث والفساد .

هذا هو تفسير « عبد الطاغوت » بشأن اليهود العنود . وهى معجزة قرآنية خالدة .

٤٣ـ «وليزيدن كثيراً منهم ماانزل اليك من ربك طغياناً وكفراً ـ المائدة : ٦٤» . قالوا : انها تدل على ان القرآن يبعث على كفر كثير من المكلفين.

والجواب : ان المعنى : انهم يزدادون كفراً وطغياناً غيظاً وحسداً ، عند مايرون من رواج هذا الدين وازدهار شريعة سيد المرسلين «وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين الاخساراً ـ الاسراء : ٨٢ » . « واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ـ آل عمران : ١١٩».

٤٤ـ «ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقراً وان يروا كل آية لايؤمنوا بها ـ الانعام : ٢٥ » . وقدمر نظيرها ، وانها كناية عن القسوة والجفاء الذى مرنوا عليه حتى صار كالطبع لهم . بدليل الاية بعدها : «وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا انفسهم وما يشعرون ـ ٢٦» . ولو كان ذلك من فعله تعالى لماصح هذا التعبير والتوبيخ اللاذع .

٤٥ـ « ولوشاء الله لجمعهم على الهدى ـ الانعام : ٣٥ » . تقدم ان المشيئة هنا تكوينية . اما المشيئة التشريعية فقدشاء الله ان يكونوا جميعاً على الهدى، حيث ارسل رسله الى كافة الناس ووجه دعوته الى الجميع .

٤٦ـ « والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات . من يشاء الله يضلله ومن يشاء يجعله على صراط مستقيم ـ الانعام : ٣٩ » . اى كأنهم خشب مسندة

لا يعقلون شيئا ولا يهتدون . ومن ثم حرموا توفيق هدايته تعالى التى خصها الله لمن سعى اليه واستهدى لديه . فهذا هو الذى يشاء الله ان يجعله على صراط مستقيم، اما الذى اعرض وتولى فهو الذى يشاء الله ان يضلله اى يخذله ، حيث هو مهد لنفسه سبب هذا الخذلان ، وما الله يريد ظلماً للعباد (غافر : ٣١).

٤٧ ـ « قل ارأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم ـ الانعام : ٤٦ » اى خذ لكم وتركم فى ظلمات الغى تعمهون ، على اثر هذا اللجاج والعناد الذى اتخذ تموه تجاه وضح الحق الصراح . وقد تقدم الكلام فى مثله .

٤٨ـ « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟!ـ الانعام : ٥٣ » .

كان ـ ﷺ ـ يقرب فقراء المسلمين من نفسه ويلتزم مجالستهم ، وقد شق ذلك على اشراف العرب ، فألزمهم الاسلام بترك امثال هذه النزعات الجاهلية، وكان ذلك امتحانا لمبلغ رضوخهم لتعاليم الاسلام ، غير ان جماعة ممن تمكن فى قلوبهم حمية الجاهلية الاولى ، ولم يستطيعوا الانقلاع عن حبائل الشيطان، كانوا لا يزالون يترفعون عن مجالسة فقراء المسلمين ، ويقولون : أهؤلاء من الله عليهم بالاسلام وبالهدى من بيننا ؟ ! .

وعليه فاللام فى الآية للعاقبة ، لا للتعليل .

٤٩ـ « ولا أخاف ما تشركون به الا ان يشاء ربى شيئا ـ الانعام : ٨٠ » .

قالت الاشاعرة : الآية تدل على انه تعالى يجوز ان يشاء الشرك والكفر !

والجواب : ان ابراهيم ـ عليه السلام ـ استثنى من عدم مخاوفه ، فانه ـ ع ـ كان لا يهابهم ولا يهاب آلهتهم ، معتقداً انهم لا يضرونه شيئا . الا ان يشاء الله فيأذن فى اضراره كما فى آية السحر .

٥٠ـ « واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ـ الانعام : ٨٧» . انها هداية توفيق وتسديد « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ـ الكهف : ١٣ » .

٥١ـ « ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ـ الانعام : ٨٨ » . ايضاً كذلك .

٥٢ـ « وخلق كل شيء ـ الانعام . ١٠١ » . تقدم ان لاعموم فى الآية بحيث تشمل افعال العباد ، وانما تعنى اعيان الموجودات ، كلها مخلوقة لله تعالى، وعلى تقدير شمولها للافعال ايضاً ، فهو خلق تقدير وتدبير ، أو بمعنى الايجاد ، لكن تبعاً لاردة العبد حسبماً تقدم تفصيله [١] .

٥٣ـ « ولو شاء الله ما اشركوا ـ الانعام : ١٠٧ » . انها مشيئة تكوين لم يشأها الله لدار التكليف والاختبار . وقد تقدم الكلام فى ذلك .

٥٤ـ « وكذلك زينا لكل امة عملهم ـ الانعام : ١٠٨ » . اى زينت لهم انفسهم و زين لهم الشيطان اعمالهم . واما الاستناد اليه سبحانه فلما تقدم بيانه من اسناد كل ما يقع فى الوجود الى الله ، حيث اقداره وامداده للقوى الفاعلة فى هذه الحياة . واخيراً فان هذا التعبير حكاية عن الاستدراج الذى هو عقوبة عاجلة للكافر المعاند المتمادى فى الغى والضلال .

٥٥ـ « و نقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ـ الانعام : ١١٠ » . خذ لان للكافر المعاند على اثر لجاجه مع الحق .

٥٦ـ « ما كانوا ليؤ منوا الا ان يشاء الله ـ الانعام : ١١١ » . تيئيس للنبى

١ـ راجع صفحة : ١٧٧ و١٨٣

ﷺ واخبار عن ذلك الجفاء الذى انطوت عليه قلوبهم القاسية عن ذكر الله . و اما المشيئة فيها فتكوينية المتنافية مع التكليف الاختيارى الذى هو تمهيد للاختبار .

٥٧ـ « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ـ الانعام : ١١٢ » . تسلية للنبى ﷺ واخبار عن ابتلاء الانبياء السلف ـ ايضاً ـ باعداء ألداء ، فصبروا وثبتوا على دعوة الحق . ووجه الاستناد اليه تعالى ماتقدم (ص ٢١٠) وسيجيىء نظير الآية برقم: ١٧٨ .

٥٨ـ « ولو شاء ربك ما فعلوه ـ الانعام : ١١٣ » . اى بالالجاء المتنافى مع الاختيار فى التكليف .

٥٩ـ « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ـ الانعام : ١٢٣ » . اللام فى الآية للعاقبة ، كمافى قوله تعالى : «فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ـ القصص : ٨ » . ومعنى الآية : ان الاوضاع القائمة فى المجتمعات البشرية غير المهذبة ، جعلت من الناس طبقة اكابر هم يستغلون موارد طبقة الاصاغر ظلماً واجراماً ، ويحتالون فى الاستحواذ على مشاعر الناس وابقاء هم فى الجهل والضلال ، غير ان الظلم لايدوم وسيدور عليهم الحق من حيث لايشعرون « سيصيب الذين اجرموا صغار عندالله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ـ ١٢٤ » .

والا فلو كانت اللام للغاية لتنافت الآية مع آية الذاريات : ٥٦ . وتلك محكمة، ومن ثم يجب تأويل هذه على حسابها .

٦٠ـ « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام. ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كانما يصعد فى السماء ـ الانعام : ١٢٥ » .

الهداية والاضلال فى الآية : توفيق وخذلان ، ومن ثم جاء التعقيب بقوله :

«كذلك نجعل الرجس على الذين لايؤمنون» .

«ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ـ مريم : ٧٦ ».«فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ـ الصف : ٥ » .

٦١ـ « ولو شاء الله مافعلوه ـ الانعام : ١٣٧ » . اى بالالجاء المتنا فى مع الاختيار فى التكليف .

٦٢ـ وهكذا قوله تعالى : «فلو شاء لهداكم اجمعين ـ ١٤٩ » .

٦٣ـ « قال فبما اغويتنى لا قعدن لهم صراطك المستقيم ـ الاعراف : ١٦» .

قال الاشعرى ـ مدافعاً عن أخيه ـ : انه تعالى هو اغوى ابليس واوقعه فى المعاصى ، دليلا على ان الكفر و العصيان من فعله تعالى وارادته . وقد تقدم نقل ذلك عنه(ص٦٢ و٧٠) .

والجواب : ان الغى جاء بمعان : الخيبة . الحرمان . حلول المضار . الهلاك . الضلال . الجهل عن فساد عقيدة . وقد استعمل فى القرآن بكل هذه المعانى ، وفى كل موضع اريد معنى غير ما اريد من المواضع الأخر . وليس هنا مجال تفصيل .

ومما جاء بمعنى الخيبة والحرمان ، شاهداً لهذا الموضع ، قول المرقش الأصغر فى قصيدة مطلعها :

الا يا أسلمى لا صرم لى اليوم فاطماً ... و لا أبداً مادام وصلك دائماً

الى ان يقول :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ... ومن يغو لا يعدم على الغى لائما

اى من يخيب فى عيشه ايضاً يجد من يلومه .

وهكذا فى الآية الكريمة يكون المعنى : رب بما خيبتنى وحرمتنى من

فيض قدسك وطردتني من بابك ، بسبب التكليف الذى كلفتنى به بشأن آدم وحسبته شاقاً على نفسى فعصيتك وخالفتك ، فكان ذلك سبباً لهذا الحرمان واللعنة الأبدية ، سأقوم بمقابلة المثل بشأن آدم وذريته ، وادبر لهم المكائد كى احرمهم من رحمتك وابعدهم عن بابك .

٦٤ـ « فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ـ الاعراف : ٣٠ » الهداية هنا هو التوفيق والمزيد من التسديد يختص به اولئك الذين جاهدوا فى الله سعياً وراء لقاءه الكريم . واما الفريق الآخر فهم الذين استحقوا الخذلان واستوجبوا لانفسهم الخيبة والحرمان .

٦٥ـ « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ـ الاعراف : ٤٣ » . عناية ربانية يمنحها البارىء تعالى بشأن المؤمنين حقاً ، والذين اهتدوا زادهم هدى .

٦٦ـ « الاله الخلق والأمر ـ الاعراف : ٥٤ » . المراد من الامر هنا : شؤون التدبير والتقدير . بدليل تمام الآية : « ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ـ سورة الاعراف : ٥٤» فبعدان ذكر خلق العالم ذكر تدبير شؤونه المختلفة ، فقال : الا له الخلق والامر . ومن ثم ناسب التعقيب بذلك المدح اللائق « تبارك الله رب العالمين » .

٦٧ـ « قال الملا الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أولتعودن فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين . قدافترينا على الله كذباً ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها . وما يكون لنا ان نعود فيها ، الا ان يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً . على الله توكلنا ـ الاعراف:

٨٩ » .

فى هذه الآية مواضع من الكلام :ـ

الاول : « بعد اذ نجانا الله منها » . ماهذه التنجية ؟

الثانى : « ومايكون لنا ان نعود فيها » . دليل على سلب قدرة العباد على الكفر والايمان ، وانما هم ملجأون على الدخول فى الكفر أو الايمان !

الثالث : « الا ان يشاء الله ربنا » . ما هذا الاستثناء ؟

والحل : انه تعالى نجاهم من الضلال بهدى التشريع لولا ثم بهدى التوفيق والتسديد ، بعدان أبدوا استعدادهم لمزيد عنايته تعالى . « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ـ الاعراف : ٤٣ » .

واما الذى كان منعهم من العود الى الضلال ، فكان هو الوازع النفسى وشهادة وجدانهم الصريح ، اذ من وضح لديه الحق و شاهده بعيان ، لا يمكنه مخالفة ضميره اذا كان متحرراً عن و شائج الانحراف وحب التقليد الاعمى . اذ كيف يمكن لانسان حر العقيدة والاختيار ، وقد لمس الحقيقة ووجد الطريق الى سعادة الحياة ، ان يتركها منعطفا الى مهاوى الضلال ؟ ! « ومن يهدى الله فما له من مضل ـ الزمر : ٣٧ » . ومن ثم قالوا : « لقد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم » !

نعم ، الان يشاء الله العود ظاهرياً ، عن اكراه عليهم أو اتقاء شرور الاعداء . قال تعالى : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين . ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا ان تتقوا منهم تقاة ـ آل عمران : ٢٨ » . ومن ثم أحالوا حكم ذلك الى سعة علمه تعالى بمصالح الامور ودقيق حكمته فى التكليف . « الا ان يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً » .

لكنهم فى واقع ضميرهم كانوا يتوقعون النصرة من الله والنجاة الكاملة من براثن اهل الزيغ والضلال « على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق

وانت خير الفاتحين » . وكان الله قد وعد المؤمنين حقاً بالفتح والظفر فى نهاية المطاف « كتب الله لاغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز ـ المجادلة : ٢١». فكان منبعث قوتهم فى المقاومة تجاه اهل الشرك والالحاد .

وهنا نكتة أدق : إن من أدب العبد العارف بموقف مولاه الجليل ، ان لا يقطع فى أمر الا اذا علقه على ارادة مولاه ، حتى ولو كان واقفا على جلى الأمر. و هكذا الانبياء لم يبرموا فى كلام قاطع الا وقد أحالوه على مشيئة الله جل شأنه . « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله ـ الكهف : ٢٤» .

٦٨ـ « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ـ الأعراف : ٩٥ » . قالت الاشاعرة : انها دليل على انه تعالى هو الفاعل للحسنات والسيئات ، والا لم يصح التبديل منه.

والجواب : أن السيئة والحسنة ـ هنا ـ هو الجدب والرخاء ، بدليل الآية قبلها: «وما ارسلنا فى قرية من رسول الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ـ ٩٤ » . والآية بعدها : « ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ـ ٩٦» .

٦٩ـ « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ـ الاعراف: ١٠٠» . قالوا : هذه الآية دليل على انه تعالى هو المانع من الايمان .

ولكن الاية قبلها تفند هذه المزعومة : « أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ـ ٩٩ » . حيث كان هذا الطبع اثراً طبيعيا لتلكم الذنوب التى اقترفوها ، وقد احاطت بهم خطيئتهم حجازاً مانعاً عن ادراك الحق فهم لايسمعون .

وقد تقدم ان الطبع : قسوة فى القلب تحصل على أثر الاصرار على الذنب، ومن ثم حرمان عن ألطافه تعالى الخاصة ، وخيبة عن فيوضه القدسية ، وخذلان فى

نهاية المطاف .

٧٠ ـ « سأصرف عن آياتي الـذين يتكبرون فـي الارض بغير الحق ـ الاعراف :١٤٦ ».انه صرف خذلان على أثر معاندة الحق والاصرار على اللجاج . بدليل مابعدها : « وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشدلايتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ، ذلك بـأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » .

٧١ـ « ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي بها من تشاء ـ الاعراف: ١٥٥ » . الفتنة ـ هنا ـ امتحان واختبار . وبذلك يتضح مصير المهتدي عن الضال ، فالذين اهتدوا زادهم الله من فضله . والـذين غووا خذلهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . هذا هو معنى الآية الكريمة الظاهر ، فلا موضع فيها لتشبث القوم.

٧٢ـ « من يهـدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فاؤلئك هم الخاسرون ـ الاعراف : ١٧٨ » . هذه هي الهداية بمعنى التوفيق والتسديد. كما ان الاضلال هنا الخيبة والخذلان ، بعد اتمام الحجة عليهم بالتبليغ والـدعاء . وقد تقـدم ذلك غير مرة .

٧٣ـ « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس ـ الاعراف : ١٧٩» تقدم[1] ان اللام هنا للعاقبة ، مثلها في قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ـ القصص : ٨ » .

٧٤ـ « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم ان كيدي متين ـ الاعراف : ١٨٣ » .

١ـ في صفحة : ١٩٢

سنبحث عن معنى الاستدراج الذى هو خذلان للكافر المعـاند ، على اثر لجاجه مع الحق وصموده على الغى والضلال .

٧٥ـ « من يضلل الله فلاهادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون ـ الاعراف: ١٨٦ » . لان الذى خذله الله فلم يوفقه فى سبيل الهدى ـ على اثر جموحه عن قبول الحق الصراح ـ لا يجد من يهديه الى السبيل أبداً . فما ذا بعد الحق الا الضلال ـ يونس : ٣٢ » .

« وان يخذ لكم فمن ذا الذى ينصر كم من بعده ـ آل عمران : ١٦٠» . «فان الله لايهدى من يضل (اى من استحق الضلال بسوء اختياره) ومالهم من ناصرين ـ النحل : ٣٧ » .

٧٦ـ « قل لا املك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ـ الاعراف : ١٨٨».

احتضنت الاشاعرة هذه الآية دليلا على عدم قدرة العباد على خير اوشر، لايستطيعون شيئاً ، وهم المغلوبون على أمرهم تحت ارادة الله الغالبة !

والجواب : ان النفع والضر فـى الآية عبارة عن الصحة والسقم والسلامة عن الحدثان والآفات ، فلا يملك اى انسان مصيره الحتم فى ثنايا ركب الحياة ، اما الى سلامة أو ابتلاء . « وما ادرى مايفعل بى ولا بكم ـ الاحقاف : ٩ » .

كانت العرب تزعم من لوازم النبوة هو العلم الذاتى بالغيب [1] . ومن ثم سألوا النبى ﷺ عن الساعة أيان مرساها ؟ فجاءهم الردع عن هكذا اقتراح جاهلى : « قل انما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها الاهـو ، ثقلت فى السماوات والارض ، لا تأتيكم الابغتة . يسألونك كانك حفى عنها (اى خبير بها) . قل انما علمها عند الله

١ـ الانبياء العظام والائمة الكرام ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ انما يعلمون الغيب بالافاضة من واهب الغيب « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول ـ الجن : ٢٦ » .

ولـكن اكثر الناس لايعلمون (هذا الاختصاص) . قـل لا املك لنفسى نفعاً (فى آجلها) ولاضراً ، الاماشاءالله (من صلاح كل انسان) . ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء . انانا الانذير وبشير لقوم يؤمنون ـ الاعراف: ١٨٨ » .

٧٧ـ « وما النصر الا من عندالله ـ الانفال : ١٠ » اى النصر بالمبدء الحق وغلبة الحجة الظاهرة ، لايكون الا بتوفيقه تعالى وتسديده الخطى نحو الصواب.

والاية نزلت بشأن وقعة أحد اولى غزوة فى الاسلام ، حيث خشى المسلمون ضعف جانبهم تجاه قوة المشركين ، فاستجاب الله لهم بالامـداد بالف من الملائكة مردفين . فكانت الغلبة مع المسلمين . وربمـا ظن بعضهم ان الملائكة باشرت القتال ، فى حين انها نزلت لتبعث فى نفوس المسلمين القوة والاطمئنان ليقع النصر والظفر على يدهم هم . اما الملائكة فلم تكن سوى منبعث الثبات والاطمئنان النفسى للمسلمين . « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ـ ١٢» .

اذن لم يكن الغرض من نزول الملائكة سوى بعث روح الايمان فى نفوس المسلمين وخلق البشرى فى قلوبهم « وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم» اما واقع النصر فكان من عندالله بتقوية ايمانهم والقاء الروع فى نفوس المشركين « وما النصر الامن عندالله ان الله عزيز حكيم » .

والخلاصة: ان الذين باشروا القتال هم المسلمون، وكاد الاحساس بالضعف يكسر من جانبهم ، لولا ان الله أيدهم بالوعد بالنصر ، وتقوية جانبهم بما ازدادوا ثباتاً وايماناً وثقة بالله ، الامر الذى ضمن لهم النصر والظفر ، تجـاه المشركين ذوى النفوس المضطربة غير المعتمدة الى ركن وثيق . « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام ـ ١١ » .

وعليه فحقيقة النصر من الله هو توفيقه وتسديده بخلق الثقة والاطمئنان وبعث

قوة الايمان ، ليقع النصر على يد المسلمين انفسهم .

٧٨- وهكذا جاء قوله : «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى - الانفال : ١٧» .

حيث المسلمون بأنفسهم - لولا تأييده تعالى وتوفيقه بخلق الثقة فى النفوس وتقوية الايمان - لم يستطيعوا المقاومة تجاه شوكة المشركين . فانما وقع النصر والظفر للمسلمين بحوله تعالى وقوته ، اولا بشرى بنزول النصر . ثانياً بالربط على القلوب وتثبيت الاقدام . ثالثاً بالقاء الرعب فى قلوب الكفار .

وجاز اضافة الطاعة من العبد الى الله ، اذا وقعت بتيسره وألطافه ورعايته الخاصة .

وقد روى ان النبى ﷺ ناول كفاً من الحصى ذلك اليوم فحثى بها وجوه القوم وقال : «شاهت الوجوه ، شاهت الوجوه» . فما بقى أحد من المشركين هناك الا امتلات عينه من تلك الحصباء ، الامر الذى أوهى قلوبهم ووهن من عزائهم ، فكان النصر حقاً للمسلمين باذن الله العزيز الحكيم .

فلم يكن ذات الرمى الذى رماه رسول الله ﷺ مما يوجب هزيمة المشركين ، لو لا تأييده تعالى بألطافه الخاصة . فقد صح اسناد الرمى المؤثر الى الله عز شأنه ، لانه تعالى هو الذى جعل فيه ذلك الأثر الباهر العظيم .

٧٩- «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو اسمعهم لتولوا وهم معرضون - الانفال : ٢٣» . تعلقت الأشاعرة بهذه الآية دليلا على انه تعالى هو منع الكفار من الايمان !

والجواب : ان الآية تبدأ بقوله تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ... الخ .

هذا تشبيه لحالة المشركين التعنتية المتمردة ، المتوغلة فى الغى والضلال ،

فلا ينفعهم نصح الناصحين . ان خطيئاتهم قد احاطت بهم ، فلا تدع مجالا لتسرب وعظ أو ارشاد فى قلوبهم القاسية .

ان حالتهم السلبية اسوأ من حالة الدواب . انهم جعلوا من انفسهم الصم البكم فهم لا يعقلون شيئاً أبداً . انهم منذ بدء أمرهم اخذوا فى اتجاه معاكس لمنهج الهدى والصلاح ، فخسروا عنايته تعالى وألطافه الخاصة بالمؤمنين المسترشدين.

وخلاصة معنى الآية : ان هؤلاء الكفار الملحدين قد افسدوا استعداداتهم الفطرية للتلقى والاستجابة فلم يفتح الله عليهم ما اغلقوا هم من قلوبهم، وما افسدوا هم من فطرتهم . ولو جعلهم الله بحيث يسمعون دعوة الحق ويعون حقيقة ما يدعون اليه ، ما فتحوا قلوبهم له ولا استجابوا لما فهموا من حقيقته.

ولو علم الله فيهم خيراً (اى منفذاً للحق الذى يدعون اليه) لأسمعهم (اى للطف بهم بعنايته الخاصة) . ولو اسمعهم (اى ولو جعلهم بحيث يفهمون حقيقة الدعوة ، والحالة هذه ، لا رغبة لهم فى الهدى ، وتشمئز نفوسهم من ذكر الله ، بسبب افساد استعداداتهم الفطرية) لتولوا وهم معرضون .

* * *

٨٠- « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم، و اعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ، وانه اليه تحشرون - الانفال : ٢٤ » .

هـذه الاية الكريمة وقعت موضع نقاش حاد بين اهل الجبر (الاشاعرة) وفريق الاعتزال . وهى من جلائل الآيات القرآنية وأدقها تعبيراً عن موقف الدعوة الاسلامية الضافية ، تجاه الحياة البشرية المليئة بالأكدار .

هذه الآية تجعل من شريعة الله نبضة الحياة العليا السعيدة ، التى هى منشودة الانسانية الكريمة ، فى صميم واقعها الأصيل .وانها لهى الحياة الحقيقية اذا ما تقبلتها النفوس واستسلمت لقيادتها الحكمية .امامعاكسة هذا الاتجاه فيهددها خطر الانعطاف الى تيه الجهل والضلال ، وسقوط فاضح عن مقام الانسانية الرفيعة .

غير ان الاشاعرة بالذات اعشى أعينهم بريق هذا المعنى اللامع . فحاولوا تحريفه الى مايلتئم ومذهبهم فى الجبر . الامر الذى جعل من الآية غريبة المفاد عما اكتنفها من صدر وذيل .

قال الفخر الرازى : يختلف تفسير الآية بحسب اختلاف الناس فى الجبر والقدر . اما القائلون بالجبر ، فقال الواحدى ـ حكاية عن ابن عباس والضحاك ـ يحول بين المرء الكافر وطاعته ، ويحول بين المرء المطيع ومعصيته . فالسعيد من اسعده الله ، والشقى من اضله . والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء . فاذا اراد الكافر ان يؤمن ، والله تعالى لايريد ايمانه ، يحول بينه وبين قلبه . واذا اراد المؤمن ان يكفر ، والله لايريد كفره ، حال بينه وبين قلبه .

قال الفخر ـ تعقيباً على ذلك ـ : وقد دللنا بالبراهين العقلية على صحة ان الأمر كذلك . وذلك لأن الأحوال القلبية اما العقائد واما الارادات والدواعى ـ ثم أخذ فى الاستدلال على انها جميعاً خارجة عن اختيار العبد ـ وقال أخيراً : فتعين ان يكون فاعل الاعتقادات والارادات والدواعى هو الله تعالى . قال : فنص القرآن دل على ان احوال القلوب من الله ، والدلائل العقلية دلت على ذلك ، فثبت ان الحق ماذكرناه [1] وبهذه السفسطة المفضوحة حاول اثبات مذهب الجبر الأشعرى .

ونحن سنبحث عن مسألة «السعادة والشقاء» فى فصل قادم . وعمدة مااستند اليه الفخر استدلالا فى هذا المجال ، هو نظرية : «لااختيارية الارادة» . حسبماتقدم [2] منهم : أن الارادة وان كانت هى الملاك لاختيارية الافعال الصادرة عن اختيار العباد ، غير ان الارادة بذاتها ليست باختيارية ، والالزم سبق ارادة اخرى فتتسلسل . وقد اجبنا عن ذلك بان اختيارة الارادة كملوحة الملح ذاتية ، واما غيرها فلابد ان تنتهى اليها ، فراجع .

١ـ التفسير الكبير ج١٥ ص١٤٧ ـ ١٤٨

٢ـ فى صفحة : ١٨١ ـ ١٨٢

هذا جل محاولة الاشاعرة ،وفى مقدمتهم متفلسفوهم ولاسيما امام المشككين فى التحريف بهذه الآيـة الكريمة . اما غيرهم ممن تخلوا عن تساويل الاشعرى بالذات ، اوكانوا فى اتجاه معاكس معهم فى الرأى والاختيار ، فلهم فى تفسير الآية أنظار دقيقة . وربما آراء ثمينة ، نذكر منها الأهم .

* * *

١ــ ان من سنة الله الحيلولة بين المرء وقلبه ،الذى هو مركز الوجدان والادراك، ذى السلطان على ارادته وعمله . وهذا أخوف مايخاف منه المتقى على نفسه ،اذا غفل عنها وفرط فى جنب ربه . كما أنه أرجى مايرجوه المسرف عليها اذالم ييأس من روح الله فيها .

فهذه الجملة اعجب جمل القرآن . ولعلها ابلغها تعبيراً ، واجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية ، التى تعرف دقائقها بما تثمره من الخوف والرجاء .

فبينا زيد يسير على سبيل الهدى ، ويتقى طرق الضلالة الموصلة الى مهاوى الردى ، اذابقلبه قدتقلب بعصوف هوى جديد ، يميل به عن الصراط المستقيم ، من شبهة تزعزع الاعتقاد ،اوشهوة يغلب بهاالغى على الرشاد ، فيطيع هواه ويتخذه إلهه من دون الله «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟» . على انه فيه مختار ، فلاجبر ولااضطرار .

ويقابل هذا من الحيلولة ماحكى بعضهم عن نفسه ،انه كان منهمكاً فى شهواته ولهوه ، تاركاً لهداه وطاعة ربه . فنزل يوماً فى زورق مع خلان له فى نهر دجلة للتنزه ، ومعهم النبيذ والمعازف فبيناهم يعزفون ويشربون ، اذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة « اذا الشمس كورت » فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة : فاستمع له وانصت ، حتى اذا بلغ قوله : «واذا الصحف نشرت» امتلا قلبه خشية من الله ، وتدبراً لاطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه ، فأخذالعود

من العازف فكسره وألقاه فى دجلة ، وثنى بنبذ قنانى النبيذ وكؤوسه فيها ، وصار يتردد الآية . وعاد الى منزله تائباً من كل معصية ، مجتهداً فى طاعة ربه .

فتذكير الله تعالى ايانا بهذا الشأن من شؤون الانسان ، وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى فى الارادات والاعمال ، وامره ايانا بأن نعلمها علم ايقان واذعان ، يفيدنا فائدتين لايكمل بدونهما الايمان ، احداهما : ان لايأمن الطائع من مكر الله فيغتر بطاعته ويعجب بنفسه . والثانية : ان لاييأس العاصى من روح الله ، فيسترسل فى اتباع هواه، حتى تحيط به خطاياه .فمن لم يأمن عقاب الله ،ولم ييأس من رحمة الله، يكون جديراً بأن يراقب قلبه،ويحاسب نفسه على خواطره مجتنباً الافراط والتفريط، بين خوف يحجزه عن المعاصى ، ورجاء يحمله على الطاعات [1] .

ويتلخص هذا المعنى فى ان فى القلب نقطة تحولات مفاجئه ، قد تشرق على تائه الطريق بغتة ، فتعطف به الى المحجة البيضاء بعد مرارة وشقاء . كما انها قد تنطفى عن سالك الطريق فتنجرف به الى مزالق ردى وهلاك بعد سعادة وهناء . فلاينبغى لسالك سبيل ـ مهما كانت من طاعة اوعصيان ـ ان يغفل من نفسه تلكم الحالات المفاجئة فى حياته المغيرة للمسير أحياناً .فلايغتر مؤمن بايمانه ليأخذه العجب بنفسه فيزله عن الصراط بغتة . وان فى قصة ذلك التحول النفسى الذى فاجأ بلعم باعورا ،لدرساً وعظة .وهكذا لاييأس العاصى بتوافر خطيآته مهما كانت عظيمة ، ليأخذه القنوط من روح الله والشعور بالحرمان الأبدى ، ليسترسل فى طغيانه . بل العبد ـ سواء أكان مطيعاً ام عاصياً ـ فانه دائماً بين خوف ورجاء ، لايأس ولااغترار .

ولعل هذا هو المراد فى الحديث المأثور: «ان قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمان يصرفها كيف شاء» . وفى لفظ آخر : « اذا شاء ازاغها واذا شاء أقامها» وقد روى ان النبى ﷺ كان يدعو : «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك»

١ـ الشيخ محمد عبده ـ فى تفسير المنار ج٩ ص٦٣٤ـ٦٣٥

وفي سورة آل عمران ـ٨ـ : «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب» . وقال يعقوب منبهاً لبنيه : «ولاتيأسوا من روح الله انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ـ سورة يوسف :٨٧» وفي الحديث المستفيض « ان لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها » . والآثار من هذا القبيل كثيرة جداً .

وهذا معنى لطيف ودقيق للغاية . غير ان تفسير الآية الكريمة بذلك ربما لايلتئم وكونها تهديداً بموقف المشركين ممن امتنعوا عن قبول الدعوة وعن اجابة الرسول .

* * *

٢ـ ان الاية كناية عن سلطانه تعالى في عالم الوجود ، وانه المتصرف فيه كيف يشاء «لاراد لقضائه» . « والارض جميعاً قبضته ـ الزمر : ٦٧ » . فهو تعالى املك من كل انسان لقلبه ،الذى هو منبعث اراداته وقصوده في كل مايعمل اويختار. فلايغتر أحد بزعم استقلاله في متصرفاته يزاولها حسبما يريد . بل دون تحقق الأهداف والبلوغ الى مآرب الحياة ، ارادة رب العالمين القاهرة ، لايقع شيء ولايتحقق أمر الاباذنه تعالى«وماهم بضارين به من أحد الاباذن الله ـ البقرة :١٠٢». حسبما تقدم في مسألة «الامر بين الامرين» [١] .

فان كانت العصاة قد رفضوا الاستسلام لشريعة السماء رغبة في مباهج هذه الحياة وزخارفها الخلابة ،وكانوا يرون من قبول الحق خسارة لذائذ سفلى ومصالح وقتية زائلة ، فان العيش لايأمن معه الهناء ، تجرى الرياح بما لاتشتهي السفن . فلاينبغي لاى انسان ان يأمن صروف الزمان وتقلبات الاحوال ، وهي تترى على هذه الحياة المتنغصة بالأهوال والاكدار . الامر الذى جعل من نفوس غير مؤمنة وغير

١ـ صفحة : ١٧٣ فما بعد .

معتمدة الى ركن وثيق فى توتر نفسى وقلق دائم . « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم الابذكر الله تطمئن القلوب ـ الرعد : ٢٨» .

وهذا المعنى يمثله قول الامام امير المؤمنين عليه السلام : «عرفت الله بفسخ العزائم وحل العقود ، ونقض الهمم» [١] .

ورجح كثير تفسير الاية بهذا المعنى . قال الزمخشرى : وقيل : معناه ان الله قديملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ، ويغير نياته ومقاصده ، ويبدل بخوفه أمناً وبأمنه خوفاً . وبالذكر نسيانا وبالنسيان ذكراً ، وما اشبه مما هو جائز على الله .

لكن التعبير بالقلب عن مشتهيات النفس تأباه فصاحة القرآن . القلب عضو شريف فى الهيكل الانسانى ، وقد جاء تعبيراً عن منبعث الادراكات الانسانية النبيلة «ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد ـ ق : ٣٧» . ومن ثم فان المعرض عن ذكر الله قد ختم على قلبه ، فلا يكاد يفقه شيئاً .

نعم لو كان تعبير الآية هكذا «ان الله يحول بين المرء ونفسه» لاستقام هذا المعنى وصح تفسيرها بذلك من غير ريب .

* * *

٣ـ ان الله يحول بين المرء والانتفاع بقلبه بسبب الموت . يعنى بادروا الى التوبة والانابة قبل فوات الفرصة ، فان الأجل يحول دون الأمل . والحياة فرصة ثمينة يتمكن العبد فيها من اخلاص قلبه ومعالجة ادوائه وعلله ، ورده سليماً كما يريده الله . فينبغى اغتنامها واخلاص القلوب لطاعة الله ورسوله .

٤ـ كناية عن شدة قربه تعالى من واقع الانسان ، فلا تخفى عليه نزعات ما فى القلوب . يعلم سركم وجهركم وهو عليم بذات الصدور . فلا يخفى عليه اضمار كفر او نفاق وان كان فى الظاهر قد آمن بلسانه . «ونحن اقرب اليه من حبل الوريد

٢ـ شرح النهج لابن ابى الحديد ج١٩ ص٨٤ .

ـق : ١٦» :

٥ـ والذى نرجحه ونرتأيه هومعنى خامس يلتئم مع ظاهر الآية تماماً : انها كناية عن اماتة القلب فلايعى شيئاً بعد فقدان الحياة .

لاتعجبن الجهول حلته فذاك ميت وثوبه الكفن [١]

الاسلام دعوة الى الحياة العليا السعيدة، وفى رفضها رفض للحياة واماتة للقلب الذى هومنبعث الادراكات الانسانية النبيلة . فاذا مات قلب انسان فقد افتقد نابض الحيوية الفعالة، واصبح جماداً لاحراك له فى عالم الوجود الانسانى ولافعالية ،وانما هودابة صماء ، بدلا من ان يمشى على اربع ، يمشى على رجلين فى صورة انسان ، قال تعالى : «كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ـ المدثر ـ ٥» بعد قوله: «فمالهم عن التذكرة معرضين ـ ٤٩». وقال :«ونقلب افئدتهم وابصارهم كمالم يؤمنوا به أول مرة ـ الانعام: ١١٠» تطابقاً مع آية الانفال تماماً !

والذى ارشدنا الى هذا الاختيار هى دلائل وقرائن من نفس الآية : ـ

اولا : التعبير بالحياة عن الدعوة ، فيقابلها الموت فى رفضها . وماهو الاموت القلب بسلب ادراكاته الانسانية العليا . التى فيها الحياة الحقيقية الكريمة . قال تعالى «انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذاولوا مدبرين ـ النمل: ٨٠» .«فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولومدبرين ـ الروم: ٥٢» . «انمايستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون ـ الانعام : ٣٦» . هذه الأخيرة تتفق فى نظمها مع آية الانفال شيئاً ما .

ثانياً : القلب عضو شريف فى الهيكل الانسانى البديع . ومن ثم يعبر به عن عن واقع الانسان الكريم تارة ،وعن حيويته النابضة بالفعالية والوجود اخرى .وعن منشأ ادراكاته النبيلة الشاعرة بالمسؤولية ثالثة ، وهكذا.

١ـ الحلة فاعل للفعل المنهى عنه والجهول مفعول به .ومعنى البيت. لايغترالجاهل بجمال ثيابه فانها لاتعدو كفنا على جسد ميت لاروح فيه ولاحركة ولاادراك.

ومن ثم فان المخالف لفطرته قد جعل من قلبه في غشاء او في غلاف ، او مريضاً ومنحرفاً عن وضعه الاصيل او مختوماً بطابع حجز دون بلوغ الهدى الى مساربه ، وهكذا يجعل القرآن القلب هو المركز الاول لقبول الهداية والتكليف ، ويجعل من رفضها كأنه لا قلب له ، قال تعالى : «ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد ـ ق: ٣٧» . «أفلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها ـ سورة محمد : ٢٤» . «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ـ البقرة : ٢٢٥» . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ـ البقرة : ٧» . «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ـ البقرة : ١٠» . «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ـ التوبة : ٨٧» . الى غيرها من آيات جاء بنفس التعابير وهي كثيرة جداً . ولم نر القلب وقع تعبيراً عن مشتهيات نفسية إطلاقاً .

ثالثاً : انها تهديد لاذع بأولئك الذين يرفضون قبول الدعوة ، فيعاكسون حظهم في سعادة الحياة لتتحول الى موت ذريع لاحيوية فيه ولا احساس ولا شعور . ومن ثم فانها سقوط من ذروة انسانية شامخة الى حضيض حيوانية ضارية تكالباً على جيفة الحياة الدنيا الرذيلة ، مما يتناسب تهديداً مع رفض الدعوة في صدر الآية . وانسجاماً مع الرجوع الى حكمه تعالى يوم لا حكم الا حكمه في الذيل . وبذلك تلتئم جملات الآية بكاملتها في تشابك ووثام وثيق . الامر الذي تستدعيه فصاحة كلامه تعالى البديع المعجز .

والخلاصة : ان الآية صدراً وذيلا ومضموناً تستدعي تفسير القلب هنا بمنشأ الادراكات النبيلة . لتكون الحيلولة بين المرء وقلبه تعبيراً آخر عن عمهه في تيه الضلال . وهكذا ختم على قلبه فلا يكاد يفقه «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ـ النساء: ٧٨» . «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ـ التوبة : ٨٧» «وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقراً ـ الانعام: ٢٥ . والاسراء : ٤٦» . «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ـ البقرة : ٧» . «ونطبع على قلوبهم فهم يسمعون ـ الاعراف : ١٠٠» .

«رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشى عليه من الموت ـ سورة محمد : ٢٠» . الى غيرهن من آيات كلها تعابير عن معنى واحد : من يرد الله ان يضله يسلب عنه لبه فلا يكاد يفقه قولا ، ولا كان يدرك صلاحاً عن فساد ، وبذلك خرج عن حريم الانسانية الكريمة ، ليدخل فى إطار البهائم البهم البكم الذين لا يعقلون .

وحصيلة البحث هى المقارنة التالية :ـ

«حال بينه وبين قلبه» : «ختم على قلبه» : «طبع على قلبه» : « جعل قلبه فى غلاف» :«فى غطاء» :«فى غشاء» : «مرض قلبه» : «زاغ قلبه» : «انحرف قلبه» :«صرف الله قلوبهم» الى امثالها من تعابير كلها تنم عن معنى واحد .

* * *

٦ـ ولسيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ هنا محاولة اخرى فى تعميم مفاد الآية الكريمة لتشمل غالبية المعانى المتقدمة [١] . فقد فسر الحيلولة بسيطرته تعالى على قلب كل انسان، كما هو مسيطر على سائر اعضائه وجوارحه ،بل وعلى كل موجود فى هذا العالم الفسيح . فهو تعالى يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، ويدع للانسان تصرفاته حسبما يشاء تعالى. فهو المتوسط الحائل بين الانسان وبين كل جزء من اجزاء وجوده وكل لازم من لوازم شخصيته. بينه وبين قلبه . بينه وبين سمعه . بينه وبين بصره . بينه وبين بدنه . بينه وبين نفسه . يتصرف فيها بالايجاد ، ويتصرف فيها بتمليك الانسان ماشاء منها كيف شاء، فقد يعطيه مايشاء وقد يحرمه مايشاء . وهكذا يفعل تعالى فى سائر القوى المودعة فى هذا الكون .

فالله تعالى اقرب الى الانسان من كل شىء، قلبه وسائر مايحوى عليه من اعضاء وجوارح ، بل ومايرتبط به نوع ارتباط ، لانه تعالى هو الحائل المتوسط بينه وبين سائر الاشياء اطلاقاً ، فهو اقرب اليه منها جميعاً . والى هذا المعنى ـ ايضاً ـ اشار

١ـ وهكذا حاول ابو جعفر الطبرى تعميم مفاد الاية . وفسر الحيلولة بانه تعالى أملك لقلوب عباده منهم ... الخ فراجع : جامع البيان ج٩ ص١٤٣ س٢٣، وسننقل كلامه فى نهاية الفصل برقم ٧ .

قوله تعالى : «ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ـ ق :١٦» .

قال : والى هذه الحقيقة يشير قوله : «واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه» فهو تعالى ـ لكونه مالكاً لكل شيء ، ومن جملتها الانسان ، ملكاً حقيقياً ، لامالك حقيقة سواه ـ كان اقرب اليه حتى من نفسه ومن قوى نفسه التى يملكها الانسان ، لانه تعالى هو الذى ملكه اياها ، فهو الحائل المتوسط بينه وبينها ، اذا شاء ملكه اياها واذا شاء منعه منها . ولذلك عقبها بقوله : «وانه اليه تحشرون» حيث الملك الحق لله وحده لاشريك له انما يتجلى ذلك اليوم ، وعنده يبطل كل ملك ظاهرى وتنقشع كل سلطنة صورية ، «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ـ المؤمن :١٦» «يوم لاتملك نفس لنفس شيئا ، والامر يومئذ لله ـ الانفطار : ١٩» .

قال : فكأنه تعالى يقول : واعلموا ان الله هو المالك حقيقة لقلوبكم ، وانه اقرب اليكم من كل شيء، وستحشرون اليه فتبدو لكم حقيقة ملكه وسلطانه الشامل فلايغنى عنكم منه شيء . وبذلك لايدع مجالا لأى اعتذار عن رفض الدعوة ،وعدم الاستجابة لله ولرسوله اذا دعاهم لما يحييهم .لانه تعالى اقرب اليه من قلبه المعترف فى صميمه بالله وحده لاشريك له . فان كان يشك فى شيء فانه فى واقع فطرته لايشك فى الله الواحد الذى هو رب كل شيء. ولن يضل فى معرفة هذه الحقيقة وتمييز كلمة الحق .

فاذا مادعاه داعى الحق الى قبول كلمة الحق فلاعذر له فى ترك الاستجابة، مادام قلبه معترفاً بها ،من غير ان يختلط عليه حقيقة الأمر اويرتاب فى صميم الواقع كلا انها اجابة الى داعية الفطرة ، المنطوى عليها الضمير . وان كل ما يختلج قلبه من وساوس وشكوك فالله سبحانه هو المتوسط بينها وبين وجدانه الأصيل ، الامر الذى لايجعل للانسان سبيلا الى الجهل به تعالى اوالشك فى توحده .

وعليه فليس لأى انسان ـ تجاه دعوة الحق ـ ان يضمر فى قلبه مايخالف لسانه ، لانه تعالى يعلم مافى نفسه ، وسيحشره اليه فينبؤه بما انطوت عليه جوانحه «يوم هم

بارزون لايخفى على الله منهم شيء ـ المؤمن :١٦». «ولا يكتمون الله حديثاً ـ النساء: ٤٢».

قال :وايضاً فان الله تعالى لما كان هو المالك لقلب الانسان ،الحائل بينه وبين قلبه ، كان تعالى هو المتصرف في قلب الانسان بما يشاء . فكل مايجده الانسان من حالات نفسية : ايمان اوشك خوف اورجاء . طمأنينة او اضطراب . مما ينتسب الى اختياره اواضطراره فان لها انتساباً آخر اليه تعالى لتصرفه بالتوفيق او الخذلان وسائر انواع التربية الالهية ،وان كانت تبعاتها متوجهة الى الانسان ذاته «والله يحكم لامعقب لحكمه ـ الرعد : ٤١» . « له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ـ التغابن : ١» .

فمن الجهل ان يثق الانسان بمايجده في قلبه من إيمان حق او نية حسنة او همة الى صلاح وتقوى ، بأن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته الخاصة على التصرف كيف يشاء . فان القلب بين اصبعين من اصابع الرحمان يصرفه كيف يشاء . وهو المالك له حقيقة والمحيط به احاطة «ونقلب أفئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ـ الانعام : ١١٠» .

فأجدر بهذا الانسان ان يؤمن بالحق،ويعزم على الخير ، ويلتزم الرشد ،لكن على مخافة منه تعالى ان يصرف قلبه من سعادة الى شقاء ، اويحوله من استقامة الى انحراف : فلايأمن مكر الله، اذلايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون .

قال: وكذلك اذا وجد انسان من نفسه الاشمئزاز والنفرة عن قبول كلمة الحق اورفض الخير والاعمال الصالحة ،فعليه ان يبادر الى استجابة الله ورسوله في الدعوة الى مايحيي القلوب ،لانه بهذه الحالة آخذ في موت قلبه، فلايستسلم لقيادة اليأس والقنوط. انه تعالى قادر على ان يحول حاله الى احسن الحال، فان رحمة الله واسعة والأمر اليه «انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون ـ يوسف : ٨٧» . «ومن يقنط

من رحمة ربه الاالضالون ـ الحجر : ٥٦» .

قال : فالآية الكريمة ـ كماترى ـ من أجمع الآيات القرآنية شمولا لأصول معارف الهية حقيقية ، جمعتها مسألة «الحيلولة» . انها تقطع عذر المتكاسل عن معرفة الله جلت براهينه ، من جذوره . وتقلع غرة النفاق من اصولها . وتنير على المسلمين الذين هم فى طريق الايمان الصادق ، دربهم الى فهم حقيقة الامر بين الامرين ، لا استقلال بالذات ولا الجاء . ومن ثم فهم واقعون بين خوف ورجاء ، فلا اعجاب ولا غرور ولا يأس وقنوط .

قال : وبذلك نستطيع الجمع بين اقوال المفسرين التى هى بحسب ظاهرها متخالفة فى تفسير الآية الكريمة . لكنها فى حقيقة الامر متوافقة ، اذا مادققنا النظر فى فهم مسألة «الحيلولة» بالذات [١] .

* * *

٧ـ اختلفت الروايات المأثورة عن أئمة المفسرين السلف فى تخريج الآية الكريمة وتأويلها الوجيه ، وهى كثيرة نذكر منها نماذج :

أ ـ روى ابو جعفر الطبرى باسناده عن ابن عباس : «يحول بين الكافر والايمان وبين المؤمن والكفر» . وهكذا عن الضحاك : «يحول بين الكافر وطاعة الله ، وبين المؤمن ومعصية الله» .

هذا النمط من الروايات تؤيد مذهب الجبر ، على ماأسلفنا من كلام الفخر الرازى .

وحيث لااكراه فى الدين ولا الجاء فى التكليف ، بصريح الكتاب وضرورة العقل الرشيد ، فان امثال هذه الروايات ساقطة ، ولاسيما وانها غير مستندة الى نص معصوم .

---

١ ـ السيد محمد حسين الطباطبائى ـ فى تفسير الميزان ج٩ ص٤٤ ـ ٤٨ .

ب- وروى باسناده عن مجاهد :«يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لايعقل».

وهذا النمط يقرب من اختيارنا بالذات حسبما أسلفنا فى خامس الوجوه . وهو اقرب المعانى الى ظاهر اللفظ ، وتناسباً مع دلائل .وقرائن موجودة فى نفس الآية .

ج- وروى عن السدى : «يحول بين الانسان وقلبه فلايستطيع ايمانا ولا كفراً الا باذنه تعالى» .

د- وروى عن قتادة: «انه قريب من قلبه فيما يضمر ،فلايخفى عليه سر ولا اظهار ونحن اقرب اليه من حبل الوريد» .

وحاول الطبرى نفسه تعميماً فى مفاد الاية بما يجمع بين المعانى كلها . قال : «والاولى بالصواب عندى فى ذلك ان يقال : ان ذلك خبر من الله عزوجل ، أنه املك لقلوب عباده منهم ، وانه يحول بينهم وبينها اذا شاء ، حتى لايقدر ذو قلب ان يدرك به شيئا ، من ايمان او كفر ،او يعى به شيئاً او يفهم الا باذنه ومشيئته . وذلك ان الحؤول بين شىء وشىء انما هو الحجز بينهما، واذا حجز -جل ثناؤه- بين عبد وقلبه فى شىء ان يدركه او يفهمه ، لم يكن للعبد الى ادراك ما قد منع الله قلبه سبيل . واذا كان ذلك معناه دخل فى ذلك قول من قال يحول بين المؤمن والكفر وبين الكافر والايمان .وقول من قال: يحول بينه وبين عقله . وقول من قال: يحول بينه وبين قلبه حتى لايستطيع ان يؤمن ولايكفر الا باذنه . لان الله -عزوجل- اذا حال بين عبد وقلبه لم يفهم العبد بقلبه الذى قد حيل بينه وبينه ما منع ادراكه به ، على ما بينت» .

قال : « غير انه ينبغى ان يقال : ان الله عم بقوله : « واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه » الاخبار عن انه يحول بين العبد وقلبه ، ولم يخصص من المعانى التى ذكرنا شيئاً دون شىء . والكلام محتمل كل هذه المعانى . فالخبر على العموم

حتى يعلم بالتخصيص [1] » .

* * *

هـ ـ وروى على بن ابراهيم القمـى فى تفسيره عن الامام ابى جعفر الباقر عليه السلام قال : « يحول بين المؤمن و معصيته التى تقوده الى النـار . ويحول بين الكافر وبين طاعته ان يستكمل به الايمان . واعلموا ان الاعمال بخواتيمها » [2] .

هذا فى المؤمن توفيق وتسديد ، رحمة من الله ولطفاً به . وفى الكافر خذلان وحرمان عقوبة بشأنه .

ويمكن تفسير الحديث بوجه آخر يلتئم مع ظاهر الجملة الأخيرة ، بأن يقال انه تعالى قد يحول بين المؤمن ـ الذى اعجبته نفسه وغره ايمانه ـ وبين المعصية التى لم يكن يرتكبها من ذى قبل فيرتكبها فى مؤخرة حياته رغم ارادته ، لشهوة غلبته او هوى نفس قادته الى الارتكاب . فتقوده تلك المعصية شيئا فشيئا الى النار .

كما ان الكافر غير الآيس من رحمته تعالى قد يحول تعالى بينه وبين طاعة لم يكن يريدها من ذى قبل ، فيمتثلها رغم ارادته ، لظروف ساعدته على هذا التوفيق وبذلك ينجذب شيئاً فيشئاً الى ما يستكمل به ايمانه فى نهاية الأمر .

ومن ثم قال الامام عليه السلام : واعلموا ان الاعمال بخواتيمها .

و ـ وروى ابو النضر محمد بن مسعود العياشى فى تفسيره عن الامام ابى عبد الله الصادق عليه السلام قال: «هو ان يشتهى الشىء بسمعه وبصره ولسانه ويده. واما انه لا يغشى شيئا منها وان كان يشتهيه . فانه لا يأتيه الا وقلبه منكر لا يقبل الذى يأتى ، يعرف ان الحق ليس فيه» .

لفظ الحديث مشوش ولم أجد من شرحه ، وان كثر من نقله كالمجلسى فى البحار ، والبحرانى فى البرهان ، والطباطبائى فى الميزان ، والفيض فى الصافى ،

---

١ ـ تفسير الطبرى (جامع البيان) ج٩ ص ١٤٢ـ١٤٣ .

٢ ـ تفسير القمى (ط النجف) ج١ ص ٢٧١ .

وغيرهم .

وظاهره : ان الانسان قد يرغب في شيء من لذائذ المسموعات، كالاستماع الى نغمات موسيقائية .او المبصرات كالنظر الى الأجنبي .او الكلاميات كالغيبة والفحش، او الجارحيات كالضرب واللطم والبطش المحرم . لكنه مع ذلك ومع شدة رغبته فيه لايقدم على فعله ،بل يتقاعس عنه تقاعس المتخاذل الممنوع.

وانما ذلك حؤول لاشعوري بينه وبين مشتهياته النفسية، كان لطفاً منه تعالى بشأنه ،بدليل ان الذي دعاه الى الاقدام ورغبه فيه كانت نفسه الامارة بالسوء . اما قلبه فقد انكره وثبط من عزمه ، اذ قد عرف ان الحق ليس فيه.

هذا ماهدانى الله بتوفيقه الى شرح هذا الحديث الشريف.

ز- وروى عن الامام ابى جعفر الباقر عليه السلام قال : «هذا الشيء ، يشتهيه الرجل بقلبه وسمعه وبصره ، لاتتوق نفسه الى غير ذلك .فقد حيل بينه وبين قلبه الا ذلك الشيء» .

اى الذي يرغب في شيء خاص ولارغبة له في سواه ، فهذا هو الذي قد حيل بينه وبين غير ذلك الشيء، ومن ثم لارغبة له في سواه. وقد فسر القلب في هذا الحديث بالارادات والرغبات .

ح- وروى عن الامام الصادق -عليه السلام- قال: «لايستيقن القلب ان الحق باطل أبداً. ولايستيقن ان الباطل حق أبداً».

اى يحول تعالى بين الانسان وان يخطأ في ادراك الحق وتمييزه عن الباطل، فلايكاد يشتبه الحق بالباطل على أحد أبداً . وهذا من لطفه تعالى بعباده ، حيث هداهم النجدين واوضح لهم السبيل الى حق او باطل.

وقد تقدم -في الجزء الاول من الكتاب (ص٤٩) - حديث الامام الصادق عليه السلام قال : «ابى الله ان يعرف باطلا حقاً . ابى الله ان يجعل الحق في قلب المؤمن باطلا

لاشك فيه. وابى الله ان يجعل الباطل فى قلب الكافر المخالف حقاً لاشك فيه. ولو لم يجعل هذا هكذا ما عرف حق من باطل» . وقال : «ليس من باطل يقوم بازاء الحق الاغلب الحق الباطل. وذلك قوله تعالى: بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ الانبياء : ١٨» .

ط ـ وروى عنه عليه السلام قال : «يحول بينه وبين ان يعلم ان الباطل حق[1]» . وهاتان الروايتان تضيفان وجهاً سابعاً الى الوجوه الستة التى تقدمت .

ى ـ وروى ابن بابويه الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام قال :«يحول بينه وبين ان يعلم ان الباطل حق». وقال: «ان الله تبارك وتعالى ينقل العبد من الشقاء الى السعادة ولاينقله من السعادة الى الشقاء[2]» .

وهذا الأخير اشارة الى قوله تعالى: «الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور». اما الذى يخرج الكافر من السعادة ـ التى مهدها الله لجميع عباده بالبلاغ والاداء ـ الى ظلمات الغى والضلال ، فهو الطاغوت « والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات» .

انه تعالى خير وجميل، ولايريد الاخير اً وجمالا. «الله نور السماوات والارض» ومن ثم فسرنا اضلاله تعالى بالخذلان والحرمان مما استوجبه العبد على نفسه «مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً ـ نوح :٢٥» .

تلك نماذج عشرة من احاديث السلف بشأن تفسير الآية الكريمة . والآية تحتمل الجميع ، لان القرآن حمال ذو وجوه ، ولكل آية منه سبعة بطون من المعانى يعلمها اولوا البصائر فى الدين. ومن ثم لا اختلاف ولا تعارض بعد ان كان اللفظ فى تعبيره العام

---

١ ـ تفسير العياشى ـ ط العلمية الاسلامية ـ ج٢ ص٥٢ ـ ٥٣

٢ ـ تفسير البرهان للسيد البحرانى (ط قم) ج٢ ص٧١ رقم٦

يحتمل الجميع . وان كان بالنظر الى موقعية الآية الخاصة لايحتمل سوى وجه واحد حسبما رجحناه .

* * *

٨١- «ولكن ليقضى الله امراً كان مفعولا -الانفال: ٤٢» .قالوا : انه يدل على ان كل عمل يرتكبه العبد فانما هو بقضائه تعالى وتقديره ،لاارادة للعبد فى ذلك ولا اختيار .

والجواب : اناسنبحث عن مسألة «القضاء والقدر» فى فصل قادم ان شاء الله . وان ليس ذلك سوى علمه تعالى القديم المتعلق بالأشياء قبل وقوعها ،من غير ان يكون ذاتأثير فى تحققها خارجياً.

ثم ان ذيل الآية يتنافى صريحاً مع ما اراده هؤلاء من الجبر على الاعمال ،قال تعالى -بعد ذلك -: «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وان الله لسميع عليم -٤٢» .

اى ليكون ضلال من ضل ، باختياره بعد وضوح الحق لديه . وهكذا هداية من اهتدى تكون عن اختياره ، لاجبر ولااكراه ، لئلايكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وهكذا ماجاء بعد عدة آيات : « ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد -٥١» . صريح فى الاستطاعة والاختيار .

٨٢- «هو الذى ايدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم -الانفال :٦٢» . هذا تأييد وتوفيق وليس بالمبتدأ به .

٨٣- «والله لايهدى القوم الظالمين -براءة: ١٩» .«والله لايهدى القوم الفاسقين -٢٤» . « والله لايهدى القوم الكافرين -٣٧» . تلك هداية توفيق وتسديد منحها للمؤمنين ممن جاهدوا فى لقاء ربهم. ومنعها المردة العتاة ممن حرموا بأنفسهم تلقى

فيوضه تعالى القدسية .

٨٤- «وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا -براءة ٤٠». هذه الآية الكريمة عبارة اخرى عن قولهم : «الحق يعلو ولا يعلى عليه» . قال الامام الصادق عليه السلام ليس من باطل يقوم بازاء الحق الا غلب الحق الباطل . ثم تلا : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق -الانبياء : ١٨ [١] » . وهذا من لطفه تعالى بعباده ، لئلا يشتبه حق بباطل أبداً . وقد تقدم بعض الكلام فى ذلك.

٨٥- « ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم -براءة : ٤٦» .

هم المنافقون كذبوا فى دعواهم الرغبة فى الخروج مع الرسول صلى الله عليه وآله وانما هو تقاعس عن الجهاد ومراوغة خبيثة ، ومن ثم كان الأفضل ان لا يخرجوا ، لانهم لو خرجوا ما زادوكم الا خبالا واضطراباً فى صفوفكم ، فلم يوفقهم الله لهذه المكرمة، جزاء لنفاقهم، ورحمة بالمؤمنين .

٨٦ - « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا فعلى الله فليتوكل المؤمنون -براءة : ٥١». اى لن يصيبنا من الشدائد والبلايا والمصائب والآلام، سوى ما قدره الله تعالى لنا فى هذه الحياة ، اختباراً وبلاء لانفسنا .

وليس المراد من ذلك هو سيئات اعمال اكتسبناها بأيدينا- كما زعمه الاشعرى- وذلك بدليل الآية قبلها: «وان تصبك حسنة تسؤهم وان تصبك سيئة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل» اذ المقصود من الحسنة الظفر والغنيمة ،ومن السيئة :الانكسار والهزيمة .

وللاية نظائر ، منها قوله تعالى : «ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ،ان ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا

١- راجع : محاسن البرقى- كتاب مصابيح الظلم-رقم ٣٩٥ ص ٢٢٢ .

تفرحوا بما آتاكم ـ الحديد : ٢٣» . وقوله : «ما أصاب من مصيبة الا باذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ـ التغابن : ١١» .

٨٧ـ «فلا تعجبك اموالهم واولادهم ، انما يريد الله ان يعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون ـ براءة : ٥٥» .

هذا هو الاستدراج الذى سنبحث عنه . وهى عقوبة عاجلة ينالها المعاندون مع الحق ، فلا تصيبهم محنة ولا ألم فى هذه الحياة ، تلك المحنة التى كانت ابتلاء للمؤمنين وامتحاناً لمبلغ صبرهم فى جنب الله . وذلك انها لا تنفع هؤلاء الذين مرنوا على العتو والطغيان ، ولا يثنيهم عن مسير الغى والجهالة شىء.

والخلاصة : انهم لسوء اختيارهم فى الحياة استوجبوا حرمان رحمته تعالى ولطفه الخاص بالمؤمنين .

٨٨ـ «فاعقبهم نفاقاً فى قلوبهم الى يوم يلقونه ـ براءة : ٧٧» .

الضمير يعود الى سوء صنيعهم الذى جاء فى الآيات قبلها. قال تعالى :«ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله (اى الثروة) لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به (فلم تطاوعهم نفوسهم فى الصرف فى سبيل الله واداء الواجب من الحق المفروض عليهم) وتولوا وهم معرضون (عن تذكير الله اياهم) ٧٥ـ٧٦».

فاورثهم ذلك نفاقاً فى قلوبهم باظهار الاسلام وابطان الكفر بحدوده وتكاليفه. ومن ثم جاء التعقيب بقوله: «بما اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ـ ٧٧».

٨٩ـ «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ـ براءة :ـ ٨٧» كناية عن حالة الجفاء التى كانت قد عرضت نفوسهم على اثر الاعراض عن ذكر الله ، والصمود على الغى والنفاق. وهو نظير قوله تعالى:«كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ـ المطففين: ١٤». الرين: الصدأ. كأنه صدأت قلوبهم وزال صقلها وصفاؤها على اثر الخطيئات التى ارتكبوها .

٩٠ـ وهكذا قوله تعالى : «وطبع على قلوبهم فهم لايعلمون ـ براءة : ٩٣».

٩١ـ «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لايفقهون ـ براءة : ١٢٧» . هذا هو الخذلان ، عقوبة عاجلة لمن اعرض عن ذكر الله وعاكس فطرته فى اتجاه المسير «فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ـ الصف : ٥» . « وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى : ٤٠ » .

ووجه آخر : ان هذه الجملة دعاء على المنافقين ازاء اعراضهم عن القرآن. نظير قوله تعالى : « قاتلهم الله انى يؤفكون ـ براءة : ٣٠ » وغيرها وهى كثير فى القرآن .

٩٢ـ «يفصل الآيات لقوم يعلمون ـ يونس : ٥» . «لآيات لقوم يتقون ـ ٦ » وامثال ذلك ، قدتقدم الكلام فيها عند قوله : «هدى للمتقين ـ البقرة : ٢ » . حيث المقصود : انهم هم الذين ينتفعون بها اعظم نفع .

٩٣ـ «فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ـ يونس: ١١» خذلان وعقوبة عاجلة ازاء صمودهم على النكران والعناد مع الحق الصراح .

٩٤ـ «كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون ـ يونس: ١٢». زينه لهم الشيطان «وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ـ الانعام :٤٣» . بل سولت لهم انفسهم من بعد ماتبين لهم الهدى فسول لهم الشيطان واملى لهم[1] «ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ـ الرعد : ١١» .

٩٥ـ « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ـ يونس :

١ـ مقتبس من قوله تعالى : «ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى، الشيطان سول لهم واملى لهم ـ سورة محمد : ٢٥» .

١٩» . اى لولا انه تعالى علم ان الصلاح فى التكليف هو الامهال وافساح المجال تجاه اختيار المكلفين ، لحكمة الاختبار والابتلاء ، لقضى عليهم بانزال العقوبة العاجلة.

٩٦ـ «هو الذى يسيركم فى البر والبحر ـ يونس : ٢٢» . اى جعلكم بحيث تستطيعون السير فى البر والبحر ، حسبما تقدم التحقيق فى اسناد الحوادث والمولدات اليه تعالى [١] .

٩٧ـ «والله يدعوا الى دار السلام. ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ يونس ٢٥» . اى يزيد فى هداية من اهتدى توفيقا وتسديداً الى الحق والصواب.

٩٨ـ «كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لايؤمنون ـ يونس : ٣٣». هذا اخبار عن واقعية مرة ، اى ولقد صح هذا الاخبار عن حالة الفاسقين التعنتية ، والمقاومة العنيفة تجاه قبول الحق الصريح . وليس فى الآية أنه تعالى ألجأهم على الكفر والفسوق . اذلا يلتئم الالجاء مع توبيخهم على الجموح الذى جاء فى الآية قبلها : « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال ، فأنى تؤفكون ـ يونس : ٣٢ » . فهو اخبار عن علم لا القضاء عليهم بالكفر . وستجىء نظيرتها برقم : ١٠٢ .

٩٩ـ «ومنهم من يستمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون . ومنهم من ينظر اليك ، أفانت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون ـ يونس : ٤٢ ـ ٤٣» .

اى انهم وان كانوا يصغون اليك بآذانهم ، الا انهم لايعون شيئاً من كلام الحق ، كما انهم وان كانوا ينظرون اليك بعيونهم ، الا انهم لايبصرون شيئاً من آياته تعالى . اذلا عبرة بالآذان والعيون اذا لم يكن ادراك بالقلب ، الامر

١ـ راجع صفحة : ١٧٧ فما بعد . وصفحة : ١٨٣

الذى لايملكه هؤلاء المنافقون . حيث الخطايا والآثام حالت بينهم وبين قلوبهم، فهم لايفقهون .

١٠٠ـ « ربنا لاتجعلنافتنة للقوم الظالمين ـ يونس : ٨٥ » . اى سدد خطانا ووفقنا على مواكبة الحق فى طول المسير ، كى لاننحرف ولاننزلق الى مهاوى الضلال ، فنكون عبرة للظالمين . فهذا طلب توفيق من الله ليؤيدهم على تجنب الباطل ومخالفة الهوى طول الحياة .

١٠١ـ «وقال موسى : ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة واموالا فى الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك ـ يونس : ٨٨» .ليست اللام ـ هنا ـ للغاية ،وانما هى لام العاقبة ،كمافى قوله :«فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ـ القصص: ٨» . اى ربنا انك امليت لآل فرعون واستدرجتهم بالترفيه عليهم فى هذه الحياة ، عقوبة عاجلة ازاء تمردهم عن منهج الهدى والصلاح ،لكنهم استغلوا هذا الامهال والافساح فى اضلال عبادك . والافساد فى الارض . ومن ثم دعا عليهم بزوال تلك النعم وأخذهم اخذ عزيز مقتدر. « ربنا اطمس على اموالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ـ ٨٨» .اى انهم مع ذلك لايؤمنون الا اذا عاينوا الموت وايقنوا بالهلاك .

وقد استجاب الله هذا الدعاء اتماما للحجة عليهم ، وبالفعل قد تحقق تنبوء موسى عليه السلام بعدم الفائدة . قال تعالى : «ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ـ الاعراف : ١٣٠» . وقال تعالى : « قداجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون . وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى اذا ادركه الغرق ،قال : آمنت انه لااله الاالذى آمنت به بنواسرائيل وانا من المسلمين . آلآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين ـ يونس : ٨٩ ـ ٩١» . «فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا ـ غافر:

٨٥» . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن ـ النساء :١٨».

١٠٢ ـ «ان الذين حقت عليهم كلمة ربك يؤمنون ـ يونس : ٩٦ » . وقد تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ٩٨ . انها اخبار عن علم ،لاحكم بالقضاء . بدليل النهى عن التكذيب بآيات الله فى الآية قبلها : «ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين ـ ٩٥» .

١٠٣ ـ « ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعاً ـ يونس : ٩٩ » . تقدم ان المشيئة فى مثلها تكوينية ، اى لوشاء الجائهم على الايمان لفعل ، لكنه تعالى اراد الاختبار فى التكليف ، ومن ثم افسح لهم مجال الاختيار . واما الهداية التشريعية فقد شاءها الله لكافة الناس « وان من امة الا خلافيها نذير ـ فاطر : ٢٤» .

١٠٤ ـ «وماكان لنفس ان تؤمن الا باذن الله ـ يونس : ١٠٠» . تقدم (ص١٨٢) ان الاذن تعبير عن ارادته تعالى الحادثة ، التابعة لارادة العباد ،سنة الله التى جرت فى الخلق ،فما يريد العباد ايجاده فان الله يأذن فى تحققها وفق مايريدون ،تحقيقاً لاختيارية الافعال ، وليصح التكليف والاختبار .

ومعنى الآية : ان ايمان المؤمن متوقف على مقدمات يمهدها الله تعالى بلطفه وتوفيقه ، ولولا توفيقه تعالى بدءاً وختماً ، لم يستطع أحد ان يبلغ الهداية الحقة ، اويهتدى الى المحجة البيضاء بين محتلكات المسالك فى هذه الحياة «الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ـ الاعراف : ٤٣» .

١٠٥ ـ «ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يبصرون ـ هود : ٢٠» .قالت الاشاعرة :الاية تدل على انه تعالى هو الذى لم يقدر الكافر على الايمان . فلم يستطع

السمع ولاتمكن الابصار .

والجواب : ان هذه الاية توبيخ ولاتوبيخ على العاجز . بل الذى حجز قلوبهم دون نفوذ الحق فيها ، هو القسوة والجفاء الذى اكتسبته قلوبهم على اثر الخطايا والذنوب،فصدهم عن ذكر الله«الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعاً ـ الكهف : ١٠١» .

ذلك ان المؤمن ـ حيث رغبته فى الاهتداء ـ يستطيع ان يستمع الى دلائل الهدى والارشاد ، بسهولة ويسر . واما الفاسق العاتى ، فان نفسه لاتطاوعه للانصات الى دعوة الحق ، صم بكم عمى فهم لايعقلون .

١٠٦ـ «ولاينفعكم نصحى إن اردت أن انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون ـ هود : ٣٤» .

الاغواء فى هذه الاية هو الخذلان وسلب التوفيق على اثر معاندتهم مع الحق، ومتى بلغ الانسان هذه المرتبة من الجفاء العارم ، وسلب عنه التوفيق بما كسبت يداه ، فلاموضع فى قلبه لنفاذ النصح والارشاد . فمعنى «يريد ان يغويكم» :«لايريد ان يهديكم» لعدم صلاحية فى المحل وعدم استعداده للتلقى والقبول .

والدليل على ذلك قولهم :«يانوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ـ ٣٢» . فهذا من التعنت واللجاج تجاه الحق بما يجعل تأثير الدعوة فيهم مستحيلا .

١٠٧ـ «فمنهم شقى وسعيد ـ هود: ١٠٢» . الشقاء والسعادة فى الآية بمعنى الضيق والسعة ، فالكافر ذاك اليوم مضيق عليه فى شدة وألم دائم . والمؤمن موسع عليه فى رفاه وسرور مستمر .

١٠٨ـ« ان ربك فعال لمايريد ـ هود :١٠٣ ». الارادة ـ هنا ـ تكوينية وهى لاتتخلف عن المراد ، حسب ماسلفنا توضيحه سابقاً (ص١٦٧) .

١٠٩ـ «ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . ولايزالون مختلفين الامن رحم ربك .ولذلك خلقهم .وتمت كلمة ربك لأملان جهنم من الجنة والناس اجمعين ـ هود : ١١٨ ـ ١١٩» .

اى «ولو شاء ربك» ـ بمشيئة تكوين ـ «لجعل الناس امة واحدة» برفع اختلاف نزعاتهم واهوائهم واتجاهاتهم . وذلك بالجائهم على طريقة واحدة مسيرين عليها جبراً فى نظام رتيب كعيشة النمل والنحل .

وهذا كقوله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولوشاء لهداكم اجمعين ـ النحل : ٩». وقوله : «أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ـ الرعد : ٣١» .

ولكنه تعالى لم يشأ ذلك بشأن الانسان الذى منحه العقل والكفاءة والعبقرية ليقوم هو بتكفل شخصيته وتكوين ذاته الكريمة المفضلة على سائر المخلوقين .

«و» من ثم «لايزالون مختلفين» فى الأهواء والنزعات، دار تنازع فى البقاء.

«الا من رحم ربك» من عباده المخلصين ساروا على نهج واحد مستقيم ،فى وحدة متماسكة ، لااختلاف بينهم ولاتجاذب فى مطالب الحياة ، انهم عثروا على ناموس السعادة وسر النجاة ،هداهم اليه ربهم برحمة منه وفضل «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ـ آل عمران : ١٧٤» . «فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ـ البقرة : ٢١٣ » . «شرع لكم من الدين ماوصى بـه نوحاً . والذى اوحينا اليك . وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، ان اقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه ـ الشورى : ١٣» .«وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ـ الانعام : ١٥٣» .

«ولذلك خلقهم» اى لأن تسعهم رحمته الواسعة وفضله الشامل ، فى ظل حياة سعيدة وهنيئة متماسكة ، لاتعب فيها ولانصب ، لاتشاحن فيها ولاتطاحن ولاعطب. «ياقوم اتبعونى اهدكم سبيل الرشاد ـ غافر : ٣٨» . «وان لواستقاموا على الطريقة

لاسقيناهم ماءغدقاً ـ الجن : ١٦» .

ولكن تلك ارادته تعالى التشريعية تخلفت عن المراد ، أنهم فسقوا عن امره تعالى فاستحقوا نار جهنم « وتمت كلمة ربك» اى صدق علمه السابق بشأن عصيان الانسان «لأملان جهنم من الجنة والناس اجمعين» بسبب فسوقهم وعصيان امر ربهم العزيز القهار .

١١٠ـ « واليه يرجع الأمر كله ـ هود : ١٢٣ » . اى هو منتهى كل مقصود وغاية كل مأمول . منه المبدأ واليه المعاد . «انا لله وانا اليه راجعون ـ البقرة: ١٥٦» . «الا الى الله تصير الأمور ـ الشورى : ٥٣» . «يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ـ فاطر : ١٥» . الى غيرها من آيات كلها تهدف شيئاً واحداً : انه تعالى هو الغنى بالذات المفتقر اليه سائر الموجودات «كل ما بالغير لابد ان ينتهى الى ما بالذات» وفق قانون احتياج الممكن الى الواجب ، وهو الله الواجب الوجود . الامر الذى لاصلة بينه وبين سلب قدرة العباد على الايمان والعصيان ، كما يرومه الاشعرى واذنابه وقد تقدم (ص١٧٧) البحث عن وجه انتساب الافعال الاختيارية الى الله ، والى العباد انفسهم بالذات ، فى لحاظين وباعتبارين ، فراجع .

١١١ـ «كذلك لنصرف عنه السوء ـ يوسف : ٢٤» بالتوفيق والتسديد ، وهو مزيد لطف وعناية يختص به عباده المكرمون ممن حاولوا الجهد فى سبيل هديه تعالى «والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ـ سورة محمد : ١٧» .

١١٢ـ «والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن ـ يوسف : ٣٣» . ابتهال الى الله ان يمن عليه برحمته الخاصة فيوفقه على اجتناب معاصيه مزيداً من قوة ايمانه الراسخ «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ـ ٣٤» حيث صدقه فى الطلب واخلاصه فى الاجتهاد الى رضوانه تعالى .

١١٣ـ «الا ما رحم ربى ـ يوسف : ٥٣» بشمول توفيقه ومزيد عنايته الخاصة

١١٤ـ «ان الحكم الا لله ـ يوسف : ٦٧» . تقدم نظيرها برقم : ١١٠ .

١١٥ـ «واذا اراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ـ الرعد: ١١» . تلك ارادة تكوينية بنزول العقوبة بعد ما سجلت عليهم اللعنة وسوء العذاب، وذلك بما اغلقوا هم على انفسهم ابواب رحمته تعالى فلا منفذ اليهم أبداً . بدليل صدر الآية «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم» ، فلا تتغير حالة سعادة الى حالة شقاء الا اذا كانوا هم مهدوا السبيل الى احداهما بالذات .

١١٦ـ «ولله يسجد من في السماوات والارض طوعاً او كرها ـ الرعد : ١٥». السجود هنا هو الخضوع والاستسلام المحض لفرامينه تعالى. فكل ما بالوجود من جماد وذي حياة ، هو رهن قوانين وانظمة واحكام ان طبيعية كانت ـ كما في الجماد والنبات واكثر الحيوان ـ او تشريعية ، كما في الانسان فيما يخص جانب تكاليفه ووظائفه الوضعية . والاستسلام طوعاً ينظر الى هذا النوع الاقل. وكرهاً الى النوع الاكثر . ولذلك جاء في بقية الاية : «وظلالهم بالغدو والآصال» يعنى حتى الظلال خاضعة لنظمه تعالى صباحاً ومساءاً . وجاء في سورة النحل ـ ٤٩ ـ «اولم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون» .

والآية نظيرتها في سورة الحج ـ ١٨ ـ «الم تر ان الله يسجد له من في السماوات ومن في الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » (الى هنا كان السجود قهرياً وطبيعياً على حد تعبيرنا) «وكثير من الناس» (وهو خضوع اختياري لم يقم به جميع بني الانسان ومن ثم هذا التعبير) «وكثير» (من الناس) «حق عليه العذاب» (بسبب امتناعه عن الاستسلام لقيادته تعالى) .

١١٧ـ «قل الله خالق كل شيء ـ الرعد : ١٦». تقدم الكلام فيه بتفصيل [١].

١١٨ ـ « لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ـ الرعد : ١٧» تقدم الكلام فيه ايضاً برقم : ١٠٣ و ١٠٩ .

١١٩ـ « لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم ـ ابراهيم : ١ » . اذ لا يقع شيء في الوجود الا باذنه تعالى، حتى ولو كانت افعالا اختيارية واقعة تحت ارادة فاعليها. فانها ايضاً لا تتحقق الا من بعد اذنه تعالى. وهي ارادته الحادثة المتعلقة بتحقق الأشياء وفق سنن وعوامل اودعها الله في طبيعة هذا الكون. وقد تقدم تحقيقه في مسألة الأمر بين الأمرين وغيرها من مسائل مرتبطة بالموضوع . ونظيرها الاية : ١٦ من سورة المائدة .وقد تقدمت.

١٢٠ـ «فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ـ ابراهيم: ٤» .تقدم في غير موضع ان الهداية في مثلها توفيق وتسديد . والاضلال خذلان وحرمان ، وفق ما استعدوا بأنفسهم من تلقي الدعوة ورفضها .

١٢١ـ «ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ـ ابراهيم : ١١» وذلك باجتبائه نبياً مرسلا الى الناس ، لما وجد فيه من استعداد وصلاحية القيام بهذه المهمة العظمى. وليس اعتباطاً في الاختيار .

١٢٢ـ «وما لنا ان لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ـ ابراهيم: ١٢» . هذه قولة الشاكر لأنعم الله، الواعي لعظيم لطفه تعالى بعباده ، واجدر بها من نعمة كبرى ان

١ـ راجع : مسألة التوحيد في الافعال ص١٧٢ . ومسألة الامر بين الامرين ص١٧٣ ـ ١٨١ . ومسألة ارادة الله الحادثة ص١٨٢ . ومسألة انتساب الحوادث الى الله ص ١٨٣ . واخيراً نفس الاية وما شاكلها ص١٨٥ ـ ١٨٧ . وص١٩٠ ـ ١٩١ .

هداهم النجدين . وهداهم السبيل . ولزم على نفسه المزيد من ألطافه انهم أجابوا دعوته واسلموه قيادتهم . « قدجاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم ـ المائدة : ١٦» .

١٢٣ـ «قالوا لو هدانا الله لهديناكم ـ ابراهيم : ٢١» تلك قولة المستكبرين ، زعموا انه تعالى خذلهم واضلهم عن سواء السبيل، وذهب عنهم انهم هم كانوا السبب فى هذا الحرمان والخيبة عن رضوانه تعالى .«انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون ـ الانعام : ٢٤» .

ومن ثم كذبهم الشيطان فى هذا الزعم الباطل «وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق . ووعدتكم فاخلفتكم . وماكان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم . ماانا بمصرخكم وماانتم بمصرخى . انى كفرت بالذى اشركتمون من قبل ـ ابراهيم : ٢٢».

وهكذا كذبهم الله فى آية اخرى نظيرتها: «وقالوا لو شاء الرحمان ماعبدناهم مالهم بذلك من علم انهم الا يخرصون ـ الزخرف : ٢٠» .

١٢٤ـ «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين ـ ابراهيم : ٢٧» .

هذا هو التوفيق الربانى الذى يمنحه لعباده المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا « يهديهم ربهم بايمانهم ـ يونس : ٩ » . كما هو خذلان للذين سعوا فى آياته معاجزين «اولئك لهم عذاب من رجز اليم ـ سبأ : ٥» .

١٢٥ ـ « وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ـ ابراهيم : ٣٢ » اى باذنه. وقد تقدم وجه انتساب الافعال مطلقا الى الله حتى ولو كانت اصطناعية واختيارية

صادرة عن ارادة العباد بالذات [1] .

١٢٦ـ «واجبنى وبنى ان نعبد الأصنام ـ ابراهيم: ٣٥» . ابتهال اليه تعالى ان يمنحه التوفيق والتسديد ،والمزيد من عناية ألطافه الخاصة بالمؤمنين .

١٢٧ـ وهكذا قوله : «رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ـ ابراهيم : ٤». اى ثبتنى على القول الثابت فى الحياة الدنيا. فهو سؤال التوفيق وتأييده على الاستقامة والثبات . راجع الرقم ١٢٤ .

١٢٨ـ «وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم ـ الحجر :٢١» . قالت الأشاعرة ومن على شاكلتهم من مجبرة الاسلام: ان هذه الآية تدل على أن المعاصى من عند الله .

والجواب : ان المراد بالآية هى رحمته تعالى وبركاته على الارض ، بدليل تمام الآية :

«والارض مددناها وألقينا فيها رواسى ،وانبتنا فيها من كل شيء موزون .وجعلنا لكم فيها معائش ، ومن لستم لها برازقين . وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم . وارسلنا الرياح لواقح ، فانزلنا من السماء ماءاً فاسقيناكموه ، وما انتم له بخازين ـ الحجر : ١٩ ـ ٢٢» .

واين هذا من افعال العباد ، فضلا عن الآثام التى يرتكبونها ، مما قد نهى الله ؟! كيف يجبرهم على المعصية و هو ينهاهم عنها ويعاقبهم عليها ، انها نقمة لاتناسب بينها وبين فحوى الآية التى هى بصدد تعداد نعمه تعالى على الانسان.

١٢٩ ـ « قال رب بما اغويتنى لازينن لهم فى الارض ولأغوينهم اجمعين ـ الحجر : ٣٩» .تقدم الكلام فى نظيرتها من سورة الاعراف : ١٦ . وكان الاغواء

١ـ راجع مسألة «انتساب الحوادث الى الله» ص١٨٣

ـ ان صح التعبير ـ بمعنى الخذلان وعدم المزيد من عنايته الخاصة . والا فكيف التوفيق بينه وبين ذمه تعالى لابليس في امتناعه عن السجود لآدم واستكباره عن أمر ربه ؟!

١٣٠ـ «ونزعنا مافي صدورهم من غل، اخواناً على سرر متقابلين ـ الحجر: ٤٧» . تلك مثوبة رحمانية تطهر قلوبهم عن أدران منافسات دنيوية لامجال لها في دار الآخرة ، «وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ـ الانسان : ١٢».

١٣١ـ «الا امرأته . قدرنا انها لمن الغابرين ـ الحجر : ٦٠» . اى علمنا في الازل انها من الباقين الهالكين ، فهو اخبار عن واقع قبل وقوعه، وليس قضاء عليها بالجبر رغم ارادتها ، بدليل آيات غيرها كان التعبير فيها مجرد اخبار عن واقعية مرة « فانجيناه واهله الا امرأته كانت من الغابرين ـ الأعراف : ٨٣ » ـ « لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين ـ العنكبوت : ٣٢ » ـ «اذ نجيناه واهله اجمعين الا عجوزاً في الغابرين ـ الصافات : ١٣٥» . نعم جاء التعبير في سورة النمل ـ ٥٧ ـ بمثل التعبير في سورة الحجر .

١٣٢ـ «وقضينا اليه ذلك الامر : ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ـ الحجر: ٦٦ » . اى اعلمناه وأخبرناه به . ويطلق القضاء على الاخبار بالحتم ، لانه في اللغة بمعنى الفراغ من الشيء والبلوغ نهايته . فناسب اطلاقه على كل أمر قاطع للشك ، كالخبر الحتم .او رافع للنزاع، كحكم القاضي العدل . ومن ثم يطلق على انقضاء الأجل بالموت ايضاً. وقد جاء جميع هذه الاستعمالات في القرآن بكثير .

١٣٣ـ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر . ولو شاء لهداكم اجمعين ـ النحل: ٩» . هذه الاية الكريمة تعنى هدايته تعالى العامة ، الشاملة للخلق كلهم : «ان علينا للهدى ـ الليل : ١٢ » . « الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هـدى ـ طه : ٥٠ » . «وهديناه النجدين ـ البلد: ١٠» . «انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً ـ الانسان:

٣» . الى غيرهن من آيات تدل على انه تعالى تكفل لهذا الانسان هدايته الى طرق الصلاح والفساد ، وان كان قدأمره باتباع طرق الخير والنجاح .

فعليه تعالى ان يهدى قاصد السبيل اطلاقاً ، غيران منها جائز نهى عن اتباعها وان كان قد أقدر على الاختيار لحكمة التكليف والاختبار .

اما الجملة الأخيرة « ولوشاء لهداكم اجمعين » فقد تقدمت وتقدم الكلام فى نظائرها . راجع الفقرة : ١٠٣ و ١٠٩ .

١٣٤ـ « وقال الذين اشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولاحرمنا من دونه من شيء ـ النحل : ٣٥» .

احتج الاشعرى بما حكاه تعالى عن المشركين ، فيما زعموا من الجائهم على الكفر ، حسبما زعمه الاشعرى ايضاً خلفاً عنهم . وقدتقدم نظير الاية برقم : ١٢٣ ص ٢٦٣ .

وقد كذبهم الله على هذه المزعومة فى آية اخرى نظيرتها : « وقالوا : لوشاء الرحمان ماعبدنا هم . مالهم بذلك من علم ان هم الايخرصون ـ الزخرف : ٢٠ » . « انظر كيف كذبوا على انفسهم وضل عنهم ما كانو يفترون ـ الانعام : ٢٤» .

١٣٥ ـ «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا منهم ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت. فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ـ النحل . ٣٦ » .

اى فمنهم من استجاب لدعوة الحق فهداه الله الى سبل السلام . ومنهم من رفض الدعوة واعرض عن قبول الحق ، فخذلهم الله وتركهم فى ظلمات الغى يعمهون ، ومن ثم تمكن الضلال من قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم فلايفقهون شيئاً ولايعقلون.

١٣٦ـ «ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل ـ النحل : ٣٧ » . هذا تيئيس للنبى ـ ﷺ ـ وأن هؤلاء قدحقت عليهم الضلالة وبذلك قد سدوا على

على انفسهم المنفذ الى الهدى. مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً ـ نوح: ٢٥ . ونظيرتها قوله تعالى: «انك لاتهدى من احببت (ممن فصلته عنك خطيئاته التى احاطت من كل الجوانب ـ انك لاتسمع الموتى ـ فلم يستعد بنفسه لقبول نصح اوارشاد) ولكن الله يهدى (بتوفيقه وألطافه الخاصة) من يشاء ـ القصص: ٥٦» ممن استوجبو الانفسهم التأييد والتسديد وجاهدوا فى الله حق جهاده .

١٣٧ـ «ومابكم من نعمة فمن الله ـ النحل : ٥٣ » . قالوا : وهذا يدل على ان الايمان ـ وهو من اكبر النعم ـ من عند الله .

قلنا : نعم ، ولكن لادلالة فيها على انه كان بالالجاء . بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ـ الحجرات : ١٧ . ولم يقل : انه الجأهم على الايمان من غير ان يكونوا على اختيار فى الرفض والقبول .

وقد تقدم الكلام عن مراحل الهداية ،منها مرحلتان تكوينيتان سبقتا مرحلة الهداية التشريعية الواقعة تحت اختيار المكلفين فى القبول والامتناع . فى حين انها بجميع مراحلها نعمة كبرى من عند الله العزيز الحكيم .

١٣٨ـ «ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لايقدر على شيء ـ النحل : ٧٥» .قالوا: وهذا ـ ايضاً ـ يدل على نفى الاستطاعة وان لاقدرة للعباد على الاختيار .

قلنا : هذا نفى لقدرة تشريعية فيما لم يخوله مولاه . وليس نفياً لمطق قدرته على شيء . فهلا كان العبد المملوك غير قادر على المشى والتكلم والاختيار والارادة فيما يخص من افعاله الخاصة ؟!

نعم هو غير متمكن تشريعاً من تصرفات مالية وفيما يخص شؤون مولاه . الامر الذى لاننكره بشأن العبيد الحقيقيين تجاه المولا الحقيقى الكريم .

١٣٩ـ « ولو شاء لجعلكم امة واحدة . ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء

ـ النحل: ٩٣» . تقدم نظيرها في عدة مواضع [١] . انها مشيئة تكوينية لم يشأها الله بشأن المكلفين . لتنا فيها مع حكمة التكليف والاختبار .

ولكن يضل ـ بالخذلان ـ من يشاء ـ ممن استوجب لنفسه الحرمان ـ ويهدي ـ بالتوفيق والتسديد ـ من يشاء من استحقوا مزيد عنايته تعالى بفضل جهادهم في سبيل الله.

١٤٠ـ « ان الذين لايؤمنون بآيات الله » (باصرارهم على منابذة الحق) «لايهديهم الله» (بتوفيقه والمزيد من ألطافه الخاصة) ـ النحل : ١٠٤ » . حيث لم يدعوا مجالا لشمول عنايته تعالى اياهم ، وألقوا بأنفسهم الى التهلكة .

١٤١ـ «وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ـ الاسراء : ٤» .

وهذا القضاء اخبار من الله تعالى لهم بما سيكون منهم ، حسب ماوقع في علمه الأزلي من مآلهم ، لأنه قضاء قهري عليهم تنشأ منه افعالهم . فالله سبحانه لايقضي بالافساد على أحد « قل : ان الله لايأمر بالفحشاء ـ الاعراف : ٢٨ » . وماسيكون فهو بالنسبة الى علمه تعالى كائن ، وان كان بالقياس الى علم البشر لم يكن بعد ولم يكشف عنه الستار . ومن ثم عبر بالقضاء وهو الابرام القاطع .

١٤٢ـ « بعثنا عليكم عباداً لنا اولي بأس ـ الاسراء : ٥ » . اي هم انبعثوا بارادتهم الخاصة . واما النسبة الى الله فلانه مودع القوى المحركة في هذا الكون ، ولايزال يفيض عليها بالامداد على طول البقاء . وقد تقدم الكلام في ذلك بتفصيل [٢] وقال بعضهم : انه تعالى خلى بينهم وبين القوم ولم يمنعهم من محاربتهم ، الأمر الذي يعبر عنه باذنه تعالى في الامور ، ومن ثم جاز ان يقول : بعثنا . كما قال : انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ـ سورة مريم : ٨٣ [٣] .

١ـ راجع بالخصوص الفقرة ، ١٠٣ و١٠٩ و١١٨ .

٢ـ راجع صفحة : ١٨٣ .

٣ـ متشابهات القاضي ج٢ ص٤٥٧ نهاية الفقرة : ٤١٦ .

١٤٣ـ «وكل شيء فصلناه تفصيلا ـ الاسراء : ١٢» قالوا : انه يدل على انه تعالى هو الفاعل لكل شيء .

قلنا : انه تفصيل لآيات الكون ومظاهره الطبيعية ، وهى تجرى على سنن ونظم رتيب لاعوج فيه ولا اختلاف .

اما مايرجع الى افعال الانسان الاختيارية فهى الآيـة بعدها : «وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً .اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا : ١٣ ـ ١٤» . فلولا انه المسؤول عن افعاله ، وانه مختار فى فعل مايريد وترك مايكره ، لما كان لمثل هذا الكلام فى مثل هذه اللهجة المهددة موضع صحيح .

ولاسيما وتعقيبها بآية هى اشد صراحة فى مسؤولية الانسان ذاته عما يرتكبه من اعمال :«من اهتدى فانما يهتدى لنفسه .ومن ضل فانما يضل عليها . ولاتزروازرة وزر اخرى . وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ـ ١٥» .

* * *

١٤٤ ـ «واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ـ الاسراء : ١٦» .

وقد قامت الاشاعرة حول هذه الآية الكريمة وقعدت وطبلت وزمرت ، زاعمة صراحتها فى انه تعالى هو الذى يريد الكفر والفسوق ويأمر بهما لغرض هلاك من يريد اهلاكه ابتداء ومن غير ماسبب مبرر [1] .

والجواب : اولا ـ وقوع هذه الآية اثر الآية المتقدمة الصريحة فى اختيار العباد وتحملهم المسؤولية ، مما يحتم توجيه هذه الى مايلتئم مع قرائنها والالوجد معارضوا القرآن الى اختلاف آياته سبيلا .

١ـ سننقل نص كلامهم فى تأويل الاية ـ وفق مذهبهم فى الجبر ـ عن الرازى فى تفسيره فى التعليق الاتى .

قال الكعبي :انسائر الآيات دلت على انه تعالى لا يبتدىء بالتعذيب والاهلاك، لقوله : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ـ الرعد: ١١».

وقوله :«مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم ـ النساء: ١٤٧». وقوله :«وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون ـ القصص : ٥٩» . فكل هذه الآيات تدل على انه تعالى لا يبتدىء بالاضرار . وايضاً ماقبل هذه الآية يدل على هذا المعنى ، وهو قوله: « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر اخرى ـ الاسراء : ١٥» . ومن المحال ان يقع بين آيات القرآن تناقض .فثبت ان الآيات التي تلوناها محكمة ، وكذا هذه الآية ، فيجب حملها على تلك الآيات . حملا للمتشابه على المحكم.التفسير الكبير ج٢٠ص١٧٥ ـ١٧٦.

وثانياً ـ للاية تأويل صحيح ، وفي نفس الوقت منسجم مع ظاهر التعبير تمام الانسجام :

وذلك ان الارادة في الآية ليست بمعنى انه تعالى قد يريد بقوم سوءاً لا موجب له ، فيعمد ـ لتبريره ـ الى التماس حجج ومعاذير هو يتكلفها ويمهد أسبابها [١] !

كلا ، بل الارادة ـ هنا ـ تعبير عن واقعية محضة عملت في تكوين ذاتها عند توفر شروط التحقق والعوامل لمستدعية للتكوين . كقوله تعالى : « فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض ـ الكهف : ٧٧ » . حيث لا ارادة ولا قصد وانما هو اقتضاء

---

١ ـ قال الفخر الرازي ـ وهو اشعري ـ : احتج اصحابنا بهذه الاية على مذهبهم من وجوه ، الاول : ان ظاهر الاية يدل على انه تعالى اراد ايصال الضرر اليهم ابتداء ،ثم توسل الى اهلاكهم بهذا الطريق . الثاني : ان ظاهر الاية يدل على انه تعالى انما خص المترفين بذلك الامر ، لعلمه بأنهم يفسقون . وذلك يدل على انه تعالى اراد منهم الفسق. الثالث : انه تعالى قال «فحق عليها القول» بالتعذيب والكفر، ومتى حق عليها القول بذلك امتنع صدور الايمان منهم، لان ذلك يستلزم انقلاب خبر الله الصدق كذباً، وذلك محال ،والمفضي الى المحال محال .

واقع الامر . وهكذا فى الآية الكريمة كانت الارادة بمعنى اقتضاء واقعهم السيء للهلاك والدمار .

وعليه فمعنى الآية : انه متى ماحان وقت هلاك قوم ، ، فاراد الله ان ينزل بهم العقاب حسب اقتضاء واقعهم المنفسخ المنهار. كان من علامة ذلك ان يقوم كبراؤهم المنعمون وزعماؤهم المتبعون ، بطغيان عارم واستهتار بالمعاصى والفجور ، فعند ذلك تحق عليهم كلمة العذاب .

فقوله : « أمرنا مترفوها ففسقوا فيها » يعنى : كان من علامة ذلك انه كلما أمرناهم بشيء خالفوا أمرنا واستعصوا عن الامتثال، وأخذوا فى معاكسة معالم الهدى والصلاح [1] .

فاذا مارأيتم قوماً سيطرت عليهم الميوعة والاستهتار بمقدسات الشريعة ، وتفشى بينهم الفساد والفحشاء ،فاعلموا ان البلايا قدوافتهم ، واقترب منهم الهلاك والدمار .

وهذا كما قيل: اذاارادت السماء انتمطر تغيمت .اى اذا دنا وقت الامطار، كان من علامة ذلك انتتغيم السماء بالسحاب .

هذا مافهمناه من ظاهر تعبير الاية بعد تعمق ، وبلاتكلف فى التخريج ، الامر الذى لايكاد يخفى على من دقق النظر فى جوانب الاية بامعان .

* * *

وهذا اختيار اكثر المفسرين السلف والخلف حيث أخذوا من الأمر متعلقاً بالطاعة دون الفسق ، نظير قولهم : أمرته فخالف . ودعوته فأبى . قال ابو جعفر الطبرى ـ بعد انذكر عدة روايات فى تأويل الاية ، وصوب قراءة « أمرنا » بالقصر والتخفيف ، لاجماع الحجة من القراءة على تصويبها ـ :

فأولى التأويلات به هو تأويل من تأوله « أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا

١ـ نظراً لان الفسق هو الخروج عن الاطار المضروب حداً للشيء .

فيها فحق عليهم القول» . لان الأغلب من معنى «أمرنا» الامر الذى هو خلاف النهى دون غيره . وتوجيه معانى كلامه ـ جل ثناؤه ـ الى الأشهر الأعرف من معانيه اولى ، ما وجد اليه سبيل ، من غيره . ومعنى قوله « ففسقوا فيها » : « فخالفوا امر الله فيها وخرجوا عن طاعته» . «فحق عليها القول» يقول: «فوجب عليها بمعصيتهم الله وفسوقهم فيها، وعيد الله الذى اوعد من كفر به وخالف رسله ، من الهلاك بعد الاعذار والانذار بالرسل والحجج» . «فدمرناها تدميراً» يقول : «فخربناها عند ذلك تخريباً وأهلكنا من كان فيها من اهلها اهلاكاً» ... [1] .

ولم يرتض الزمخشرى هذا الوجه باطلاق ،وقال فى ذلك كلاماً دقيقاً ننقله بنصه :ـ

قال : فان قلت : هلا زعمت ان معناه : امرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت :لا، لان حذف ما الادليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه !وذلك ان المأمور به انما حذف لان «فسقوا» يدل عليه ، وهو كلا مستفيض ، يقال : أمرته فقام ، وامرته فقرأ ، ولايفهم منه الاان المأمور به قيام اوقراءة . ولو ذهبت تقدره غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب .

ولايلزم على هذا قولهم : أمرته فعصانى اوفلم يمتثل امرى ، لان ذلك مناف للامر مناقض له ولايكون ماينا قض الأمر مأموراً به ، فكان محالا ان يقصد اصلا ، حتى يجعل دالا على المأمور به، فكان المأمور به فى هذا الكلام غير مدلول عليه ولامنوى ، لأن من يتكلم بهذا الكلام فانه لاينوى لأمره مأموراً به، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة [2] .

١ـ جامع البيان للطبرى ج١٥ ص٤٣ .

٢ـ هذا هو بالذات مقصود من يقدر فى الكلام «الطاعة» اى امرته بشىء يستدعى طاعة، لكنه خالف وعصى . ولايقصد «أمرته بنفس الطاعة» . اذ الامر بالطاعة يكون بلفظ «أطع» ←

كما ان من يقول : فلان يعطي ويمنع ، ويأمر وينهى ! غير قاصد الى مفعول. فان قلت : هلا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وانما يأمر بالقصد والخير دليلا على ان المراد : أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصح ذلك ، لان قوله : «ففسقوا» يدافعه ،فكأنك اظهرت شيئاً وانت تدعي اضمار خلافه، فكان صرف الامر الى المجاز هو الوجه .

واما الوجه الذى اختاره هو فهو ما اشار اليه أخيراً من صرف الأمر الى المجاز، قال ـ في قوله تعالى «واذا اردنا ...» ـ: واذا دنا وقت اهلاك قوم ولم يبق من زمان امهالهم الا قليل ، أمرناهم «ففسقوا» اى امرناهم بالفسق ففعلوا ، والامر مجاز ، لان حقيقة أمرهم بالفسق ان يقول لهم :أفسقوا ، وهذا لا يكون ، فبقى ان يكون مجازاً . ووجه المجاز انه صب عليهم النعمة صباً، فجعلوها ذريعة الى المعاصى واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك ، لتسبب ايلاء النعمة فيه وانماخولهم اياها ليشكروا اويعملوا فيها الخير ، ويتمكنوا من الاحسان والبر ، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم ايثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق. فلما فسقوا حق عليهم القول ، وهو كلمة العذاب فدمرهم [1] .

* * *

واحسن من تكلم فى الآية على وجه يوافق مذهب الاعتزال :القفال ، فانه ذكر فى تأويلها وجهين :

الاول :أنه تعالى أخبر انه لا يعذب احداً بما يعلمه منه ما لم يعمل ، اى لا يجعل علمه حجة على من علم انه ان أمره عصاه ، بل يأمره، فاذا ظهر عصيانه للناس فحينئذ يعاقبه . فقوله : «واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها» معناه : واذا اردنا امضاء

← مسبوقاً بأمر آخر تعلق بشىء آخر . فالمأمور به فى الاية لا مقدر ولا منوى ،وانما المقصود مجرد توجه أمرالهم بما يستدعى وجوب امتثالهم والقيام بما القى اليهم من وظائف وتكاليف ، لكنهم لم يمتثلوها وقاموا فى مخالفتها ومعاكستها . كما فى «دعوته فأبى» و«أمرته فعصى» .

١ـ راجع :الكشاف ج٢ ص٦٥٤

ماسبق من القضاء باهلاك قوم، أمرنا المتنعمين المتعززين ـ الظانين أن اموالهم واولادهم وانصارهم ترد عنهم بأسنا ـ بالايمان بى والعمل بشرائع دينى ، على مابلغهم عنى رسولى ، ففسقوا . فحينئذ يحق عليهم القضاء السابق باهلاكهم ، لظهور معاصيهم.

والحاصل : أن المعنى :واذا اردنا ان نهلك قرية بسبب علمنا بانهم لايقدمون الاعلى المعصية ، لم نكتف فى تحقيق ذلك الاهلاك بمجرد ذلك العلم . بل امرنا مترفيها ففسقوا ،فاذا ظهر منهم ذلك الفسق ،فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به .

الثانى : ان نقول : واذا اردنا ان نهلك قرية بسبب ظهور المعاصى من اهلها، لم نعاجلهم بالعذاب فى اول ظهور المعاصى منهم، بل امرنا مترفيها بالرجوع عن تلك المعاصى . وانما خص المترفين بذلك الأمر ، لأن المترف هو المتنعم . ومن كثرت نعم الله عليه، كان قيامه بالشكر اوجب، فاذا امرهم بالتوبة والرجوع مرة بعد أخرى، مع انه تعالى لايقطع عنهم تلك النعم ، بل يزيدها حالا بعد حال فحينئذ يظهر عنادهم وتمردهم وابتعادهم عن الرجوع من الباطل الى الحق، فحينئذ يصب الله البلاء عليهم صباً .

ثم قال القفال : وهذان التأويلان راجعان الى : أن الله تعالى أخبر عباده أنه لا يعاجل بالعقوبة امة ظالمة حتى يعذر اليهم غاية الاعذار ، الذى يقع منه اليأس من ايمانهم ، كما قال فى قوم نوح : « ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً ـ نوح : ٢٧ » . وقال : « انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ـ هود : ٣٦ » . وقال فى غيرهم : «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ـ الاعراف : ١٠١» .

فأخبر تعالى اولا أنه لا يظهر العذاب الابعد بعثة الرسول [١] . ثم أخبر ثانياً فى هذه الآية انه اذا بعث الرسول ايضاً فكذبوا لم يعاجلهم بالعذاب ، بل يتابع عليهم النصائح والمواعظ، فان بقوا مصرين على الذنوب ، فهناك ينزل عليهم عذاب

---

١ ـ فى قوله تعالى : « وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا » قبل الاية المبحوث عنها.

الاستئصال .

قال الامام الرازى : وهذا التأويل الذى ذكره القفال فى تطبيق الآية على قول المعتزلة ، لم يتيسر لأحد من شيوخ المعتزلة مثله [1] .

وقال الجبائى : ليس المراد من الآية انه تعالى يريد اهلاكهم قبل ان يعصوا ويستحقوا ، وذلك لانه ظلم وهو على الله محال . بل المراد من « الارادة » قرب تلك الحالة ، فكان التقدير : واذا قرب وقت اهلاك قرية ، امرنا مترفيها ففسقوا فيها ، وهو كقول القائل : اذا اراد المريض ان يموت ازداد مرضه شدة ، واذا اراد التاجر ان يفتقر اتاه الخسران من كل جهة ، وليس المراد : ان المريض يريد ان يموت ، والتاجر يريد ان يفتقر ، وانما يعنون انه سيصير كذلك ، فكذا هاهنا .

وهذا الوجه الذى ذكره الجبائى هو الذى اخترناه ، ومن ثم فان مراجعة اختيارنا تذهب بمواقع الابهام من هذا الكلام .

* * *

ولعل ما ذكره الشريف المرتضى بهذا الصدد أجمع وأوفى من الجميع ، فقد ذكر فى تأويل الاية وجوهاً اربعة . كل منها يبطل الشبه الداخلة على المبطلين فيها ، ممن عدلوا بتأويلها عن وجهه ، وصرفوه عن بابه ـ على حد تعبيره ـ واليك : ـ

أولها : ان الهلاك قد يكون حسناً وقد يكون قبيحاً ، فاذا كان مستحقاً أو على سبيل الامتحان كان حسناً . وانما يكون قبيحاً اذا كان ظلماً ، فتعلق الارادة به لا يقتضى تعلقها به على الوجه القبيح ، ولا ظاهر للاية يقتضى ذلك . و اذا علمنا بالأدلة تنزه القديم تعالى عن القبائح ، علمنا ان الارادة لم تتعلق الا بالاهلاك الحسن . و قوله تعالى : « أمرنا مترفيها » المأمور به محذوف ، وليس يجب ان يكون

---

١ ـ التفسير الكبير ج ٢٠ ص١٧٦

المأمور به هو الفسق ، وان وقع بعـده الفسق ، ويجرى هذا مجرى قول القائل : أمرته فعصى ، ودعوته فأبى . والمراد : أننى أمرته بالطاعة ، ودعوته الى الاجابة والقبول .

قال : ويمكن ان يقال على هذا الوجه : ليس موضع الشبهة ما تكلمتم عليه ، وانما موضعها ان يقال : أى معنى لتقدم الارادة ؟ فان كانت متعلقة باهلاك مستحق بغير الفسق المذكور فى الاية ، فلا معنى لقوله تعالى : اذا اردنا امرنا ، لأن أمره بمـا يأمر به لا يحسن ارادته للعقاب المستحق بما تقدم من الافعال . وان كانت الارادة متعلقة بالاهلاك المستحق بمخالفة الأمر المذكور فى الاية ، فهـذا الذى تأبونه ، لانه يقتضى أنه تعالى مريد لاهلاك من لم يستحق العقاب !

والجواب عن ذلك : أنه تعالى لم يعلق الارادة الا بالاهلاك المستحق بما تقدم من الذنوب ، والذى حسن قوله تعالى : واذا اردنا امرنا ... هو ان فى تكرار الأمر بالطاعة والايمان اعذاراً الى العصاة ، وانذاراً لهم ، وايجاباً واثباتاً للحجة عليهم حتى يكونوا متى خالفوا واقاموا على العصيان والطغيان بعد تكرار الوعيد والوعظ والانذار ، ممن يحق عليه القول ، وتجب عليه الحجة .

ويشهد بصحة هذا التأويل قوله تعالى ـ قبل هذه الاية ـ : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

والوجـه الثانى : ان يكون قوله تعالى : « امرنا مترفيها » من صفة القرية وصلتها ، ولايكون جواباً لقوله تعالى : « واذا اردنا » ويكون تقدير الكلام : واذا اردنا ان نهلك قرية من صفتها انا امرنا مترفيها ففسقوا فيها . وتكون « اذا » على هذا الجواب لم يأت لها جواب ظاهر فى الاية ، للاستغناء عنه بمـا فى الكلام من الدلالة عليه . ونظير هذا قوله تعالى فى صفة الجنة : « حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليـكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله

الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ـ الزمر : ٧٣ ـ ٧٤ » . ولم يأت لاذا جواب فى طول الكلام ، للاستغناء عنه [١] .

ويشهد بصحة هذا الجواب قول الهذلى :

حتى اذا اسلكوهـم فى قتائدة شلا كما تطرد الجمالة الشردا [٢]

فحذف جواب « اذا » ولم يأت به ، لان هذا البيت آخر القصيدة [٣] .

والوجه الثالث : ان يكون ذكر الارادة فى الاية مجازاً أو اتساعاً [٤] أو تنبيها على المعلوم من حال القوم وعاقبة أمرهم ، وانهم متى امروا فسقوا وخالفوا . وذكر الارادة يجرى هاهنا مجرى قولهم : اذا اراد الناجر ان يفتقر أتته النوائب من كل جهة ، وجاءه الخسران من كل طريق ، وقولهم : اذا اراد العليل ان يموت خلط فى

---

١ ـ فى حاشية الامالى : « كان التقدير : اذا جاءوها حضروها وفتحت. اوهموا بدخولها. وما اشبه ذلك، والله العالم » .

٢ ـ هو لعبد مناف بن ربع الهذلى فى آخر قصيدة أولها :

ماذا يغير ابنتى ربع عويلهمـا لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقـدا

قتائدة : موضع . والجمالة : اصحاب الجمال، كالبغالة والحمارة . وانتصاب « شلا » على المصـدر . ودل على فعل مضمر يحصل بظهوره جواب « حتى اذا سلكوهم » المنتظر . وتلخيصه : حتى اذا سلكوا بهم الى هذا الموضع شلوهم شلا مثل مطاردة الجمال اذا تزاحمت على الماء . انظر : ادب الكاتب ص ٤٢٤ .

٣ ـ فى حاشية الامالى : « جواب الشرط جزء لايتم المشروط دونـه ، فاذا حذف كان أهول للكلام، كقوله تعالى : « وان قرآناً سيرت به الجبال ـ الرعد : ٣١ » ، وكقول القائل : « لو رأيت علياً بصفين » . وكقولهم : « لوذات سوار لطمتنى » .

٤ ـ هذا بعينه اختيار الزمخشرى (ت ٥٢٨) الآنف، ولعله اخذه من الشريف المرتضى « ت ٤٣٦ » عليه الرحمة .

مآكله ، وتسرع الى كل ماتتوق اليه نفسه .ومعلوم ان التاجر لم يرد في الحقيقة شيئا ، ولا العليل ايضاً . لكن لما كان المعلوم من حال هـذا الخسران ، ومن حال هذا الهلاك ، حسن هذا الكلام ، واستعمل ذكر الارادة لهذا الوجه [1] .

وكلام العرب وحي واشارات واستعارات ومجازات [2] ، ولهذه الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة ، فان الكلام متى خلا من الاستعارة ، وجرى كله على الحقيقة كان بعيداً من الفصاحة ، بريأ من البلاغة ، وكلام الله تعالى افصح الكلام .

والوجه الرابع : ان تحمل الآية على التقديم والتأخير ، فيكون تلخيصها : اذا امرنا مترفي قرية بالطاعة فعصوا واستحقوا العقاب اردنا اهلاكهم ، والتقديم والتأخير في الشعر وكلام العرب كثير .

ومما يمكن ان يكون شاهداً لصحة هذا التأويل من القرآن ، قوله تعالى : «يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم ـ المائدة : ٦» والطهارة انما تجب قبل القيام الى الصلاة . وقوله تعالى : «واذا كنت فيهم فاقمت

١ـ في حاشية الامالي: «تصوير المجاز في الاية على أن التقدير: اذا قرب هلاك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا. وكذلك قولهم : اذا اراد المريض ... التقدير: اذا قرب موت المريض خلط. وكذلك التاجر اذا قرب افتقاره أتته النوائب . وهذا كقوله تعالى : « فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض» اي يقرب ان ينقض . وانما كنى بالارادة عن القرب في هذه المواضع ، لان المريد للشيء ، المخلي بينه وبينه ، ولامانع هناك ، ما أقرب ما يقع مراده . والله اعلم» .

٢ـ في حاشية الامالي: «الارادة قد تستعمل في الجماد ،فضلا عن العقلاء . كقوله تعالى: «جداراً يريد ان ينقض ، وكقول الراعي النميري .

في مهمه قلقت به هاماتها قلق الفؤوس اذا أردن نصولا»

المهمه : المفازة البعيدة المقفرة . والقلق : الاضطراب . وفأس اللجام : الحديدة القائمة في الحنك . والنصول : الخروج .

لهم الصلاة فلتقم طائفة معك ـ النساء : ١٠٢» . وقيام الطائفة معه يجب ان يكون قبل اقامة الصلاة، لأن اقامتها هي الاتيان بجميعها على الكمال[1].

قال : واما قراءة من قرأ الآية بالتشديد ، فقال : «امرنا»[2] ، وقراءة من قرأها بالمد والتخفيف ، فقال : «آمرنا»[3] ، فلن يخرج معنى قراءتيهما عن الوجوه التي ذكرناها[4] . الا الوجه الاول ،فان معناه لايليق الا بأن يكون ماتضمنته الاية هو الأمر

١ـ وزاد شيخ الطائفة ابوجعفر الطوسي : « ومثله قوله : ماان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ـ القصص :٧٦» . والتقدير : ماان مفاتحه لتنوء بها العصبة اي يثقلون بها . ومثله قول الشاعر :

ذعرت القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

اراد : مقام الذئب اللعين . وقد فصلوا بين المضاف والمضاف اليه ، قال الشاعر : بين ذراعي وجبهة الاسد . اراد بين ذراعي الاسد وجبهته» . (تفسير التبيان ج٦ ص٤٦٠) .

٢ـ بتشديد الميم من باب التفعيل ،هي قراءة ابي عثمان النهدي . وقراءة الليث عن ابي عمرو . وابان عن عاصم (القراءات الشاذة، لابن خالويه ص٧٥) .

٣ـ هي قراءة خارجة عن نافع (المصدر)

٤ـ قال الشيخ في التبيان: «امرنا» ـ بتشديد الميم ـ من التأمير بمعنى التسليط ،وقد يكون بمعنى اكثرنا. ويجوز ان يكون المعنى اكثرنا عددهم اومالهم. و« آمرنا » ـ ممدوداً ـ بمعنى اكثرنا مترفيها . وانما قيل في الكثرة : آمر القوم، لانهم يحتاجون الى أمير يأمرهم وينهاهم فقد آمروا لذلك ، قال لبيد :

ان يغبطوا يهبطوا وان آمروا يوماً يصيروا للهلاك والكند

(التبيان ج٦ص٤٦١) يعني : انافتقروا بحيث تمنوا مثل حال غيرهم قل عددهم . واما اذا كثروا واذدادوا نعما ، فانهم يصيرون الى الابادة وكفران النعم .

الذى يستدعى به الفعل [1] .

وقدنقل الشيخ ابو جعفر الطوسى ـ رحمه الله ـ (ت ٣٦٠) هذه الوجوه الاربعة فى تفسيره «التبيان» باختلاف يسير جداً، الامر الذى يدل على استجواده لها بشأن الاية الكريمة . وهكذا الشيخ ابو على الطبرسى فى «مجمع البيان» على عادته فى اقتفاء اثر الشيخ فى التفسير . وهكذا تجد مقتضبها فى «متشابهات القرآن ومختلفه» لابن شهر آشوب ج١ ص١٨٤ .

* * *

١٤٥ـ «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ـ الاسراء : ١٨» لايدل على انه تعالى يريد ـ بارادته التشريعية ـ الفساد والقبائح . وانما تعنى الاية ان «من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون اولئك ليس لهم نصيب فى الاخرة ـ هود : ١٥» . فمن كانت همته الدنيا فحظه ما تمتع منها مشوباً بالأكدار ، ولاحظ له فى سعادة الحياة الخالصة الباقية .

١٤٦ـ «وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ـ الاسراء : ٢٣» . القضاء ـ هنا ـ بمعنى الحكم التشريعى ، بدليل التخلف .

١٤٧ـ «واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لايؤمنون بالآخرة حجابا مستوراً ـ الاسراء : ٤٥ » . قالوا : انها تدل على انه تعالى هو منع الكفار من الايمان .

قلنا : الآية الكريمة خصت اولئك الذين مردوا على الكفر والعصيان فلا يؤمنون ابداً، بهذا الحجاب، وهو حجاب القسوة والجفاء والتعامى عن معاينة الحق

---

١ ـ أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف على بن الحسين الموسوى العلوى (علم الهدى) ج١ ص١ـ٥ المجلس الاول.

«فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ـ المائدة : ١٣» .

وانماهم اوجدوا هذا الحجاب وعملوا فى تغليظه والمزيد من تكاثفه على أثر مبالغتهم فى ارتكاب الخطايا والآثام، فأبعدتهم عن رحمة الله الواسعة. فقوله. «جعلنا...» اى كان بينك وبينهم حجاب . كما فى قوله ـ بعد هذه الاية ـ: «وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقراً» وقوله ـ فى سورة فصلت : ٥ ـ : «وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر» وانما ينسبه تعالى الى نفسه، لانه هو الذى منح القوى وجعل لهم الاختيار فى الرفض والايمان ، وأقدرهم على العمل ان خيراً وان شراً ، حسبما تقدم .

١٤٨ـ «فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ـ الاسراء : ٤٨» . قالوا : هذا صريح فى نفى استطاعة العبيد.

قلنا : عدم الاهتداء الى السبيل ـ فى الاية ـ مترتب على الضلال . فانهم بفعل خطيئاتهم وعصيان تعاليم الرسول ﷺ ضلوا السبيل اولا ، فلم يستطيعوا بعد ذلك من الاهتداء الى الطريق .

١٤٩ـ «ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ـ الاسراء: ٧٤».

تمسكت الأشاعرة بهذه الاية تدليلا على ان ثبات المطيع على الطاعة انما هو بفعل الله ، ولولاه لم يكد يثبت كما كان لم يؤمن.

قلنا: ثلاث آيات (٧٣و ٧٤و٧٥) نزلن بشأن مشركى قريش ، عرضوا على النبى ﷺ مسالمته مع آلهتهم فلا يذكرهم بسوء ، فيتوافقوا معه ولاينا بذوه فى دعوته. فنزلت الايات ردعاً لاذعاً لمثل هذا الاقتراح المنافق ، وتيئيساً قاطعاً لأمل المشركين ، فلا يطمعوا فى رسول الله ﷺ وهو داعية التوحيد الخالص ، ونبذ الشرك وعبادة الأصنام قطعاً فى جذورها . فلا يجامل فيما يناقض دعوته الى الله وحده لا

شريك له [1].

ذكر الشيخ ابوعلى الطبرسى وجوهـاً فى سبب نزول الايات ، منها : ان قريشاً أتوا النبى ﷺ فقالوا له : كف عن شتم آلهتنا وتسفيه أحلامنـا [2] واطرد هؤلاءالعبيد والسقاط [3] الذين رائحتهم رائحة الصنان [4] حتى نجالسك ونسمع منك. فطمع النبى ﷺ فى اسلامهم ان وافقهم على بعض ما يقولون . فنزلت الآيات ردعاً له ﷺ فلا ينبغى لنبى ان يجامل فى دينه اويداهن احداً فى مقترحه المخالف لاصول التعليم الدينى الحنيف [5] .

وهذا التشديد فى لحن الآيات يستهدف قطع أمل المشركين فى اى مساومة مع النبى ﷺ قطعاًصارماً . كما هو تهديد صريح بمن يهم مجاملة مع اعداءالدين أياً كان وأياً كانوا ، من باب « اياك اعنى واسمعى ياجارة » كمـاورد فى حديث الامام على بن موسى الرضا عليه السلام مع المأمون ـ الخليفة العباسى ـ بشأن عصمة الانبياء عليهم السلام فذكر الآية ، وقال : هذا ممانزل بإياك اعنى واسمعى ياجارة، خاطب الله تعالى بذلك نبيه والمرادبه أمته [6] .

١ـ راجع الجزء الاول من كتابنا ص١٥٩

٢ـ الاحلام: جمع الحلم ـ بكسر الحاء ـ وهو العقل.

٣ـ السقاط: جمـع الساقط ـ كطلاب و طالب ـ بمعنى المبتذل الفاقـد للشخصية الاجتماعية .

٤ـ الصنان ـ كغراب ـ ذفر الابط ، والنتن عموماً .

٥ـ مجمع البيان ج ٦ ص ٤٣١ . وانما اخترنا هذا الوجه ـ وهو ثانى وجوه خمسة ذكرها الطبرسى ـ لقوته وموافقته مع ظاهر القرآن. والتئامه مع موقف النبى ـ ص ـ المعصوم من الخطأ والزلل لا فى عقيدته ولا فى سلوكه اطلاقاً .

٦ـ راجع تفسير الصافى ج١ ص ٩٨٣ نقلا عن العيون . وهكذا عن الكافى الشريف وغيره .

١٥٠ـ « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الاخساراً ـ الاسراء : ٨٢ » . هذه الاية كآية البقرة « هدى للمتقين » اختصاص من جانب القابل لا الفاعل . ان فى القرآن شفاء ورحمة لاولئك الذين خالطت قلوبهم بشاشة الايمان ، فأشرقت وتفتحت لتلقى ما فى القرآن من روح وطمأنينة وامان. اما المنهمكون فى كبرياء الشقاق واللجاج ، فلايزيدون الا عتواً ونفوراً ، وعناداً مع الحق وشقاء مع الأبد .

قال تعالى : « واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم ايماناًوهم يستبشرون . واما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم وماتوا وهم كافرون ـ براءة :١٢٥» .

١٥١ـ « انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم ـ الكهف: ١٣-١٤ » . انه توفيق ومزيد من ألطاف وعنايات خاصة بالمؤمنين حقاً.

١٥٢ـ «من يهد الله فهو المهتد . ومن يضلل فلن تجدله ولياً مرشداً ـ الكهف: ١٧ » .

هذا توفيق وعناية ربانية للذين استعدوا بأنفسهم لتلقى فيض رحمته الواسعة. كما هو خذلان وحرمان لمن اعرض عن ذكر ربه ونسى الآخرة .

١٥٣ـ « ولاتقولن لشىء انى فاعل ذلك غداً .الا ان يشاء الله ـ الكهف : ٢٣ ـ ٢٤ » . اى الا ان يأذن الله تعالى حسب ما تقدم تحقيقه ، اذ لولا اذنه تعالى لم يقع شىء ، وليس هذا دليلا على انه تعالى هو الفاعل لأفعال العباد ، نعم هو تعالى خالق لأفعالهم بمعنى ان سنته جرت فى ايجاد ما يريد العباد ايجاده ، بارادة حادثة اثر ارادة العباد . ومن ثم صحت نسبة الافعال الى الله كما صحت نسبتها الى العباد

انفسهم نسبة حقيقية لا استعارة ولامجاز [1] .

١٥٤ ـ « ولا تطع من اغفلنا قلبه ـ الكهف : ٢٨ » . قالوا : هذا يدل على انه تعالى هو يخلق فى قلب العبد الجهل والغفلة ويمنعه من الايمان !

قلنا : لو كان كذلك لما صح توجيه الملامة اليه والاستنكار . والآية الكريمة توبيخ لاذع وطعن وتقبيح .

والمراد : من تغافل عن قبول الهدى فخذله الله ، « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » . ومن ثم كان تعقيب الآية : « واتبع هواه وكان أمره فرطاً » اى سرفاً وتضييعاً .

١٥٥ ـ « و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤ من و من شا. فليكفر ـ الكهف : ٢٩ » . قالوا : هذا يدل على ان الكفر والايمان كليهما من قبله تعالى.

قلنا : بل على العكس ادل . لان صريح الآية : ان الله يهدى الى الحق ، فمن شاء قبل ومن شاء رفض ، حيث لا اكراه فى الدين ولا الجاء فى التكليف. فدلالة الاية على اختيارية الايمان والكفر أوضح .

١٥٦ ـ «انا جعلنا على قلوبهم اكنة ـ الكهف : ٥٧» تقدم الكلام عنها فى نظائر فى عدة مواضع سابقة. منها الأخير برقم :١٤٧ ص٢٨٠ ـ ٢٨١.

١٥٧ ـ «الذين كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعاً ـ الكهف : ١٠١» تقدم الكلام فى نظيرتها برقم: ١٤٨ ص٢٨١.

١٥٨ ـ « و اجعله رب رضياً ـ مريم : ٦ » . طلب المزيد من عنايته

---

١ ـ راجع مسألة التوحيد فى الافعال ص ١٧٢ . ومسألة الامربين الامرين ص١٧٣ فما بعد .ومسألة ارادة الله الحادثة ص١٨٢ . وغيرها من مسائل مرتبطة

تعالى والتوفيق .

١٥٩ ـ « وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقياً ـ مريم : ١٣ » . اخبار عن لطف خاص يجعله تعالى في محل قابل حسب علمه الازلي .

١٦٠ ـ وهكذا قوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام خطاباً لمريم ـ عليها السلام ـ : « لأهب لك غلاماً زكياً ـ مريم : ١٩ » .

١٦١ ـ ونظيرهما قوله تعالى : « وجعلني مباركاً اين ما كنت و اوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ـ مريم : ٣١ ـ ٣٢ » .

١٦٢ ـ « ألم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ـ مريم : ٨٣ » .

لا شك ان ليس المراد : ارسال الشياطين للاضلال كارسال الانبياء للهداية . اذ لو كان كذلك لكانت الشياطين رسل الله كالأنبياء ، تعالى الله عن ذلك ، وحاشاه من رب رؤوف رحيم ! ! .

وذلك بدليل انه متى اريد من الارسال هو معناه المعهود : (البعث للتبشير والانذار) تعدى بـ «الى» : «ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه ـ هود : ٢٥» . او بـ «في» : «كما ارسلنا فيكم رسولا ـ البقرة : ١٥١» . او باللام : «وارسلناك للناس رسولا ـ النساء : ٧٩» . ولم يأت متعدياً به «على» . اما قوله : «فما ارسلناك عليهم حفيظاً ـ النساء : ٨٠» او قوله : «وما ارسلناك عليهم وكيلا ـ الاسراء : ٥٤» . فـ «على» متعلقة بالوصف المتأخر .

اما اذا تعدى الارسال بـ «على» فانه يخرج عن معناه الحقيقي ، ويكون بمعنى مطلق التحريك واثارة الاسباب المؤاتية للشيء ، ان طبيعية كانت ام اصطناعية .

ولو مجازاً وبالعناية . واكثر استعماله فى القرآن حينئذ يكون فى مواضع ارادة الشر والنقمة المردية [1] .

قال تعالى : « وفى عاد اذارسلنا عليهم الريح العقيم ـ الذاريات : ٤١ » . «فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات ـ فصلت :١٦» . «فارسلنا عليهم رجزاً من السماء ـ الاعراف : ١٦٢» .«فارسلنا عليهم سيل العرم ـ سبأ : ١٦» . «وارسل عليهم طيراً ابابيل ـ الفيل : ٢» . الى غيرها من آيات .

وهكذا «ارسلنا الشياطين على الكافرين ـ مريم : ٨٣» عقوبة عاجلة وافتهم فى هذه الحياة ،اصطلحنا عنها بالخذلان ، وحرمانهم عن ألطافه تعالى الخاصة بأهل الايمان .

ومعنى الآية ـ على ذلك ـ انا خلينا بين الشياطين وبين الكافرين يضلونهم ويمنونهم ويهدوهم الى سواء الجحيم [2] . جزاء متناسباً مع لجاجهم واصرارهم على منابذة الحق ، والسعى فى اطفاء نورالله عن وجه الارض .

١٦٣ ـ «ويزيدالله الذين اهتدوا هدى ـ مريم : ٧٦» هوتوفيق ومزيد عناية وألطاف .

١٦٤ـ قال رب اشرح لى صدرى ويسرلى امرى ـ طه : ٢٥ ـ٢٦» .سؤال وابتهال الى الله ان يمنحه عنايته ولطفه الخاص الذى اختص بـه عباده المتقون

١ـ اما قوله : «وارسلنا السماء عليهم مدراراً ـ الانعام : ٦» فـ«على» متعلقة بـ«مدراراً» .

٢ـ قال القاضى : والمراد عندنا: انه تعالى خلى بينهم وبين الكافرين . مع قدرته على المنع والحيلولة من كل وجه. فقيل توسعاً: انه ارسلهم . كما يقال ـ فيمن يمكنه ان يمنع كلبه من الاقدام على الاضرار بالغير اذا تركه وذاك ـ : انه ارسل كلبه على الناس . وكما يقال ـ فى الملك اذا امكنه ضبط جنده وكفهم عن الناس فلم يفعل ـ: انه ارسلهم على الناس :(المتشابهات ج٢ ص٤٨٦ ـ٤٨٧) .

المجاهـدون فی سبیله ، فما هو الاطلب توفیق منه تعالی ، لاالجاء ولااکراه علی غیر مقدور .

١٦٥ ـ « قال ربنا الذی اعطی کل شیء خلقه ثم هدی ـ طه: ٥٠» . القراءة الصحیحة المعروفة هی بسکون اللام فی « خلقه» لیکون بمعنی «خلقته »ای صورته وشکله ووجوده ، مفعولا ثانیاً لأعطی . فمعنی الآیة : ربنا الذی افاض علی الاشیاء وجود اتها اولا ، ثم هداها الی طرق معایشها . وهی هدایة تکوینیة جعلت فی جبلة الأشیاء ـ حسبما تقدم .

والمقصود من الاشیاء ـ هنا ـ هی الموجودات العینیة بقرینة « ثم هدی » . الامر الذی یتنافی وشمول « کل شیء » للافعال الاختیاریة ، کما زعمه الاشعری ضارباً علی وتره .

١٦٦ ـ «لایسأل عمایفعل وهم یسألون ـ الانبیاء : ٢٣» .طال ماتشبث الاشعری بهذه الآیة لنفی لزوم الحکمة فیما یفعله تعالی ، زاعماً دلالتها علی عدم مسؤولیته تعالی تجاه أفعاله ،ان حسناً وان قبیحاً اذلاحسن ولاقبح ذاتیین، وانما هما بالوجوه والاعتبارات .

قالوا : القبیح منه تعالی حسن ، وانما یقبح اذاکان من غیره .

والجواب : انه قدثبت بالبرهان القاطع وبالضرورة من الدین ، انه تعالی حکیم لایفعل عبثاً ولایخلق مالافائدة وراءه ولاغرض فی الایجاد : «وماخلقنا السماء والارض ومابینهما لاعبین ، لواردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان کنا فاعلین، بل نقذف بالحق علی الباطل فید مغه فاذا هو زاهق ،ولکم الویل مماتصفون ـ الانبیاء ١٦ ـ ١٨» .

اذن فانما لایسأل تعالی عما یفعل ، للقطع بان جمیع مایفعله صواب وکان

وفق الحكمة والمصلحة الداعية الى الايجاد ، فكل مايفعله تعالى حسن بلاريب . وانما يسأل عن السبب الداعي ، اذا كان الفاعل ممن يصدر عنه قبيح الى جنب اعماله الحسنة . الامر الذى لايحتمله افعال الحكيم على الاطلاق .

وهذه الآية الكريمة كناية عن كمال عزته تعالى «يفعل مايشاء ويحكم مايريد[1]». لكنها عزة مشفوعة بالحكمة والعدل، ومن ثم فهو تعالى عزيز حكيم. عزيز لايغلب على أمره ولايعجز عن تنفيذ ارادته . حكيم لايفعل الا الصواب ولايحكم الا بالحق ولايهدى الا الى سواء الطريق .

قال اهل العدل : لما كان تعالى عالماً بقبح القبائح ، وكان غنياً عن فعل القبيح اطلاقاً ، استحال ان يقع منه قبيح . فقد عرفنا ـ اجمالا ـ بان كل مايفعله تعالى حكمة وصواب . وبعد هذا العلم لاموضع للسؤال الكاشف عن جهل فى نفس السائل . اللهم الا عن تفاصيل يريد ان يعرفها فى ذات المسؤول عنه .

وقال المفسرون : السؤال عن الفعل هو قولنا لفاعله : « لم فعلت كذا ؟ » . وهو سؤال عن جهة المصلحة فى الفعل اذا كانت مجهولة للسائل . اما الفعل المعلوم مقارنته مع المصلحة ، فلا مؤاخذة عليه عند العقلاء . والله تعالى لما كان حكيما على الاطلاق ـ كما وصف به نفسه فى مواضع من كلامه ـ والحكيم هو الذى لايفعل فعلا الا لمصلحة مرجحة ، لم يكن موضع للسؤال عن فعله ، وهذا على خلاف غير الحكيم ، الذى يحتمل بشأنه العبث والصواب والصلاح والفساد ، فجاز فى حقه ان يسأل عما يفعله ليؤاخذ على عمله ان ذماً او عقاباً اذا لم يكن مقروناً بمصلحة.

وروى الصدوق فى كتاب «التوحيد» عن الامام محمد بن على الباقر عليه السلام « سئل : كيف لايسأل عما يفعل ؟ فقال : لأنه لايفعل الا ما كان حكمة وصواباً[2]».

١ـ الجملة الاولى مقتبسة من قوله تعالى : «كذلك الله يفعل من يشاء ـ آل عمران : ٤٠» والثانية من قوله تعالى : «ان الله يحكم مايريد ـ المائدة : ١» .

٢ـ تفسير الصافى للحكيم الفيض ج٢ ص٨٨

قـال الزمخشري: اذا كانت عادة الملوك الجبابرة ان لايسأل عن أفعالهم تهيباً لجانبهم واجلالا لعزتهم ، مع جواز الخطأ والزلل عليهم ، كان ملك الملوك ورب الأرباب اولى بان لايسأل عن أفعاله ، مع ماعلم واستقر في العقول ان مايفعله تعالى كله مقرون بدواعي الحكمة ، لايجوز عليه خطأ ولافعل قبيح [1] .

ومن الغريب جداً مـا كتبه الشيخ محمد عليان المرزوقي تعليقاً على كلام الزمخشري أخيراً «لايجوز عليه الخطأ ولافعل القبائح» . قال الشيخ عليان : «هذا عندالمعتزلة . اما عند اهل السنة ـ يعني الاشاعرة ـ فهو ـ تعالى ـ الفاعل للخير والشر ، كمابين في علم التوحيد» .

قلت : فض الله تلكم الافواه التي تستطيع التفوه بهكذا كلام قبيح تشويهاً لساحة قدسه تعالى عمايقول الظالمون علواً كبيراً . « انكم ـ ايتها الاشاعرة الفئة الفاقدة لشعورها ـ لتقولون قولا عظيما ـ الاسراء : ٤٠ » . « ام تقولون على الله مالاتعلمون ؟! ـ البقرة : ٨٠» . واخيراً «ولكم الويل مماتصفون ـ الانبياء :١٨».

١٦٧ـ «ونبلوكم بالشر والخير فتنة ـ الانبياء : ٣٥» . قالوا : وهذا دليل على ان كلا من الخير والشر من فعله تعالى .

قلنا : الخير والشر ـ هنا ـ هما : الرخاء والجدب ، والرفاه والضيق . يعتوران حياة الأمم ابتلاء لهم ، واختباراً لمبلغ ثباتهم أمام البلايا والمحن ، أم كانوا يعبدون الله على حرف ، فان أصابهم خير اطمأنوا به ، وان اصابتهم فتنة انقلبوا على وجههم ؟! (سورة الحج : ١١) .

ونظير الاية قوله تعالى : «وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ـ الاعراف :١٦٨» . اي اختبرناهم بالرفاه والتوسعة تارة ، وبالضيق والتشديد اخرى. كقوله تعالى :«وانه هو اضحك وابكى ـ النجم : ٤٣» .

١ـ تفسير الكشاف ج٣ ص١١٠ ط بيروت

ومن ثم قال المفسرون : «ونبلوكم» : نختبركم « بالشر والخير » : بالبلايا والنعم «فتنة» : ابتلاء وامتحاناً «والينا ترجعون» فنجازيكم حسبما ابديتم من ثبات اوانهيار .

١٦٨ـ «وكلا جعلنا صالحين ـ الانبياء : ٧٢» . اى وجدناهم على استعداد من مناشىء الصلاح فزدناهم هدى وشملتهم عنايتنا بالتوفيق والتسديد الى الصواب والصلاح طول الحياة .

١٦٩ـ «ووهبناله يحيى واصلحنا له زوجه ـ الانبياء : ٩٠» . لايدل على ان كل صلاح من افعال العباد فانما هو فعله تعالى . وذلك لان الاصلاح فى الاية لايرجع الى فعلها بالذات ، وانما هو اصلاح جسمها ، كانت لاتحيض فحاضت [١] ـ كما فى تفسير القمى ج٢ ص٧٥ ـ او اصلاح شأنها عن الغى والفساد ، توفيقاً وتسديداً ، لابالاكراه والالجاء .

١٧٠ـ « انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ـ الانبياء : ٩٨ » . اى وما تعبدونه من أصنام وأوثان ابتدعتموها . وهذا لايشمل من عبدوه من الانبياء والملائكة ، نظراً لمكان « ما» الموصولة الخاصة بغير ذوى العقول .

على انه لو كانت للشمول فيخصصها قوله فيما بعد : « ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون ـ الانبياء : ١٠١» .

١٧١ـ «ان الله يفعل مايريد ـ الحج : ١٤» .

١٧٢ـ «وان الله يهدى من يريد ـ ١٦» .

١٧٣ـ «ان الله يفعل مايشاء ـ ١٨» .

١ـ اى كانت عقيماً فأصبحت ولوداً . مجمع البيان ج٧ ص٦١

كلها نظائر ، وقدسبق برقم ١٦٦ : انه تعالى لايريد الامايتوافق مع حكمته وعدله .ولايهدى بتوفيقه وتسديده سوى من أناب اليه وسعى فى لقاء وجهه الكريم.

وقدتعلقت الاشاعرة بأمثال هذه الايات تدليلا على انه تعالى هو الفاعل لافعال العباد اذلايقع فعل الا اذا اراده الله !واجاب المعتزلة بانه تعالى ـ وفق هذه الايات ـ يفعل مايريد هو ، ولادلالة فيها على انه يفعل مايريد غيره !

قلنا : انه تعالى بالنسبة الى افعال نفسه هو الفاعل لها بلا كلام . واما بالنسبة الى افعال غيره ، فانه تعالى يأذن لها ويوجدها بارادته الحادثة اثر ارادة العباد ، وفق سنته التى جرت فى الخلق ، فهى ايضاً من فعله تعالى لكن بهذا المعنى التبعى، الامر الذى يصحح نسبتها الى فاعليها والى الله جميعاً ، حسبما تقدم (ص ١٧٧) تحقيقه .

١٧٤ ـ « ولكل امة جعلنا منسكاً ـ الحج : ٣٤ » . اى بينا كيفية تعبدهم . ولادلالة لها على انه تعالى هو خالق العبادة . وهذا نظير قوله ـ فيمابعد ـ :« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ـ ٣٦» اى نحن فرضناها وبيناها لكم .

ومن ثم فان الاية بنفس التعبير جاءت فى موضع آخر مع زيادة هى ضاربة على ايدى المتطاولين لتحريف الكلم : «لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ـ الحج:٦٧».

١٧٥ـ «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ـ الحج : ٤٠» . لايدل على انه بالمباشرة والالجاء . و انما هو بتمهيد مقدماته من تشريع وترغيب وأخيراً توفيق وتسديد لمن يريد الله غلبه ، وخذلان المغلوب وحرمانه عن ألطافه الكريمة .

وهكذا انتصر المؤمنون على الكافرين بفضله تعالى ومنه .

١٧٦ـ « رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ـ المؤمنون : ٩٤ » . ابتهال الى الله ان يمن عليه بألطافه الخاصة ويسدد خطاه الى الصواب أبداً . وهذا طلب

توفيق لا الجاء فيه البتة .

١٧٧ـ «ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ـ الفرقان :١٨». هذا خذلان واستدراج ، عقوبة عاجلة ومماثلة مع ذلك الاستكبار واللجاج مع الحق .

١٧٨ـ «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ـ الفرقان : ٣١» . هذه الاية تسلية للنبي ﷺ اذ لم يكن بدعاً من الرسل ، فكما له اعداء ينابذونه ويسدون في وجهه طرق الدعوة الى الله ، كذلك كان للانبياء السلف أعداء . وهذا اخبار عن واقعية مرة يجابهها كل قائم باصلاح .

اما نسبة ذلك الى الله ـ جل شأنه ـ فهي مجاز ، باعتبار أنه تعالى ختم على قلوبهم وأخزاهم وخذلهم وربما املى لهم ليزدادوا اثماً ، فعتوا واستكبروا استكباراً جزاء متناسباً مع ذلك العناد المستمر مع الحق والطغيان العارم .

ولو كان ذلك على حقيقته لم يحسن توجيه اللائمة اليهم بالذات .

١٧٩ـ « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ـ الفرقان : ٣٢ » . اى كان نزول القرآن تدريجياً أثبت لموقفك واطمئنان قلبك ، حيث تواصل ذلك الارتباط مع المبدأ الأعلى ، فلا تزال تتصل بعالم الغيب بين آونة واخرى ، فيزيد من قوى عزمك ويؤكد نشاطك في دعوتك الى الاصطلاح . انه شعور مستمر بالحجة البالغة كلما فتحوا له بابا من الجدل او اعترضوا له اعتراضاً .

وهذا ـ ايضاً ـ من توفيقه تعالى وتأييده لنبيه الكريم ﷺ . وليس فيه من الالجاء على الايمان شيء ، كما زعمه الاشعري واذنابه .

١٨٠ـ « أم تحسب أن اكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ ! إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ـ الفرقان : ٤٤».

استدل الاشعرى بهذه الآية ونظائرهـا على نفى استطاعة العباد على الكفر والايمان .

قلنا : اذن كانت الآية اعذاراً لهم ، فى حين انها استنكار وتوبيخ صريح . ولا استنكار على غير المقدور كما لا مؤاخذة ولا عقاب .

انهم قد أماتوا قلوبهم باعراضهم عن ذكر الله ، واصرارهـم على الخطايا والآثام : « حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ـ الفرقان : ١٨ » . « انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ـ النمل : ٨٠» . وقد تقدم الكلام فى نظائر الاية [١] .

١٨١ـ « واجعلنا للمتقين اماماً ـ الفرقان : ٧٤ » . مسألة وابتهـال الى الله ان يمنح بلطفه الخاص وتوفيقه فى تمهيد السبل نحو المطلوب الحق ، حسبماً تقدم نظير الاية برقم : ١١ .

١٨٢ـ « فوهب لى ربى حكماً ـ الشعراء : ٢١» . عناية خاصة بعباده المؤمنين حقاً ، « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ـ سورة محمد : ١٧ » . « وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقاً ـ الجن: ١٦» .

١٨٣ـ « وأزلفنا ثم الآخرين ـ الشعراء : ٦٤ » اى تركنـا فرعون وملاءه يقتربون من الغرق والهلاك ، حيث صمودهم على منابذة الحق والرشاد . فقـد اخزاهم الله وخذلهم فأسرعوا الى عقاب عاجل وألقوا بايديهم الى التهلكة .

١٨٤ـ « الذى خلقنى فهو يهدين ـ الشعراء : ٧٨ » هداية تشريعية عامة.

١٨٥ـ « رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ـ الشعراء : ٨٣» . تقـدم

١ـ راجع صفحة : ٢١١ و٢١٣ و٢٢٢ و٢٢٣ و٢٣٠ وغيرها.

الكلام فى نظيرتها برقم : ١٨١ .

١٨٦ـ «كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لايؤمنون بـه حتى يروا العذاب الأليم ـ الشعراء : ٢٠٠ـ٢٠١» .

اى ان هذا القرآن قد أخذ طريقه الى قلوب المجرمين ايضـاً فسمعوه ووعوه ، وان كانوا قدعارضوه ولم يؤمنوا به ، فقوله : « كذلك سلكناه » اى على انحراف قلوبهم واعوجاج مسالكها ومع علمنا بأنهم لا يؤمنون به ، ولكن اتماماً للحجة عليهم جعلنا من نفوذ القرآن ما يقهر كل الحواجز ولا يحـول دون اشراق انواره أى مانع ، لطفـاً بالناس « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ـ النساء : ١٦٥» .

وعليه فالضمير فى « سلكناه » يعود الى القرآن. والكناية فى « كذلك » تشير الى المعلوم من حال المجرم انه صمود على عناده ورفض الحق .

وربما اعاد بعضهم الضمير الى نفس التكذيب ، والكناية ترجع الى هيئة عدم الايمان بالقرآن ، فعلى هذه الهيئة نظمناه فى قلوب المجرمين و اجريناه ، فهو لا يجرى فيها الا مكـذبا به ، ويظل على هيئته هذه حتى يروا العذاب الأليم.

وبهذا الوجه تمسك الاشعرى لاسناد كفر الكافر الى الله سبحانه فلايستطيع الا هتداء الى الاسلام « ومن يضلل الله فماله من هاد ـ الزمر: ٢٣» .

وقد تقدم الجواب عن أمثال هذه التشبثات المنحرفة ، حيث هذه التعابير فى الآيات الكريمة لا تعـدو مسألة « الخذلان » الذى استوجبوه على انفسهم بسبب اصرارهم على رفض الحق والاطاحة بحظهم الى المهوى السحيق [1] .

١٨٧ـ وهكذا قوله تعالى : « كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لايؤمنون به ـ الحجر : ١٢ـ١٣ » ، يحتمل التفسيرين. والاجابة على الوجه الثانى هى الاجابة

١ـ راجع صفحة : ٢١٠ـ٢١١ و ٢٢٠ـ٢٢١ وغيرها.

فی الآية المتقدمة .

١٨٨ـ «وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم ومايستطيعون، انهم عن السمع لمعزولون ـ الشعراء : ٢١٠-٢١٢» .

ارجع الاشعرى ضمير الجمع الى المجرمين تدليلا على عـدم استطاعتهم على قبول الحق.

لكنه تحريف فضيع بكلامـه تعالى ، حيث يعود الضمير الى الشياطين ، وانهـم لا يستطيعون التنزل بالقرآن ، وانما نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ـ الشعراء : ١٩٣-١٩٥ .

كانت العرب تزعم ان محمداً ـ ﷺ ـ كاهن ، وان ما يتنزل عليه هو من جنس ما يتنزل به الشياطين على الكهنـة ، فنزلت الايات (١٩٢ ـ ٢١٢) من سورة الشعراء ، تفنيداً لهذه المزعومة .

قال تعالى « وانه لتنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الامين » الى قوله: « وما تنزلت به الشياطين » ـ « ما » نافية ـ « وما ينبغي لهم » اى ليس من شأنهم ذلك « وما يستطيعون » اى هم اعجز عن القيام بهـذه المهمة الملكوتية . « انهم » اى الشياطين « عن السمع » اى عن الاستماع الى الملاء الا على « لمعزولون» اى مرجومون بالشهب والقذائف . « لايسمعون الـى الملاء الاعلى ويقذفون من كل جانب ـ الصافات : ٨» .

ثم قال تعالى ـ تأكيداً لرد المزعومـة ـ : « هل أنبؤكم على من تنـزل الشياطين ؟ . تنزل على كل أفاك أثيم : ٢٢١-٢٢٢» لاعلى مثل محمد الصادق الامين! ان الطيور على أشكالها تقع .

١٨٩ ـ « ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينالهم أعمالهم ـ النمل : ٤ » .

تقدم الكلام فى نظير الاية [1] وان المراد : ان أنفسهم هى التى زينتها لهم ، وزينها لهم الشيطان . فقد أخزاهم الله وخذلهم مغبة صمودهم على نكر ان الحق ونسيان الاخرة . « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ـ فاطر : ٨ » .

١٩٠ـ « وزين لهم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ـ النمل : ٢٤ » ، لا يدل على الالجاء بحيث خرج الاهتداء الى سبيل الحق عن استطاعتهم . اذ لا سلطان للشيطان الا على الغاوين [2] ، وليس سوى وساوس ودعوة الى الفساد . « انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ـ النحل : ٩٩ـ١٠٠ » .

« وقال الشيطان ـ لما قضى الامر ـ : ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ! وما كان لى عليكم من سلطان ، الا ان دعوتكم فاستجبتم لى ! فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ! ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخى ! انى كفرت بالذى اشركتمون من قبل ، ان الظالمين لهم عذاب اليم ـ سورة ابراهيم : ٢٢ » .

١٩١ ـ « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون ـ النمل : ٥٠ » . تآمر قوم صالح على أن يبيتوه وأهله ويقتلوهم عن آخرهم ، ثم يقولوا لوليه : ماشهدنا مهلك اهله [3] ! لكنهم قبل ان ينفذوها قد اخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين [4] « فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين ـ الصافات : ٩٨ » . فانظر كيف كان

١ـ وهى الاية ١٠٨ من سورة الانعام برقم ٥٤ ص ٢٢٥ . وراجع ـ ايضاً ـ الصفحة ٢١١ـ٢١٢ برقم : ٥ .

٢ـ سورة الحجر : ٤٢ .

٣ـ من الاية قبلها (٤٩).

٤ـ من الاية ٧٨ من سورة الاعراف.

عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم اجمعين ـ النمل : ٥١» .

وعليه فكان قوله تعالى : «ومكرنا مكراً» من باب التشاكل فى التعبير ، على سبيل الاستعارة . كما فى قوله : «تعلم مافى نفسى ولاأعلم مافى نفسك ـ المائدة : ١١٦» .

١٩٢ـ « انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء ـ النمل : ٨٠ » . قد تقدم[١] انه كناية عن تلكم القسوة والجفاء التى انطوت عليها قلوبهم القاسية . ومن ثم عقبها بقوله: «اذا ولوا مدبرين». فلايعدو مثل هذا التعبير استعارة وتشبيهاً ،والا كان اعذاراً لهم لاتوبيخاً واستنكاراً !

١٩٣ـ وهكذا الآية بعدها : «ومانت بهاد العمى عن ضلالتهم ، ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ـ النمل : ٨١» .

انه عمى القلب حجز دون رسوخ الوعظ فيه، وانما توثر دعوة النبى ﷺ فى من لان قلبه واستسلم لقيادة الناصحين.

ان امثال هذه التعابير تسلية للنبى ﷺ ورفع لمسؤوليته عن التأثير والاتعاظ. واخبار عن واقعية مرة كان ارباب الجحود والطغيان قدمهدوا هم من اسبابها وعملوا فى تكوينها، بمااعرضوا عن ذكر الله ونسوا لقاء ربهم.

١٩٤ـ «ولولا ان ربطنا على قلبها ـ القصص : ١٠ » تعبير كنائى عن توفيقه تعالى وعنايته الخاصة بعباده المؤمنين المتوكلين عليه. كما فى قوله تعالى ـ بشأن اصحاب الكهف لم يهابوا سطوة ملكهم الجبار ـ: «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم ،اذقاموا فقالوا: ربنارب السماوات والارض لن ندعو من دونه إلهاً لقدقلنا اذاً شططاً ـ الكهف : ١٣ـ ١٤» .

١ـ برقم : ١٨٠ الاية ٤٤ من سورة الفرقان ص٢٩٢ـ٢٩٣.

وهكذا قوى من عزائم ام موسى ومنحها عنايته صبراً وثباتاً فى موقفها ذلك الحرج ، فألقت بولدها وفلذة كبدها فى البحر متوكلة على الله .

وعليه فلم يكن الربط على القلوب سوى تعبير مجازى عن تلك الثقة والايمان الراسخ بالله العظيم .

١٩٥ـ «فأخذناه وجنوده ونبذناهم فى اليم ـ القصص :٤٠» . ليس ظاهر التعبير مقصوداً قطعاً ، وانما هو كناية عن خذلانه تعالى لهم ، فتركهم يهرعون الى مهاوى الهلكة بسوء اختيارهم ولجاجهم فى رفض الحق والهدى .

١٩٦ـ «وجعلناهم أئمة يهدون الى النار ـ القصص :٤١» . اى بسبب مرودهم على الطغيان تركناهم وضلالتهم فأصبحوا دعاة الى الجحيم . وهذا هو وجه النسبة اليه تعالى . كمامر نظيره فى قوله تعالى: «انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ـ مريم :٨٣» اى خلينا بينهم وبين الكافرين . والا لو كان على حقيقته كان ذلك اعذاراً لهم ، ولم تتوجه اليهم لائمة ولا استنكار .

١٩٧ـ «انك لاتهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء ـ القصص :٥٦» . اى الهداية المؤثرة النافذة . وهى ليست من فعله ﷺ لان الذى عليه هو البلاغ ، ليس عليهم بمسيطر انما هو منذر . لكنه تعالى يهدى بتوفيقه وعنايته الخاصة من يشاء من عباده الذين سعوا فى لقاءه الكريم . وقد تقدم الكلام فى أمثال الآية فى عدة مواضع [١] .

١٩٨ـ « وربك يخلق مايشاء ويختار ـ القصص : ٦٨» . تقدم تفصيل الكلام فى نظائره [٢] . وانه تعالى لايختار الامافيه حكمة وصلاح .

١ـ انظر الاية ٢٧٢ من سورة البقرة برقم : ١٦ ص ٢١٥

٢ـ انظر الاية ١٤ و ١٦ و ١٨ من سورة الحج برقم: ١٧١ـ١٧٣ ص ٢٩٠

١٩٩ـ «ولقد فتنا الذين من قبلهم ـ العنكبوت :٣» .قالوا : يدل على انه تعالى حمل أمما على الكفر والمعصية.

قلنا: الفتنة هي الامتحان والاختبار بالمحن والمصائب والآلام. ومن ثم ابتدأت السورة بقوله تعالى:«الم .أحسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون» ثم قال ـ دفعاً لتوهم اختصاص هذه الامة بذلك ـ: «ولقد فتنا الذين من قبلهم» وتعقيباً على ذلك بين وجه الحكمة : «فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» . وهذا اعلام بما سيصيب هذه الامة من بلاء وامتحان . وبالفعل قد تحقق ذلك مدة بقاءهم في مكة وبعد ماهاجروا الى المدينة، على ماجاء في سورة براءة: ١٢٦ : «اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة اومرتين ؟!» .

٢٠٠ـ «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ـ العنكبوت : ٦٩» . اختصاص بهدايته التي هي عناية ومزيد ألطاف يخص بها عباده المخلصين . اما هدايته التي هي دلالة وارشاد الى معالم الحق والطريقة الوسطى فهي عامة شاملة لجميع المكلفين على ماسبق تحقيقه غير مرة [١] .

٢٠١ـ «كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون ـ الروم : ٥٩» .تقدم انه اخبار عن واقعية سوداء هم اكتسبوها بمرودهم على الطغيان والاستكبار عن قبول الحق. وجاء التعبير استعارة ومجازاً عن تلك الحالة القاسية التي انطوت عليها قلوبهم الجافة . وقد صرح بهذا التشبيه في قوله تعالى : «واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً، كأن لم يسمعها ، كأن في اذنيه وقراً ـ لقمان : ٧» . في حين انه تعالى ذكر في كثير من الآيات : انهم لايسمعون . وفي آذانهم وقر . فعلمنا ان جميع ذلك من المجاز في التعبير ، وسنبحث عن معنى الطبع والختم والوقر وماشاكل في فصل قادم ان

١ـ راجع ـ بالخصوص ـ : مسألة الهداية والتوفيق في مراحلها الخمس ص١٩٨ فما بعد .

شاءالله . كما تقدم وجه نسبة ذلك الى الله [1] .

٢٠٢ـ «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ـ السجدة : ١٣» . اى هداية تكوينية بالالجاء على الهدى . الامر الذى يتنافى مع دار التكليف والاختبار. وقد تقدم ذلك ص١٩٣ برقم : ٢٧ .

٢٠٣ـ كما تقدم هناك ايضاً تأويل قوله تعالى ـ بعد ذلك ـ : «ولكن حق القول منى لاملان جهنم من الجنة والناس اجمعين ـ ١٣» . اى حق القول منى ان لا اكره احداً على التكليف والطاعة ، بل ادعهم مختارين فى الاطاعة والعصيان، تحقيقا لحكمة التكليف الذى هو الاختبار، ولا اختبار مع الالجاء . الامر الذى يؤول فى نهاية المطاف الى دخول كثير من الجنة والناس النار بسوء اختيارهم وقبيح تصرفاتهم فى هذه الحياة [2] .

بدليل الآية قبلها : «ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم. ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً . انا موقنون ـ ١٢». هذا ابداء مرير لغاية الندم على ما فرطوا فى جنب الله . الامر الذى يكشف بوضوح انه لم يكن الجاء على كفر ولا اكراه على عصيان ، ولا انه تعالى خلق أحدا ليدخل جهنم . وانما يدخلها من استحقها بنفسه واكتسبها بجهده وألقى بيده الى التهلكة .

وهكذا جاءت الآية بعدها : «فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ـ ١٤» صريحاً فى القاء تبعات الأمر على عاتقهم فكانوا هم المسؤولين عن موقفهم هذا الفضيع !

٢٠٤ ـ « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيراً

١ـ واجع الصفحة ٢١٠ ـ ٢١١

٢ـ راجع الصفحة ١٩٣

ـالاحزاب :٣٣» . يعنى مزيدعناية وألطاف ، وهوتكريم خاص منحه‌الله لأهل‌بيت نبيه ـصلى‌الله عليهم ـحيث استعدادهم لتلقى هذا الفيض القدوسى الجليل . الامر الذى لايرتبط ومسألة الجبر فى‌الهداية كما يرومه الاشعرى بالذات .

والكلام عن‌هذه الآية الكريمة يستدعى استيفاء لايسعه هذا المجال .

٢٠٥ ـ « وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضى‌الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة ـالاحزاب : ٣٦» . القضاء فيها بمعنى الحكم التشريعى من‌ايجاب اوالزام تكليفى ونحو ذلك .

٢٠٦ـ « ليخرجكم من‌الظلمات الى النور ـ الاحزاب : ٤٣ » . تقدم الكلام فى‌نظيرتها برقم : ١٤ ص٢١٤ ـ٢١٥ .

٢٠٧ـ «وكان‌امرالله مفعولا ـالاحزاب :٣٧» .اى قضاؤه المبرم فى‌التكوين الامر الذى لايمس مسألة الهداية فى التشريع .

٢٠٨ـ وهكذا قوله: «وكان امرالله قدراً مقدوراً ـالاحزاب : ٣٨» .

٢٠٩ ـ « فان‌الله يضل من‌يشاء ويهدى من يشاء ـ فاطر : ٨» . تقدم الكلام عن نظائرها من‌عدة مواضع . وان المقصود : خذلان من يستحقه ، والعناية بشأن من‌يستأهله .

٢١٠ـ «ان‌الله يسمع‌من‌يشاء وماانت بمسمع من‌فى القبور ،ان انت‌الانذير ـ فاطر :٢٣» .تقدم الكلام فى‌نظائرها . وانها نفى لمسؤوليته ﷺ عن قبول‌الدعوة، وانما عليه البلاغ . اما الذى اعرض عن ذكر ربه ونسى لقاء الآخرة وجعل على بصره غشاء التعمية فلايكاد يفقه حديثاً فهو كميت فى‌القبر «انك لاتسمع الموتى».

لكنه تعالى يعلم من الناس المحل الصالح ، ممن استعدوا بانفسهم لتلقى فيوضاته القدسية ، فيضع فيهم حكمته ويفتح عليهم ابواب بركاته .

٢١١ـ «اناجعلنا فى اعناقهم اغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً . فاغشيناهم فهم لايبصرون ـ يس :٩».

هذا تشبيه لحالتهم التعنتية تجاه الحق ، بالمغلول الممنوع بالسد والحجب، من حيث لم ينتفع بما سمع ، واعرض عن الاستدلال . وقد تقدم الكلام عن مثله برقم : ٤و٥ ص٢١٠ـ٢١١ .

٢١٢ ـ «أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تنقذ من فى النار ـ الزمر : ١٩» .

حق عليه كلمة العذاب ، بسبب صموده تجاه قبول الحق واصراره على المعاصى والآثام ، فقد أحاطت به خطيئآته وقادته الى الجحيم حيث مثوى الظالمين. الامر الذى حال دون تأثير الدعوة فيه فلايتعظ أبداً .

وهذا من تشبيه عاجله بآجله ، وتيئيس للنبى ﷺ فلاتذهب نفسه الكريم عليهم حسرات .

٢١٣ـ « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ـ الزمر : ٢٢ » تلك عناية ربانية وتوفيق إلهى خاص ، ينعم به اولئك الذين جاهدوا فى الله وسعوا فى لقاء وجهه الكريم .

٢١٤ـ «ومن يضلل الله فماله من هاد . ومن يهد الله فماله من مضل ـ الزمر : ٣٧» .ذاك خذلان وحرمان وهذا وتوفيق وتسديد ، كل حسب استعداده والصلاحية التى اكتسبها لنفسه .

٢١٥- «وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل - المؤمن :٣٧». زينته له نفسه وصدته خطيئاته . وتقدم مثله برقم : ١٨٩-١٩٠ .

٢١٦- «وقالوا قلوبنا فى اكنة مماتدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب -فصلت :٥» .هذا تشبيه وتمثيل ،واخبار عن واقعية سوداء مظلمة اكتسبوها بما اقترفوه من خطايا وآثام ، فجعلتهم صخرة صماء فى غاية قسوة وجفاء .وقدصرح بهذا التشبيه فى آية اخرى : «واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقراً - لقمان : ٧ » . وتقدم الكلام فى نظائرها . وتقدمت هى بالذات فى صفحة ٢١٠ .

٢١٧- «وقيضنا لهم قرناء . فزينوا لهم مابين ايديهم وماخلفهم وحق عليهم القول - فصلت : ٢٥» .

اى خلينا بينهم وبين أبالسة الجن ، هذاخذلان مرير استوجبوه لانفسهم بما اقترفوا من آثام ووقفوا فى وجه الحق وكافحوه .

وقدتقدم الكلام فى نظائر الآية من سورة مريم ، آية: ٨٣ برقم :١٦٢ ص٢٨٥ وسورة النمل، آية:٢٤ برقم :١٩٠ ص٢٩٦.

٢١٨ - « والذين لايؤمنون ، فى آذانهم وقر ، وهوعليهم عمى - فصلت : ٤٤» . تقدم الكلام فى نظيرتها برقم : ٢١٦ .

٢١٩- « ولوشاءالله لجعلهم امة واحدة - الشورى : ٨ » . هى مشيئة إلجاء لم يشأهاالله بشأن هذه الحياة التى هى دار تكليف واختبار . الامر الذى لايتناسب مع سوى الاختيار .

٢٢٠- « لاحجة بيننا وبينكم - الشورى : ١٥ » . قالوا : انه يدل على ان

لاحجة على الذين كفروا ، وانماهم معذورون على الكفر والعصيان !

قلنا : هذاباطل من ضرورة الدين ، اذالحجة تمت على الكفار والعصاة جميعاً. «قل فلله الحجة البالغة ـ الانعام : ١٤٩ » . اما الحجة المنفية فى الآية فقد فسرها مجاهد بالخصومة . لانها لازمها ، ففسر الشيء بلازمه .

والصحيح ان المقصود: ان الحجة قدتمت حيث ظهر الحق بيننا وبينكم. ولم يبق مالاتعلمونه لنحتج به عليكم ، سوى اللجاج والعناد ، ومن ثم فانانكف عنكم الآن لنلتقى جميعاً على صعيد القيامة ، فيحكم الله بيننا وبينكم . والاية ـ بطولها ـ تدل على هذا المعنى ، قال تعالى : «وقل آمنت بما انزل الله من كتاب . وامرت لأعدل بينكم .الله ربناوربكم . لنا اعمالنا ولكم اعمالكم .لاحجة بيننا وبينكم .الله يجمع بيننا واليه المصير . والذين يحاجون فى الله من بعد ماستجيب له ،حجتهم داحضة عندربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد: ١٥-١٦» ومن ثم قال ابو على الطبرسى: الآية غاية فى التهديد [1] .

٢٢١ـ «ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده ـ الشورى : ٤٤» اى من يخذله الله على اثر معاندته مع الحق . وقدتقدم ذلك فى مسألة «الخذلان ـ ص٢٠٤» .

٢٢٢ ـ «ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدى الى صراط مستقيم ـ الشورى : ٥٢» .

الهداية من الله ـ فى الاية ـ هى التوفيق والمزيد من ألطافه الخاصة يختص بها المؤمنون من عباده الذين جاهدوا فى سبيل لقاء ربهم .واما التى يقوم بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم فهى هداية ارشاد ودلالة ، تعم جميع المكلفين، على ماسبق تفصيله راجع: مسألة «الهداية والتوفيق ـ ص ١٩٨» .

٢٢٣ـ « وقالوا : لوشاء الرحمان ماعبدناهم ـ الزخرف : ٢٠ » . وقدضمت

١ـ راجع : مجمع البيان ج٩ ص٢٥

الاشاعرة اصواتها الى اصوات المشركين فى مزعومة الجبر فى التكليف .

لكنه تعالى رد عليهم بقوله : «مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ـ ٢٠» . وقد تقدمت الاية برقم : ٣٥ ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

٢٢٤ـ «ومن يعش عن ذكر الرحمان نقيض له شيطانا فهو له قرين ـ الزخرف: ٣٦» . قد تقدم الكلام فى نظير الاية برقم : ١٦٢ ص : ٢٨٥

٢٢٥ـ «افأنت تسمع الصم او تهدى العمى ؟! ـ الزخرف : ٤٠» . ايضاً تقدم الكلام فى نظائرها الكثيرة منها برقم ١٩٧ ص ٢٩٨ .

٢٢٦ـ وهكذا قوله : «أفرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم . وختم على سمعه وقلبه . وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله ؟! ـ الجاثية : ٢٣» . تقدم الكلام فى الاضلال والختم والطبع وماشاكل فى عدة مواضع .

٢٢٧ـ «واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ـ الاحقاف : ٢٩» . لايدل على انه تعالى ارسلهم ليستمعوا ، وانما لطف بهم واعانهم بتمهيد السبل ليحضروا هم باختيارهم عند النبى ﷺ ويستمعوا القرآن .

٢٢٨ـ «اولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم» انه خذلان استوجبوه على انفسهم بالذات ، ومن ثم كان التعقيب : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟! ـ سورة محمد : ٢٤» بصورة استنكار وتوبيخ !

٢٢٩ـ «ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم ؟ ! ـ سوره محمد : ٢٩» .

نزلت بشأن المنافقين ، كانوا قد استسروا عداوة الرسول ﷺ وتواطئوا

على النكاية به ، لكنه تعالى فضحهم وأظهر ماحاولوا كتمانه من نفاق ومراوغة خبيثة .

٢٣٠ـ «وكف ايدى الناس عنكم ـ الفتح : ٢٠» .

٢٣١ـ «وهوالذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم ـ الفتح : ٢٤» .

اى مهدالاسباب التى يحصل معها الكف المذكور . فقد منع المسلمين من مقاتلة الكفار بالنهى والزجر . ومنع الكفار من منابذة المسلمين بالقاء الرعب فى قلوبهم ، وهكذا .

٢٣٢ـ «ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ، وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان ـ الحجرات : ٧» .

حبب الايمان بنصب الدلائل على حسنه وصحته ، كماوعد الثواب عليه والرضوان .وزينه بألطافه الخاصة وعناياته الكريمة . وكره الكفر بنصب الدلائل على قبحه وبالنهى عنه والوعيد عليه .

وهذا عام بالنسبة الى جميع الناس ، غير ان الذين استجابوا لهذه الدعوة هم الذين وعت نفوسهم وانصاعوا لنداء الفطرة الاولى وبقى المنحرفون يهيمون فى وادى الضلالة تائهين .

قال تعالى : «ولكن الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ـ الحجرات :٢٧» .

٢٣٣ـ «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ،ألحقنا بهم ذريتهم ـ الطور: ٢١» . قالوا : يدل على ان الابن يصبح مؤمنا بايمان الأب . الامر الذى يشف عن لااختيارية الايمان بعض الشىء .

قلنا : الآية بصدد تعداد النعم التى يفيضها الله فى دار الآخرة على المؤمنين. فمنها : ان الاولاد سوف يهدون الى آبائهم فى الجنة لتقراعينهم . لكن بشرط ان

يكون الاولاد قد تبعوا الاباء في الايمان . اي يكونوا مؤمنين كما كان آباؤهم مؤمنين. الامر الذي لايدل على إلجاء او خروج عن الاختيار.

نعم قد يكون عمل الآباء وحسن تصرفاتهم من العوامل التي دعت الى ايمان الاولاد ، وهذا لاضير فيه ، ومن ثم فقد يعود ثواب الاولاد الى الاباء باعتبار كونهم السبب ،وبهذا اللحاظ ربما صح اطلاق المتابعة ،واثابة الاباء بايمان الاولاد .

لكن من غير ان ينقص من ثواب الاولاد شيء. كما لاينقص من ثواب المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول ،مع ان الفضل في ايمانهم يعود الى الرسول ، وهو الذي يثاب على دعوتهم للايمان . والى هذا المعنى ، واستدراكاً لما قد يتوهم خلافه ، يشير قوله تعالى تعقيبا على ذلك : «وما ألتناهم من عملهم من شيء» ثم قال ـ تأكيداً ـ: «كل امرء بما كسب رهين» . فلاينقص من ثواب الابناء ، ثواب إيمانهم وثواب اعمالهم الصالحة، شيء . اذ كل امرء بما كسب من خير اوشر رهين .

٢٣٤ـ «وانه هو اضحك وابكى ـ النجم: ٤٣» اي ما يوجب السرور والحزن من رخاء وجدب . وقد تقدم ذلك (ص ١٨٩) .

٢٣٥ـ «ليخرجكم من الظلمات الى النور ـ الحديد : ٩» بهدايته التشريعية.

٢٣٦ـ «وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ـ الحديد : ٢٧» .بتوفيقه والمزيد من عنايته وألطافه .

٢٣٧ـ « لئلا يعلم اهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ـ الحديد: ٢٩ » .

زعمت الأشاعرة دلالة الآية على نفي القدرة . اي ليعلم اهل الكتاب انهم غير قادرين على الاهتداء الان يشاء الله .

قلنا : فسرت الآية على ثلاثة وجوه :

الاول : ان تكون « لا » زائدة وضمير الجمع فى « ان لا يقدرون » يعود على اهل الكتاب ، اى ليعلم اهل الكتاب انهم لا يقدرون على احتجاز شيء من رحمته تعالى ، « وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » ممن استحقه و مهد لذلك الاسباب .

وهذا كبح صارم لما كان اهل الكتاب يتشدقون به من اختصاصهم بفضله تعالى : « قالوا : كونوا هوداً أونصارى تهتدوا ـ البقرة : ١٣٥» . « وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أونصارى ـ البقرة : ١١١ » . فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، غيرمقصور على قوم ولا محجور لطائفة ، ولامحدود ولا قليل «والله ذوالفضل العظيم ـ الحديد : ٣٠» .

الثانى : ان يعود ضمير الجمع الى المؤمنين ، اى انما وعدنا المؤمنين كفلين من رحمتنا لئلا يعتقد اهل الكتاب ان المؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله . وعليه فـ «لا» أصلية . فمفادالآية على ذلك هو اثبات قدرة المؤمنين على تحصيل فضله تعالى ورحمته بفعل الاسباب الموجبة لها.

الثالث : انه نفى لليأس والقنوط الذى كاد يعتور اهل الكتاب ممن لم يؤمنوا، فحسبوا من انفسهم الابتعاد عن رحمته تعالى حيث غضب عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبدالطاغوت .

فجاءت الاية مسلية وباعثة فى نفوسهم الرجاء والامل فى فضله تعالى ، وان المجال امام الراغبين فى شمول رضوانه تعالى واسع ، حيث الاسباب المؤاتية لذلك موفورة بالدخول فى حوزة الاسلام والرضوخ لتكاليفه القيمة .

ويشهد لصحة هذا المعنى ، ان الايات المتقدمة على هذه الاية جاءت ترغيباً للمؤمنين بالمسارعة الى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والارض . اعدت للذى آمنوا بالله ورسله ـ ٢٣ ـ ثم تعرجت الى امم سالفة فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ـ ٢٨ ـ ثم قفى على آثارهم بعيسى بن مريم ، وكان قد جعل الله فى

قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة و رهبانية فما رعوها حق رعايتها ، « فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم ، وكثير منهم فاسقون ـ ٢٩» .

هـذا تفصيل لبيان احوال أمم غابرة وحاضرة . ثم وجه نداءه العام الى من آمن و اتقى و وعدهم كفلين من رحمته ونوراً يهتدون به فى ظلمات الحياة ـ ٣٠ ـ .

قال المفسرون : هذا الخطاب الأخير يعنى المؤمنين من أهل الكتاب خاصة، الذين آمنوا بالله ورسوله : « يا ايها الذين آمنوا » بأنبياء سابقين ايماناً صادقاً «اتقوا الله وآمنوا برسوله » الحاضر محمد ﷺ «يؤتكم كفلين» اى نصيبين «من رحمته» نصيباً لا يمانكم السابق القديم . ونصيباً لايمانكم اللاحق الحديث .

وهذه الزيادة من عنايته تعالى بشأن هؤ لاء المؤمنين من أهـل الكتاب ، لدليل واضح على ان ابواب رحمته تعالى مفتحة للراغبين فـى شمول رضوانه والدخول تحت فضله ولطفه ، مهما كانت جنسية الطالبين المجاهدين فى سبيل لقاءه تعالى .

اذن فكان هذا اللطف والعناية الخاصة «لئلا يعلم اهل الكتاب » ممن تخلفوا عن الايمان برسول الاسلام « أن لا يقدرون على شيء من فضل الله » .فـلا يذهب وهمهم انهم قد أيسوا من رحمته ، أو ان لعنته تعالى شملتهم الى الأبد ، وحالت دون امكان التوبة والرجوع الى فضله تعالى ورحمته !! كلا .

فليأخذوا من ايمان اخوانهم الذين اسلموا دليلا على امكان ايمانهم متى شاؤوا ووافقهم التوفيق .

« وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » من عباده المؤمنين فى أى وقت وأى مكان ومن أى جيل او أية طائفة . « والله ذو الفضل العظيم» فلا يقصره على قوم دون قوم ولا جيل دون جيل . و فى ذلك ترغيب جميل لمن شاء ان يتخـذ الى ربه سبيلا ـ الانسان : ٢٩ ـ وتزهيد لطيف فى اليأس و القنوط عن رحمته تعـالى

الواسعة .

وهذا المعنى الاخير هو اختيارنا بالذات ، ونراه الأصح والأوفق بسياق الاية ، فتدبر .

٢٣٨ـ « اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ـ المجادلة : ٢٢ » .

اى علم الله انهم يؤمنون حقاً فأيدهم بروح منه ، وزاد فى عنايته لهم .

٢٣٩ـ « هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم ـ الحشر : ٢ » اى مهد اسباب خروجهم ، بتأييد المسلمين ونصرهم ، والقاء الرعب فى قلوب اهل الكتاب من بنى النضير ، فانجلوا من ارض يثرب الى اذرعات الشام ، اخرجهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى قصة طويلة .

٢٤٠ـ « ولو لا ان كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الاخرة عذاب النار . ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ـ الحشر : ٤ » .

اى علم منهم ذلك . وفى الحقيقة لو لا انهم انجلوا ، وكانوا حاولوا البقاء ومخالفة امر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى الخروج ، لانزل عليهم العذاب بالقتل والاستئصال على أيدى المسلمين . كما فعل ببنى قريظة .

٢٤١ـ « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ـ التغابن : ٢ » . لايدل على انه تعالى خلقهم كفاراً ومؤمنين . والالكان الواجب ـ حسب قواعد الأدب ـ النصب « فمنكم كافراً ومنكم مؤمناً » . قال ابو على : فلما ذكر تعالى بالرفع دل على ان الكفر والايمان من فعلهم لامن خلق الله فيهم [1] اى فمنكم من كفر ومنكم من آمن .

١ـ متشابهات القاضى ج٢ ص٦٥٥ الفقرة : ٧٧٤

لان الرفع يدل على فعلية النسبة حال التكلم اذا لم تقم قرينة قطعية على خلافها .

٢٤٢ـ «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ـ التين : ٤ـ٥» ، اى بمخالفته لنظام الفطرة والشريعة أخذ في التسافل. والانحطاط عن منزلة الانسان الكريمة . ومن ثم قال تعالى على جهة الاستثناء : «الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ ٦» . واما الاسناد الى الله فمن جهة انه تعالى أقدره على اختيار السوء والفساد . حسبما تقدم غير مرة .

٢٤٣ـ «لكم دينكم ولي دين ـ الكافرون : ٦». لايدل على الترخيص ، وانما هو على سبيل اللوم والتوبيخ لهم على التمسك بما هم عليه من الباطل ، الامر الذى يشف عن قدرتهم على الاقلاع والعدول عنه الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

مسألة الاستدراج

الاستدراج مأخوذ من الدرج وهو المشى في أناة خطوة خطوة ، يقال : درج الصبى اى مشى على حيطة وحذر في خطى قصيرة . والام تستدرج ولدها : تجعله يمشى كذلك ، اى تواكبه في المشى المذكور تدريباً له .

وقد اصطلح استعماله في امهال العصاة ليزداد وا غياً وجهالة . كـأن النعم المتوافرة عليهم تواكبهم في مسيرهم الى الضلال فيحسبوا انهم على هدى وأنهم يحسنون صنعاً. الامر الذى يزيد في ضلالهم والابتعاد عن الحق فلاينكفؤن الى طريق الرشد والصلاح ابداً . ومن ثم فسره اهل اللغة بالخدعة . وهذا التفسير صحيح الى حد ما ، اذا مالاحظنا المبدأ القائل: «خذ الغايات ودع المبادى» .فالله تبارك وتعالى انما يفعل بالكافر المعاند مايستحقه من عقوبة عاجلة .وكاد يشبه فعل المخادع الذى يحاول خداع غريمه. والكافر هو الذى ينخدع بوفرة النعمة عليه ، لفرط حمقه وجهالته

وليس الله بالذى حاول خدعه .

والاستدراج هو نوع خذلان استحقه العاصى المتمرد، واستوجبه لنفسه على اثر صموده فى الغى والضلال ،فلاتكاد تؤثر فيه الموعظة اطلاقاً ،ومن ثم يتركه الله ونفسه فى غياهب هذه الحياة المغرية، المغررة بالمفتتن بها .

ان المغترر بهذه الحياة الدنيا ، المعجب بلذائذها السفلى ، لايزال يزداد نهماً وانهماكاً فى مطاليب مبتذلة وخسيسة الى حد بعيد. الامر الذى يزيده ابتعاداً عن معالم الانسانية العليا ، وعن الاستقامة على الطريقة المثلى الكريمة .

وقد يبلغ به التيه الى حيث لايرعوى وان بلغ به الجهد مبلغه فى العطب والعناء، فقد تمكن الشيطان من نفسه وغلبه هواه وصرعته الخطايا والآثام، الامر الذى افتقد معه جميع دلائل الحياة[1] ،فلافعالية له ولاارادة ولاادراك ولااحساس: «ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم ـ والحال هذه ـ لتولوا وهم معرضون ـ الانفال :٢٣» .

اذن فلافائدة فى التضييق على مثل هذا الهائم فى بيداء الضلال «انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ـ النمل: ٨٠» فيوفر الله عليه نعمه فى هذه الحياة[2]، فلايمديداً الى حاجة الاوقدنالها ،ولاينطلق فى جهة الاوقد وافته الأمانى واقبلت عليه الدنيا بكل زخارفها ،فلايزداد الا اغتراراً وابتعاداً عن رضوانه تعالى، فانقلبت نعم الله عليه نقماً وخذلاناً ،كما كانت البلايا بالنسبة الى المؤمن الصالح نعماً وألطافاً .

قال ابو عبدالله الامام الصادق عليه السلام : «ان الله اذا اراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً ،

١ـ تقدم تفسيرنا لاية الحيلولة : ٢٤ من سورة الانفال ص٢٤١ . بهذا المعنى ، فقد حالت الخطايا بينهم وبين قلوبهم فلايكادون يفقهون شيئاً .

٢ـ لان فى التضييق قد يكون انقلاع عن المعصية ورجوع الى الله بالانابة اليه ، فهو لطف ـ أحياناً ـ وتوفيق ، يمنعه تعالى عن المتمرد العنود ، حيث العلم بعدم التأثير .

اتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار . واذا اراد بعبد شراً فأذنب ذنباً ، اتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها ، وهوقول الله عزوجل : «سنستدرجهم من حيث لايعلمون» . قال: بالنعم عند المعاصى.

وسئل عليه السلام عن الاستدراج ، فقال : «هوالعبديذنب الذنب فيملى له ويجدد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب ، فهومستدرج من حيث لايعلم» .

وفى رواية اخرى :قال : «هو العبد يذنب الذنب فتجدد له النعمة معه . تلهيه تلك النعمة عن الاستغفار من ذلك الذنب».

وقال : «كم من مغرور بما قدانعم الله عليه ؟! وكم من مستدرج بستر الله عليه؟! وكم من مفتون بثناء الناس عليه ؟!»[1] .

* * *

واليك من الآيات الكريمة مايخص مسألة « الاستدراج » اما بتصريح او تلويح :ـ

١ ـ قال تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين ـالاعراف : ١٨٢» .

الاملاء:الامهال .والكيد ـفى الآيةـيعنى حصيلته،تشبيهاًبمن يحاول الخداع. وفى الآية تصريح بأن الاستدراج على المعاصى انما يخص اولئك الذين كذبوا بآياته تعالى وسعوا فى آياته معاجزين .

٢ـ « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لايعلمون . وأملى لهم ان كيدى متين ـالقلم : ٤٤» . وهذه الاية ـبملاحظة سياقها ـأصرح فى الاختصاص المذكور .

١ـ الاحاديث مستخرجة من الكافى الشريف ج٢ ص٤٥٢ (الاصول) .

٣ـ « ولايحسبن الذين كفروا أن مانملى لهم خير لأنفسهم . انما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ـ آل‌عمران : ١٧٨» .

اللام‌فى «ليزدادوا» للعاقبة . اى كانت وفرة النعم عليهم وغفلتهم عن الآخرة مما تنتهى الى الازدياد من‌الاثم والاجرام .

٤ـ «ولقد أستهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ـالرعد :٣٢» . الاملاء هو‌الاستدراج عقوبة عاجلة .

٥ـ «فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ـالحج : ٤٤» .

٦ـ «و كأين من‌قرية أمليت‌لها وهى‌ظالمة ثم أخذتها والى المصير ـالحج: ٤٨» .

٧ـ «فلما نسوا ماذكروابه فتحنا عليهم ابواب كل‌شىء حتى اذافرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ـالانعام : ٤٤» .

٨ـ « ولاتعجبك اموالهم واولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق انفسهم وهم‌كافرون ـبراءة :٨٥» .هذه‌الارادةهى‌تكوينية، اخبار عن‌واقعية سوداء اكتسبوها لانفسهم بسوء اختيارهم .

٩ ـ « لايغرنك تقلب الذين كفروا فى‌البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ـ آل عمران : ١٩٧» .

١٠ـ «وامم سنمتعهم ثم يمسهم مناعذاب أليم ـ هود : ٤٨» .

١١ـ «فذرهم فى‌غمرتهم‌حتى حين. أيحسبون انما‌نمدهم به من‌مال وبنين ،

نسارع لهم فى الخيرات ؟! بل لايشعرون ـ المؤمنون : ٥٥» .

١٢ـ «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ـ الحجر :٣» .

١٣ـ «كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون ـ المرسلات : ٤٦» .

١٤ ـ « انهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً . فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ـ الطارق : ١٧» .

١٥ ـ « ولولا ان تكون الناس امة واحدة ـ (كافرة) ـ لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون .ولبيوتهم ابواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفـاً . وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ـ الزخرف : ٣٣ـ ٣٥» .

وذلك لان اكثرية الناس ذووا ايمان ضعيف ،وانما تبهرهم زبارج هـذه الحياة وزخارفها ، فاذا ماوجدوها خاصة بالكافرين لهب اكثرهم الى الكفر ونسوا الآخرة .

والآيات من هذا القبيل فى القرآن كثير ، ذكرنا منها نماذج عن البقية ،وهى فى مجموعها لاتتجاوز المئة آية .

الاستهزاء والخديعة

جاء فى القرآن تعابير : «الاستهزاء» و «السخرية» و «الخديعة» و « المكر » و « الكيد » . وانما هى افعال تنم عن قبح وسفاهة لايرتكبها الحكيم ، ومن ثم لما قال بنوا اسرائيل : «أتتخذنا هزوا ؟ ! » قال موسى ـ مستنكراً لهذه النسبة ـ : «أعوذ بالله ان أكون من الجاهلين ـ البقرة : ٦٧» .

وقد تأول العلماء لذلك تأويلات لطيفة وتخريجات ادبية بديعة ! ـ قال الامام جار الله

الزمخشري : والخدع : ان يوهم صاحبه خلاف مايريد به من المكروه . الامر الذي لايصح من الله ولامن المؤمنين .لان العالم الذي لاتخفى عليه خافيةلاينخدع. والحكيم الذيلايفعل القبيح لايخدع غيره . والمؤمنون وان جاز ان ينخدعوا لم يجزان يخدعوا ، الاترى الى قول الشاعر :

واستمطروامن قريش كل منخدع ان الكريم اذا خادعته انخدعا

فقدجاء النعت بالانخداع ولم يأت بالخدع !

ثم اخذ فيتأويل قوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون الاانفسهم ومايشعرون ـ البقرة : ٩» . وذكر وجوها ،منها : انيقال : كانتصورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالايمان وهم كافرون ، صورة صنع الخادعين . وصورة صنع الله معهم ـ حيث أمر باجراء احكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد شرار الكفرة واهل الدرك الأسفل من النار ـ صورة صنع الخادع . وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا امر الله فيهم فأجروا احكامهم عليهم [1].

قلت : في التعبير اولا بـ «يخادعون» ، و بـ «يخدعون» ثانياً ، نكتة لطيفة ، وهي : انهم يحاولون خداع الله والمؤمنين ، لكنهم لاينخدعون فتصبح محاولاتهم فاشلة ، اما حقيقة الخديعة فانها تقع بهم بالذات ، حيث انهم هم الذين ينخدعون بمايتوهمون من تأثير محاولاتهم الفاشلة .

انهم يدبرون المكائد بالمسلمين ويبطنون كفراً في ظاهر اسلام ، زاعمين انهم بهذه الاساليب الجهنمية سوف يعبرون بأهدافهم على عقول المؤمنين . غير ان الله يفضحهم بين آونة واخرى وتصبح مكائدهم تفشل واحدة تلو اخرى . اما عيشتهم فعيشة قلقة مضطربة ، « يحسبون كل صيحة عليهم ـ المنافقون : ٤ » . اما المؤمنون ففي هناء من العيش آمنين مطمئنين . كما ان احكام الاسلام برمتهاتجرى

١ـ تفسير الكشاف ج١ ص٥٦ـ٥٧ ط بيروت .

على المنافقين وعلى المؤمنين على سواء ، في حين ان المؤمنين يقومون بها عن يسر ورحابة صدر ،ويقوم المنافقون بهاعن كراهيةوعن مشقةشديدةحيث فقدالعقيدة الميسرة للتكاليف . «واذاقاموا الى الصلاة قاموا كسالى ـ النساء : ١٤٢» . «ولا يأتون الصلاة الاوهم كسالى ولاينفقون الاوهم كارهون ـبراءة : ٥٤» .

والخلاصة :انالمنافق المراوغ يحاول الخداع بالمؤمنين ، ويقوم بأساليب هويزعمها خداعة ، غيران الواقعية تعاكسه ويكون هوالمنخدع بالذات :ـ

اولا: لاندسائسه تفتضح على الملا ويعود وبالها عليه فينهاية المطاف ،«ولا يحيق المكر السيء الابأهله ـفاطر:٤٣».

وثانياً : لانه متحمل صعوبة التكليف معفقد العقيدة الميسرة .

وثالثاً:عيشتهالقلقةلايغمضجفنيهعنارتياحنفسيابداً،خوف الفضحوانكشاف واقعه الخبيث .

* * *

وهكذا صح التعبير بالاستهزاء لهم ، انهم يحاولون الاستهزاء بالمؤمنين ، غيرانالله هوالذى يستهزىءبهم باقرارهم على اسلامهم الظاهرى فيحملهم تكاليف الاسلام الشاقة عليهم بالذات ، في حين ارعابهم بين حين وآخر بفضح دسائسهم ومكائدهم بين الاشهاد ، وجعلهم فى اضطراب نفسى دائم ، وفىالآخرة لهمعذاب أشد وأبقى .

فالتعبير بالاستهزاءمنجانبه تعالىتعبير مجازى ،رعاية للمشاكلة اللفظية التى هى منفنون البديع ، ولانه تعالى يفعل بهم مايشبه فعل المستهزئين ، حيث يدعهم يخبطون علىغير هدى، فىطريق لايعرفون غايته ،واليد الجبارة تتلقفهم فىنهايته ، قال سيد قطب : كالفئران الهزيلة تتواثب فى الفخ ، غافلة عن المقبض المكين. وهذا هوالاستهزاء الرعيب ، لاكاستهزائهم الهزيل الحقير.

« واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انامعكم انما نحن مستهزؤن. الله يستهزىء

بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ـ البقرة: ١٥».

انها معاكسة طبيعية تجابههم في اشد وقعتها « خذ الغايات واترك المبادىء » انه تعالى وان كان لايخدع احداً ولايستهزىء باحد ، لكنه يرد كيد الخائنين في نحورهم ويجعل من الواقعية بحيث تعاكس اهدافهم وتخيب آمالهم الى ماينا قضها في نهاية المطاف .

قال الزمخشري : معنى استهزاءه تعالى بهم انزال الهوان والحقارة بهم ، لان المستهزىء غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وادخال الهوان والحقارة عليه وقد كثر التهكم في كلامه تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء امرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون . وايضاً فقد سمى جزاء الاستهزاء باسمه ، كقوله : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى : ٤٠» وقوله : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ـ البقرة : ١٩٤» . فان قلت : كيف ابتدىء قوله : « الله يستهزىء بهم» من غير عطف على كلام قبله ؟ قلت : هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة . وفيه أن الله عزوجل هو الذي يستهزىء بهم الاستهزاء الأبلغ ، الذي ليس استهزاؤهم اليه باستهزاء . ولايؤبه له في مقابلته ، لماينزل بهم النكال ويحل بهم من الهوان والذل[1] .

* * *

ومن ثم جاء تفسير قوله تعالى: «ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ـ آل عمران : ٥٤» في آية اخرى بهدم بنيانهم من الأساس ، تجاه ماقاموا به من دسائس وخيانات ، قال تعالى : «قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ـ النحل : ٢٦» اى عاكستهم الواقعية، اذ «ومايمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون ـ الانعام : ١٢٣» . « ولايحيق المكر السيء الا بأهله ـ فاطر : ٤٣ » . وقال تعالى موضحاً لموقفه مع المنافقين الماكرين : «سيصيب الذين اجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ـ الانعام: ١٢٤» .

١ـ الكشاف ج١ ص٦٦ ـ ٦٧

وانت اذا قارنت بين قوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد ـ النحل : ٢٦» . وقوله : «وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً ـ الرعد : ٤٢» عرفت ـ بوضوح ـ ان المقصود من مكره تعالى هى المعاملة بالمثل بما يناقض اهدافهم ويهدم اساس بنيانهم المنهار ، وكانت التسمية من باب التشاكل فى التعبير لاغير.

وكذلك «كيده تعالى» لايعدو الجزاء بمماثلة اعمالهم «انهم يكيدرن كيداً وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ـ الطارق : ١٥ـ١٦» انهم يدبرون المكائد المفضوحة العائد وبالها على أنفسهم بالذات، فربما كان تعالى يستدرجهم بالنعم والموفقية فى شىء من دسائسهم ، غير ان الله سوف يأخذهم أخذ عزيز مقتدر «أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ! ـ الطور : ٤٢» . «ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين ـ الانفال : ١٨» . «واملى لهم ان كيدى متين ـ الاعراف : ١٨٣» و«القلم : ٤٥» .

* * *

وقس على ذلك سائر الآيات التى جاء فيها ذكر الخداع والاستهزاء والسخرية والكيد والمكر ، منسوبة الى الله سبحانه. فانها تخرج جميعاً على نسق واحد حسبما تقدم.

قال تعالى : «ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ـ النساء : ١٤٢» اى يفعل بهم فعل المخادع حسبما تقدم فى كلام الزمخشرى .

وقال تعالى : «فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ـ براءة : ٧٩». «قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ـ هود : ٣٨» . وهذه السخرية المماثلة يفسرها قوله تعالى : «فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن ـ الانبياء : ٤١» . فقد كان الكفار يستهزؤن من المؤمنين ، قيامهم بتكاليف واعمال عبثية ـ حسبما كانوا يرون ـ لكنهم اصبحوا موضع سخرية المؤمنين بما فاجأهم من العذاب المهين.

وقال تعالى : «كذلك كدنا ليوسف ـ يوسف : ٧٦» . اى دبرنا له اسباب النجاح والموفقية بماكان يخفى على اخوته ،وقدحاولوا ان يكيدوا به كيداً ،غير ان محاولتهم فشلت فاصبحوا من الصاغرين .

وقال تعالى: «ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون ـ النمل : ٥٠» .اى دبروا وقدروا ودبرنا وقدرنا وهم لايشعرون ان لهم الصفقة السفلى الخاسرة، وان يدالله هى العليا . «قل الله اسرع مكراً ـ يونس : ٢١» . « ومكر اولئك هو يبور ـ فاطر: ١٠ » . «ولايحيق المكر السيء الا بأهله ـ فاطر : ٤٣» .

وقوله تعالى : «وكذلك جعلنا فى كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها ـ الانعام : ١٢٣» . اللام فيها للعاقبة . اى ان المجتمعات البشرية غير المهذبة تجعل من الناس طبقة اكابر هم يستغلون موارد طبقة الاصاغر بحيل وتدابير شيطانية ظالمة ، غير ان حياة الظلم بتراء ، لايدوم معها عيش هنيء ويوشك ان يدور عليهم الرحى فينقلبوا هالكين . ومن ثم جاء تعقيب الآية بقوله : « ومايمكرون الا بأنفسهم ومايشعرون» ثم قال :«سيصيب الذين اجرموا صغار عندالله وعذاب شديد بماكانوا يمكرون ـ الانعام : ١٢٣ـ ١٢٤» .

وقدتقدمت الآية برقم : ٥٩ ضمن آيات الهداية والاضلال . ص٢٢٦ .

وقوله تعالى :« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ـ الانفال : ٣٠ »اى يدبرون ويدبر الله، غير ان يدالله فوق ايديهم. «وقد مكروا مكرهم وعندالله مكرهم ـ ابراهيم : ٤٦» اى مكشوف لديه لاتخفى عليه خافية . اما تدابيره تعالى فانها خافية عليهم وسوف تفاجؤهم وهم لايشعرون. «أفأمنوا مكر الله؟! فلايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ـ الاعراف : ٩٩» .

الختم والطبع

التعبير بالختم او الطبع على القلوب ، اوماشاكلهما من تعابير ـ وهى كثيرة ومتنوعة فى القرآن ـ تعبير كنائى ، تشبيها لتلكم القلوب القاسية الجافة بصورة صلدة مظلمة جامدة. فلاتصل اليها حقيقة هدى ولاينفذ فيها بصيص نور . كأن بينها وبين ذلك ضخامة حجاب ،

١ـ قال تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ـ البقرة : ٧».

٢ـ وقال : «قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به ـ الانعام: ٤٦» .

٣ـ وقال : «أفرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ـ الجاثية : ٤٥» .

قال الزمخشرى : «لاختم ولاتغشية ثم على الحقيقة ،وانماهو من باب المجاز. ويحتمل ان يكون من كلا نوعيه (اى نوعى المجاز) وهما الاستعارة والتمثيل .اما الاستعارة فان تجعل قلوبهم ـ لان الحق لاينفذ فيها ولايخلص الى ضمائرها ، من قبل اعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده ، واسماعهم لانها تمجه وتنبو عن الاصغاء اليه ، وتعاف استماعه ـ كأنها مستوثق منها بالختم . وابصارهم ـ لانها لاتجتلى آيات الله المعروضة ،ودلائله المنصوبة، كما تجتليها اعين المعتبرين المستبصرين ـ كانما غطى عليها وحجبت ، وحيل بينها وبين الادراك . واما التمثيل ، فان تمثل حيث لم يستنفعوا بها فى الأغراض الدينية التى كلفوها ، وخلقوا من اجلها ،بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ، بالختم والتغطية [١] .

١ـ الكشاف ج١ ص٤٨-٤٩ .

وقال البيضاوى : الختم الكتم ، سمى به الاستيثاق من الشيء بضرب الخاتم عليه ، لانه كتم له والبلوغ آخره ، نظراً الى انه آخر فعل يفعل فى احرازه . والغشاوة فعالة من غشاه اذا غطاه ، بنيت لما يشتمل على الشيء ، كالعصابة والعمامة .

قال: ولا ختم ولا تغشية على الحقيقة ، وانما المراد بهما : أن يحدث فى نفوسهم هيأة تمرنهم على استحباب الكفر والمعاصى واستباح الايمان والطاعات ، بسبب غيهم وانهماكهم فى التقليد ، واعراضهم عن النظر الصحيح، فتجعل قلوبهم بحيث لا ينفذ فيها الحق ، واسماعهم تعاف استماعه ، فتصير كأنها مستوثق منها بالختم ، وابصارهم لا تجتلى الآيات المنصوبة لهم فى الانفس والآفاق ، كما تجتليها اعين المستبصرين ، فتصير كأنها غطى عليها وحيل بينها وبين الابصار . وسماه ـ على الاستعارة ـ ختماً وتغشية . اومثل قلوبهم ومشاعرهم المؤوفة بها ، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها ، ختماً وتغطية .

قال : وقد عبر عن احداث هذه الهيأة بالطبع فى قوله تعالى: «اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ـ النحل : ١٠٨». وبالاغفال فى قوله تعالى: «ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا ـ الكهف: ٢٨». وبالاقساء فى قوله تعالى :«وجعلنا قلوبهم قاسية ـ المائدة : ١٣» .

وقال ـ فى وجه نسبة ذلك الى الله ـ : وهى من حيث ان الممكنات بأسرها مستندة الى الله تعالى، واقعة بقدرته ، اسندت اليه . ومن حيث انها مسببة مما اقترفوه ـ بدليل قوله تعالى : «بل طبع الله عليها بكفرهم ـ النساء : ١٥٥ » . وقوله تعالى : «ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ـ المنافقون :٣» ـ وردت ناعية عليهم شناعة صفتهم ووخامة عاقبتهم [١] .

* * *

وهكذا الآيات جاء فيها ذكر الطبع على القلوب، تعبيراً آخر عن نفس تلك

١ـ انوار التنزيل واسرار التأويل للامام البيضاوى ج١ ص٧٠ـ ٧٢

الحالة الجافة الجافية ،التى تعرض نفوس اولئك الجاحدين للحق المعاندين له ، ممن أصروا على منابذة طرق الهدى والصلاح ،وصمدوا على العتو والاستكبار.. انها حالة قسوةهم عملوا فـى تكوينها وتربيتها فى نفوسهم العاتية ، مما خطيئاتهم اغرقوا .

٤ـ قال تعالى : «وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـبراءة : ٨٧» .

٥ ـ وقال : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـالمنافقون : ٣» .

٦ـ وقال : «وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون ـبراءة : ٩٣».

٧ـ وقال : «كذلك نطبع على قلوب المعتدين ـيونس : ٧٤» .

٨ـ وقال : «كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ـالاعراف : ١٠١» .

٩ـ وقال : «كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون ـالروم :٥٩» .

١٠ـ وقال : «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ـغافر : ٣٥» .

١١ـ وقال :«اولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم ـالنحل : ١٠٨» .

١٢ـ وقال : «اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم ـمحمد : ١٦» .

١٣ـ وقال :«بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الاقليلا ـ النساء: ١٥٥».

١٤ـ وقال : «ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون ـ الاعراف : ١٠٠» .

تلك آيات الطبع ، وقد اسنده تعالى الى نفسه ، نظراً لأن الله تعالى هو الذى أقدرهم على ذلك ،وجعل لهم الاختيار فى الرفض والقبول، تحقيقاً لحكمة التكليف والاختبار ، حسبما تقدم تفصيله . وفى الحقيقة انه اخبار عن واقعية سوداء هم عملوا فى تكوينها وفى تمهيد اسباب وجودها ، بما اعرضوا عن ذكر الله ونسوا الآخرة . وفى الآيات مايشف عن هذا الجانب السلبى فى ذوات انفسهم ، كان هو السبب

العامل لتكوين الحالة المذكورة .

* * *

وعلى نفس المنهج تعابير أخر ، كالرين على القلوب، والأكنة عليها، والحؤول دونها ، وتقليبها ، واغفالها ، وتعميتها ، وما اشبه من مثل كونها غلفاً او مقفلة او محتجبة اومريضة اوزائغة . . . الخ ، كلها تعابير عن تلكم القسوة والجفاء التى انطوت عليها قلوب جاحدة ماتت حيويتها ووقفت نبضاتها عن الفعالية والادراك الانسانى النبيل . ومن ثم جاء التعبير بالاموات وبالخشب المسندة من الجماد ايضاً، فضلا عن التعبير عنهم بالحيوانات البهم : « كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ـ المدثر : ٥١» .وفيما يلى عرض نماذج من تلكم الآيات مضافة الى ماسبق :ـ

١٥ـ قال تعالى :«وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقراً ـ الانعام ـ ٢٥» .

١٦ـ «والاسراء: ٤٦» .

١٧ـ وقال: «انا جعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفى آذانهم وقراً ـ الكهف: ٥٧» .

والدليل على أنها تعابير كنائية واخبار عن واقعية سوداء هم اكتسبوها ، قوله تعالى ـ حكاية عن انفسهم :ـ

١٨ـ :«وقالوا قلوبنا فى اكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون ـ فصلت: ٥» . هذه الاية مسبوقة بقوله تعالى : «فاعرض اكثرهم فهم لا يسمعون» .وملحقة بقوله: «قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد . فاستقيموا اليه واستغفروه . وويل للمشركين ـ ٦» . فلولا انه من صنيع انفسهم بالذات لما صح تكليفهم ولاتوجيه الملامة والتوبيخ اليهم ، لو كانوا غير

قادرين على الايمان واتيان الاعمال الصالحة !

١٩ـ وهكذا قوله تعالى . « وقالوا قلوبنا غلف » تعبير تعنتى ، تهكماً بمقام الانبياء العظام ، ومن ثم جابههم تعالى بقوله: «بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ـ البقرة : ٨٨» .

٢٠ـ وقال : « فبما نقضهم ميثاقهم، وكفرهم بآيات الله ،وقتلهم الانبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف (تهكماً) بل طبع الله عليها بكفرهم، فلايؤمنون الاقليلا. وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناعظيماً ،وقولهم اناقتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله... النساء : ١٥٦» .

هذه الاية عددت كبائر آثام ارتكبوها، مضافة الى تهكمهم اللئيم وعقيدتهم الكاذبة فى الجبر ـ كاخوانهم الاشاعرة ـ ومن ثم ردعليهم تعالى بأنها الخطيئات والاجرامات حالت بينهم وبين نفوذ دعوة الحق فى قلوبهم العاتية .

٢١ـ وقال تعالى : «واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه ـ الانفال : ٢٤» . وقد تقدم (ص٢٣٥ ـ ٢٥١) الكلام فى هذه الآية بتفصيل . ونظيرتها الآية التالية :

٢٢ـ «وما يشعركم انها اذاجاءت لايؤمنون .ونقلب أفئدتهم وابصارهم (اى نحول بينهم وبين ادراكاتهم الانسانية النبيلة ليتحولوا الى جمادات اوحيوانات بهم) كما لم يؤمنوا به اول مرة (فكان اعراضهم عن الحق وعنادهم على الغى والضلال هو السبب لهذا الخذلان والحرمان عن رحمته تعالى ولطفه العميم) ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ـ الانعام : ١١٠» .

٢٣ـ وقوله تعالى : «ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً ـ الكهف: ٢٨» ايضاً خذلان وحرمان عن فيوض قدسه تعالى ، عقوبة عاجلة

استوجبوها لانفسهم بماكسبت أيديهم من آثام و كبائر .

٢٤ـ وهكذا قوله تعالى : «ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ـالحج : ٤٦» تعبير آخر عن الاغفال المذكور . وفى الحقيقة اخبار عن غفلة مسببة عن جهل وعناد .

٢٥ـ وقال تعالى: «انهم كانوا قوماً عمين ـالاعراف: ٦٤» نظيرة آية الحج المتقدمة .

٢٦ـ وقال :«فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها ـالانعام: ١٠٤» . دليلا على ان هذا العماء من فعل انفسهم واختيارهم بالذات . والآيات جاء فيها التعبير بعمى القلوب كثيرة : (المائدة : ٧١). (فصلت : ١٧ ـ ٤٤). (النمل. ٦٦) . (الاعراف: ٦٤) . (الاسراء : ٧٢) . (فاطر :١٩) :البقرة :١٨و١٧١) . (يونس : ٤٣) . (النمل :٨١) . (الروم : ٥٣) . (الزخرف : ٤٠) .وغيرهن من آيات .

٢٧ـ قال تعالى : «واما الذين فى قلوبهم زيغ ـ آل عمران : ٧» اى لهم ميل فى الانحراف ، كأنهم جبلوا على معاكسة الفطرة ،بسبب ما ألفوه من الفساد و ارتكاب الشرور . اذما اسرع ماتنقلب طبيعة الانسان عن فطرته الاولى الى طبيعة ثانية ، اذا ما استرسل بنفسه فى أجواء مظلمة وانهمك فى الاجرام والفساد فى الارض . فيصبح وهو متخلق بأخلاق ربما كانت غريبة عن خلقه الأصيل الذى فطره الله عليه .

ويعبر عن هذا الانحراف الخلقى بمرض القلب ، تشبيها للانحراف الروحى بالانحرافات الجسمانية ، كما تقدم .

٢٨ـ «فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ـالصف : ٥» اى فلما أخذت نفوسهم فى الانحراف عن جادة الهدى والصلاح ، وكان ذلك على اثر لجاجهم مع الحق ،

وصمودهم على رفض الدعوة ، خذلهم الله وتركهم فى ظلمات غيهم يعمهون ، اذ لم يك ينفعهم نصح الناصحين .

٢٩ـ وعلى هذا النمط جاء قوله تعالى: «فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ـ البقرة : ١٠» . وهكذا الايات التالية .

٣٠ـ «فترى الذين فى قلوبهم مرض ـ المائدة : ٥٢» اى ذوى مرض روحى الذى هو تعبير عن ذلك الانحراف الخلقى، المعاكس مع متجه الانسانية الكريمة.

٣١ـ «اذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض: غر هؤلاء دينهم !ـ الانفال: ٤٩» . هذا من عطف العام على الخاص ، اى من على شاكلتهم من ذوى الانحرافات الخلقية الرذيلة ، المنافية مع أصالة المجتمعات الانسانية الكريمة التى كانت وفق الفطرة الاولى النزيهة .

٣٢ـ «واما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم ـ براءة : ١٢٥» اى ان هذا الانحراف الذى اكتسبوه لأنفسهم ليأخذ بهم من حالة سيئة الى أسوأ وهكذا الى غير نهاية . فلا يزالون يتخبطون فى مفاسد اخلاقية وفى أجواء مظلمة ، من فاسد الى أفسد ومن ظلام الى اظلم ، استمراراً مع الأبدية .

٣٣ـ «ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة (امتحاناً) للذين فى قلوبهم مرض (فيظهر الله اضغانهم) ـ الحج : ٥٣» . وذلك لان تسويلات الشيطان انما تؤثر فى عقول من كان على شاكلته ، ان الطيور على اشكالها تقع .

٣٤ـ «أفى قلوبهم مرض (قديم) ام ارتابوا (حالياً) ؟ـ النور : ٥٠» . اى هذا الانحراف الذى أبدوه كان عن منشأ قديم انطوت عليه قلوبهم القاسية، ام كان شيئا

عرض لهم لشكوك اعترضتهم اثناء المسير ؟

وهكذا بقية الآيات عبرت عن تلك الحالة النفسية المنحرفة الجافة الجافية بالمرض ، فى سورة الاحزاب :١٢و ٣٢و ٦٠ . وسورة محمد :٢٠و ٢٩ . وسورة المدثر : ٣١ .

وكذا سائر الآيات التى عبرت بالرين (المطففين : ١٤) . او فاصل حجاب (فصلت : ٥) و(الاسراء : ٤٥) . اوعلى قلوب أقفالها (محمد : ٢٤) . وماشابه . كلها تعابير كنائية عن معنى واحد اوضحه قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة اواشد قسوة ـ البقرة : ٧٤» . وقوله : « ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ـ الانعام : ٤٣» . وقوله : « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ الحديد : ١٦» . اى طال امهالهم فى التنعم بهذه الحياة السفلى . وغيرهن من آيات .

مسألة القضاء والقدر

من المسائل الكلامية العويصة هى مسألة « القضاء والقدر » . واختلفت فيها انظار ارباب الكلام من ذوى المشارب المختلفة فى الجبر والاختيار . وقد اخذت الأشاعرة ـ بالذات ـ فى هذه المسألة طريقها الى الجبر المحض ، وزعموا من القضاء والقدر هو الحتم والالجاء. ومن ثم اسندوا افعال العباد كلها خيرها وشرها ، صلاحها وفسادها حتى الايمان والكفر ، والاطاعة والعصيان ، الى الله سبحانه ، وانه الفاعل لها حقيقة وان كان المباشر فى الظاهر هم العباد انفسهم . ولذلك صحت تسميتهم بالقدرية انطباقا عليهم بالحديث المأثور عن النبى صلى الله عليه وآله : قال : « لعن الله القدرية على لسان سبعين نبياً ، قيل : من القدرية ، يارسول الله ؟ قال : الذين يعصون الله تعالى ، ويقولون : كان ذلك بقضاء الله وقدره [1] ».

١ـ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضى عبدالجبار ص٧٧٥

والايمان بالقدر بهذا المعنى الباطل ، هى عقيدة عربية جاهلية امتدت حتى مابعد ازدهار الاسلام، ورغم مكافحة النبى ﷺ والائمة الهداة من بعده لهذه العقيدة الجاهلية الاولى .قال الامام الحسن بن على ـ عليهما السلام ـ: «بعث الله محمداً الى العرب وهم قدرية يحملون ذنوبهم على الله تعالى[1]». ودليلا على ذلك قولة المشركين :«لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ـ الانعام: ١٤٨».ومن ثم كذبهم الله فى هذه العقيدة الفاسدة المخالفة لصريح الوجدان ، قال تعالى ـ تعقيباً على قولتهم تلك ـ : « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن ، وان انتم الا تخرصون» .

والغريب ان الاشاعرة استسلمت قيادتها ـ بكل جرأة وصراحة ـ لهذه العقيدة المنافية للفطرة ولتعاليم الاسلام النزيهة ! قال امامهم المتفلسف : «اعلم ان افعال العباد امور ممكنة الوجود . والممكن لايترجح وجوده على عدمه الا بسبب» . ثم أخذ فى الاستدلال على وجوب كون هذا السبب ضرورى الوجود، والا لزم المحال (التسلسل الباطل) . وبذلك حاول اثبات انتهاء افعال العباد فى علل وجوداتها وفى سلسلة الحاجة ، الى ذاته المقدسة الواجب الوجود . وأخيراً قال : « فثبت : ان افعال العباد ، بقضاء الله تعالى وقدره ، وان الانسان مضطر فى اختياره ، وانه ليس فى الوجود الا الجبر» . هذا نص عبارته فى باب القضاء والقدر من كتابه « المباحث المشرقية[2] » .واما «تفسيره الكبير» فقد ملاه باحكام قواعد الجبر على اصول مذهب ابى الحسن الأشعرى واتباعه الاشاعرة[3] .

* * *

١ـ راجع : اللطائف الغيبية للمير احمد العلوى تلميذ الميرمحمد باقر داماد ص٢٠١

٢ـ الفصل الخامس من المجلد الثانى ص٥١٦ـ ٥١٧

٣ـ وقد بالغ فى ذلك حتى قال بشأن سورة الانعام : ان هذه السورة من اولها الى آخرها تدل على صحة قولنا ومذهبنا (فى الجبر) . التفسير الكبير ج١٣ ص٢٢٧

اما الفلاسفة الاسلاميون الكبار فقدفسروا مسألة«القضاءوالقدر» بعلمه تعالى الازلى بالأشياء قبل وقوعها . قالوا : القضاء هو علمه الاجمالى بالاشياء وبالامور الجارية عبر الوجود . والقدر هوعلمه التفصيلى بذلك ، اى علمه تعالى بتفاصيل ماسيقع من الذوات والافعال [1] .

قالوا: ولم يكن العلم القديم علة لحدوث الاشياء، لاالاجمالى منه ولا التفصيلى حسبما فصلوه وبينوه دفعاً لشبهة الجبر .

وفسر بعضهم « القضاء » بعلمه تعالى بالأشياء ، على ماينبغى ان يكون عليه الوجود ، حتى يكون على احسن نظام وابدع تشكيل. وهو المسمى عندهم بالعناية الربانية ، التى هى مبدء فيوضاته القدسية ، المفاضة على الموجودات من حيث جملتها على احسن وجه واكمل صورة . و«القدر» عبارة عن خروج تلك الاشياء الى عالم « الوجود العينى » بأسبابها وعللها ، وفق الوجه الذى قرره القضاء القديم [2] .

قال الفيلسوف الحكيم صدر الدين الشيرازى ـ بصدد تفصيل علمه تعالى بالاشياء فى مراتبه الثلاث ،وهى «العناية» و«القضاء»و«القدر» ـ: أما «العناية» فهى علمه تعالى بالأشياء فى مرتبة ذاته المقدسة، علماً مقدساً عن شوب الامكان والتركيب فهى عبارة عن وجوده ،بحيث ينكشف له الموجودات الواقعة فى عالم الامكان على نظام أتم . مؤديا الى وجودها فى الخارج ، مطابقاً لها اتم تأدية ، لاعلى وجه القصد والروية . وهو علم بسيط ، واجب لذاته ، قائم بذاته . خلاق للعلوم التفصيلية العقلية والنفسية . «على انها عنه ، لاعلى انها فيه !» [3] .

١ـ اللطائف الغيبية ص١٩٧ـ ١٩٨

٢ـ بنقل العلامة المجلسى عن شرح المواقف . بحار الانوار ج٥ ص١٢٨

٣ـ فى هذه الجملة الاخيرة نكتة دقيقة .هى رد على مزعومة الاشعرى فيما زعم ان علمه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته حالة فيها ومقترنة بها، فلزمه القول بتعدد القدماء .

واما «القضاء ـ ويقال له : ام الكتاب» فهو . ـ عندهم ـ عبارة عن وجود الصور العقلية لجميع الموجودات ، فائضة عنه تعالى ـ على سبيل الابداع ـ دفعة بلا زمان. قال : واما عندنا فعبارة عن صور علمية لازمة لذاته المقدسة ، بلا جعل ولاتأثير ولاتأثر، وهي صور قديمة بالذات باقية ببقاءالله .

واما « القدر» ـ وهو: لوح المحو والاثبات ـ فهو عبارة عن وجود صور الموجودات في العالم النفسي السماوي ، على الوجه الجزئي ، اما انطباعاً ـ كما عليه المشائيون ـ او على سبيل المظهرية ـ كما عليه الاشراقيون ـ مطابقة لما في موادها الخارجية الشخصية ، مستندة الى اسبابها وعللها ، واجبة بها ، لازمة لاوقاتها المعينة وامكنتها الخاصة .

قال : و«العناية» تشمل «القضاء» ، كماان «القضاء» يشمل «القدر» [1] .

* * *

واما المتكلمون من اصحابنا الاماميين ـ قدس الله ارواحهم ـ فقد أوضحوا من هذه المسألة احسن ايضاح، وعرضوها على صعيد عقلي نزيه ، مستعينين بدلالة الكتاب المجيد والسنة القطعية ،و كلمات ائمة الهدى علماء اهل البيت ـ عليهم السلام ـ فجاءت المسألة مدللة في أبدع صورتها اللامعة ، يتلقاها ـ بلاشك ـ أذهان متفتحة وعقول سليمة في رحابة وارتياح ، واليك اجمالياً : ـ

* * *

القضاء ـ في اللغة ـ جاء بمعنى الأمر الحتم والحكم الفصل ، النافذ نفوذاً قاطعاً يكون هو منتهى الشيء فلاتعلل بعده . قال الزهري : القضاء في اللغة على وجوه مرجعها الى انقطاع الشيء وتمامه ، وكل ما احكم عمله اوأتم او ختم

١ـ راجع : كتاب «الاسفار الاربعة» ج٦ ص٢٩٠ ـ٢٩٣ . وراجع ـ ايضاً ـ فيما افاده ـ قدس سره ـ في شرح عنايته تعالى ورحمته الواسعة لكل شيء بحسب القضاء الرباني والتقدير الالهي . الفصل الاول من الموقف الثامن ج٧ ص٥٥ ـ ٥٧

اوأدى اداءاواوجب اوأعلم اوأنفذ اوأمضى فقدقضى.

فالتكليف اذا كان الزاماً كان قضاء . ومنه قوله تعالى : « وقضى ربك ان لاتعبدوا الاياه وبالوالدين احساناً ـالاسراء : ٢٣» .

وكذا حكم القاضى قضاء ، لكونه الفصل القاطع للدعوى. ومنه قولهتعالى «ثم لايجدوا فىانفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ـ النساء : ٦٥» .

وهكذا الاخبار الحتمى والاعلام بشىء يقينى لامرد له ـايضاً ـقضاء . ومنه قوله تعالى : «وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض ولتعلن علواً كبيراً ـالاسراء: ٤». وقوله :«وقضينا اليه ذلك الامراندابر هؤلاء مقطوع مصبحين ـالحجر : ٦٦» .

وكذلك انتهاء الأجل المضروب قضاء. ومنهقوله تعالى : «فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ـالقصص : ٢٩» وقوله: «هوالذى خلقكم منطين ثم قضى أجلا ـالانعام : ٢» اىعين اجلا محدداً لاينقص ولايزيد .

ومن ذلك سمى الموت قضاء ، اذبه ينتهى أمد العمر انتهاء قاطعاً لامرد له . ومنه قوله تعالى : «فوكزه موسى فقضى عليه ـالقصص : ١٥» .وقوله : «فمنهممن قضى نحبه ومنهم منينتظر ـالاحزاب : ٢٣» . وقوله : «يامالك ليقض علينا ربك ـالزخرف : ٧٧» اى بالموت .

وايضاً فكل أمر نافذقطعى لاتعلل فيهولاتريث هوقضاء، وهكذا العمل المبرم لايقف فىوجهه شىء قضاء . ومنه قوله تعالى : « واذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ـالبقرة : ١١٧» . وقوله : «فقضاهن سبع سماوات ـ فصلت : ١٢» اىانفذ ارادته فى جعلها سبعاً ، اواتم خلقهن كذلك . وكذا الحكم النافذ تشريعاً كقوله تعالى : «وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذا قضىالله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ـالاحزاب : ٣٦».

ومنه قضاء الحاجة اى انفاذها ، كقوله تعالى : «الا حاجة فى نفس يعقوب

قضاها ـ يوسف : ٦٨» .

وكذلك الانتهاء من أمر الشيء فلم تعد لصاحبه حاجة فيه ، كقوله تعالى : «فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ـ الاحزاب :٣٧» . ومنه قوله تعالى ـ ايضاً ـ: «فاذا قضيتم مناسككم ـ البقرة : ٢٠٠» .وقوله : «فاذا قضيتم الصلاة ـ النساء :١٠٣» اى اتممتموها كملا وفرغتم منها .

ويتخلص معنى «القضاء» فى « نفاذ الامر والانتهاء منه حتمياً » .

اما القدر ـ بفتحتين ـ فهو بمعنى تقدير الشيء والتعرفة الى كنهه وحدوده من زمان ومكان وسائر الجهات المحددة لوجود الشيء . ومنه التعريف الى هندسة الشيء والعلم بالظروف والاجواء المؤاتية له ، وشرائط وجوده كماً وكيفاً وجهة وغيرها. الأمر الذى يقتضى احاطة بخصوصيات الشيء وجهاته المكتنف بها ، سواء أكان عملا يريد ايجاده ام كلاماً يريد النطق به ام حكماً يريد انفاذه ام تكليفا يريد تشريعه فاذا عرف جهاته وملابساته وموقعيته من زمان ومكان وسائر الاحوال ، فقد قدره تقديراً صالحاً للنفاذ .

ومنه قوله تعالى : «وقدر فيها اقواتها فى اربعة أيام ـ فصلت : ١٠» . وقوله: «انه فكر وقدر ـ المدثر : ١٨» . وقوله : « والذى قدر فهدى ـ الاعلى : ٣» . اى قدر الاشياء تقديراً فهداها على قدر استعدادها وحظها من عالم الوجود.

وقوله تعالى :«والقمر قدرناه منازل ـ يس : ٣٩» اى جعلنا له منازل على قدر معلوم . و كذا قوله : «وخلق كل شيء فقدره تقديراً ـ الفرقان : ٢» اى جعله على نمط خاص وعين شرائطه ومبلغ استعداده من حظ الوجود . وهو الذى نعبر عنه بالهندسة ، اى هندسه هندسة كاملة .

ومنه ليلة القدر التى يفرق فيها كل امر حكيم ،اذ فيها تقدر الأشياء التى ستجرى طول ذلك العام . « والله يقدر الليل والنهار ، المزمل : ٢٠ » فى تعاقبهما وطولهما وقصرهما على مر الايام والدهور . وهكذا قوله :«قدرنا فيها السير ـ سبأ : ١٨» اى

تعينت فيها مقادير السير ليل نهار ،

واما قوله تعالى : «الا امرأته قدرنا انها لمن الغابرين ـ الحجر : ٦٠ » . فقد تقدم ان المعنى : علمنا من شأنها انها من الباقين الهالكين .

ويتلخص معنى «القدر» فى «تقدير الشيء وهندسته هندسة تامة» .

* * *

وعلى ضوء هذا البيان نستطيع تخليص القول فى مسألة القضاء والقدر بما يلى :

«انه تعالى اذا تعلقت ارادته بخلق شيء وتكوينه او تشريع حكم ونفاذه ، فانه يقدره اولا تقديراً ، ثم يقضى بوجوده وينفذه تنفيذاً» . ومن ثم فكان الأجدر ان يقال القدر والقضاء . لان القدر ـ على هذا البيان ـ متقدم على القضاء والنفاذ .

وعليه فقضاء الله بالنسبة الى افعاله الخاصة ، هو خلقها وايجادها تكويناً : «اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون ـ آل عمران : ٤٧» . وبالنسبة الى افعال العباد ، هو امره والزامه تكليفاً : «وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ـ الاسراء : ٢٣ » اى أمر تكليفاً واوجب ذلك . «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ـ الاحزاب : ٣٦» . اى حكم وشرع . فالمؤمن تجاه احكام الشريعة مستسلم لا رأى له سوى الطاعة والامتثال . وهذا لا يعنى سلب قدرته وانما هو بعث على التسليم المحض .

وهكذا قدره تعالى هو تقديره لما يريد انفاذه من خلق او تشريع . اى علمه بما يحتوى عليه من صلاح او فساد ، فيوجده تكويناً او يأمر به تكليفا ، وفق ذلك الملاك الواقعى الكامن وراء الاشياء والتكاليف .

قال الشيخ ابو عبدالله المفيد ـ عميد المذهب ـ : «والوجه عندنا فى القضاء والقدر ، ان لله تعالى فى خلقه قضاء وقدراً . وفى افعالهم (افعال العباد) ايضاً قضاء

وقدراً معلوماً . ويكون المراد بذلك : انه قضى فى افعالهم الحسنة بـالأمر بها ، وفى افعالهم القبيحة بالنهى عنها، وفى انفسهم بالخلق لها ،وفيما فعله فيهم بالايجادله.

والقدر منه ـ سبحانه ـ فيما فعله :ايقاعه فى حقه وموضعه . وفى افعال عباده: ماقضاه فيهامن الامر والنهى والثواب والعقاب ،لان ذلك كله واقع موقعه وموضوع فى مكانه ، لم يقع عبثاً ولم يصنع باطلا» [1] .

وقال العلامة جمال الدين يوسف بن على بن المطهر الحلى : « واعلم ان امير المؤمنين على بن ابى طالب عليه السلام قد بين معنى القضاء والقدر ، وشرحهما شرحاً وافياً ،فى حديث الاصبغ بن نباتة عند منصرفه من صفين ،قال : قام اليه شيخ ، فقال: اخبرنا ياامير المؤمنين عن مسيرنا الى الشام ، أكان بقضاء الله تعالى وقدره .فقال امير المؤمنين عليه السلام : والذى فلق الحبة وبرىء النسمة ، ماوطئنا موطئاً ، ولاهبطنا وادياً ولاعلونا تلعة ، الابقضاءه وقدره !

الشيخ : أعندالله أحتسب عنائى ؟ ماأرى لى من الأجر شيئاً ! .

الامام : مه ، ايها الشيخ ، بل عظم الله اجركم فى مسيركم وانتم سائرون وفى منصرفكم وانتم منصرفون ،ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولااليها مضطرين .

الشيخ : كيف ، والقضاء والقدر ساقانا ؟

الامام : ويحك ، لعلك ظننت قضاء لازماً ، وقدراً حتماً ! لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد والأمر والنهى ، ولم تتأت لائمة من الله لمذنب ولامحمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن اولى بالمدح من المسىء ولاالمسىء اولى بالذم من المحسن ! تلك مقالة عبدة الأوثان [2] وجنود الشيطان ،

١ـ تصحيح الاعتقاد (اوشرح عقائد الصدوق) ص٢٠ .

٢ـ اشارة ان الاعتقاد بالقضاء والقدر بالمعنى المذكور الباطل،هى عقيدة جاهلية اولى قد رفضها الاسلام .

وشهود الزور ، واهل العمى عن الصواب [1] وهم قدرية هذه الامة ومجوسها . ثم قال الامام : ان الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً . ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً ، ولم يرسل الرسل عبثاً ، ولم يخلق السماوات والارض ومابينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

الشيخ : فما القضاء والقدر الذى ذكرته ، ياامير المؤمنين ؟

الامام : هو الامر من الله تعالى والحكم .ثم تلا قوله تعالى : «وقضى ربك ان لاتعبدوا الاياه» .

وفى رواية اخرى : الامر بالطاعة ، والنهى عن المعصية ، والتمكين من فعل الحسنة وترك المعصية ، والمعونة على القربة اليه، والخذلان لمن عصاه ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب . كل ذلك قضاء الله فى افعالنا وقدره لاعمالنا . اما غير ذلك فلاتظنه ، فان الظن له محبط للاعمال .

فقال الشيخ: فرجت عنى ـ ياامير المؤمنين ـ فرج الله عنك ثم نهض مسروراً وأنشأ يقول :

انت الامام الذى نرجو بطاعته	يوم النجاة من الرحمان غفراناً
اوضحت من ديننا ماكان ملتبساً	جزاك ربك بالاحسان احساناً
فليس معذرة فى فعل فاحشة	قد كنت راكبها فسقاً وعصياناً
لا ، لا ، ولا قابلا ناهيه اوقعه	فيها عبدت اذاً ياقوم شيطاناً
ولااحب ولاشاء الفسوق ولا	قتل الولى له ظلماً وعدواناً
انى يحب وقد صحت عزيمته	ذو العرش اعلن ذاك الله اعلاناً [2]

١ـ هذا الكلام المعجز ينطبق تماماً على مذهب الاشعرى كما نبهنا سابقاً

٢ـ شرح تجريد الاعتقاد (ط بومباى) ص١٧٥ ـ ١٧٦ . وكنز الفوائد للكراجكى ص١٧١ ـ١٧٢ . والكافى ـ الاصول ـ ج١ ص ١٥٥ . وشرح النهج لابن ابى الحديد ج١٨ ص٢٢٧ ـ٢٢٨ . والاحتجاج للطبرسى ج١ ص ٣١٠ ـ ٣١١ . وبحار الانوار ج٥ ←

قال الشيخ المفيد ـ بعد ايراد الحديث ـ : هذا الحديث موضح عن قول امير المؤمنين عليه السلام في معنى العدل. ونفي الجبر ،واثبات الحكمة في افعال الله تعالى ونفي العبث عنها .

وللسيد عبدالله شبر في تفسير هذا الكلام الزاهي بيان وتحقيق ، راجع : «مصابيح الأنوار ـ في مشكلات الاخبار» ج١ ص١١٣ ـ ١٢٣ .

* * *

وخلاصة مذهبنا في القضاء والقدر: ان «القدر» عبارة عن علمه تعالى بمصالح الامور . وذلك يمثل حكمته تعالى في الخلق والتكليف . و«القضاء» عبارة عن نفاذ ارادته في تكوين شيء او تشريع تكليف . والذي يرتبط بافعال العباد هو القضاء بمعنى التشريع والالزام تكليفياً، فلاجبر ولاالجاء وهو يمثل مبدأ الاختيار في التكليف. هذه كانت خلاصة ما استفدناه من كلام الامام امير المؤمنين عليه السلام ودلت عليه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وآله والائمة الهداة المرضيين ـ عليهم صلوات الله ـ وسنشير الى بعضها بعد عرض نماذج من آيات مرتبطة بالمقام .

* * *

١ـ قال تعالى : « وماكان لنفس ان تموت الا باذن الله ، كتاباً مؤجلا ـ آل عمران: ١٤٥» . هذا من قضائه في التكوين .

٢ـ «ولكن ليقضي الله امراً كان مفعولا ـ الانفال: ٤٢» . ايضاً قضاء تكوين.

٣ـ «قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا هو مولانا ـ براءة : ٩» اي قدر لنا. بمعنى علمه تعالى بماهو صلاح لانفسنا ، فينفذه فينا ان شاء ،وفق حكمته تعالى .

٤ـ «وكان امر الله مفعولا ـ الاحزاب : ٣٣» .

٥ـ «وكان امر الله قدراً مقدوراً ـ الاحزاب : ٣٨» . هو قضاؤه الحتم وقدره

← ص١٣ـ ١٤ . وص٩٥ ـ ٩٦ .وص١٢٥ ـ ١٢٦ .والارشاد للشيخ المفيد ص١٢٠ـ ١٢١ وقد صححنا الحديث بمقابلة بعض المصادر مع البعض .

بشأن التكوين .

٦ـ «وماتحمل من انثى ولاتضع الابعلمه ، ومايعمر من معمر ، ولاينقص من عمره ، الافى كتاب . انذلك على الله يسير ـ فاطر : ٣٥» .

الكتاب فى الآية عبارة اخرى عن علمه الأزلى ،وهو قدره تعالى بمعنى احاطته بمزايا الامور وخباياها قبل ان تتكون فى عالم الوجود . اذذاك بالنسبة الى علمه تعالى المحيط شيء ضئيل .

٧ـ «ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ـ فصلت : ٤٥ » اى لولا حكمه تعالى بالتأخير والامهال لعجل لهم العذاب .

٨ـ «ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم ـ الشورى : ٢١» كذلك .

٩ـ «انا كل شيء خلقناه بقدر ـ القمر : ٤٩» اى بتقدير سابق .

١٠ـ «وكل شيء فعلوه فى الزبر . وكل صغير وكبير مستطر ـ القمر : ٥٢ ـ٥٣» . اى مقدر فى علمه تعالى بالحكم والمصالح .

١١ـ «ما أصاب من مصيبة فى الارض ولافى انفسكم الافى كتاب من قبل ان نبرأها انذلك على الله يسير ـ الحديد : ٢٢» : تقدم نظيرها برقم :٦ . والكتاب هو علمه تعالى بالحكم والمصالح . و«نبرأها» اى نوجدها ونخلقها ، لأن التقدير قبل القضاء على ماسبق .

وقوله ـ بعد ذلك ـ :«لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم ـ الحديد: ٢٣» يعنى اذلو عرفتم من أحداث هذا الكون هى ذوات مصالح مدروسة من قبل، لما فزعتم تجاه آلامها اوفخرتم بحظوظها، اذكل ذلك انمايجرى على حكم ومصالح ومقتضيات مدروسة من ذى قبل ، وليست مفاجئة اتفاقية كما يزعمها قاصروا النظر فى مظاهر هذه الحياة .

١٢ـ «ماقطعتم من لينة اوتركتموها قائمة على اصولها فباذن الله ـ الحشر :٥» اى باقداره وامداده لكم ، ولولاانها مصلحة لما امدكم بالقوى ولكنتم اعجز من فى الوجود .والآية نظيرة مامر من قوله : «ومارميت اذرميت ـ الانفال : ١٧» فراجع (ص ٢٣٤) .

١٣ـ « ماأصاب من مصيبة الا باذن الله ـ التغابن : ٦٤ » تقدم نظيرها برقم : ٦ و ١١ .

١٤ـ «يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قدأحاط بكل شيء علماً ـ الطلاق :١٢» اى علما بالحكم والمصالح ،وهذه اشارة الى جانب تقديره تعالى للامور .

١٥ـ «فيمسك الذى قضى عليه الموت ـ الزمر :٤٢» اى نفذفيه الحكم بالموت والانتهاء من اجله المحتوم .

١٦ـ «اذقضينا الى موسى الأمر ـ القصص: ٤٤» اى انفذناه نفاذاً حتماً .والأمر فى الآية يرادبه الشريعة التى انزلها الله على موسى عليه السلام .

١٧ـ «والله يقضى بالحق ـ غافر : ٢٠ » اى يحكم بالحق اوينفذ ماقدره وفق الحكمة .

١٨ـ «من قبل ان يقضى اليك وحيه ـ طه : ١١٤ » اى ينتهى ويكتمل الى تمام الآية .

١٩ـ « ياليتها كانت القاضية ـ الحاقة : ٢٧» . اى قاطعة لحياتى فلم ابعث بعدها .

٢٠ـ «وكان امراً مقضياً ـ مريم : ٢١» . هذا تبشيس لمريم ـ عليها السلام ـ وان حملها بعيسى ـ عليهما السلام ـ كان أمراً مدروساً من ذى قبل ذا حكمة ومصلحة داعية الى الايجاد ، وقدنفذ بشأنه حكم الله بالخلق والتكوين ،فلامرد لقضائه تعالى.

٢١ـ وهكذا قوله تعالى : «انمنكم الاواردها (مشرف عليها فيوقف فيها او يمر عليها) كانعلى ربك حتما مقضياً ـمريم: ٧١» . اىذا مصلحة داعية الىذلك ومن ثماوجبه تعالى على نفسه وفقاً لحكمته فىذلك .

* * *

والاحاديث المأثورة عن اهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ بشأن مسألة «القضاء والقدر» مختلفة ،منها : الآمرة بها ، وانالناكر للقدر ليس بمسلم .ومنها: الناهية عن التعرض لمسألة القدر ، وانها سر منأسراره تعالى فلاتتكلفوه . ومنها : الشارحة لحدود المسألة اما اجمالياً اوبتفصيل .وعليه فيمكننا تنويع هذهالأحاديث الى طوائف :

الاولى ـالآمرة بالايمان بمسألة القدر : ـ

١ ـ قال رسولالله ﷺ : « لايؤمن عبد حتى يؤمن باربعة : حتى يشهد ان لااله الاالله وحده لاشريك له . وانى رسولالله بعثنى بالحق . وحتى يؤمن بالبعث بعدالموت . وحتى يؤمن بالقدر[1] » .

انظر الى هذا الحديث ، يجعل منالايمان بالقدر ، فى عداد أوليات اصول العقيدة الاسلامية : الشهادة بالتوحيد . الشهادة بالرسالة . الاعتقاد بالمعاد .الاعتقاد بالقدر .

وهذا ـعلىالتفسير الذىقدمنا للقدر ـواضح،اذ الايمانبالقدر ـعلى ذلك ـ ايمان بسلطانالله القاهر وتدبيره الشامل، «الحمدلله رب العالمين» . «وقالتاليهود: يدالله مغلولة ! غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا . بليداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ـالمائدة : ٦٤». قال رسولالله ﷺ : «انالله عزوجل ـقدر المقادير ودبر التدابير قبل انيخلق آدم بألفى عام» [2] .

١ـ الخصال للصدوق فصلالاربعة ص١٨١ (ط نجف) والبحار ج٥ ص٨٧

٢ـ عيون اخبار الرضا ص٨٠ . والبحار ج٥ ص٩٣ رقم١٢ .

ويتخلص الايمان بالقدر في «الاعتقاد بأن الله هو المدبر لشؤون هذا العالم والمنفذ لما يتكون في الوجود». لكن بالملاحظة التي قدمنا بما لا يستلزم جبراً ولا الجاء فيما يخص افعال العباد الاختيارية ، فراجع مسألة الأمربين الأمرين (ص ١٧٥) ومسألة انتساب الحوادث الى الله (ص١٨٣).

٢ـ وقال ايضاً ﷺ : « اربعة لاينظر الله اليهم يوم القيامة : عاق . ومنان . ومكذب بالقدر . ومدمن خمر»[١] .

٣ـ وقال ﷺ : «ستة لعنهم الله ... الزائد في كتاب الله . المكذب بقدر الله. التارك لسنتي. المستحل من عترتي. المتسلط بالجبروت . المستأثر بفيء المسلمين»[٢].

* * *

الطائفة الثانية : الأحاديث الناهية عن التعرض لمسألة القدر ، مخافة الزلة فيها . وذلك لان الايمان بالقدر كان من اصول العقائد الجاهلية بانحراف في فحواها، كانوا يعتقدون من تقديره تعالى لحوادث هذا الكون وتدبيره لشؤون الخليقة ، جبراً للعباد فيما يزاولون من اعمال اختيارية . اذلا يقع شيء في عالم الوجود الا بتقدير الله ، فلا موقع لارادة العباد واختيارهم في ذلك من شيء !

هذا في حين ان مسألة القدر تعنى شيئاً آخر لا صلة بينه وبين الالجاء والاضطرار. اذ علمه تعالى الازلي بمصالح الاشياء ومفاسدها ، خيرها وشرها، ليكون خلقه وايجاده للاشياء عن مصالح وملاكات كامنة وراء وجوداتها ، تحقيقا لجانب حكمته تعالى وعدله ، لا مساس له بمسألة الجبر واضطرار العباد على افعالهم الاختيارية .

ولعلك بمراجعة ما اثبتنا في مسألة الامر بين الأمرين عرفت مدى دقة هذه المسألة المنطوية على سر الوجود على الاطلاق، اذ معرفة ما بين وجود الموجودات

١ـ الخصال باب الاربعة ص١٨٤ . والبحار ج٥ ص٨٧ رقم ٣ .

٢ـ الخصال باب الستة ص٣٠٧ ـ ٣٠٨ . والبحار ج٥ ص٨٧ رقم ٤ .

طراً ، وتأثيره تعالى فى ذلك ، من ادق المعارف الاسلامية العليا ، قد كابد العلماء الأمرين حتى عثروا على حقيقتها ووقفوا على كنهها ، على مانبهنا . وهذا هو السر فى النهى عن ولوجها ، ولكن نهياً موجهاً الى اولئك القاصرى النظر من ذوى المعلومات الهابطة او الضئيلة فى مجالات العلوم الاسلامية الاصولية ذلك العهد . واليك نماذج منها :

١/٤ـ سأل رجل الامام امير المؤمنين عليه السلام عن القدر ، فقال : «بحر عميق فلاتلجه» . فسأله ثانية ،فقال :«طريق مظلم فلاتسلكه» . فسأله ثالثة ،فقال: «سر الله فلاتتكلفه» [١] .

٢/٥ـ وفى نهج البلاغة :قال ـ وقد سئل عن القدر ـ:«طريق مظلم فلاتسلكوه وبحر عميق فلاتلجوه ، وسر الله فلاتتكلفوه» [٢] .

٣/٦ ـ وقال ـ ايضاً ـ : «الان القدر سر من سر الله ، وحرز من حرز الله ، مرفوع فى حجاب الله ، مطوى عن خلق الله ، مختوم بخاتم الله ، سابق فى علم الله ، وضع الله عن العباد علمه ، ورفعه فوق شهاداتهم ومبلغ عقولهم» .

هذا النهى الوارد فى كلام الامام عليه السلام ينظر الى اولئك المستضعفين . ممن تقصر افهامهم عن الخوض فى مسائل الوجود . وفى خلق اعمال العباد ، فانه ربما افضى ذلك بهم الى القول بالجبر ،لما فى ذلك من غموض ومزالق ، تحتاج السلامة منها الى دقة ومعرفة كاملة ،كان ابناء ذلك العهد يعوزونها البتة .

ومن ثم قال عليه السلام تعقيبا على كلامه المذكور : ـ « لانهم لاينالونه بحقيقة الربانية ، ولابقدرة الصمدانية ، ولابعظمة النورانية ، ولابعزة الوحدانية . لانه بحر زاخر مواج ،خالص لله عزوجل ،عمقه مابين السماء والارض،عرضه مابين المشرق

١ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٧٤ . والبحار ج٥ ص٩٧ و١١٠ .

٢ـ شرح النهج لابن ابى الحديد ج١٩ ص١٨١ رقم٢٩٣ .

والمغرب ، اسود كالليل الدامس ، كثير الحيات والحيتان ، تعلو مرة وتسفل اخرى» .

ثم قال : «فى قعره شمس تضيء ، لاينبغى ان يطلع عليها الاالواحد الفرد» اى الا الاوحدى من الناس ممن وقف على حقيقة الدين وعرف اسسه المحكمة .

وهذا دليل على ان النهى عن الولوج فيه انما كان لمعرفته عليه السلام قصور اهل زمانه فى ادراك امثال هذه الحقايق العليا .

وأخيراً ندد عليه السلام باولئك القاصرين مالوحاولوا التكلف فى مسألة القدر ، فقال : « فمن تطلع عليها » اى حاول التطلع على تلك الشمس التى هى شمس الحقيقة ، وهوليس من أهلها «فقد ضادالله فى حكمه ، ونازعه فى سلطانه ، وكشف عن سره وستره ، وباء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير» [1] .

٤/٧- وعن ابن أذينة قال : قلت للامام الصادق عليه السلام : جعلت فداك ،ماتقول فى القضاء والقدر ؟ قال : اقول : ان الله تعالى اذاجمع العباد يوم القيامة سألهم عما عهد اليهم ، ولم يسألهم عماقضى عليهم ! [2] .

٥/٨ ـ وقال الامام الصادق عليه السلام لزرارة بن اعين : يازرارة اعطيك جملة فى القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، جعلت فداك . قال : اذاكان يوم القيامة ، وجمع الله الخلائق ، سألهم عماعهد اليهم ، ولم يسألهم عماقضى عليهم [3] .

هكذا كلام من الامام عليه السلام بالنسبة الى هذين العلمين الجليلين ، لعله من باب «اياك اعنى واسمعى ياجارة» فيأمرهما الامام ان يكفا عن التعرض لمثل هذه المسألة

١- كتاب التوحيد للصدوق ص٣٩٢ . والاعتقادات ص٧١ .والبحار ج٥ ص٩٧ .

٢- كتاب التوحيد للصدوق ص٣٧٣-٣٧٤ . والبحار ج٥ ص١١٢ رقم ٣٨ .

٣- كنز الفوائد للكراجكى ص١٧١ . والبحار ج٥ ص٦٠ رقم١١١ .

الدقيقة في الاوساط العامية ، ولاسيما والبحث والجدل في هكذا امور عقائدية غامضة كان دارجاً ذلك العهد ، واكثرهم كان في تخبط وتخليط .

وخلاصة هذا الكلام : ان على العوام ان يبحثوا عن التكاليف المعهودة اليهم ، ليتبينوا ماهي وظيفتهم في العمل ، امـا البحث عن مسألة القضاء والقدر فهو بحث عن وظيفة الله في الخلق ، وليس ممايسأل العباد فهمه . فهو تدخل فيما لايعنى .

* * *

الطائفة الثالثة : احاديث مفسرة لمسألة القضاء والقدر ، وشارحة لفحواها ، غير انها جاءت بتعابير وألسن متفاوتة ، ولعله حسب اختلاف مستوى الأوساط التى صدرت تلك الاحاديث اليها .

فمنها اشارات عابرة وفي تعابير اجمالية ، ومنها مفصلة وبعبارات توضيحية متلاحقة ، ولنذكر من كلا النوعين نماذج : ـ

٩/١ـ قال الامام ابوعبدالله الصادق عليه السلام : «ان الله اذا اراد شيئاً قدره ، فاذا قدره قضاه ، واذا قضاه امضاه» [١] .

١٠/٢ـ وقال الامام ابوجعفر الباقر عليه السلام : «لايكون شيء في الارض ولافي السماء الابهذه الخصال السبع : بمشية ، وارادة ، وقدر ، وقضاء ، واذن ، وكتاب واجل ... الخ» [٢] . وروى قريباً منه الصدوق في الخصال في باب السبعة [٣] .

١١/٣ـ وسئل امير المؤمنين عليه السلام عن القضاء والقدر . فقال : « لاتقولوا : وكلهم الله الى انفسهم فتوهنوه . ولاتقولوا : اجبرهـم على المعاصى فتظلموه .

١ـ محاسن البرقي ص٢٤٣ . والبحار ج٥ ص١٢١ .

٢ـ نفس المصدر ص ٢٤٤

٣ـ راجع البحار ج٥ ص٨٨ برقم٧ .

ولكن قولوا : الخير بتوفيق الله .والشر بخذلان الله . وكل سابق فى علم الله [1].

هذا الحديث الشريف من جلائل كلمات الامام امير المؤمنين عليه السلام يشرح مسألة «الامر بين الامرين» .ومسألة «القضاء والقدر» فى افعال العباد الاختيارية بأوجز كلام واوفى تعبير بليغ . يقول عليه السلام : ليست الامور موكولة الى العباد كاملة ، لتكون خارجة عن سلطان الله ، وهذا هو التفويض الباطل فى مذهبنا .

وهكذا ليس العباد مضطرين فيما يعملون ،لتكون افعالهم واقعة لاعن ارادتهم ولاعن اختيارهم رأساً ،وهذا هو الجبر الباطل ايضاً .بل الامر بين الامرين ،لاجبر ولاتفويض . فان الافعال وان كانت لاتقع الابايقاعه تعالى وايجاده ، لكنها انما تقع بارادة تبعية لارادة العباد ـ فيما يخص الافعال الاختيارية ـ تحقيقاً لمبدء الاختيار وكان هذا هو المعبر عنه بالاذن منه تعالى ، الامر الذى لاينبغى اشتباهه بمبدء الجبر ولاالتفويض . حسبما تقدم تفصيله .

نعم هناك فى الاعمال الصالحة لايعدم العباد توفيقه تعالى بالتسهيل والتسديد كما لايعدم القائمون بالشر خذلانه وحرمانه عن ألطافه تعالى الخاصة .

هذا مايستفاد من الحديث الشريف اجمالياً ، فأجدر به من كلام بليغ بديع !

١٢/٤ـ وللامام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام كلام تفصيلى عن مسألة القضاء والقدر ، وصلتها بمسألة علمه تعالى الأزلى ومشيئته ، نذكره فى تقاطيع متلاحقة حسب الترتيب الطبعى الذى رتبه الامام عليه السلام :ـ

قال : علم وشاء . وأراد وقدر . وقضى وأمضى !

فأمضى ماقضى . وقضى ماقدر وقدر ماأراد !

فبعلمه كانت المشيئة . وبمشيئته كانت الارادة . وبارادته كان التقدير . وبتقديره كان القضاء . وبقضاءه كان الامضاء .

فالعلم متقدم على المشيئة . والمشيئة ثانية ، والارادة ثالثة . والتقدير واقع

١ـ الاحتجاج للطبرسى ص١١٠ . والبحار ج٥ ص٩٥ .

على القضاء .

فلله تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء . وفيما اراد لتقدير الاشياء . فاذا وقع القضاء بالامضاء فلابداء .

فالعلم بالمعلوم قبل كونه . والمشيئة في المشاء قبل عينه . والارادة في المراد قبل قيامه . والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عيانا وقياماً (ووقتاخل).

والقضاء بالامضاء هو المبرم من المفعولات ذوات الاجسام المدركات بالحواس من ذي لون وريح ،ووزن وكيل ، وما دب ودرج ، من انس وجن ، وطير وسباع ، وغير ذلك ممايدرك بالحواس . فلله تبارك وتعالى فيه البداء ، ممالاعين له .فاذاوقع العين المفهوم المدرك فلابداء ، والله يفعل مايشاء .

وبالعلم علم الأشياء قبل كونها[1] .وبالمشيئة غرف صفاتها وحدودها ، وأنشأها قبل اظهارها . وبالارادة ميز أنفسها في ألوانها وصفاتها وحدودها . وبالتقدير قدر أقواتها ، وعرف[2] أولها وآخرها . وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلهم عليها . وبالامضاء شرح عللها ، وأبان امرها . ذلك تقدير العزيز العليم[3] .

ولعلنا في هذا التقطيع سهلنا على القارى فهم فحوى الحديث بعض الشيء، اماشرحه المستوفى فخارج عن نطاق الكتاب. وقدشرحه العلامة المجلسى ـقدس سره ـ في موسوعته القيمة « بحار الانوار » ج٥ ص١٠٢ ـ ١٠٤ . ونقل عن بعض الافاضل هناك بياناً علمياً لابأس به . وانشئت فراجع تجد فيه مايروى الغليل ويشفى العليل .

١ـ لايشتبه هذا التعبير بمذهب الاشعرى القائل بقيام مبدء الصفات بذاته تعالى. اذ مراد الامام ـعليه السلام ـ بيان اثبات نفس الصفات من غير نظرالى مبادئها . كمايظهر من بقية الجمل .

٢ـ بالتشديد من باب التفعيل

٣ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٤٥ـ٣٤٦.والبحارج٥ ص١٠٢

والسيد عبدالله شبر ـ ايضا ـ مقال ضاف حول تفسير هذا الحديث ، تكلم فيه بتفصيل وتحقيق في كتابه القيم الخالد «مصابيح بالانوار ـ في حل مشكلات الاخبار» ج١ ص٤٨ ـ ٥٨ .

١٣/٥ ـ قال امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ : ماغلا أحد في القدر الا خرج من الايمان» [١] .

الغلو في القدر هو القول بالجبر ، بجعل افعال العباد خارجة عن اختيارهم. وواقعة تحت ارادته تعالى تقع حيثما يشاء لاشأن للعباد في ذلك رأساً . وهـذا هو مذهب العرب الجاهلي الذى كافحه الاسلام بشدة .

وللحديث تفسير آخر : يكون الغلو في عقيدة التفويض ، ليكون الله قد قدر الاشياء وتركها تتحقق بذواتها وفق تقدير الله القديم . ولاشأن لاذنه تعالى في تحقق الافعال والموجودات . وهذا مذهب اهل التفويض . جاءت تسميتهم في احاديث اهل البيت بالقدرية .

ويدل على هذا المعنى الثاني مارواه الصدوق عن الامام الصادق عليه السلام قال: «ان القدرية مجوس هذه الامة ، وهم الذين ارادوا ان يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه» [٢] .

١٤/٦ ـ وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الرقى [٣] يستشفى بها ، هل ترد من قدر الله؟ فقال : انها من قدر الله ! [٤] :

١ـ ثواب الاعمال للصدوق ص٢٠٥ . والبحار ج٥ ص١٢٠ رقم٦٠ .

٢ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٩٠ .

٣ـ الرقية : العوذة ، وهي دعاء يشد على المريض لاستشفاءه من عند الله . على شريطة ان تكون مأثورة بالاثر الصحيح .

٤ـ قرب الاسناد ص٤٥ . والبحار ج٥ ص٨٧ رقم١ .

وهذا كالدعاء والاستغفار يرد القضاء وقدابرم ابراماً ـ كما فى الحديث ـ قال تعالى : « يمحوالله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ـ الرعد : ٣٩ » . فالتقدير الاول ـ مثلا ـ ان يشتد مرض فلان على اثر عمله كذا . ثم اذا شرب الدواء الناجح اوابتهل الى الله فى شفاءه ، فقدقدر شفاؤه لذلك .فكماان الاول تقدير كذلك الثانى تقدير . وهذا واضح اذامارجعت تفسيرنا للقدر ،وهو العلم بالملاكات والمقتضيات هل تتصادم مع الموانع املا ؟.

٧/١٥ـ وعن ابن نباتة ، قال : ان امير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل الى حائط آخر فقيل له : ياامير المؤمنين ، تفرمن قضاءالله ؟ قال : أفر من قضاءالله الى قدرالله عزوجل [١] .

ولعل عمله عليه السلام ذلك كان امتثالا لدستور اسلامى « وجوب التحفظ على النفس» . قال الامام الصادق عليه السلام : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «خمسة لايستجاب لهم ، أحدهم رجل مر بحائط مائـل ، وهويقبل اليه ، ولم يسرع المشى ، حتى سقط عليه» [٢] .

اما بالنسبة الى علمه الخاص ـ فى مقام ولايته التكوينية ـ فجائز ان يعمل وفق علمه ، كمافى الحديث عن الامام الصادق عليه السلام قال : ان امير المؤمنين عليه السلام جلس الى حائط مائل ، يقضى بين الناس . فقال بعضهم :لاتقعد تحت هذا الحائط فانه معور . فقال امير المؤمنين : حرس كل إمرء أجله . فلما قام سقط الحائط .

قال الامام الصادق : وكان امير المؤمنين عليه السلام يفعل هذا واشباهه . وهذا اليقين [٣] .

١ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٧٧ . والبحار ج٥ ص١١٤ رقم٤١ .

٢ـ الخصال للصدوق باب الخمسة ص٢٧٢ برقم٧١ والبحار ج٥ ص١٠٥ .

٣ـ الكافى الشريف ج٢ ص٥٨ . والبحار ج٥ ص١٠٤ـ١٠٥ رقم ٣٠.

وقال امير المؤمنين عليه السلام لسعيد بن قيس الهمدانى عندما نصحه ليقى بنفسه عن غيلة الاعداء : «ياسعيد، انه ليس من عبد الا وله من الله ـ عزوجل ـ حافظ وواقية. معه ملكان يحفظانه من ان يسقط من رأس جبل، او يقع فى بئر. فاذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شىء»[1].

وللعلامة المجلسى ـ هنا[2] ـ بيان لطيف فى توجيه موقف الامام امير المؤمنين من قضية الحائط المعور، حيث احتاط فى مورد ولم يعبه به فى مورد آخر. فراجع.

* * *

السعادة والشقاء

من المسائل المستعصية فى الاصول هى مسألة «السعادة والشقاء» : هل السعيد من كتبت له السعادة فى الأزل، والشقى من كتب له الشقاء فى بطن امه وقبل ان يولد؟! اذن فما موقف السعيد من سعادته، وموقف الشقى من شقاءه؟ اذا كانت السعادة والشقاء امرين خارجين عن اختيار المكلف ذاته، وانما هما مفروضان عليه رغم ارادته ومساعيه فى هذه الحياة ؟!

قلت : «السعادة» قد تطلق ويقصد بها معنى نفسى، وهى حالة استقامة للنفس تجعلها ترغب ـ دائماً ـ فى الخير وفى مناشىء الصلاح، ولا تميل فى ذاتها الى شر او فساد. وفى مقابلة ذلك «الشقاء» : حالة نفسية منحرفة تميل بها الى الشر والفساد، ولا ترغب فى خير ولا فى صلاح. وتسمى هذه الحالة بالخباثة النفسية، وصاحبها «شقى» اى «خبيث». كما تسمى الحالة الاولى بطيب النفس، وصاحبها « سعيد »

١ـ نفس المصدر ص٥٨ـ٥٩.

٢ـ بحار الانوار ج٥ ص١٠٥ تحت الرقم : ٣١.

٣ـ كما فى قوله تعالى : «ولم يجعلنى جباراً شقياً ـ مريم : ٣٢». وقوله : «كذبت ثمود بطغواها، اذ انبعث اشقاها ـ الشمس : ١٢».

اى «طيب النفس» .

وللسعادة والشقاء معنى آخر يرتبط وحالة الانسان الظاهرية ممايمس عيشته فى هذه الحياة . اذتكون السعادة حينذاك بمعنى الرفاه فى العيش ، والشقاء بمعنى الضيق والشدة .

قال تعالى : «طه ماانزلنا عليك القرآن لتشقى» اى لتضيق على نفسك بكثرة العبادة ونبذ لذائذ الحياة رأساً . وقال : «فلايخرجنكما من الجنة فتشقى ـ طه:١١٧» اى فتتعب وتقع فى عناء العيش بعدهذا الرغد والمرفهية .

كماورد فى الحديث : « من سعادة المرء سعة داره ، ومن شقاءه ضيق داره » اى من قدر له الرفاه فى هذه الحياة كان من دلائله ان ينعم بسعة فى داره . ومن قدر له الضيق فى الحياة ، كان من دلائله ان يرزق بدار ضيقة . اذليست سعة الدار ولاضيقها مما يرتبط ومسألة السعادة والشقاء بمعنى طيب النفس وخبثها ، ومن ثم جاء فى رواية اخرى : «من شقاء العيش ضيق المنزل» .اى من سوء الحظ فى الحياة ان تكون دار سكنى الانسان ضيقة [١] .

اذن فالسعيد ـ على هذا التفسير ـ هو صاحب الحظ الوفير فى هذه الحياة والشقى : المحروم التعيس .

ونحن قد فسرنا الحديث المأثور «السعيد من سعد فى بطن امه ، والشقى من شقى فى بطن امه [٢] » . فى بعض المجالات ـ بهذا المعنى الثانى [٣] . اى من قدر له الرفاه فى هذه الحياة فان دلائله تبدو من حين انعقاد نطفته ، فانه ينعم برفاه فى نفسه وفى أمه فتقضى دور حملها به فى ارتياح ورغد من العيش الهنىء .اماالتعيس المحروم

١ـ مكارم الاخلاق للطبرسى ،والوسائل ابواب احكام المساكن ج٣ ص٥٥٧ـ٥٦٠.

٢ـ بحار الانوار ج٥ ص١٥٣ رقم ١ نقلا عن أمالى الصدوق .

٣ـ وللحديث تفسير آخر سيأتى فى حديث ابن ابى عمير مع الامام موسى بن جعفر ـ عليه السلام ـ .

فان تعاسته لتسرى الى حالة امه ، لتقضى دورحملها فى عناء وعطب وقلق نفسى واضطراب .

ولعل الاطلاق الاول من السعادة والشقاء ، استعارة من هذا المعنى ، تشبيها لغير المحسوس بالمحسوس ، فالسعيد الطيب النفس مرفه عليه نفسياً ، انه يعيش فى آفاق متسعة الأبعاد . فى طمأنية من الحياة وارتياح . « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم» والشقى الخبيث يعيش فى قلق وحرج واضطراب نفسى ، فى إطار ضيق من الحياة الدنيا الحالكة ، المليئة بالأكدار والأخطار .

اما السعادة والشقاء بالمعنى الاول ، فلم يقدر لأحد ان يكون شقياى خبيثاً لان الله تعالى لم يخلق أحداً للنار ، وانما خلقهم ليكونوا مؤمنين مطيعين ، ولينعموا برضوانه فى جنة عدن محبورين . وانما يخبث من يخبث بسوء اختياره وانهماكه فى شهوات دنيا ولذائذ وقتية سفلى ، ثم تحيط به خطيئاته ، وتحول دون نور عقله آثامه ، فيعمى قلبه ويعشى بصره ويصم اذنه ، واخيراً يفقد شخصيته الانسانية الكريمة. ومن ثم صح التعبير فى شأنه : قدغلبت عليه شقوته ، فأمسى من السافلين .

قال الامام ابوعبدالله الصادق عليه السلام فى قوله تعالى « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ـ المؤمنون : ١٠٦» قال : «بأعمالهم شقوا»[1] .هذا الحديث الشريف يؤكد على ان الشقاء امر مكتسب من قبل العبد نفسه ، وليس امراً مفروضاً عليه من قبل الله سبحانه . حيث عدله وحكمته تأبى فرض الشر على أحد اطلاقاً .

وسأل ابن ابى عمير ـ المحدث العلامة العملاق ـ اباالحسن الامام موسى ابن جعفر عليه السلام عن تفسير قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الشقى من شقى فى بطن امه، والسعيد من سعد فى بطن امه» . فقال الامام عليه السلام : «الشقى من علم الله ـ وهو فى بطن امه ـ انه سيعمل اعمال الأشقياء . والسعيد من علم الله ـ وهو فى بطن امه ـ انه سيعمل

١ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٦٦ . والبحار ج٥ ص١٥٧ رقم ١٠ .

اعمال السعداء» .

فسأله ثانية : فما معنى قوله ﷺ : «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[1] .فقال الامام : «ان الله ـ عزوجل ـ خلق الجن والانس ليعبدوه ، ولم يخلقهم ليعصوه . وذلك قوله ـ عزوجل ـ وماخلقت الجن والانس الاليعبدون» . فيسر كلا لماخلق له فالويل لمن استحب العمى على الهدى»[2] .

هذا من جلائل احاديث اهل البيت عليهم السلام ـ وهم أدرى بما فى البيت ـ وهو يؤكد تماماً ماذكرنا : ان احداً لم يقدر له ان يكون شقياً اوخبيثاً .

وقوله ـ اخيراً :«فيسر كلا لما خلق له» اشارة الى قوله تعالى : «ثم السبيل يسره ـ عبس : ٢٠» اى ان الله تبارك وتعالى انما خلق العباد ليعبدوه وليختاروا طاعته على معصيته ، ومن ثم أقدرهم على كلا الأمرين ويسر لهم طرق الامتثال لتكون اطاعتهم عن اختيار وعبادتهم عن رغبة وارادة ،وهكذا كانت منحة الاختيار لحكمة التكليف والاختبار ،الاان من العباد من يستغل هذه المنحة الالهية فى اغراض مخالفة فيستعمل من قدرته وقواه،فى اتجاه معاكس لغرضه تعالى .فويل له من هذه الاستفادة السيئة .

وقد جاء هذا المعنى فى احاديث كثيرة ، منها : مارواه البزنطى عن الامام

١ـ هذا الحديث رواه اهل السنة بعدة اسانيد ، منها مارواه البخارى فى جامعه باب قول الله تعالى : «ولقد يسرنا القرآن للذكر» . عن عمران قال : قلت : يارسول الله ، فيما يعمل العاملون ؟ قال : «كل ميسر لما خلق له» .وهكذا رووا عن على ـ ع ـ قال :«اعملوا فكل ميسر» . (صحيح البخارى ج٩ ص١٩٥) .وقد أخذت الاشاعرة ـ وهم جل اهل السنة ـ من هذه الاحاديث دليلا على مذهبهم فى الجبر ، حسبما يأتى . ومن ثم فان الامام ـ ع ـ مع اقراره لاصل الحديث يخطؤهم فى فهم معناه وان له تفسيراً يتوافق مع عدله وحكمته تعالى. على ما بينه الامام ـ ع ـ .

٢ـ كتاب التوحيد للصدوق ص٣٦٦ . والبحار ج٥ ص١٥٧ رقم ١٠ .

عليه السلام فيما نقله من الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، بمشيئتي كنت انت الذي تشاء (اي الاذن منه تعالى) وبنعمتي اديت الى فرائضي ، وبقدرتي قويت على معصيتي خلقتك سميعاً بصيراً . انا اولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك مني ... الخ[1].

وفي حديث الزنديق ، سأل الامام اباعبدالله الصادق عليه السلام فقال : اخبرني عن الله ، كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين ؟ قال : لو خلقهم مطيعين لم يكن ثواب، لان الطاعة اذا لم تكن من فعلهم لم تكن جنة ولا نار . لكنه تعالى خلقهم فأمرهم ونهاهم ، ليكونوا هم الذين يطيعون ويعصون .

الزنديق : أليس العمل الصالح والعمل الشر من فعل العبد ؟

الامام : العمل الصالح يفعله العبد والله أمره به ، والعمل الشر يفعله العبد والله نهاه عنه .

الزنديق : أليس فعل العبد بالآلة التي ركبها الله فيه ؟

الامام : نعم . ولكن بالآلة التي عمل بها الخير ، قدر بها على الشر الذي نهاه ... الخ[2] .

* * *

وبعد فاليك من آيات السعادة والشقاء نماذج :

١ـ قال تعالى : «يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه ، فمنهم شقي وسعيد ـ هود: ١٠٥ » .

زعمت الاشاعرة ـ وهم جبرية خالصة على ما اسلفنا[3] ـ ان هذه الآية الكريمة تدل على مذهبهم في الجبر ، وان السعيد من كتبت له السعادة فلا يستطيع غيرها ، والشقي من كتب له الشقاء فلا يستطيع غيره ، ومن ثم اخبر سبحانه بان من يدخل الجنة

١ـ قرب الاسناد ص١٥١ . والبحار ج٥ ص٤ـ٥ رقم٣ .

٢ـ الاحتجاج للطبرسي ص١٨٦ . والبحار ج٥ ص١٨ـ١٩ رقم ٢٩ .

٣ـ راجع : ص٦٨ فيما اثبتناه عن ابي الحسن الاشعري في قوله بالجبر .

هم السعداء ، وان من يدخل النار هم الأشقياء !

قال مفسرهم وامامهم المتفلسف الفخر الرازى ـ بشأن دلالة الآية ـ : «اعلم انه تعالى حكم الآن على بعض اهل القيامة بأنه سعيد ، وعلى بعضهم بـأنه شقى ، ومن حكم الله عليه بحكم وعلم منه ذلك الامر ، امتنع كونه بخلافه. والالزم ان يصير خبر الله تعالى كذبـاً وعلمه جهلا ، وذلك محال . فثبت ان السعيد لاينقلب شقياً ، وان الشقى لاينقلب سعيداً » . قال : وتقرير هذا الدليل مر فى هذا الكتاب (يعنى تفسيره الكبير) مراراً لاتحصى .

قال : وروى عن عمر بن الخطاب انه قال : لمانزل قوله تعالى « فمنهم شقى وسعيد» قلت : يارسول الله ، فعلى ماذانعمل ؟ على شىء قدفرغ منه ، ام على شىء لم يفرغ منه ؟ فقال : «على شىء قدفرغ منه ياعمر ، وجفت به الأقلام ، وجرت به الأقدار ، ولكن كل ميسر لما خلق له» [1] .

ثم قال : وقالت المعتزلة : « نقل عن الحسن انه قال : فمنهم شقى بعمله وسعيد بعمله» .

واجاب بأن الدليل القاطع (الذى اقامه ـ فيما زعم ـ على اثبات الجبر) لايدفع بهذه الروايات !

وقال ـ اخيراً ـ وايضاً فلانزاع انه انما شقى بعمله ، وانما سعد بعمله ، ولكن لما كان ذلك العمل حاصلا بقضاء الله وقدره ، كان الدليل الذى ذكرناه باقياً [2].

قلت : اما الرواية التى رووها عن ابن الخطاب فلانعتمدها نحن بـالذات ، اولا ـ لضعف الاسناد ، لان فى طريقها سليمان بن سفيان عن عبدالله دينار . وقد ضعفه

١ـ هذه الرواية رواها جميع ارباب التفسير وغيرهم من محدثى العامة . انظر : الطبرى ـ التفسير ـ ج١٢ ص٧٠ .

٢ـ التفسير الكبير ج١٨ ص٦٠ ـ ٦١ .

ائمة النقد والتمحيص [1] .

ثانياً ـ لمخالفتها لاصول العدل والحكمة فی ذاته تعالی المقدسة .

ثالثاً ـ وعلی فرض تسليمها فلابد من تفسيرها بما لايتنافی مع مذهب العدل.

قال الشيخ محمد عبده :ومعناه ـ الذی غفل عنه اوجهله الكثيرون علی ظهوره ـ: ان الله يعلم الغيب ، وعلمه بان زيداً يدخل الجنة اوالنار ، ليس معناه انه يدخلها بغير عمل يستحقها به بحسب وعده وحكمته ، ولا انه لافرق فيما يعمله فی الجزاء ، وانما يعلم الله المستقبل كله بجميع اجزائه واطرافه ،ومنه عمل العاملين ومايترتب علی كل عمل من الجزاء بحسب وعده ووعيده فی كتابه المنزل وكتابته للمقادير، ولاتناقض ولاتعارض بينهما . ونحن لانعلم الغيب ، ولكن النبی ﷺ علمنا مانعلم به ماسيكون فی الجملة ، وهو «ان الجزاء بالعمل» وان كل انسان ميسر له ومسهل عليه ماخلقه الله لأجله من سعادة الجنة وشقاوة النار ، وان ماوهبه للانسان من العزم والارادة يكون له من التأثير فی تربية النفس مايوجهها به الی مايعتقد ان فيه سعادته [2].

وهذا المعنی الذی تنبه له الشيخ عبده هوالذی نقله اصحاب الاعتزال عن الحسن وانكره الرازی الاشعری .

وهكذا تقدم فی روايات اهل بيت العصمة ـ عليهم السلام ـ [3] مايتوافق ومذهب العدل ، تفسيراً لما روی عن النبی ﷺ بهذا الشأن .

ولسيدنا الطباطبائی رد لطيف علی تلفيقات الامام الرازی ، علی اصول فلسفية حكيمة ، بين فيها اوجه المغالطة التی ارتكبها امام المشككين ، فراجع [4] .

من ذلك قوله ـ اخيراً ـ : كان العمل حاصلا بقضاء الله ... الخ . اذ ليس

١ـ انظر : المغنی فی الضعفاء للذهبی ج١ ص٢٨٠ برقم ٢٥٩٠ .

٢ـ تفسير المنار ج١٢ ص١٥٩ .

٣ـ صفحة : ٣٤٠ـ٣٤٩

٤ـ تفسير «الميزان» ج١١ ص ١٨

هذا الكلام سوى تكرار لكلامه الاول ومصادرة على المطلوب ، لانا قد بينا ان ليس معنى القضاء والقدر سوى علمه تعالى بمقادير الأشياء وامضاءه الوجود وفقها، من غير ان يكون علمه تعالى علة فى التأثير .

اذ لو لاحظنا من السعادة والشقاء امرين مفروضين على العباد، فان مسؤوليتهما تقع على الذى فرض عليهم - وهو الله تعالى حسب مزعومة الاشعرى - وهذا بعينه الجبر . اما اذا اعتبرنا انهما من عمل العباد انفسهم، وانهم بالعمل يسعدون أو يشقون ، فمعناه ان المسؤولية ترجع اليهم بالذات لا الى الله ، كما عليه مذهب اهل العدل والتنزيه . اذن فارجاع الاعمال الى الله حينئذ ، ليكون الله هو المسؤول عن افعال العباد - كما يرومه القائل بالجبر - يكون ذلك عوداً الى القول الاول ، و سلب المسؤولية عن العباد تجاه اعمالهم وما يستتبعها من سعادة وشقاء ، لاشىء آخر !

و كم لامام المشككين و شيخه الاشعرى امثال هذه المغالطات المفضوحة ! ! .

* * *

اما مدلول الآية الكريمة بالذات فان الشقاء والسعادة فيها يعنيان سوء الحال وحسنه ذلك اليوم ، اى فمنهم التعيس المتضايق عليه بالعذاب وشدة المؤاخذة ومصيره الى النار ، ومنهم الفاره المنعم عليه بالثواب ورفق اللطف به ومآله الى الجنة . نظير قوله تعالى فى آية أخرى : « وتنذر يوم الجمع لاريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير . ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء فى رحمته (وهم الذين استحقوا رحمته بايمانهم واعمالهم الصالحة) . والظالمون ما لهم من ولى ولانصير . (وهم الاشقياء الأذلاء الذين استوجبوا الذل والهوان لأنفسهم ، بما اعرضوا عن ذكر الله ونسوا لقاء يومهم هذا) - سورة الشورى : ٨» .

اذن ليست السعادة والشقاء فى الآية من النوع المصطلح المبحوث عنه ، وانما هما بالمعنى الثانى الذى قدمنا شرحه ، ولا صلة بينه وبين مسألة الجبر والاختيار فى شىء .

ودليلا على ذلك ماجاء فى تعقيب الآية بالذات : « فأما الذين شقوا (اى ساء حظهم ذلك اليوم) ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السماوات والارض ، الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد . واما الذين سعدوا (اى رجحت صفقتهم وحظوا برحمته تعالى الخاصة) ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض ، الاماشاء ربك ، عطاء غير مجذوذ » .

* * *

٢ـ « قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ـ المؤمنون : ١٠٦ ». بعد قوله تعالى موبخاً اياهم : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ ! » . فكأنهم حاولوا بذلك ابداء الاستعذار ، اى بلى تليت علينا آياتك غير ان شقاءنا النفسى المسيطر على وجودنا و مشاعرنا ، غلبتنا ولم يدعنا نجيب دعوتك فضللنا ! ! .

وربما تمسكت الأشاعرة بهذه الآية ـ ايضاً ـ دليلا على الجبر و عدم استطاعة العباد على الايمان وعلى الاستقامة على طريق الهدى ، الا ان يكون حافز من خارج ذاتهم ، حسبما كتبه رب العالمين من سعادة أو شقاء !

ورووا عن مجاهد فى قوله « غلبت علينا شقوتنا » قال : التى كتبت علينا [١] .

قال اهل العدل والتنزيه : هذا الذى رامه اهل الجبر تحريف بظاهر الآية وتأويل بمدلولها من غير ما سبب معقول . لأن ظاهر الآية الكريمة أن العصاة انما قالوا ذلك اعترافاً منهم بعدم الحجة لهم وان لا عذر لهم فى الاعراض والتولى ، بدليل انهم اضافوا الشقوة الى انفسهم « شقوتنا » الامر الذى يدل على ان لهم فى

١ـ رواها محمد بن جرير الطبرى بعدة أسانيد ، انظر التفسير ج ١٨ ص ٤٤

اكتسابها يداً ، وانها كانت من صنيع اعمالهم السيئة التي ارتكبوها.

ولو كانت الشقوة ممـا سجلت عليهم فى الازل الزاماً و الجاءاً لكانت عذراً لهم البتة ، ولكان لهم ان يقولوا : انها من صنيعك يا ربنا و لا حجة لك علينـا .

والخلاصة ان الآية ـ حسب اقرار كبار المفسرين وعلماء الادب والبيان ـ ظاهرة فـى الاعتراف باتمام الحجة عليهم وانهم بسوء اختيارهم فعلوا مافعلوا ، ومن ثم هم نادمون على ما فرط منهم ، راجين منه تعالى ان يمن عليهم بالعودة ، لاصلاح ماافسدوه من قبل، واستدراك مافات. «ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون - ١٠٧» .

قال سيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ :هذا اعتراف منهم بتمام الحجة عليهم، وكانت الشقوة شقوة انفسهم اى شقوة لازمة لسوء اختيارهم وأثر سيئات اعمالهم حيث اضافوها الى انفسهم . قـال : و يشهد لذلك وقوع الاية بعد قوله : « الم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » . وتعقيبها بقوله : « ربنا اخرجنا ... الخ » .

قال : وانما اعترفوا بالذنب والتقصير ليتوصلوا بذلك الـى التخلص من العـذاب ، وللرجوع الى كسب السعادة ، فقد كانوا عاينوا من قبل ان اعتراف العاصى بالذنب والصغار كانت توبة له ومطهرة له من الذنب ، فكانت تنجيه من العقاب .

قال : وهذا من قبيل ظهور الملكات ، كانوا يكذبون من قبل مع ظهور الحق ومعاينته بشهود ، كذلك يكذبون ذلك اليوم تجـاه رب العالمين . لاستقرار ملكة الكذب فى نفوسهم «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون انهم على شيء ، الا انهم هم الكاذبون ـ المجادلة : ١٨» [١] .

١ـ تفسير «الميزان» ج ١٥ ص ٧٤ـ٧٥

ومن ثم جاءهم الرد القاصف : « قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون ـ المؤمنون: ١٠٨ » . والدليل على انهم يكذبون ذلك اليوم بكل وقاحة وشراسة ، قوله تعالى: «ثم قيل لهم: اين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا ـ (كذباً وزوراً) ـ : ضلوا عنا ـ (اى نجهلهم ولا نعرف منهم شيئاً) ـ ثم بدا لهم ان ينكروا اعبادتهم للاصنام رأساً انكاراً صريحاً، ومن ثم قالوا : ـ «بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ـ غافر: ٧٤» . انظر الى هذه الوقاحة تجاه رب العالمين الذى لا تخفى عليه خافية فى السماوات والارض !!

* * *

وقال الجبائى : « المراد ان طلبنا للـلذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة ، فأطلق اسم المسبب على السبب. وليس هذا باعتذار منهم ، لعلمهم بان لا عذر لهم فيه ، ولكنه اعتراف بقيام حجة الله عليهم فى سوء صنيعهم ».

وقال القاضى : «فى الآية دلالة على انه لا عذر لهم الا الاعتراف (بالتقصير). فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته ، وعلموا ذلك، لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر، والى العذر اقرب » .

وقدرد عليهما الفخر الرازى ـ على مذهبه الاشعرى الجبرى ـ بأن طلبهم للذات ان كان باختيارهم فذلك الاختيار محدث ، وكل محدث مفتقر الى علة خارجة عن ذاته ، وليست سوى ارادة الله القديمة . ثم اخذ فى الاستدلال على احتياج المحدثات الى علل وهى تتسلسل الى ذاته المقدسة ، حسب منهجه الخاص فى ارجاع علل الموجودات حتى الافعال الاختيارية الى ارادته تعالى الازلية .

وقد ابطل اهل العدل هكذا استدلالات هى اشبه بسفاسف سوفسطائية ، وان افعال العباد الاختيارية واقعة تحت اختيارهم بالذات ، متى ماشاؤا فعلوا ، ومتى لم يشاؤا تركوا . حسبما اسلفنا فى مسألة « الامر بين الامرين » وغيرها من مسائل

مرتبطة .

واما الذى قاله الفخر فى تفسير الآية فهو: ان المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لا يسأل عما يفعل ، فلاجرم قال لهم : « اخسؤوا فيها ولا تكلمون »[1] .

قلت : ولعله فى هذه المحاولة رجح الحجة مع العصاة ، وجعل من مقام قدسه تعالى حكومة ظالمة غير مسؤولة ولا متقيدة بنظام العقل والحكمة . تعالى الله العدل الحكيم عن ذلك علوا كبيراً .

* * *

٣ ـ « فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هـداى فلا يضل ولا يشقى ـ طه : ١٢٣ » .هذا هو الشقاء المعنوى ،ومن ثم فسروه بالشقاء الاخروى .والآية دليل على انه أثر الضلال عن هديه تعالى والاعراض عن آياته البينة . وليس امراً مفروضاً محتماً على الاشقياء .

وجاءت كلمة « تشقى » قبل الاية برقم ١١٧ بمعنى الشقاء الظاهرى «التعب والعناء » . ولكنها فى هذه الاية (١٢٣) جاءت بمعنى الشقاء المعنوى « الخباثة » وهذا من التقابل ـ اثباتا ونفيا ـ فى كلمة واحدة بين معنييها المختلفين اعتباراً . وهو من الفن البديع .

* * *

٤ ـ « و لم يجعلنى جباراً شقياً ـ مريم : ٣٢ » . هـو من الشقاء بمعنى الخبث .

قال الامام الرازى : وهذا ـ ايضاً ـ يدل على قولنـا (يعنى كون الشقاء والسعادة من فعله تعالى يضعهما حيث يشاء) لانه لما بين انه جعله براً وما جعله جباراً ، فهذا انما يحسن لو ان الله تعالى جعل غيره جباراً وغير بار بأمه ، فان الله تعالى لو فعل ذلك بكل احد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك ، ومعلوم انه

١ـ انظر : التفسير الكبير ج ٢٣ ص ١٢٤ـ١٢٥ .

عليه السلام انما ذكر ذلك في معرض التخصيص [1] .

وقال الامام مالك : ما اشد هذه الآية على اهل القدر (يعني المتعزلة وسائر اهل العدل المنكرين للجبر) اخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره ، وبما هو كائن الى ان يموت [2] .

هكذا زعم اهل الجبر من متفلسفة وحشوية ان العباد مضطرون فيما يزاولون لا رأى لهم ولا ارادة ولا اختيار . وانما هم مسيرون وفق ما فرض عليهم وقدر لهم في الأزل .

واما اهل العدل والتنزيه فأجروا الآية الكريمة على سياق نظائرها من ارادة عنايته تعالى الخاصة بخلص اولياءه الصالحين ومزيد ألطافه بشأنهم ، لما علم منهم الصلاح والثبات و الاستقامة ، فأيدهم ووفقهم وجعلهم للمتقين اماما.

قال الشيخ ابو علي الطبرسي ـ رحمه الله ـ : « والمعنى : انى بلطفه تعالى وتوفيقه كنت محسناً الى والدتي ، متواضعاً في نفسي ، حتى لم اكن من الجبابرة الأشقياء» [3] .

والدليل على صحة هذا المعنى هو سياق الآية وانسجامها مع آيات قبلها وبعدها ، قال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : «قال انى عبدالله ، آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركا اين ما كنت . واوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً . وبراً بوالدتي . ولم يجعلني جباراً شقياً .والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً ـ مريم : ٣٣» .

فمعنى «آتاني الكتاب وجعلني نبياً» : انه تعالى اختارني نبياً . وليس اختياره تعالى احداً لمقام رسالته الا اذا وجده صالحاً لذلك. أميناً صادقاً وفياً. وليس تحميلا في غير محل قابل ولا اعتباطاً من غير حكمة وملاك .

١ـ التفسير الكبير ج ٢١ ص ٢١٥

٢ـ تفسير القرطبي ج ١١ ص ١٠٣

٣ـ مجمع البيان ج٦ ص٥١٣ .

وهكذا «جعلني مباركاً»اى زاد فى عنايته تعالى بشأنى ، حيث النبى هو المعلم النفاع ، فأينما يتوجه فان بشائر الخير والبركات تتقدمه .

و«أوصانى بالصلاة والزكاة» اى أمرنى بهما امر تكليف .

و«براً بوالدتى»اى جعلنى براً بها ،ومعنى جعلنى براً ، وفقنى للقيام بخدمتها حيث وجدنى راغباً فى اداء شكرها الواجب،فحيث انه تعالى مهد له سبيل هذه المكرمة، لما وجده محلا قابلا لها ،نسبه الى الله ، حسبما مر فى الحديث «انا اولى بحسناتك منك» . راجع شرحنا لهذه الفقرة [1] .

وكذلك قوله : « ولم يجعلنى جباراً شقياً» اى لم يخذلنى ولم يمنعنى ألطافه الكريمة ، كى انخرط مع الجبابرة الاشقياء ، بل منحنى عناياته والمزيد من توفيقه، حيث وجدنى جاداً فى طلب السعادة، فساعدنى برحمته،وفق وعده الحتم ،«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

والخلاصة : ان معنى «لم يجعلنى جباراً شقياً» : انه تعالى علم منى الرغبة فى التخضع والبلوغ الى عز السعادة ،فساعدنى على ذلك وزاد فى توفيقه حتى بلغتها بعنايته تعالى .

والجعل وان كان بمعنى التكوين، لكن حيث كانت اصل الهداية الى طرق السعادة ، وكذا المعونة على الوصول اليها ، حاصلة بفعله تعالى « الحمدلله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولان هدانا الله» . صحت نسبة تكوين شخصية الانسان المهتدية السعيدة الى الله عزشأنه. فكأن شخصيته الخاصة متكونة بفعله تعالى ،حيث جميع اسباب تكوينها والاهتداء الى طرق تكوينها ،كانت ممهدة من جانبه تعالى الامر الذى لا يستدعى جبراً ولا اكراهاً على هداية او ضلال.

هذا احد التأويلين فى الآية الكريمة .

١- صفحة ١٨٠

وهناك تأويل آخر أشار اليه شيخ الطائفة ابوجعفر الطوسى ـ قدس سره الشريف ـ قال : «ولم يجعلنى جباراً» اى لم يحكم على بالتجبر والشقاء [1] .

وهذا كقولهم : جعله سارقاً اى حكم عليه بأنه سارق ، بمعنى انه علم منه ذلك اوثبت لديه انه سارق ومن ثم ابدى رأيه بشأنه ليكون معنى الآية على هذا التأويل: انه تعالى لما علم منه الخير والصلاح فى الآجل ، حكم عليه انه من السعداء الاتقياء. اى ابدى علمه بشأنه .

وأخيراً فلو كانت السعادة والشقاء من فعله تعالى المباشرى او التسبيبى [2] ، من غير أن يكون لارادة العبد واختياره الخاص مدخل فى تحصيلهما واكتسابهما ، لم يكن موضع لمدح السعيد على سعادته ، ولامجال لتوجيه اللائمة الى الأشقياء . فى حين ان جميع ماقاله عيسى عليه السلام بهذا الصدد ، كله تحد وفخار ، فى جو يتلائم وتمدح النفس بلاشائبة اعجاب .الامر الذى لايخفى على النبيه الخبير.

* * *

٥ـ «وادعو ربى عسى ان لااكون بدعاء ربى شقياً ـ مريم : ٤٨» . اى خائباً محروماً .

٦ـ «ولم أكن بدعائك رب شقياً ـ مريم : ٤» كذلك .

٧ـ «اذانبعث اشقاها ـ الشمس : ١٢» اى أخبثها .

٨ـ «لايصلاها الا الأشقى ـ الليل : ١٥». اى الا الخبيث المحروم ، الممنوع من فيض رحمته تعالى ، بسبب خطيئاته المتراكمة المحيطة به من كل جانب .

٩ـ وهكذا قوله : «ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ـ الاعلى : ١١ » . ضمير التأنيث يعود على الذكرى ، فالذى يعرض عنها هو الخبيث الشقى

١ـ تفسير التبيان ج٧ ص١١١

٢ـ حسبما قاله الفخر فى آخر كلامه المتقدم

والتعيس المحروم .

١٠ـ«انه لذوحظ عظيم ـ القصص :٧٩». اى سعيد منعم بلذائذ الحياة مرفه عليه ، حسبما كان بنو اسرائيل يرونه بشأن قارون.

١١ـ «ومايلقاها الاذوحظ عظيم ـ فصلت:٣٥» . اى سعيد منعم بكمال النفس، ذوعقل وفير وادراك انسانى نبيل .

١٢ـ «يريدالله انلايجعل لهم حظافى الآخرة ـ آل عمران : ١٧٦» اى نصيباً وهو حكاية عن واقعيه سوداء مرة .

١٣ـ «ونسوا حظامماذكروابه ـ المائدة :١٣» اى اليهود اغفلوا نصيباً جزيلا كان يعود عليهم اذاماهم لبوا دعوة الحق .

١٤ـ وهكذا قوله :«فنسوا حظاً مماذكروا به ـ المائدة : ١٤» بشأن النصارى لم يستسلموا لقيادة الحق .

* * *

التمحيص والاختبار

فى القرآن كثير من آيات انذرت بتمحيص هذه الأمة واختبارها شأن سائر الأمم السالفة. وفى ذلك فائدتان كبيرتان : ـ

الأولى: ان البلايا والمحن تعمل فى تكوين الانسان ثبات عزيمته واستقامة رأيه فلايتزعزع تجاه الحوادث والكوارث ، مقداما صبوراً ، قـوى الارادة ، حازماً وقوراً ، والله تعالى يريد من هذه الامة أمة متربية ومترقية كاملة ذات قدرة جبارة لبسط العدل فى ارجاء العالم المعمور « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ـ البقرة: ١٤٣» . امة متربية تحت تربية الرسول وتعليمه المباشر . لتصبح هى مربية لسائر الامم ومعلمة للاجيال، مكارم اخلاق الانسانية العليا وآدابها المثلى .

الثانية : ابداء مافي الناس من قابليات وطاقات واستعدادات متفاوتة ، ومدى ما يبذله انواع الطوائف والآحاد في تجسيد مافي كمونهم من قوى وصلاحيات« ليميز الله الخبيث من الطيب ـ الانفال : ٣٧» اي ليمتاز احدهما عن الآخر .

وذلك تمهيداً للفوز على مختلف درجات الآخرة ، فلايستوى الأفراد في البلوغ الى مدارج الكمال والقرب من رضوانه تعالى . فلو كان الله يثيب الناس على حسب استعداداتهم المتفاوتة من قريب وأقرب او بعيد وأبعد، وفق مايعمله من اختلاف قابلياتهم في التقرب والابتعاد ، لكانت صرخات الاعتراض تعلو : لما ذا هذا الافتراق والتفاوت في العناية والألطاف ؟ !

اذن كان من الحكمة ان يعم امتحان شامل «ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ـ الانفال : ٤٢» . ليتجلى للناس ماهم عليه من تفاوت واختلاف . «لئلا يكون للناس على الله حجة ـ النساء : ١٦٥» .

* * *

١ـ قال تعالى :«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الله الخبيث من الطيب ـ آل عمران : ١٧٩» اي حتى يظهر للناس انفسهم امتياز أحدهما عن الآخر .

٢ـ وقال : «ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله . وتلك الأيام نداولها بين الناس (اي بالاقبال والادبار) وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لايحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ـ آل عمران : ١٤٠ـ ١٤٢» .

قوله : «يعلم» ـ في المواضع الثلاثة ـ اي ليبدو للناس ويتجلى علمه الازلي بشأن مختلف الطبقات .

٣ـ«وليبتلي الله مافي صدوركم .وليمحص مافي قلوبكم ـ آل عمران: ١٥٤» اي ليمتحنكم ويبدي مافي سرائركم ، لاليعلم هو، بل لتعلموا انتم ايها الناس .ومن

ثم ختمت الآية بقوله :«والله عليم بذات الصدور» .اى ليس هذا الابتلاء والتمحيص لأجل ان يعرفكم ـ بالتخفيف ـ بل ليعرفكم ـ بالتشديد ـ .

٤ـ «لتبلون فى أموالكم وأنفسكم، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً .وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور ـ آل عمران: ١٨٦» .هذه الآية الكريمة تشير اشارة تامة الى الفائدة الأولى التى نبهنا عليها .حيث الابتلاء يوطد من اركان عزم الانسان وثباته فى الامور .

٥ـ «وهو الذى جعلكم خلائف الارض ،ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ـ الانعام : ١٦٥» . اى لتبدو استعداداتكم ومدى صلاحياتكم تجاه متقلبات الامور والاحوال .

٦ـ «وحسبوا ان لاتكون فتنة فعموا وصموا ـ المائدة :٧١» . اى ظن بنو اسرائيل ان لايصيبهم بلاء وابتلاء فتاهت نفوسهم واضطربوا عند الامتحان .

٧ـ «واتقوا ـ (اى خذوا حذركم) ـ فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ـ الانفال : ١٢٥» . حيث الابتلاء بالمحن والآلام يعم الجميع .

٨ـ «واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة ـ الانفال : ٢٨» . اى بلاء واختبار لمقدار قابليتكم فى القيام بوظيفتهما واداء حقهما الواجب .

٩ـ «ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله (اى يبدو علمه القديم بشأنكم) الذين جاهدوا منكم ـ براءة : ١٦» .

١٠ ـ « اولايرون انهم يفتنون فى كل عام مرة اومرتين ـ براءة : ١٢٦» . حيث تواصل الاختبار بتلاحق الفتن والبلايا ،لطفاً مستمراً بالمؤمنين ،وسخطاً على

الكافرين .

١١ـ «ليبلوكم ايكم احسن عملا ـ هود : ٧» اى اشد ثباتاً واصوب اتجاهاً .

١٢ـ «لنبلوهم ايهم احسن عملا ـ الكهف : ٧» .

١٣ـ «وفتناك فتوناً ـ طه : ٤٠» .اى اختبرناك اختبارات فى مواقف عديدة، توطيداً لثبات شخصيتك ، وتمهيداً لاستعدادك لمقام النبوة .

١٤ـ «فاناقد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامرى ـ طه : ٨٥» .حيث اضلال السامرى بذاته كانت فتنة وابتلاء زلت فيها اقدام بنى اسرائيل .

١٥ ـ « ونبلوكم بالشر والخير فتنة ـ الانبياء : ٢١ » . اى بالجدب والرخص اوبالبلايا والنعم . حتى يبدو مبلغ استعداداتكم وطاقاتكم تجاه مختلف الاحوال .

١٦ـ «ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض ـ الحج : ٥٣» . اى الاحداث المضلة بعدوفاة الرسول اختبار لمبلغ ثبات المؤمنين به على الايمان، غير ان غالبيتهم ابدواماكانت نفوسهم المنحرفة منطوية عليه من الاضغان والاحقاد على هذا الدين . «أفان مات اوقتل انقلبتم على اعقابكم ـ آل عمران : ١٤٤» .

١٧ـ «وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ؟وكان ربك بصيراً ـ الفرقان: ٢٠» . اى كانت البلايا التى تصيب بعضكم من بعض ،امتحاناً لكم ليبدولكم بالذات مبلغ ثباتكم وصبركم على الايمان . اماالله تعالى فهو غنى عن اختباركم ، لانه بصير بكم وعليم بذات الصدور .

١٨ـ «بل انتم قوم تفتنون ـ النمل : ٤٧» . اى وقعتم فى البلاء والابتلاء . ولولا ان تتدارككم رحمته تعالى لهلكتم عن آخركم .

١٩ـ «أحسب الناس ان يتركوا ـ (بلاابتلاءواختبار)ـ ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون ، ولقدفتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ـ العنكبوت : ٣» اى حتى يمتاز الصادق عن الكاذب ، وتتم الحجة على الكاذبين.

٢٠ـ «هنالك ـ(فى وقعة الأحزاب) ـ ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاشديداً ـ الاحزاب : ١١» فتبين المخلصون الثابتون على الايمان عن الكاذبين المنافقين .

٢١ـ « ان هذا لهو البلاء المبين ـ الصافات : ١٠٦ » . كانت قصة الذبح اختباراً عظيما لابراهيم ـ عليه السلام ـ تبينت ـ خلالها ـ شخصيته الفذة الكبيرة بوضوح .

٢٢ـ «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ـ ص:٣٤» .اى بهذا الابتلاء نبهناه على مافرط منه مما لاينبغى من مثله ، لطفا بشأنه من عبد مخلص منيب .

٢٣ـ «فاذامس الانسان ضر دعانا . ثم اذا خولناه نعمة منا ،قال : انمااوتيته على علم . بل هى فتنة ،ولكن اكثر الناس لايعلمون ـ الزمر :٤٩» . حيث وفرة النعم قدتكون ابتلاء لمبلغ قيامه باداء الشكر الواجب .

٢٤ـ « ولنبلونكم حتى نعلم الجماهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم ـ سورة محمد : ٣١» . اى حتى يظهر علمنا السابق فيكم فيبدولكم بالذات .

قوله : «ونبلو اخباركم» اى نختبر مبلغ صدقكم فيما يؤثر عنكم من ادعاءات وتبجحات ، حتى يتبين لكم بالذات مدى صحتها ووفقها مع الحقيقة .

٢٥ـ «ليبلوكم ايكم احسن عملا ـ الملك : ٣» تقدم نظيرها برقم ١١.

* * *

الاحباط . التكفير . الموازنة

الاحباط [١] : محق حسنة بسيئة لاحقة اطلاقاً ، سواء أكانتا متساويتين أم فضلت احداهما على الاخرى ، وسواء أكانت الفاضلة هى الحسنة ، أم هى السيئة المتأخرة ، حتى وان سيئة واحدة لاحقة لتبطل بها حسنات جسام .

التكفير [٢] ـ عكس الاحباط ـ : « ان الحسنات يذهبن السيئات ـ هود : ١١٤ » .

الموازنة [٣] : ان يسقط الأقل بالأكثر حجماً وقدراً ، ليبقى مقدار الفضل بينهما يثاب عليه او يعاقب محضاً .

وهى من المسائل ـ الكثيرة ـ التى اختلفنا فيها نحن ـ الامامية ـ مع اصحاب الاعتزال ، حيث اخذوا فى اتجاه معاكس لمقتضى العدل والحكمة فى افعاله تعالى ،

١ـ مأخوذ من «الحبط» ـ بفتحتين ـ وهو الفساد والهلاك . واصله من حبط البعير ، اذا اكثر من أكل «الحندقوق» حتى انتفخ بطنه وافسد عليه الاكل . واسم هذا الداء «الحباط» ـ بالضم ـ . واستعمل فى كل مافسد وذهب اثره باطلا ، يقال : حبط دم القتيل اذا هدر . او حبط عمله اذا ذهب سدى . وحبط ماء البئر اذا غار فلم يعد .

٢ـ مأخوذ من « الكفر » ـ بالفتح ـ وهو الستر والتغطية ، يقال : كفر درعه بثوبه ، اذا لبسه فوقها وغطاها به . ومنه اطلق اسم الكفر ـ بالضم ـ على ضد الايمان ، لان الكافر قد غطى فطرته بالانكار .

٣ـ بمعنى المقايسة ، فيقاس احدهما بالاخر ليعرف الاثقل من الاخف .

كما نقضوا مذهبهم في كون المجازاة استحقاقاً ، وماالى ذلك من تـوال فاسدة حسبما نشير .

وقبل ان ننتقل الى صلب البحث لابد ان نتعرف ـ اجمالياً ـ الى مسائل هي ذات صلة بالموضوع : ـ

الاولى : هل الجزاء على العمل استحقاق ام مواضعة ، اى مجرد مواعدة (وعد بثواب ووعيد بعقاب) ؟ .

الصحيح هو الاول ، في صورة ماذا كان العمل صادراً عن طلب من المولى ، حتى ولو كان متفضلا على عبيده بالنعم الجسام ، لان ذلك تفضل محض ، ولاشيء يوازي التفضل ، خصوصاً اذا كان في التكليف مشقة ، فانه ليس للمتفضل ان يكلف المتفضل عليه بما يوقعه في مشقة كثيرة بحجة انه منعم عليه ، لولا الالتزام على نفسه بمقابلة الأجر والثواب .

هذا ولاسيما اذا قلنا بان المثوبات ليست سوى تجسدات ذاتية لنفس الأعمال تتجسد الى درجات ودركات ، والاعمال هي ـ بـدورها ـ انعكاسات نفسية طيبة او خبيثة تتمرن بالعمل ، وان كانت ذات مرونة و قابلة للانعطاف والتبديل ، بالتربية والتدريب [1] .

وعليه فالمحسن الممتثل لأوامر مولاه ، انما يستحق أجراً لذاته ، ولم يكن الوعد بالثواب سوى تأكيد ، وتعيين لمقداره لا لأصله .

وهكذا المسيء يستحق عقوبة لذاته وليس لمجرد الوعيد ، ولعل استحقاق المسيء اجماعي ، حيث تمرده وكفرانه نعم المولى معاً .

* * *

الثانية : هل المثوبة والعقوبة تقتضيان الدوام والأبدية ؟ فلا مثوبة الا وهي دائمة ، ولاعقوبة الا وهي خالدة ؟!

١ـ وسوف نتكلم عن مسألة العقوبة في محال التفسير ان شاء الله .

قالت المعتزلة : نعم ! ومن ثم جعلوا من الفاسق خالداً في النار .

ودليلهم على ذلك هو : قياس المثوبة والعقوبة بالمدح والذم ، فكما انهما دائميان ، كذلك لازمهما من الثواب والعقاب . قالوا : ولأنه اذا انقطع عقاب العاصي ودخل الجنة كان ذلك تفضلا عليه ، ولا تفضل على المكلفين ، وانما هو خاص بالأطفال والمجانين [1] .

وبهذه الطريقة حاولوا اثبات الاحباط ، لئلا يعود المعاقب على معصيته مثاباً على طاعته ، فينتقض دوام العقاب بشأنه ، كما يكون ثوابه المتأخر تفضلا فيما زعموه. وهذان مما يتحاشونهما البتة [2] .

قلنا : لا خلود في النار الا للكفار [3] ، اما العصاة من المؤمنين الذين احتفظوا بايمانهم حتى الممات فمرجون لأمر الله ، اما يعذبهم حسب استحقاقهم ، عذاباً يتناسب مع نوعية العصيان الذي ارتكبوه ، واما يتوب عليهم والله عليم حكيم [4] .

قال تعالى ـ بشأن العصاة من المؤمنين ـ : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم ـ براءة : ١٠٢» . قوله : « اعترفوا بذنوبهم» اعترافاً منبعثا عن ايمانهم بالله ، حيث المؤمن هو الذي يرى من اعماله السيئة عصياناً له تعالى ، فهو دليل على احتفاظهم باصول الايمان ، وان كانوا قد ارتكبوا ما ارتكبوا من قبائح . الامر الذي وفر عليهم من شرائط الغفران .

واما قياس الثواب والعقاب بالمدح والذم ، ففي أصل الاستحقاق لا شك

١ـ راجع : شرح الاصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٦٦٦ـ٦٦٧ .

٢ـ انظر نفس المصدر ص٦٢٤ .

٣ـ قال تعالى : «والذين كفروا بآيات الله ولقاءه اولئك يئسوا من رحمتي واولئك لهم عذاب اليم ـ العنكبوت : ٢٣» ونحن قد بحثنا عن جوانب مسألة الخلود في مجال التفسير .

٤ـ مقتبس من الاية الكريمة ١٠٦ من سورة براءة .

فيه . فمن استحق مدحاً على عمل استحق ثواباً عليه ، وكذا الذم والعقاب . اما قياس دوام احدهما على دوام الآخر فلا موضع له ، بعد ان كانت مرحلة الاستحقاق بمعزل عن مرحلة الفعلية والوقوع . لان معنى دوام الاستحقاق ، هو جواز مذمة العاصي في أي وقت من الأوقات ، ولا يختص ذلك بالآن المباشر لظرف عصيانه . الامر الذي لا يعني الاستدامة في مذمته ليل نهار على مر الدهور .

وهكذا العقاب ، يستحقه العاصي في أي وقت من الأوقات ، فمتى ما اراد المولى عقابه صح ذلك منه . وهذا لا يعني جواز الادامة من عقابه على مر الزمان مع الأبدية . لان ذلك عقاب فوق استحقاقه وظلم يتحا شاه عدله تعالى وحكمته المطلقة .

اما اختصاص تفضله تعالى بالصغار القصر فلم نعرف له وجهاً ، ولا هم اقاموا على اثباته برهاناً . فضلا عن مخالفته الصريحة لنص الكتاب والسنة المتواترة . فان فضله تعالى عظيم [1] و رحمته واسعة [2] وقد وعد بغفران الذنوب جميعاً [3] .

* * *

الثالثة : هل المغفرة خاصة بالتائبين ام هي عامة ؟

زعمت المعتزلة اختصاصها بمن يموت عن توبة وندم واستغفار .

لكن في نصوص الكتاب والسنة صراحة في عمومها لمن مات عن ايمان ،

١ــ «يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئآتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ــ الانفال : ٢٩ » .

٢ــ « قال عذابي اصيب به من أشاء . و رحمتي وسعت كل شيء ــ الاعراف : ١٥٦ » .

٣ــ « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . ان الله يغفر الذنوب جميعاً . انه هو الغفور الرحيم ــ الزمر : ٥٣» .

فان كان تائباً فيموت مغفوراً له كمن لا ذنب له ، وغيره يموت مرجـواً لأمره تعالى اما يعذبه على قدر استحقاقه ثم يغفر له ، أو يتفضل عليه بالغفران من اول امره بلاتعذيب .وان فى كثير من العبادات الواجبة ، والاعمـال الصالحة ، لمطهرة للذنوب حتى الكبار ، فضلا عن الصغائر، فانها مغفورة بذاتها على شرط اجتناب الكبائر [1] .

قال تعالى : « واقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فان الله لايضيع اجر المحسنين ـ هود: ١١٤ ـ ١١٥» .

وقد شبه رسول الله ﷺ الصلوات الخمس بنهر على باب الدار يغتسل فيه صاحبها كل يوم خمس مرات ، فقال : « أكان يبقى فى جسده من الدرن شيء ؟ ». قال الامام ابو جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ: « وهكذا مثل الصلاة مثل النهر الجارى، كلما صلى صلاة كفرت مابينهما من الذنوب » [2] .

وقال ﷺ : « اذا اتى العبد بسيئة ، قال الملك الموكل بحسناته لصاحب السيئات: لاتعجل، عسى ان يتبعها بحسنه تمحوها. فان الله عزوجل يقول: ان الحسنات يذهبن السيئات » [3] .

وقال تعالى : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا . ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم [4] . ان ربك واسع المغفرة ـ النجم : ٣١ـ٣٢» .

وقال : « ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا

١ـ راجع : بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥١ باب ٢٧ من كتاب العدل والمعاد .

٢ـ انظر : وسائل الشيعة ج ٣ ص ٧ باب ٢ من ابواب اعداد الفرائض

٣ـ البرهان فى تفسير القرآن للبحرانى ج ٢ ص ٢٣٦ حديث ٣

٤ـ اللمم : صغار الذنوب

كريماً ـ النساء : ٣١».

والآيات والروايات المطلقة فيهذا الباب كثيرة جداً كثرة تتناسب مع سعة رحمته تعالى الشاملة . وقد تواترت الروايات [١] بشأن المستخلصين من النار الفائزين برحمته تعالى ، جزاء على ثبات ايمانهم . حيث الايمان من اكبر الطاعات، والله لا يضيع أجر من احسن عملا. « وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم ـ البقرة : ١٤٣».

قال المحقق نصير الدين الطوسى ـ قدس سره ـ فى تجريد الاعتقاد : « وعذاب صاحب الكبيرة ينقطع ، لاستحقاقه الثواب بايمانه ، ولقبحه عند العقلاء». قال العلامة ابن المطهر الحلى ـ رحمه الله ـ فى شرحه : « الحق ان عقاب اصحاب الكبائر منقطع ، والدليل عليه وجهان (الاول) : انه يستحق الثواب الدائم على ايمانه ، لقوله تعالى : فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . والايمان اعظم افعال الخير، فاذا استحق العقاب بالمعصية فاما ان يقدم الثواب على العقاب ، وهو باطل بالاجماع، لان الثواب المستحق بالايمان دائم . أو يقدم العقاب على الثواب ـ وهو المطلوب ـ أو يجمع بينهما ـ وهو محال . (الثانى) : يلزم فى من عبد الله تعالى مدة عمره ثم يعصى بمعصية مع بقاء ايمانه ان يبقى مخلداً فى النار كمن اشرك بالله مدة عمره، وذلك محال لقبحه عند العقلاء » [٢] .

* * *

الرابعة : هل المراد بالاحباط تأثير العمل اللا حق فى بطلان العمل السابق، بمعنى انقلابه فاسداً من الأول ، بعد ان كان قد وقع صحيحاً ؟ ام المراد ابطال اثره فى المستقبل من مثوبة وغيرها من آثار كانت مترتبة عليه لولا الاحباط ؟

لاشك ان المفروض الاول باطل ، اذ لا تأثير للمتأخر فى المتقدم وجوداً ،

١ـ راجع : بحار الانوار ج ٨ ص ٣٥٥ حديث ٨ . وص ٣٦٠ـ٣٦٣ .

٢ـ شرح التجريد المسألة الثامنة فى انقطاع عذاب اصحاب الكبائر ص ٢٣٣

الا اذا كان بمعنى بطلان المتقدم واقعاً ، لما فى علم الله : ان شرطه المتأخر (وهو عدم وجود العمل اللاحق) لا يتحقق فى ظرفه . الامر الـذى ليس من الانقلاب الحقيقى . وانما هو انكشاف للواقعية التى كانت معلومة عندالله وخافية علينا.

مثلا اذاكانت الموافاة على الايمان شرطاً فى صحة الاعمال ، فالمرتدالذى يموت على الكفر ، فاقد لهذا الشرط فى ظرف الواقع ، ومن ثم فان اعمـاله جميعاً كانت باطلة من يومهـا الاول ، و ينكشف ذلك لنا عنـد ما يموت على الارتداد .

* * *

الخامسة : هل الفاسق مؤمن ام كافر اموسط بين الأمرين ؟

أثبتت المعتزلة للفاسق منزلة بين المنزلتين ، لا هو باق على ايمانه ولا هو مرتد الى الكفر والجحود . قالوا : صاحب الكبيرة لايسمى مؤمنا ولاكافراً،وانما يسمى فاسقاً . اما الاول ، فلان مرتكب الكبيرة يستحق الذم واللعن والاستخفاف والاهانة ، ولا شيء من ذلك يصلح لشأن المؤمن الذى يستحق المـدح والتعظيم والموالاة . وقد سموا من خالفهم فى هذا الرأى بالمرجئة [1] . واما الثانى ، فلان الكافر هو من يستحق العقـاب العظيم ، ويختص باحكام مخصوصة ، وله حالة جحود لنعم الله تعالى عليه ، الامر الذى لاينطبق على مرتكب الكبيرة . وخالفهم فى هذا الرأى الخوارج [2] .

وهى ـ ايضاً ـ من المسائل التى اختلفنا فيها مع اصحاب الاعتزال ، لزعمهم ان من شرط الايمان هو العمل بالأركان [3] . فأخـذوا من فروع احكام الاسلام

١ـ راجع : شرح الاصول الخمسة لقاضى القضاة ص٧٠١ـ٧١١ .

٢ـ راجع : نفس المصدر ص٧١٢ .

٣ـ الايمان عند ابى على وابى هاشم عبارة عن اداء الطاعات ،الفرايض دون النوافل ـ

قيداً في ثبوت اصوله ، ومن ثم فان المشروط والمقيد بشيء ينتفي عند فقد شرطه وقيده . قال القاضي : لأن الأمة اتفقت على ان ركعتي الفجر [1] من الدين ، واذا ثبت انه من الدين ثبت انه من الايمان ، لان الدين والايمان واحد [2] !

قلت : الايمان عندنا عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان . اما فعل الطاعات واجتناب المعاصي ، فهو من آثار الايمان المترتبة عليه مع الالتفات اليه ، ويختلف حسب اختلاف درجة الايمان وقوته ، كالعقل حسب درجاته في الكا ل يؤثر في اتزان الانسان في افعاله واجتناب القبائح . فكما لايصح ان يقال لكل مرتكب قبيح : انه فاقد للعقل اطلاقاً، كذلك لايصح نفي الايمان عن مرتكب المعصية اذا لم يكن عن جحود .

ومن ثم فان الفاسق باق على ايمانه، وهو الذي يدعوه الى التوبة والاستغفار، ولولاه لم يتب ولم يكن يثوب . نعم اذا كان مرتكب الكبيرة جاحداً لحرمتها بما يرجع الى انكار قول الرسول وجحد رسالته ـ العياذ بالله ـ لكان مرتداً عن الايمان وداخلا في حد الكفر ، وبذلك كان قد قطع حبل الله المتين، الذي اعتصم به عباده المؤمنون ، فلا آصرة تربطه مع الله سوى الرجوع الى حظيرة الايمان .

اما استحقاقه المذمة والاهانة على ارتكاب المعصية ، فلا يتنا في مع استحقاقه الاجلال والتعظيم على ثباته على الايمان ، لانهما جهتان مترتبتان على عنوانين لا يمس احدهما الآخر ، فيذم على جهة ويمدح على اخرى ، كما يقبح انسان على

← واجتناب المقبحات . وعند ابي الهذيل عبارة عن اداء الطاعات الفرائض منها و النوافل واجتناب المقبحات . وقد اختاره قاضي القضاة . انظر : شرح الاصول الخمسة ص ٧٠٧ـ ٧٠٨ .

١ ـ يعني نافلته حسب اختياره مذهب ابي الهذيل في كون النوافل من الايمان .

٢ ـ نفس المصدر ص ٧٠٨ .

قبيحة ارتكبها ، ويستحسن فعله الآخر ، اذا كانا على جهتين وبعنوانين لاصلة بينهما .

واما التساوى بين الدين والايمان فلا موضع له ، بعد ان كان الدين عبارة عن مجموعة قوانين وانظمة لتنظيم الحياة الفردية والاجتماعية فى اكمل نظام كافل لسعادة الدارين. فليس الدين سوى الطريقة المستقيمة التى شرعها الله تعالى ، ويجب على المكلفين السير عليها تأميناً لسعادتهم المنشودة .

اما الايمان فهو نفس الاعتقاد بالله وحده لا شريك له ، والتصديق برسوله فيما جاء به من عند الله . وغير خفى ان التصديق غير العمل ، وكان الدين هو العمل .

* * *

فرضية الاحباط فى خطوات :

و بعد فالصحيح عندنا فى مسألة الاحباط ومتفرعاتها هو التفصيل التالى :

١ـ صريح الكتاب العزيز : ان الموافاة على الايمان شرط فى قبول الاعمال الصالحة ، فلا مثوبة على حسنة مع الكفر . ولعل الحبط بشأن الكافر الذى يموت على الكفر اجماعى وفق نص الكتاب .

قال تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ، و يقولون حجراً محجوراً . وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ـ الفرقان : ٢٢-٢٣» .

ولعل معترضاً يقول: هلا كان ذلك ظلماً وتضييعاً لصالح الاعمال، ومخالفاً لقوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ؟.

قلنا : لا ظلم مع الاشتراط ، ويجوز عند العقل ان يكون استيفاء الأجر والمثوبة على الاعمال الحسنة ، مشروطاً بوجود علائق عبودية بين العبد ومولاه ،

ولا يقطعها بالكفر والارتداد والخروج ضد مولاه في طغيان عارم .

اما قوله تعالى : « انا لا نضيع اجر من احسن عملا ـ الكهف : ٣٠ » . وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . وغيرهما من آيات . فالجواب عنها من وجهين :

الاول : تخصيص عموم هذه الآيات بغير من يموت على كفر ، فان آيات الاحباط اخص نسبة من هذه الآيات ، والخاص يصلح مخصصاً للعام . فيصبح الكافر فقط محروماً من الاجر اطلاقاً ، لا في هذه الحياة ، ولا في الآخرة .

الثاني : ان تبقى عمومات الأجر والجزاء على حالها في التعميم «الناس مجزيون باعمالهم ان خيراً فخير ، وان شراً فشر». غير ان المثوبات الأخروية خاصة بالمؤمنين فالكافر كالمؤمن يرى خير عمله الحسن ، لكن في هذه الحياة فقط . « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الارض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ـ القصص: ٨٣ » .

وهذا الوجه الثاني اوفق بعمومات الأجر وقانون العدل والانصاف . قال تعالى: «ورحمتي وسعت كل شيء . فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ الاعراف: ١٥٦». فمن رحمته الواسعة هو عمومها للكافر والمؤمن مقيدة بهذه الحياة الدنيا ، اما في الآخرة فهي خاصة بالمؤمنين .

وقال : «تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ـ مريم : ٦٣».

وقال: «سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض. اعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ـ الحديد : ٢١» .

والخلاصة : الثابت ـ يقيناً ـ من حبط اعمال الكفار هو اندثارها هباء في دار اخرى لاحظ لهم فيها ولا نصيب .

قال تعالى :«الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز ، من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وماله في الآخرة

من نصيب ـ الشورى : ٢٠» .

وقال : «فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، وماله فى الآخرة من خلاق (اى نصيب) . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ـ البقرة : ٢٠٠» .

والآيات من هذا القبيل كثيرة ، دالة على ان الكافر قد يكون موفراً عليه فى هذه الحياة ، وربما جزاء على اعمال حسنة يقوم بها ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . وانا لانضيع اجر من احسن عملا . فتحقيقا لهذا العموم فى الجزاء ، يجازى الكافر ايضاً على حسنات يعملها ، لكن بالنظر الى اختصاص مثوبات الحياة الاخرى بالمؤمنين ، تختص مثوباته بهذه الحياة الدنيا .

وهذا يتوافق مع قولنا بالاستحقاق ايضاً ، كما لايخفى .

* * *

٢ـ ان السيئة مهما بلغت حجماً وعدداً فانها تسقط بالتوبة «التائب من الذنب كمن لاذنب له[1]» . فالنادم على معصية اذا استغفر الله ، وقام بشرائط الانابة الى الله وتاب توبة نصوحاً ، غفر الله له جميع ذنوبه ، «قل ياعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم ـ الزمر : ٥٣» . وهذا اجماع من الامة ، لصراحة الكتاب وتواتر السنة القطعية .

نعم اختلفوا فى ان التوبة بذاتها تسقط العقاب أم لمزية ثوابها على عقاب المعصية التى ارتكبها ؟ . كما اختلفوا ـ ايضاً ـ فى ان سقوط العقاب بالتوبة تفضل ام ذاتى واجب ؟

لكن لاتأثير ـ عملياً ـ لأمثال هذه المباحث ، بعد ثبوت اصل الاسقاط ، وان كان بحث عنها كبار ائمة علم الكلام امثال المحقق نصير الدين الطوسى[2]

١ـ الكافى الشريف ج٢ ص٤٣٥ برقم ١٠ باب التوبة .

٢ـ انظر تجريد الاعتقاد بشرح العلامة ابن المطهر الحلى ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠

والقاضي عبدالجبار [1] وغيرهما من العلماء . وللبحث عن شروط التوبة وآدابها مجال آخـر .

* * *

٣ـ الاحباط ـ بمعنى محق الحسنات بسيئة لاحقة ـ باطل عندنا [2] اذ لا دليل عليه، لا من العقل ولا من النقل ، فضلا عن مخالفته لعموم الكتاب والسنة ، ومنافاته لاصول العدل والحكمة في باب المجازاة :ـ

اولا : اذا كنا نقول في باب المجازاة بالاستحقاق ـ كما عليه العدلية ـ فما الذى دعا بسقوط مثوبات كان يستحقها المحسن ازاء اعماله الحسنة ، بمجرد سيئة ارتكبها ، لغلبة شهوة او شرائط أخر وافته في ذلك ، من غير ان يكون قد طغى على مولاه ولا قاطعاً لأواصر العبودية التى كانت ترتبطه مع مولاه ؟ !

نعم لو كنا نقول بأن المؤمن اذا عصى خرج عن الايمان ـ كما يقوله المعتزلة ويثبتون له منزلة بين المنزلتين ـ لكان لهذا الاحتمال الباطل مجال ، لكنا رفضنا هذا الرأى ، وان الفاسق ـ عندنا ـ باق على ايمانه مالم يجحد او ينكر الرسالة ، ومن ثم فهو كما يستحق مذمة وعقاباً على معصيته ، كذلك يستحق مدحاً وثواباً على ثباته على الايمان وسائر اعماله الصالحة . ولا تنافي بين الامرين ـ حسبما تقدم ـ . فيعاقب عقاباً منقطعا ثم يثاب على الحسنات ، اذ الم يشمله الغفران من اول الامر .

ثانياً : معنى تقييد المثوبات واشتراطها بعدم لحوق سيئة أبداً ، هو اشتراط العصمة طول العمر كما في الانبياء والأئمة المعصومين ! وهل من العدل والحكمة

١ـ انظر شرح الاصول الخمسة لقاضى القضاة ص ٧٩٠ فما بعد .

٢ـ قال العلامة المجلسى : المشهور بين متكلمى الامامية بطلان الاحباط والتكفير ، بل قالوا باشتراط الثواب والعقاب بالموافاة . قال : وذهبت المعتزلة الى ثبوتهما . بحار الانوار ج٥ ص٣٣٢ .

ان يشترط المولى الكريم، على عباده ـ الذين خلقهم على درجات من ضعف وعجز تجاه نزعات ومشتهيات نفسية وغيرها من مغريات ـ ان لا يرتكبوا ذنباً طول حياتهم، كي يفوزوا بثواب مايعملون من الصالحات ؟ ! . وهل هذا ممكن ؟ ! وهل يمكن لأحد ان يتخرج من الايفاء بهذا الشرط بسلام ؟!

ثالثاً : منافاته لعموم الكتاب والسنة واطلاقهما من غير مامخصص اومقيد . قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » . وهذا عام يشمل الاعمال الحسنة التى قام بها مرتكب السيئة المتأخرة ايضاً .

وهكذا قوله : «ان الله لايظلم مثقال ذرة ، وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيماً ـ النساء : ٤٠» . والعقل يرى ـ فى بدء نظره ـ من الظلم ان تمحق سيئة واحدة لاحقة حسنات تقدمتها ، والله لايظلم من حسنات العباد حتى مثقال ذرة منها ، فكيف بالحسنات الجسام ؟ بل ومن فضله ولطفه بعباده ان يضاعف حسناتهم على الاطلاق ، سواء أكانت سابقة على السيئة ام لاحقة . هذا مايفيده اطلاق الآية، ولامقيد لها على ماسنذكر .

رابعاً : منافاته لقانون التعادل بين الذنب والعقاب ، وقد قال تعالى : «ومن جاء بالسيئة فلايجزى الامثلها وهم يظلمون ـ الانعام : ١٦٠ » . وقال : « والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ـ يونس : ٢٧» .وقال : «من عمل سيئة فلايجزى الامثلها ـ غافر : ٤٠» . وقال : «وجزاء سيئة سيئة مثلها ـ الشورى : ٤٠» .

فاذا كان الله ـ وهو العدل الحكيم ـ يقول : جزاء سيئة سيئة مثلها . فما الموجب للقول بأن سيئة واحدة مهما كان قدرها تمحق حسنات جساماً كانت سبقتها ؟! وهل هذا الاظلم وجور وحيف ، واضاعة صريحة لمثوبات اعمال صالحة كانت خالصة لله وحده لاشريك له . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

عموم آيات التوفية

ان مراجعة عابرة لآيات التوفية فى القرآن ـ وهى كثيرة جداً ـ تجعلنا نطمئن بعموم الجزاء على الأعمال ان حسنة وان سيئة ،حسب الأثر الوارد : «الناس مجزيون باعمالهم ان خيراً فخير وان شراً فشر » . ولامخصص لها فيما فحصنا ، فيما عدا خصوص الكفار اومن يرتدعن دينه فيموت كافراً .وقدتقدم بعضها ،واليك نماذج أخر :

قال تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ـ الانعام : ٦٠» .

وقال : «للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ـ النحل: ٣٠ » .

وقال : «من جاء بالحسنة فله خير منها ـ النمل : ٨٩. والقصص : ٨٤».

وقال : «للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة : الزمر : ١٠» .

وقال : «من يقترف حسنة نزدله فيها حسناً ،ان الله غفور شكور ـ الشورى: ٢٣ » .

هذه الآيات كلها عامة شاملة لكلتا الصورتين سواء ألحقت الحسنة سيئة ام لم تلحقها ! وفى الآية الأخيرة صراحة فى هذا العموم ، حيث اشار الى جانب غفرانه تعالى ، فالحسنات اذا كانت خالصة لله فالله يشكر عليها ويقدرها ويغفر لصاحبها من ذنوبه سواء أتقدمتها ام تأخرت عنها !

وهكذا قوله تعالى : «انا لانضيع اجر من احسن عملا ـ الكهف : ٣٠» عام.

وقوله : «فاستجاب لهم ربهم أنى لااضيع عمل عامل منكم من ذكر اوانثى بعضكم من بعض ـ آل عمران : ١٩٥» .

وقوله : «وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤوف رحيم ـ البقرة:

١٤٣» . فمقتضى رأفته تعالى ورحمته ان لايضيع اجر الايمان حتى من العصاة ، حيث الايمان من أفضل القربات .

وقوله تعالى :«ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ـ آل عمران : ٢٥»

وقوله : « ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ـ البقرة : ٢٨١ . وآل عمران : ١٦١» .

وقوله : «لها ماكسبت وعليها مااكتسبت ـ البقرة : ١٨٦».

وقوله : «ليجزى الله كل نفس ماكسبت ـ ابراهيم : ٥١» .

وقوله : «اليوم تجزى كل نفس بماكسبت لاظلم اليوم ـ غافر :١٧» .

وقوله : «ولتجزى كل نفس بماكسبت وهم لايظلمون ـ الجاثية : ٢٢».

وقوله : «كل نفس بماكسبت رهينة ـ المدثر : ٣٨» .

الآيات كلها فى صياغة عموم ، بصورة تأبى عن التخصيص حسب ظاهر تعبيرها ، حيث فرضت اعفاء اى حسنة من حسنات العبد ظلما به ، حتى ولو كانت ملحوقة بسيئة ، اذلاتجزى سيئة الابمثلها ، اما محق جميع الحسنات فليس جزاء بالمثل ، فضلا عن قبحه العقلى على ماهو معلوم .

وقال تعالى : «فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلاكفران لسعيه وانا له لكاتبون ـ الانبياء :٩٤» وقداسلفنا ان مرتكب المعصية لايخرج من الايمان فبعموم هذه الاية الكريمة تكون اعماله الصالحة جميعاً المتقدمة والمتأخرة مشكورة له مثبتة فى سجل حسناته محفوظة .

وقال : «وان ليس للانسان الاماسعى ، وان سعيه (على الاطلاق) سوف يرى ـ النجم : ٤٠» .

وقال : «لتجزى كل نفس بماتسعى ـ طه : ١٥» .

وقال تعالى :اولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ماعملوا ،ونتجاوز عن سيئاتهم

فی اصحاب الجنة ، وعد الصدق الذی کانوا یوعدون ـ الأحقاف : ١٦» .

ولعلها أصرح آیة فی عموم التوفیة ، وان لاحبط بشأن المؤمن حتی ولو کان مرتکباً للذنب ، فـان ذنوبه سوف تغفر وتتدارکه رحمة الله الواسعة التی کتبها للذین یتقون .

فقد وعد تعالی ـ فی هذه الآیة الکریمة ـ ان یتقبل حسنات المؤمنین ولم یشترط علیهم العصمة من الذنوب طول الحیاة ، کما هو لازم القول بالاحباط علی مذهب اهل الاعتزال .

والآیات من هذا القبیل کثیرة فی القرآن ، وهی حسب ظاهر تعبیرها آبیة عن التخصیص فضلا عن تکاثرها وتظافرها ، الامر الذی بحاجة الی مخصص قـوی صریح ، والمفروض فقد هذا المخصص علی ماسنبین .

* * *

اختصاص آیات الحبط بالکفار

أما الآیات التی جاء فیها ذکر الاحباط فکلها خاصة بالکفار والمشرکین ممن یموت علی الکفر والجحود : ـ

قال تعالی : «ما کان للمشرکین ان یعمروا مساجد الله شاهدین علی انفسهم بالکفر ، اولئك حبطت اعمالهم وفی النار هم خالدون ـ براءة : ١٧» .

وقال تعالی ـ اشارة الی أمم سابقة کفرت ـ : «اولئك حبطت اعمالهم فی الدنیا والآخرة واولئك هم الخاسرون ـ براءة : ٦٩» .

وقال : «اولئك الذین کفروا بآیات ربهم ولقاءه فحبطت اعمالهم ـ الکهف : ١٠٥» .

وقال : «اولئك لم یؤمنوا فأحبط الله اعمالهم ـ الاحزاب : ١٩» .

وقال : «ذلك بأنهم کرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم ـ سورة محمد : ٩» .

وقال : «ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم ـ سورة محمد : ٢٨» .

وقال : «ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعدماتبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط اعمالهم ـ سورة محمد : ٣٢».

وقال : «مثل الذين كفروا اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، لايقدرون مماكسبوا على شيء ـ ابراهيم : ١٨» .

وقال : «وقال الذين لايرجون لقاءنا ـ الى قوله ـ وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ـ الفرقان : ٢٣» .

الى نظائرهامن آيات تخص حبط اعمال الكافربالله الجاحد للنبوة المكذب لرسالة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .ولايملك القائل بعموم الحبط دليلاذاصراحة من الكتاب العزيز، وبالتالى فان العمومات المتقدمة بموافاة كل انسان جزاء اعماله ان خيراً فخير وان شراً فشر،باقية على شمولها لاعمال مرتكب الذنب ايضاً . خرج منها منكر الرسالة وبقى الباقى ـ اطلاقاً ـ تحت العموم . الامرالذى تقتضيه قواعدعلم الأصول والبيان .

* * *

هل فى آيات الحبط عموم ؟

قد يزعم البعض [١] ـ احتمالا ـ دلالة آى من الكتاب على عموم الحبط ، وعدم اختصاصه بمن يموت كافراً . وهووان لم يذكر من تلك الآيات شيئاولااشار اليها بالخصوص ، وانماذكر ذلك تعبيراً عابراً ،ومن ثم فان كانت نظرته الى آيات الحبط المتقدمة فهى كانت خاصة بالكفار والمشركين . وان كانت الى غيرها فلم يبين ، ونحن فى عرضنا لآيات القرآن فى خصوص مسألة الاحباط عثرنا على

١ـ انظر : القول السديد فى شرح التجريد لسيدنا الشيرازى ص٣٩٦ .

آيات لعلها ذات دلالة ظاهرية ـ فى بدء النظر ـ على عموم الحبط ، نذكرها فيما يلى : ـ

١ـ قال تعالى : «فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . اولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب ـ البقرة : ٢٠٠ـ٢٠٢».

فاذا ارجعنا الاشارة فى قوله : « اولئك » الى خصوص الفئة الثانية ، كانت الآية ـ فى بدء النظر ـ دالة على اختصاص توفية المثوبات بهم ، وان لاحظ للفئة الاولى فيما اكتسبوه من الحسنات . والآية ـ بظاهرها ـ عامة تشمل ما اذا كان من الفئة الاولى مؤمنون معتقدون بالله ومصدقون برسالة نبينا ﷺ !

قلنا : هذه الاستفادة من الآية خاطئة ، لانها نزلت تعريضاً بشأن المشركين ، كانوا اذا وقفوا بالموقف ذكروا آباءهم ونوهوا بأمجاد جاهلية تفاخراً على بعضهم واذا سألوا الله شيئاً لم يتجاوزوا مطاليب سافلة ابلاً وغنماً ورقيقاً وظفراً على اعداء ، ولا يسألونه الجنة والمغفرة والرضوان ، حيث فقد العقيدة بالبعث والنشور «قالوا ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ـ المؤمنون : ٣٧» . ومن ثم ذكر تعالى : «وماله فى الآخرة من خلاق» .

ولا شك ان الذى لا خلاق له فى الآخرة هو الكافر المحض ـ حسبما تقدم ـ « وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » . اما الفئة الاخرى ـ و هم المؤمنون بيوم المعاد ـ فيسألون الله تعالى خير الدنيا والآخرة والمغفرة والنجاة من النار ، فهؤلاء لهم نصيب فى الآخرة : «يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وان الله لا يضيع اجر المؤمنين ـ آل عمران : ١٧١» .

قال ابن عباس : كان قوم من الاعراب يجيئون الى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً.

فأنزل الله فيهم « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، ومالـه فى الآخرة من خلاق » . ويجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. فانزل الله فيهم «اولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب» .

وعن مجاهد : كان اهل الجاهلية اذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آباءهم فى الجاهليـة وأيامهم وانسابهم فتفاخروا ، فانزل الله ... الخ .

وعن ابن الزبير : كان الناس فى الجاهلية اذا وقفوا بالمشعر الحرام دعوا فقال احدهم : اللهم ارزقنى ابلا ، وقال الآخر : اللهم ارزقنى غنما ، فانزل الله... الخ .

وعن السدى : كانت العرب اذا قضت مناسكها واقامت بمنى ، لا يذكر الله الرجل منهم ، وانما يذكر اباه ، ويسأل ان يعطى فى الدنيا [1] .

وعن الامام ابى جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام : انهم كانوا يجتمعون، يتفاخرون بالآباء ، وبمآثرهم ، ويبالغون فيه [2] .

هذا فيما لو كانت الاشارة فى «اولئك» الى خصوص الفئة الثانيـة ، اما لو ارجعناها الى كلتا الطائفتين ، كان المعنى : ان لكل نصيبه حسبمـا يبتغيه ان دنياً وان آخرة ، نظير قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزد له فـى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب ـ الشورى ٢٠ » .

بل وحتى المؤمن اذا كان همه الدنيا كانت هى نصيبه من حظ الحياة ، ولا

١ـ الطبرى ـ التفسير ـ ج ٢ ص ١٧٤ . والدر المنثور ج ١ ص ٢٣٢ . واسباب النزول للواحدى ص ٣٤ .

٢ـ التبيان للشيخ الطوسى ج ٢ ص ١٧٠. ومجمع البيان ج ٢ ص ٢٩٧. والصافى ج ١ ص ١٧٨ . والعياشى ج ١ ص ٩٨ .

حظ له فى الآخرة ، ذلك الحظ الاوفر . حيث قصور نظره وابتذال همته . كما روى فى قوله تعالى : « ان الذين يشترون بعهدالله وأيمانهم ثمناً قليلا ، اولئك لاخلاق لهم فى الاخرة ـ آل عمران : ٧٧ » انهانزلت فيمن اخذ مالا بيمين فاجرة[١] . فهؤلاء ، وان كانوا مؤمنين بحسب الظاهر ، لكنهم فى واقع باطنهم لا طمع لهم فى الاخرة . كما روى عن النبى ﷺ : « ان الله يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم [٢] » يعنى المجاهدين فى سبيله لا طماع دنيوية لا عقيدة لهم راسخة ، و ربما كانوا متظاهرين بالاسلام . وكما روى ـ ايضاً ـ انه ﷺ قال : من لبس الحرير فى الدنيا فلاخلاق له فى الآخرة» [٣] . يعنى ذلك الحظ الاوفر الذى يناله المؤمن المعتقد المحافظ .

وعليه فقوله : « اولئك لهم نصيب » اى النصيب الاوفر التام . واما غيرهم من المؤمنين القاصرين فان نصيبهم من الآخرة قليل .

* * *

٢ـ وقال تعالى : «ليجزى الذين أساؤوا بماعملوا. ويجزى الذين احسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الا ثم والفواحش الا اللمم، ان ربك واسع المغفرة ـ النجم : ٣٢» .

ولعل متشبثاً يتشبث بالتقييد الذى جاء فى الآية الكريمة « الذين يجتنبون...» قيداً لقوله : « ليجزى الذين احسنوا الحسنى » . فلا ينال احدأمثوبات اعماله الا اذا كان مجتنباً للكبائر . الامر الذى ينطبق تماماً على مذهب الاحباط ، حيث السيئة اللاحقة تذهب بالحسنات أدراج الرياح !

١ـ تفسير البرهان ج ١ ص ٢٩٢ . والمجمع ج ٢ ص ٤٦٣ . والدر المنثور ج ٢ ص ٤٤ .

٢ـ التفسير الكبير للامام الرازى ج ٥ ص ١٨٧ .

٣ـ مسند احمد بن حنبل ج ١ ص ٤٦ .

قلت : هذا بناء على اعتبار « الذين يجتنبون » بياناً من « الـذين احسنوا » فيكون قيـداً له . لكن قد يستشكل : كيف يصلح الفعل المستقبل بياناً للفعـل الماضي ؟! ومن ثم رجح بعضهم كونه مستأنفاً به ، اى هم الذين يجتنبون . . . الخ . أو يكون الموصول مبتدأ محذوف الخبر ، مدلولاعليـه بقوله : « ان ربك واسع المغفرة » .

وعلى كل تقدير ، ففى التحول من لفظ الماضى اولا الى لفظ المضارع ثانياً نكتة لطيفة ، هى ملاحظة مالجانب الفعل المضارع من دلالته على الدأب والاعتياد الحاصل بالغلبة والأكثرية ، الامر الذى لايثلمه الخروج عنه مرة او مرتين مثلا . فمن كان من عادته المشى بعدالأكل عادة حاصلة بالأغلب ، يصح فى شأنه ان يقال : انه يمشى بعد الأكل . ولايضر بهذا الاطلاق ان لايمشى بعد الأكل احياناً ، اذا لم يخالف عادته رأساً.

فالمؤمن المعتقد هوالذى يلتزم على نفسه بأن يجتنب المعاصى ولايقتربها ، ولايضره الاقتراف أحياناًعلى خلاف المعتاد .وهذا يصدق بشأنه«انه يجتنب الذنوب» اى يحاول بكل جهده اجتنابها وان كان قدتعاكسه الظروف رغم عادته .

ومن ثم قال تعالى ـ بشأن المؤمنين فيما يخص جانب تركهم للمعاصى ـ : «والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ، واذا ماغضبواهم يغفرون ـ الشورى : ٣٧». ولم يقل :«اجتنبوا» لان الماضى يدل على تواصل الاجتناب فى الماضى ،ويثلمه التخلف فى فترة اوفترات. فمن ارتكب كبيرة مرة اومرات طول حياته ، لايصدق بشأنه انه اجتنبها بصيغة الماضى . لكن يصدق بشأنه انه مجتنب اويجتنب المعاصى بصيغة اسم الفاعل اوالمضارع .

ولذلك لما جاء دور معصية خصوص الشرك ، عبر تعالى بصيغة الماضى : «والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها ـ الزمر : ١٧» . لانها معصية غير مغفورة ، وليست بالتى لاتضر بالايمان أن يقترفها المؤمن أحياناً فى حياته !

والخلاصة :انه تعالى ذكر فى الآية الكريمة اولا جانب الايمان وفعل الطاعات وعبر عنه بصيغة الماضى ،دلالة على الاستمرار والتواصل « الذين احسنوا » . ثم ذكر جانب ترك المعاصى واجتناب المحرمات ، وعبر عنه بصيغة المضارع ،دلالة على اعتبار كون المؤمن بانياً على تركها وملتزماً على نفسه اجتنابها ، الامر الذى لايضره الاقتراف أحياناً . «ان الحسنات يذهبن السيئات ـ هود : ١١٤» .

ففى هذا الاختلاف فى التعبير ـ ماضياً ومضارعاً ـ دلالة واضحة على ان سيئة واحدة لاحقة ليست بالتى تمحق الحسنات السابقة بأسرها ، كمايرومه القائل بالحبط! فلامساس للاية بمسألة الاحباط رأساً .

* * *

٣ـ وقال تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى . كالذى ينفق ماله رءآء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر. فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً، لايقدرون على شىء مما كسبوا، والله لايهدى القوم الكافرين ـ البقرة : ٢٦٤» .

ربمايزعم البعض أن فى الآية الكريمة دلالة على الحبط بشأن المؤمنين ايضاً. فان الامتنان والأذى معصية تمحق حسنة الصدقة السابقة ، ومن ثم قال تعالى فى الآية قبلها : « الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ، ثم لايتبعون ماأنفقوا مناً ولاأذى ، لهم اجرهم عند ربهم . ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون . قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ـ ٢٦٢ ـ ٢٦٣» :

قلت : اذا كان من شرط الصدقة ـ وهى عبادة ـ قصد الخلوص والقربة الى الله لانها انفاق فى سبيل الله، فان المنة على المتصدق عليه مناقضة صريحة لماهية الصدقة ، وقلب لها من كونها قربة الى كونها رياء وسمعة ، فضلا عن كونها أذى وهتكاً لشخصية مسلمة كريمة.

فالصدقة مع المنة ليست بصدقة فى حقيقتها ، ومن ثم فلاحسنة كى تمحقها

سيئة ، فلاموضوع فى الآية لمسألة الاحباط !

وهذا نظير ماكان احد الصوفية يرتكبها ، كان يسرق ثم يتصدق به ، زاعماً ان الحسنة تقابل بالعشر والسيئة بواحدة . فقال له الامام عليه السلام : ويلك، اما قرأت : «انما يتقبل الله من المتقين ـ المائدة : ٢٧». وسيوافيك الحديث (ص ٣٩٤) فى بحث التكفير .

* * *

٤ـ وقال تعالى : «يا ايها الذين آمنوا لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى، ولاتجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض . ان تحبط اعمالكم وانتم لاتشعرون ـ الحجرات : ٢» .

رجح سيدنا الطباطبائى دلالة الآية الكريمة على الحبط ، قال : ظاهر الآية ان رفع الصوت فوق صوت النبى صلى الله عليه وآله والجهر له بالقول ، معصيتان موجبتان للحبط، الامر الذى يدلنا على ان غير الكفر من المعاصى ـ ايضاً ـ مايوجب الحبط [1] .

قلت : لاشك ان اصحابنا الامامية متفقون على ان لاحبط فى غير الموت على الكفر . لانه ظلم وقبيح ـ حسبما اسلفنا ـ ومن ثم هبوا جميعاً الى توجيه الحبط فى الاية الكريمة بما يلتئم ومذهبهم فى العدل .

قال العلامة المجلسى ـ رحمه الله ـ : « اعلم ان المشهور بين متكلمى الامامية بطلان الاحباط والتكفير، بل قالوا باشتراط الثواب والعقاب بالموافاة . بمعنى ان الثواب على الايمان مشروط بان يعلم الله منه انه يموت على الايمان . والعقاب على الكفر والفسوق مشروط بان يعلم الله انه لايسلم ولايتوب . وبذلك اولوا الايات الدالة على الاحباط والتكفير [2] » .

قال شيخ الطائفة ـ قدس سره ـ فى تفسير الآية : «ثم أمرهم ـ ثانياً ـ بأن قال : (لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى) على وجه الاستخفاف به صلى الله عليه وآله . فان مجاهداً

١ـ تفسير الميزان ج ١٨ ص ٣٣٥

٢ـ بحار الانوار ج ٥ ص ٣٣٢

وقتادة قالا : جاء أعراب اجلاف من بنى تميم فجعلوا ينادون وراء الحجرات : يا محمد ، اخرج الينا . ولو ان انساناً رفع صوته على صوت النبى ﷺ على وجه التعظيم له والاجابة لقوله، لم يكن مأثوماً .وقد فسر ذلك بقوله (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) فان العادة جارية ان من كلم غيره ورفع صوته فوق صوته ، ان ذلك على وجه الاستخفاف به ، فلذلك نهاهم عنه[1] » .

وبعد فلعل الاية بذاتها ظاهرة فيما نقوله ، وان الحبط فيها يمس جانب رذيلة الاستخفاف بمقام النبى الكريم ﷺ ،المفضى فى نهاية الامر الى الارتداد شيئاً فشيئاً، وان كان صاحبه لا يشعر بذلك ، حيث التعود عليه تدريجياً.

ذلك ان الانسان اذا ارتكب رذيلة مما لم يرتكبها من قبل ، ندم عليها اشد الندم ، لكنه اذا ارتكبها مراراً فان خشيته تقل وخوفه يتضاءل ولا يندم كندمه فى البدء ، وربما أوجب التكرار عادة يعتادها الانسان من غير ان يحس بقبحها شيئاً فشيئاً . فعلى الانسان السائر فى طريق التهذيب والكمال ان يسد على نفسه ابواب المعاصى فى اوائل أمرها ، حيث الانقلاع فى بدء الامر هين وفى الغضون صعب. وربما ينتهى الامر الى مالا يراه قبيحاً أو ذنباً مستنكراً .

وعليه فلاشك ان رفع الصوت فوق صوت النبى ﷺ والجهر له بالكلام بما يشبه الصياح ، خلاف الادب ، واستهانة بمقامه الكريم ، وهى رذيلة قبيحة تؤدى بصاحبها تدريجياً ـ اذا أصر عليها ـ الى الاستخفاف به ﷺ واستحقاره، والتنزل بمقامه السامى الى درجة العبيد و الارقاء ـ العياذ بالله ـ الامر الذى ينتهى فى نهاية المطاف الى استصغار مقام النبوة ، وربما الى انكارها ، واعتبار النبى كأحدهم من سائر الناس، لا مزية له ولا منزلة شامخة، وهو فى حد الكفر والارتداد، وربما بلغه المرتكب لا عن شعوره .

يدل على ذلك شواهد من السورة نفسها :

١ـ تفسير التبيان ج ٩ ص ٣٣٨ .

اولا ـ قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله ـ ١ ـ ». كان احدهم يتقدم على رسول الله فى المشى استكباراً بنفسه واستعظاماً لزعامته على افراد قبيلته كان يحسبهم كثرة ذوى عزة ، تجاه قبيلة النبى ذات قلة فى نظرهم . وهى اهانة بمقام النبى العظيم بلاشك . ومن ثم حذرهم تعالى بقوله : « واتقوا الله » اى احذروا نكال هذه الرذيلة السيئة وهذا الذنب الخطير المؤدى الى الكفر والارتداد أحياناً.

ثانياً ـ قوله : « كجهر بعضكم لبعض ـ٢ـ » يدل على انهم كانوا يحسبون من شموخ مقامه المنيع ﷺ متماثلا معهم وفى مستواهم الهابط من الكرامة والفضيلة، الامر الذى هو ازراء بشأنه ﷺ .

ثالثاً ـ قوله : « ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ـ٣ـ » تعريض بان الذين يخالفون هذا الادب الاسلامى هم ذوو قلوب جافة قاسية لم ترضخ لشريعة الله ومن ثم فلم تتمرن على التقوى والخشية التى هى من لين القلوب ، فهم الى العتو والاستكبار اقرب منهم الى الخضوع والاستسلام .

رابعاً ـ قوله : « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون ـ٤ـ ». اى تمكن الجهل والعماء من قلوبهم فلم يستعدوا بأنفسهم للرضوخ الى تعاليم الاسلام القيمة .

واخيراً ـ فقوله : « ان تحبط أعمالكم وانتم لا تشعرون ـ٢ـ » يعنى ان سوء الادب بمقام النبوة سوف يؤدى الى الارتداد الفضيع ، من غير ان تشعروا بالسقوط تدريجياً الى مهواه السحيق .

التكفير بين العموم والخصوص !

اما تكفير الحسنات للسيئات ـ اجمالياً ـ فمما لاشك فيه، نظراً لصراحة القرآن المجيد والسنة المتواترة في ذلك . لكن هل هذا التكفير عام في جميع الحسنات وبالنسبة الى جميع السيئات اطلاقاً ، ام هناك شروط وقيود وتفصيل ؟

لانستطيع ـ ونحن نرى العدل والحكمة في ذاته المقدسة ـ ان نلتزم بعموم التكفير بصورة مطلقة، اذ أقل نتيجة لهذا الالتزام هو اجتراء اهل الكبائر على اقتراف الذنوب والآثام من غير مامبالاة . فليرتكب المذنب ماترغب اليه نفسه الخبيثة بصورة مستمرة عبر الليالي والأيام ، بل على مـر الساعات والآنات ، مقتنعاً بنفسه انه ملتزم بالصلاة والصدقات ، لقوله تعالى : «ان الحسنات يذهبن السيئات» !

ولعل عمر بن سعد ـ مع اعترافه بمآثم قتل ابن رسول الله ﷺ كان ممن يميل الى هذا المذهب المنحرف في قوله :

فان صدقوا فيما يقولون اننى اتوب الى الرحمان من سنتين [1] .

الامر الذى ينكره الوجدان الشريف ، ويرفضه دأب العقل الرشيد ، فضلا عن منافاته لمقام عدله تعالى وحكمته في التكليف والبعث والزجر والوعد والوعيد.

وفي حديث الامام ابى عبدالله الصادق عليه السلام مع أحد الصوفية دلالة واضحة على فساد هذا المذهب العامي :ـ

قال عليه السلام : «ان من اتبع هواه واعجب برأيه كان كرجل سمعت غثاء العامة تعظمه ، فأحببت لقاءه من حيث لايعرفني . فتبعته يوماً فمر بخباز فتغفله وسرق منه رغيفين . ثم مر بصاحب رمان فاختطف منه رمانتين ، فتعجبت وقلت في نفسي ماحاجته الى هذه السرقة ! ثم لم ازل اتبعه حتى مر بمريض فوضع الرغيفين والرمانتين بين

---

١ ـ اسرار الشهادة عن مقتل ابى مخنف ص٢٣٢ . وتجد صدر الابيات في كامل ابن الاثير ج٣ ص٢٨٣ ومناقب ابن شهر آشوب ج٤ ص٩٨ .

يديه !

قال الامام: فتعرضت له وسألته عن صنيعه ذلك . فقال :لعلك جعفر بن محمد!

قلت : بلى . فقال : فما ينفعك شرف اصلك مع جهلك ! قلت : وما الذى جهلت منه؟

قال : قول الله عزوجل: «من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها » . وانى لما سرقت الرغيفين كانتا سيئتين ، ولما سرقت الرمانتين كانتا سيئتين ،فهذه أربع سيئات . فلما تصدقت بكل واحدة منها كانت لى اربعون حسنة، واذا نقصت منها اربع بقيت ست وثلاثون حسنة !

قال الامام : قلت له : ثكلتك أمك ، انت الجاهل بكتاب الله ، اما سمعت الله عزوجل يقول : « انما يتقبل الله من المتقين » . انك لما سرقت الرغيفين والرمانتين كانت اربع سيئات ، ولما دفعتها الى غير اصحابها بغير رضاهم كنت أضفت الى سيئاتك اربع سيئات أخر ، ولم تصف لك الأربعون ! قال : فجعل يلاحينى [1] فانصرفت وتركته.

قال الامام : بمثل هذا التأويل القبيح المستكره يضلون ويضلون [2] » .

* * *

اذن فلابد من تأويل ماورد فى الكتاب والسنة ما ظاهره عموم التكفير ، اما باختصاصه ببعض الذنوب كالصغائر مثلا ، أو بصورة ما اذا حصل من المرتكب ندم على ما فرط منه ، فاذا قام بحسنة كصلاة وصدقة فى سبيل الله ، كان ذلك من موجبات قبول توبته ، اما وقوع مطلق الحسنات كفارة لمطلق السيئات كبيرة وصغيرة ، سواء أندم عليها ام لم يندم ، كان بانياً على تركها ام مصراً على فعلها،

١ــ لاحاه : شتمه وأبغضه .

٢ــ وسائل الشيعة ج ٦ ص ٣٢٧ . ومعانى الاخبار للصدوق ص ١٤ . والتفسير المنسوب الى الامام العسكرى ص ١٦ واحتجاج الطبرسى ج ٢ ص ١٢٩ــ١٣٠ .

فهذا مما لانستطيع الموافقة عليه ، مادام مذهبنا يرى العدل والحكمة فى افعاله تعالى .

واليك من الآيات ماتعرضت لظاهرة التكفير :

١ـ قال تعالى : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، ان الحسنات يذهبن السيئات . ذلك ذكرى للذاكرين ـ هود : ١١٤» .

وربما تواترت الروايات بشأن الصلوات الخمس ، اذا قام المسلم فتوضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس ، تحاتت خطاياه كما يتحات الورق من الغصن اليابس [١] .

ولنتساءل : هل هذا عام يشمل النادم والمصر ؟ أو الكبائر كلها ؟ فليرتكب اصحاب الجرائم والكبائر مابدا لهم من ذنوب وآثام ، ولا مبالاة ، فان صلاة واحدة من الصلوات الخمس تذهب بالسيئات كلها ، فليصلها ثم يعود الى جناياته ، وهكذا يذنب الذنوب العظام ويعقبها بصلاة لتكون كفارة عن ذنوبه كلها ومطهرة له من الآثام ، حتى ولو كان بانياً على العود والاقتراف على الاستمرار ! ؟ .

فالصحيح فى تفسير الآية أحد وجهين :

الاول : اختصاص ذلك بالصغائر ، الامر الذى نلتزم فيه بالتكفير خاصاً به . فالصغائر ـ وهى الذنوب المغفول عنها غالباً [٢] ـ مغفورة على شريطة الايفاء بالصلوات

١ـ انظر : مجمع البيان ج ٥ ص ٢٠١ . وتحات الورق من الشجر ـ بتشديد التاء ـ : تناثر وتساقط .

٢ـ اختلفوا فى تعيين الصغائر وتمييزها عن الكبائر ، فقيل : ما اوعد الله عليه النار او اوجب عليه حداً . وقيل : كل مانهى الله فهى كبيرة ، لان كبر الذنب انما هو بالقياس الى عظم شأن المولى . وقيل ليست فى الذنوب صغيرة الا بالقياس الى اكبر منها ، فبعضها اكبر وبعضها اصغر قياساً نسبياً لاحقيقياً . انظر : مجمع البيان ج٣ ص٣٨ . ←

الخمس تامة كاملة .فقد وعد تعالى بغفران الصغائر ، لكن وعداً مشروطاً باجتناب الكبائر [1] ومن الكبائر ترك الصلوات المفروضة او الاستهانة بها ،قال الامام الصادق عليه السلام :«لاتنال شفاعتنا مستخفاً بصلاته [2]» والاستخفاف بالصلاة بذاته كبيرة موبقة . فمن شرط غفران الصغائر الاهتمام بالصلاة وحسن أداءها والمحافظة على حدودها والاتمام من ركوعها وسجودها وماالى ذلك من احكام وآداب مفروضة .

→ والصحيح انهناك كبائر وصغائر . وفي بعض الروايات تعداد الكبائر بالخصوص ، وهي جميع الذنوب المعروفة ، وربما بلغت سبعين ذنباً تقريباً .وجاء في حديث شرائع الدين عن الامام الصادق ـ ع ـ برواية الاعمش ،اشارة الى كثير منها . راجع : بحار الانوار ج ١٠ ص٢٢٢ ـ ٢٢٩ .

قال الامام الصادق ـ ع ـ «الذنوب كلها شديدة، وأشدها مانبت عليه اللحم والدم» . الكافي الشريف ج٢ ص٢٧٠ .والبحار ج٧٣ ص٣١٧ . وراجع الكافي باب الكبائر ج٢ ص٢٧٦ ـ ٢٨٧ . وباب استصغار الذنوب ص٢٨٧ . وباب الاصرار على الذنب ص٢٨٨. وغيرها من ابواب مناسبة .

وعليه فالصغيرة عندنا هي الذنوب التي ترتكب عفواً وربما لاعن قصد وشعور . لكن لابمثابة تكون عذراً . وذلك اكثر مايبتلى به الناس في حياتهم اليومية ،من دون مامبالاة بالتحفظ على حقوق معاشرة الاخوان بتلك الدقة التي عينها الاسلام ، وماشبه ذلك . ولعلنا في مجال آخر مناسب نتعرض لهذه المسألة بتفصيل وتوضيح اكثر .

قال الامام الصادق ـ عليه السلام ـ: «لاصغيرة مع الاصرار ، ولاكبيرة مع الاستغفار » الكافي الشريف ج٢ ص٢٨٨.اذ الصغيرة انما تقع من المؤمن المحافظ عفواً مرة اومرتين. اما مع الاصرار فهي خطيئة كبيرة وربما ذهبت بالايمان. راجع الكافي ج٢ ص٢٨٤ـ٢٨٥.

١ـ في قوله تعالى:«ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ـ النساء : ٣١ » .

٢ـ انظر: وسائل الشيعة ج٣ ص١٥ ـ ١٨ باب تحريم الاستخفاف بالصلاة والتهاون بها ٦/ من اعداد الفرائض ونوافلها .

الثانى : ان تفسر الحسنات بالتوبة والاستغفار . كما فى قوله تعالى : «الامن ظلم ثم بدل حسناً بعدسوء فانى غفور رحيم ـ النمل : ١١» . اى تاب بعد معصية. قال السيد شبر : توبة بعدذنب ، فى غير المعصوم . وفى المعصوم : بعدترك اولى[1].

ولاخلاف فى ان التوبة تذهب بالسيئات، اى تسقط عقابها ، حسبماوعدالله تعالى فى الذكر الحكيم . قال تعالى : «وانى لغفار لمن تاب و آمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ـ طه: ٨٢» . « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعدذلك واصلحوا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم ـ النحل ١١٩». وغيرهما من آيات وهى كثيرة .

قال شيخ الطائفة ـ قدس الله روحه ـ : وقوله تعالى : « ان الحسنات يذهبن السيئات » قيل فيه وجهان : احدهما ـ تذهب به على وجه التكفير، اذا كانت المعصية صغيرة . والآخر ـ ان المراد بالحسنات التوبة ، تذهب بالسيئة اى تسقط عقابها . لانه لاخلاف فى سقوط العقاب بالتوبة . قال : وقدقيل : ان الدوام على فعل الحسنات يدعو الى ترك السيئات ، فكأنها ذهبت بها[2] .

وهذا الذى ذكره الشيخ أخيراً يصلح وجهاً ثالثاً لتفسير الآية الكريمة ليصير معنى الاية ـ والله العالم ـ : ان المواظبة على الاعمال الصالحة واتيان الخيرات والرغبة فى الحسنات ، لمما يزيد فى التوفيق ويبعث على ترك السيئات واجتناب الشرور والمفاسد طبعاً ، اذ كلما ازدادت رغبة الانسان فى جهة ازداد بعداً عن جهة اخرى مخالفة لها. والتفس البشرية سريعة التعود على الوضع الذى أنست به، والطريقة التى سلكته فى الحياة اما صلاحاً اوفساداً .

فالانسان الذى يزاول اعماله فى جو صالح تراه لايفكر الافى خير ، ولايستطيع ارتكاب شرور حسبما ألفه من صلاح . وهكذا العكس، الذى يزاول اعماله فى جو

١ـ تفسير شبر (ط القاهرة) ص٣٦٣

٢ـ تفسير التبيان ج٦ ص٨٠ (ط نجف) .

فاسد لايفكر الافي شرور وآثام. وهي طبيعة ثانوية للانسان تحصل على اثر المرونة والالف .

وعليه فقوله تعالى :«ان الحسنات يذهبن السيئات» يعني: ان مرتكب الحسنات المتعود عليها ، لتبلغ به عادته تلك الحسنة ، الى حيث تذهب عن حياته السيئات فلا يرتكبها بحسب ذاته واعتياده على الصلاح، فيالها من عادة حسنة ونعمت!

قلت : وان في الصلاة ـ خصوصها ـ لأثراً تربوياً نفسياً ليس في سائر العبادات . انها تجسيد لمقام العبودية تجاه المعبود العظيم . ان العبد اذا وقف بين يدى مولاه في الصلاة ، ليشعر بضئالة موقفه تجاه رب العالمين . يرى من نفسه ذلك المحتاج الفقير العاجز الحقير، واقفاً بين يدى مولاه الغنى المقتدر العظيم ،ضارعاً اليه خاشعاً متواضعاً ، سائلا راغباً ،طالباً عنايته ورأفته ورحمته.

ومن امعن النظر في مقاطع سورة الفاتحة وسائر افعال الصلاة واذكارها ، ليتجلى له هذا الموقف الخطير وتلك الصلة الوثيقة التي تربط العبد المؤمن الى مولاه الكريم . ومن ثم كانت الصلاة معراج المؤمن.

والعبد المؤمن اذا كان يعاهد مولاه كل يوم خمس مرات في تلك الخشية والخضوع ،والرغبة والرهبة، والمسألة والطلب وابداء الحاجة والافتقار ، اعترافاً بمقام ربه العظيم وسطوته القاهرة . . .لينقلع بنفسه عن ارتكاب القبائح واقتراف الذنوب. استحياء من ربه وخجلا ان يعود الى ربه ناقضاً عهده نابذاً اعترافه واقراره على نفسه بالصغار والهوان !

ومن ثم قال تعالى: «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله اكبر ـ العنكبوت: ٤٥». يعني تلك الصلاة التي اقيمت بحدودها وشرائطها، مع الالتفات الى جوانب فحوى اذكارها وافعالها ، ذات التأثير العميق في الروح وفي تربية التقوى في النفس .

اذن فالحسنات يذهبن السيئات ،اى لايدعن مجالا لارتكابها، اذا كان المحسن

(المصلى) مخلصاً فى احسانه (فى صلاته) تجاه رب العالمين .

* * *

٢ـ وقال تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم و ندخلكم مدخلا كريماً ـ النساء : ٣١» .

اى الصغائر مغفورة على شريطة اجتناب الكبائر .

٣ـ وقال : « يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ـ الانفال : ٢٩» .

اذا كان المؤمن محافظاً على دينه متقياً ربه فى السرو العلن ، جعل الله له نوراً يستضىء به درب الحياة ، وبصيرة فى قلبه يلمس بها حقيقة الأمور . وهذا بطبعه يجتنب الكبائر من الذنوب ولا يقترفها قط ، فتصبح صغائره مغفورة له ، ويدخل على ربه فى كرامة وتبجيل .

٤ـ وقال : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات (اى واظبوا عليها) لنكفرن عنهم سيئاتهم (الصغائر) ولنجزينهم احسن الذى كانوا يعملون ـ العنكبوت :٧» . لان مرتكب الآثام والجرائم الكبار لا يطلق عليه عنوان «عامل الصالحات» . اللهم الا اذا عمل سيئة ثم تاب عنها وندم عليها ، حيث لا خلاف فى غفران ذنبه .

٥ـ « والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون . لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا (من شرك وذنوب قبل اسلامهم [١]) ويجزيهم بأحسن الذى كانوا يعملون ـ الزمر : ٣٣ ـ ٣٥ » . ولو اخذنا باطلاق الاية فالمراد : اذا تابوا عنها . ولا شك ان الذين يصفهم

١ـ هذا التفسير ينظر الى ما بين هذه الاية وسابقتها من تقابل الشرك والاسلام وما يترتب عليهما من آثار ونتائج .

القرآن بهذا الوصف الحسن ويثني عليهم بهذا الثناء الجميل ، هم ممن اذا فعلوا فاحشة ندموا عليها واستغفروا الله، فوجدوا الله تواباً رحيماً .

٦ـ وهكذا قوله :«الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وأضل اعمالهم. والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما انزل على محمد ، وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ـ سوره محمد : ١ـ٢» .

٧ـ وقوله : « ومن يتق الله (فى الكبائر) يكفر عنه سيئاته ـ الطلاق : ٥» .

٨ـ وقوله : « و من يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ـ التغابن : ٩» .

٩ـ وقوله : « ويكفر عنهم سيئاتهم ـ الفتح : ٥ » .

١٠ـ وقوله : « عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم ـ التحريم : ٨ » اى اذا اجتنبتم الكبائر .

وهكذا سائر الايات مما يدل على تكفير السيئات ، يكون مشروطاً بالتوبة أو اذا كان مرتكبها مجتنباً للكبائر . جمعاً بينها و بين ما دل على الاشتراط المذكور ، وان الذنب مما يستحق فاعله العقاب اذا لم يندم ولم يعمل مايكفر عنه.

* * *

١١ـ وقال تعالى: «الا من تاب و آمن وعمل صالحاً، فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، و كان الله غفوراً رحيماً ـ الفرقان : ٧٠» .

هذا التبديل بالأعمال هو أثر طبعى لتبدل الشخص بالتوبة ، من كافر ملحد كانت اعماله واتجاهاته فى الحياة معاكسة للفطرة ، وفى مضادة ارادة الله وتشريعه الحكيم . . .الى مؤمن صادق ، صارت اعماله واتجاهاته موافقة للفطرة وعلى النهج المستقيم الذى اراده الله وشرعه على يد انبياءه العظام .

فمن موجود طالح كان يبغى الفساد فى الارض ، الى شخصية صالحة بناءة

تزدهر بوجوده الحياة العامة .

فربما كانت نفس الاعمال التى كـان يقوم بها حال كفره ، وكان ملؤها الفساد والهدم والتخريب ، انقلبت ببركة الاسلام الى اعمال صالحة يعمر بها وجه الارض ، كبطل كان يضرب بالسيف قتلا ونهباً فى سبيل محاربة الحق ونقض العدالة ،وقداصبح ـ بعداعتناقه الاسلام ـ ذلك الضرب بالسيف والقتل والنهب الذى كان سيئة كبيرة، الى حسنة وجهادفى سبيل الله وفى سبيل اعلاء كلمة الحق ،وبسط العدالة على وجه الارض.

وهكذا الانفاق فى سبيل الصد عن سبيل الله،ليكون عليهم حسرة (الانفال : ٣٦) ينقلب بعدالاسلام فينفق فى سبيل اعلاء كلمة الله ،لتصبح تجارة رابحة لن تبور (فاطر : ٢٩) .

وقد ذكروا فى تفسير الآية وجوهاً اخر ، ذكرها الامام الرازى (التفسير الكبير ج٢٤ص١١٢)والشيخ ابوعلى الطبرسى(مجمع البيان ج٧ص١٨٠) وغيرهما من كبار المفسرين ، انشئت فراجع .

* * *

وهناك روايات ناصة على ان اتباع السيئة بالحسنة يمحقها ويذهب بأثرها. ولابدمن تأويلها ـ كما فى الآيات السالفة ـ بمااذا كانت السيئة صغيرة اوكانت الحسنة مصحوبة بتوبة عن الذنب السابق. فاذا اقترف انسان خطيئة وندم عليها فاراد التوبة والاستغفار ، فان من آداب التوبة ان يقوم بحسنة يقدمها الى الله ، ثم يتضرع اليه ان يغفرله مافرط منه من ذنب . ولعل اكثرية الأحاديث الواردة بهذا الشأن ناظرة الى هذا المعنى، واليك منها :

١ـ قال رسول الله ﷺ : «اتق الله حيث كنت ، وخالق الناس بخلق حسن

واذاعملت سيئة فاعمل حسنة تمحوها [1] » .

٢ـ وقال ـ ايضاً ـ : «فاذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحها سريعاً . وعليك بصنائع الخير ، فانها تدفع مصارع السوء [2] » .

٣ ـ وقال الامام الباقر عليه السلام : « ماحسن الحسنات بعد السيئات ، وما أقبح السيئات بعدالحسنات [3] » .

٤ـ وقال ـ ايضاً ـ : «انى لم أرشيئاً قط أشد طلباً ، ولااسرع دركاً ،من حسنة محدثة لذنب قديم [4] » .

٥ـ وقال الامام الصادق عليه السلام :«من عمل سيئة فى السر فليعمل حسنة فى السر ومن عمل سيئة فى العلانية فليعمل حسنة فى العلانية [5] » .

* * *

الموازنة اوالمحاطة

اما الموازنة التى ذهب اليها ابوهاشم [6] ـ فقال بمقابلة الحسنات مع السيئات ليسقط الأقل بالأكثر مقداراً ويبقى الفاضل من احدهما يثاب عليه اويعاقب محضاً

١ـ امالى الطوسى ج١ ص١٨٩ . والبحار ج٧١ ص٢٤٢ برقم٣ .

٢ـ بحار الانوار ج٧١ ص٢٤٢ برقم٢ عن تفسير على بن ابراهيم

٣ـ أمالى الصدوق ص١٥٣ . والبحار ج٧١ ص٢٤٢ برقم١

٤ـ علل الشرائع للصدوق ج٢ ص٢٨٠

٥ـ معانى الاخبار للصدوق ص٢٥٥ (ط نجف)

٦ـ انظر : شرح الاصول الخمسة للقاضى ص٦٢٨

ـ فمما لادليل عليه في الشريعة ولاشاهد عليه في الكتاب والسنة ، فضلا عن مخالفته لقانون المجازاة على ذوات الاعمال من غير ماصلة بين عمل وآخر في ترتب المثوبة والعقاب . وقدتقدم اطلاق مادل على ان كل عمل بذاته يستحق فاعله جزاء متماثلا لما ارتكبه من خير اوشر .

وعمدة مايبطل هذا المذهب : أن فرضية التحاط بحاجة الى ثبوت السنخية والمناسبة الذاتية بين المتقابلين ، ليوازن احدهما بالآخر ويسقط الأقل ، كما في باب التهاتر في الديون ،فاذا كان له على صاحبه عشرة دراهم ، وكان صاحبه يطلبه ايضاً دراهم، فانه يحصل التهاتر اماقهراً اوبالمواضعة ،لان كلا من الحقين مفروض كونهما نقدين، لااذا كان احدهما نقداً والاخر عرضاً . اواحدهما مال والآخر حق.

وهنا ـ في مسألة الموازنة ـ هل يتحاط نفس العملين ،احدهما خير والاخر شر؟ اويتحاط جزاؤهما من مثوبة وعقوبة؟ مثلا اذاقام المكلف بسيئة هي من مقولة الاعمال كالزنا وشرب الخمر ، اوتجاوزاً بحقوق الآخرين كالغصب وضرب اليتيم . ثم أتى بحسنة هي من قبيل الأذكار كالتسبيحات الاربع، اومزيجاً من الافعال والاذكار كنافلة الليل ،مما لاتناسب بينها وبين السيئات التي قام بها ... فبماذا يتقابل العملان؟

هل لفاحشة الزنا قدر يتقدر عليه التسبيح والتقديس ؟ امهل للصلاة مقياس ودرجات يقاس عليها الغصب وضرب اليتيم ؟

ولئن زعم الزاعم ان الموازنة سوف تلاحظ بين مثوبات الاعمال وعقوباتها!

قلنا: لو فرض ان عقوبة آكل مال اليتيم عشرة من الحيات ،ينهشنه كل يوم عشر مرات وكانت مثوبة تسبيحة واحدة سبعين من الحور العين يتلاعبن معه كل صباح سبعين دورا .فهل يسقط من سبعين حوراً عشرة على قدر الحيات، وينقص من ادوار التلاعب معهن ايضاً عشرة على قدر النهشات التي استحقهن آكل مال اليتيم ؟! وان كانت الدقة في المحاسبة تقتضي سقوط مقدار أقل !

ثم هل الملحوظ ـ حقيقة ـ عند التقابل والموازنة، جانب كم القضية أم كيفها؟

وهل يقاس حجم السيئة مع الحسنة امعددهما ام جانب تأثيرهما ، نفسياً واجتماعياً وما الى ذلك ؟! امذاك موكول الى علمه تعالى حسبما يراه من ترجيح ومقايسة ؟!

كل ذلك مما لم يرد بشأنه دليل لافي الكتاب ولافي السنة الصحيحة . حتى ولو فرضنا ان الفرضية أمر ممكن بالذات. لكن ليس كل ممكن واقعاً ،ولاجاز الاعتقاد به مادام لم ينطق به الشرع المبين . والا كانت بدعة خاطئة في اصول عقائد الدين !

والعجب من بعض ارباب الفضيلة ، أنه حاول تقوية مذهب ابى هاشم فى الموازنة ،لمجرد انها نظرية ذات امكان [1] ! .

* * *

نعم هناك رواية رواها ابو الفتح محمد بن على الكراجكى عن شيخه ابى عبدالله المفيد باسناد متصل الى الامام امير المؤمنين عليه السلام ، قال : «يوقف العبد بين يدى الله تعالى، فيقول: قيسوا بين نعمى عليه وبين عمله ، فتستغرق النعم العمل . فيقولون: قداستغرق النعم العمل ! فيقول : هبوا له النعم، وقيسوا بين الخير والشر منه ،فان استوى العملان أذهب الله الشر بالخير وأدخله الجنة، وان كان فضل اعطاه الله بفضله، وان كان عليه فضل، وهو من أهل التقوى ولم يشرك بالله تعالى واتقى الشرك به،فهو من اهل المغفرة ، يغفر الله له برحمته ان شاء ، ويتفضل عليه بعفوه [2]» .

لكن الرواية من جهة الاسناد غير نقية ، اذ المفيد يرويها عن احمد عن ابيه الحسن بن الوليد عن الصفار عن على بن محمد القاسانى ـ وهو مختلف فيه اوضعيف ـ عن القاسم بن محمد الاصبهانى ـ لم يوثق وقدغمز فيه بعضهم ـ عن سليمان بن خالد المنقرى ـ هذا العنوان مختلط ، لان المنقرى هو سليمان بن داود لاابن خالد ـ عن سفيان بن عيينة ـ وهو عامى عليه ملامح سفاهة ـ عن حميد بن زياد ـ ايضاً عامى ضعيف ـ عن عطاء بن يسار مولى ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وآله ولم يوثق صريحاً ـ عن امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ .

١ـ انظر : القول السديد ص٣٩٧

٢ـ بحار الانوار ج٥ ص٣٣٤ ـ ٣٣٥ نقلا عن كنز الفوائد للكراجكى

هذا مع الغض عن كونه خبراً واحداً لايوجب علماً ولاعملا [1] .

وأخيراً فان هذا الحديث الى مايخالف مذهب الحبط والموازنة اقرب من ان يوافقه . لانه ينظر الى جانب فضله تعالى ورحمته الواسعة ،«فان استوى العملان أذهب الله الشر بالخير» هذا يخالف فرضية الموازنة تماماً . « وان كان عليه فضل وهو من اهل التقوى ... يغفر الله له برحمته ان شاء » . هذا يخالف مسألة الاحباط كاملا . الى غيرهما من شواهد .

* * *

سيئات تمحق الايمان

ورد بشأن كثير من المعاصى انها تمحق الايمان محقاً ، ومن ثم فهى تذهب بالحسنات ، حيث كان من شرط المثوبة هى الموافاة على الايمان .وعليه فربما يكون مرتكبها مسلماً فى ظاهره ، لكنه فى قرارة نفسه كافر بالله العظيم ، ومن ثم فان اعماله بمعرض الهباء والاندثار .

فقد ورد بشأن المتكبر انه لايدخل الجنة ،ومعناه ان سيئة التكبر أذهبت حسناته كلها ومنها ثواب ايمانه ،الامر الذى يتنافى ومذهب الامامية انلاحبط فى غير الكفر، ومن ثم استغرب محمد بن مسلم لماسمع ذلك من الامام ، قال عليه السلام : «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر » . فاسترجع محمد بن مسلم . قال الامام : مالك تسترجع ؟! قال : لماسمعت منك ! فقال الامام !«ليس حيث تذهب،

١ــ المعتبر فى باب اصول العقائد هو العلم القطعى ، فلاحجية لاخبار الاحاد فى ذاك الباب ، لانها لاتوجب علماً .

وكذا المعتبر فى باب الفروع الفقهية ان تكون الرواية ذات صلة مباشرة بعمل المكلفين، لان الفقه بحث عن العمل ان واجباً وان حراماً . فلاحجية لروايات لاتعلق لها باعمال المكلفين فى هذه الحياة . لانها لاتوجب عملا .

انما اعنى الجحود ، انما هو الجحود»[1] .

ففسر عليه السلام الكبر الموجب للاحباط ، بالتكبر على الله والجحود ولو لبعض أحكامه ، وهو الكفر محضاً .فقدعرفنا ان ليس مطلق التكبر ماحقاً للحسنات والايمان وانماهو التكبر تجاه رب العالمين .

سئل الامام الصادق عليه السلام عن أدنى الالحاد ، فقال : «ان الكبر ادناه» .

وقال الامام الباقر ـ عليه السلام ـ : «الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه»[2] .

* * *

وهكذا ورد بشأن الغضب انه يفسد الايمان كما يفسد الخل العسل[3] . لان الذى لايملك نفسه عند الغضب قديقوم باعمال هى تناقض الايمان وتمحقه محقاً ،قال الامام ابوعبدالله الصادق عليه السلام : «الغضب ممحقة لقلب الحكيم» . وقال : «من لم يملك غضبه لم يملك عقله»[4] .

* * *

ونظيره ماورد بشأن الحسد . قال الامام الصادق عليه السلام : «آفة الدين الحسد والعجب والفخر»[5] . وقال : «ان الحسد يأكل الايمان كما تأكل النار الحطب»[6].

والحديث التالى يكشف عن هذا السر ، قال الامام الصادق عليه السلام : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله ـ عزوجل ـ لموسى بن عمران عليه السلام : يا ابن عمران ،

١ـ الكافى الشريف ج٢ ص٣١٠ برقم ٧

٢ـ نفس المصدر ص٣٠٩ برقم ١و٤ .

٣ـ المصدر ص٣٠٢ برقم ١ من باب الغضب .

٤ـ المصدر ص٣٠٥ برقم ١٣

٥ـ المصدر ص٣٠٧ باب الحسد برقم ٥ .

٦ـ المصدر ص٣٠٦ برقم ٢ .

لاتحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي ،ولاتمدن عينيك الى ذلك ،ولاتتبعه نفسك، فان الحاسد ساخط لنعمي ، صاد لقسمي الذي قسمت بين عبادي ، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني».

قال الامام الصادق : «المؤمن يغبط ولايحسد . والمنافق يحسد ولايغبط»[1].

* * *

وقال الامام الصادق عليه السلام بشأن التهمة : « اذا اتهم المؤمن أخاه ، انماث الايمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء»[2] .

وقال بشأن الغيبة : « الغيبة اسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه»[3].

وقال الامام الباقر عليه السلام بشأن الكذب : «ان الكذب خراب الايمان»[4].

وقال الامام الصادق عليه السلام بشأن سوء الخلق : « ان سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » . وقال: «ان سوء الخلق ليفسد الايمان كما يفسد الخل العسل»[5].

* * *

والأحاديث من هذا القبيل كثيرة ومتنوعة في التعبير ، كلها تنم عن فحوى واحد ، هو ان من المعاصي مايكشف عن شرك خفي كان صاحبه يبطنه فاظهرته تلك المعصية ،والعمدة هو المنكشف لاالكاشف . كماورد بشأن قوله تعالى :«ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه واعدله عذاباً

١ــ المصدر ص٣٠٧ برقم ٦و٧ .

٢ــ المصدر ص٣٦١ باب التهمة وسوء الظن برقم ١ .

٣ــ المصدر ص٣٥٧ باب الغنيمة والبهت برقم ١ .

٤ــ المصدر ص٣٣٩ باب الكذب برقم ٤ .

٥ــ المصدر ص٣٢١ باب سوء الخلق برقم ١و٣ .

عظيماً ـ النساء : ٩٣» . قال المفسرون : ذلك اذا كان قتله لايمانه ، الكاشف عن كفر باطني اظهره بقتل المؤمن ،معاداة مع الله ومحاربة للايمان . فقد روى العياشي عن الامام الصادق عليه السلام قال : «من قتل مؤمنا على دينه ، فذلك التعمد . . . قيل : والرجل يقع بينه وبين صاحبه شيء فيقتله؟ قال : ليس ذلك المتعمد الذى قال الله عزوجل فجزاؤه جهنم» [١] .

ولذلك كان التعبير بالكفر او بعدم الايمان بشأن بعض المعاصى التى لاتوجب شركاً ولا كفرا بالله ، مجازياً يراد به غير ظاهره من فقده بعض درجات الايمان لااصله .

ففى حديث الاصبغ بن نباتة ،قال :جاء رجل الى امير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ فقال :ياامير المؤمنين ،ان اناساً زعموا ان العبد لايزنى وهو مؤمن ،ولايسرق وهو مؤمن ، ولايشرب الخمر وهو مؤمن ،ولايأكل الربا وهو مؤمن ، ولايسفك الدم الحرام وهو مؤمن ! فقد ثقل على هذا ،وحرج منه صدرى ، حين ازعم ان هذا العبد يصلى بصلاتى ، ويدعو دعائى ، ويناكحنى وأناكحه ، ويوارثنى واوارثه ، وقد خرج من الايمان من أجل ذنب يسير اصابه !

فقال امير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ : صدقت ـ ثم قسم الناس على طبقات ومنازل ، وبين انواع الارواح المودعة فى مختلف الناس ، وان المؤمن لايرتكب قبيحاً الاوقد سلب منه روح من تلك الارواح ، يعنى به درجة من درجات ايمانه ، وليس بالذى يدخل فى الكفر رأساً .

وقد اجمل الكلام عن ذلك الامام الباقر عليه السلام قال ـ فى قول رسول الله صلى الله عليه وآله «اذا زنى الرجل فارقه روح الايمان» ـ : هو قوله تعالى : «وايدهم بروح منه» . ذاك الذى يفارقه [٢] .

١ـ تفسير العياشى ج١ ص٣٦٧ برقم ٢٣٦ . والصافى ج١ ص ٣٨٢ .

٢ـ الكافى الشريف ج٢ ص٣٨٠ـ٣٨١ برقم ١٦ و١١ .

وعن مسعدةبن صدقة قال : سمعت اباعبدالله عليه السلام يعدد الكبائر ، فقيل له : ارأيت المرتكب للكبيرة يموت عليها ، اتخرجه من الايمان ، وان عذب بها يكون عذابه كعذاب المشركين اوله انقطاع ؟

قال عليه السلام : يخرج من الاسلام اذازعم انها حلال ،ولذلك يعذب اشدالعذاب. واما ان كان معترفاً بانها كبيرة فان عذابه اهون ،وانمايخرج من الايمان ولايخرج من الاسلام [1] .

والخلاصة : ان جميع ماورد بشأن بعض المعاصى أنها تمحق الحسنات اوتذهب بالايمان ، لابد من تأويلها الى كونها من المعاصى التى تقطع رابطة العبد مع مولاه ، وتجعله فى حالة جحود مع ربه ، ولوفى باطن أمره .

اوتكون معصية يكون عدمها شرطاً فى صحة العمل السابق كالرياء والسمعة والايذاء والامتنان ،اذاوجدت ذهبت بأثر العمل هباء .

واما ماعدا ذلك فانه مخالف صريح لقانون التماثل فى العقاب ومتناف مع حكمته تعالى وعدله ، ولقوله تعالى :«فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» .

* * *

تنزيه الانبياء

مسألة عصمة الأنبياء جميعاً مما اتفقت عليه كلمة المسلمين ، فقالوا :يجب ان يكون النبى المرسل من عندالله معصوماً عن الخطأ والزلل ، والا لزالت الثقة به عند الناس وهان امره ولم تكن له كرامة ! لكنهم اختلفوا من ذلك فى موضعين :

الاول : فى خصوص الصغائر ، فقال جمهور اهل السنة : يجوز ان يرتكب النبى صغائر الذنوب ،ولوفى حال نبوته ، مالم يكشف عن خسة فى نفسه اوان يمس كرامته المنيعة .

١ــ المصدر ص٣٨٠ برقم ١٠ .

الثاني : في الكبائر قبل الوحي عليه . فقالت الاشاعرة : يجوز ان يرتكب النبي ـ قبل ان يبعث ـ الذنوب والكبائر كلها ماعدا الكفر والشرك بالله العظيم[1]. اما المعتزلة فقالوا بامتناع ذلك عليه اطلاقاً[2] .

اما الامامية فقالوا بوجوب عصمة كل نبي عن الذنوب كلها ،صغيرها و كبيرها اطلاقاً ، قبل البعثة ام بعدها[3] .

ويتلخص الاستدلال على ذلك في ان ارتكاب الآثام يوجب تنفيراً في طباع الناس ، فضلا عن زوال الثقة عمن جاز بشأنه ارتكاب الذنوب والخطايا كالكذب وسائر القبائح . فلا يحصل له من العامة ذلك الانقياد والاستسلام التام اذا عرفوا منه ذلك . ولان النبي يجب ان يتبع في جميع افعاله واقواله ، وهل اذا فعل فاحشة ـ فرضاً ـ يتابعوه فيها اويمانعوه ، والاول نقض لغرض الرسالة ،والثاني استصغار بشأنه وقلب لموقفه من كونه منكراً على الناس قبائحهم ، فأصبح هو منكراً عليه . ومن القبيح جداً ان يكون الآمر بالمعروف تاركاً له ،والناهي عن المنكر فاعلاله، «أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلاتعقلون ـ البقرة: ٤٤» اى افلاتشعرون بقبح هذا الموقف المتناقض في نظر العقلاء .

قالت الامامية : جل هذا الاستدلال يعم حالته قبل البعثة وبعدها . من غير فرق بين الخطايا ان تكون كبيرة اوصغيرة ، بعد ان كانت كلها ممايسلب الثقة به وموجباً لتنفر طباع الناس عنه .

ولسنا الآن بصدد البحث عن مسألة العصمة وجوانبها المترامية . لانه خارج عن موضوع كتابنا ، وانما يهمنا جانب شبهات ربما تعلقت بها اصحاب الحشو

١ـ راجع : شرح العقائد النسفية لمسعود بن عمر التفتازاني ص١٠٢ (ط كابل)

٢ـ راجع : شرح الاصول الخمسة لقاضي القضاة ص٥٧٤ -٥٧٥(ط القاهرة)

٣ـ راجع : شرح تجريد الكلام للعلامة ابن المطهر الحلي ص ١٩٥ (ط بومباي)

من المسلمين ،وغيرهم من الملحدين .فجوزوا على الانبياء ارتكاب الذنوب والخطايا اطلاقاً حتى على عهد بعثتهم الى الناس .وتمسكوا بآيات زعموها ظاهرة فى ذلك ، واضافوا اليها اباطيل حاكتها أقاصيص اسرائيلية روجها العهد الأموى الغاشم فادخلها فى التفسير بقوة المال والسيف !

* * *

ولنستعرض الآيات قبل كل شىء ، ونتبعها بتأويلاتها السليمة او المأثورة بأسانيد صحيحة عن مهابط وحى الله ـ عليهم السلام ـ وهم أدرى بما اراده الله تعالى فى كتابه العزيز الحميد . وستكون مترتبة حسب ترتيب النبوات ، من لدن آدم عليه السلام الى نبينا صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الانبياء . ونحاول ـ مبلغ جهدنا ـ الاقتصار والاختصار [1] فى ايجاز واف ان شاء الله وبحوله وقوته : ـ

خطيئة آدم

قال تعالى . « ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ـ البقرة :٣٥-٣٦» .

وقال : «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ـ البقرة : ٣٧» .

وقال : «ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماووري عنهما من سوآتهما . وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الاان تكونا ملكين اوتكونا من الخالدين .وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين .قالا ربنا

١ـ ولقد كفانا مؤنة التفصيل ماذكره الشريف المرتضى ـ قدس سره ـ واثبته فى كتابه القيم «تنزيه الانبياء» . فقد اودع فيه من غرر الكلام ومحكم البرهان مايغنى عن البيان .جزاه الله من بطل مدافع عن الاسلام خير جزاء .

ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ـ الاعراف :١٩-٢٣».

وقال :«يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما ـ الاعراف : ٢٧».

وقال : «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجدله عزماً ـ طه:١١٥» .

وقال : «فقلنا يا آدم ان هذا عدولك ولزوجك فلايخرجنكما من الجنة فتشقى ـ طه : ١١٧» .

وقال : «فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ،وعصى آدم ربه فغوى ـ طه: ١١٩ ـ ١٢٠» .

* * *

هذه آيات الخطيئة تذكر من شأن آدم عليه السلام أنه أصبح ظالماً باقترابه الشجرة وقد قال تعالى : «لاينال عهدى الظالمين ـ البقرة : ١٢٤» .

وتذكر أن وسوسة ابليس أثرت فيه فأزلته فغوى ، وقد قال تعالى : «ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين ـ الحجر : ٤٢» .

وتذكر انه عصى ربه فخالف نهيه فشقى وغوى . وقد قال تعالى : «فأما الذى شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السماوات والارض ـ هود : ١٠٦» . وقال : «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً وله عذاب مهين ـ النساء : ١٤» .

والخلاصة : ان التعابير الواردة بشأن خطيئة آدم كلها تشف من مزلة موبقة ارتكبها آدم ، واستوجب بذلك لنفسه الذم والشقاء الدائم، وسقوطاً عن تلك المرتبة المنيعة التى كان يستأهل بها مقام النبوة الشامخ ، الامر الذى يتلخص فى قوله تعالى : «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ـ طه:١١٥» .

* * *

والجواب : ان التعابير التي جاءت بشأن خطيئة آدم لا تعدو ظواهر ذوات احتمال فهي تحتمل معاني أخر غير ظاهرها المألوف ، فلو تجردنا بأنفسنا ولاحظنا اصول المعاني التي وضعت لها هذه الالفاظ ، والوجوه المستعملة فيها بحسب المقامات، ثم أخذنا بالمقارنة مع شواهد وقرائن داخلية وخارجية، لزال عنا كثير من هذه الشبهات وارتفع الابهام من وجه الايات نهائياً .

والالفاظ التي وقعت تعبيراً عن خطيئة آدم هي:-

١- «فتكونا من الظالمين» .

٢- «قالا ربنا ظلمنا انفسنا» .

٣- «فأزلهما الشيطان» .

٤- «فوسوس لهما الشيطان» .

٥- «فدلاهما بغرور» .

٦- «لا يفتننكم الشيطان» .

٧- «ألم انهكما عن تلكما الشجرة» .

٨- «فنسي ولم نجد له عزماً» .

٩- «فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى».

١٠- «وعصى آدم ربه فغوى» .

تلك تعابير عشرة تنم- في ظاهرها -عن خطيئة ارتكبها آدم في عصيان عارم وشقاء .

لكن الدقة في فحوى هذه التعابير ومقارنة بعضها مع البعض تشف عن معنى آخر غير هذا .

اولا : ماهي حقيقة الظلم الموجب ابتعاداً عن مقام قربه تعالى ،وشقاء نفسياً مستتبعاً للهلاك والانهيار ؟

ذلك ظلم بالنسبة الى ساحة قدسه تعالى ، وهتك لحريمه وتجاوز لحدوده

«ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ـ البقرة : ٢٢٩» . ولاينافي ان يكون ظلما بنفسه ايضاً «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ـ الطلاق : ١» . لان الظالم بحقوق مولاه ، تعيس معاكس لحظ نفسه في نهاية المطاف .

وهذا الظلم القبيح مترتب على تكليف من المولى يمس جوانب مولويته ، حيث يشرعه الزاماً بالمكلفين ان يمتثلوه ، اعجبهم ام لم يعجبهم ، رغم الأنوف والا فالعقاب والنكال.

واما الظلم الذى جاء التعبير به بشأن آدم ، فليس من هذا القبيل ، انه ظلم بالنفس محضاً ، «قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ـ البقرة : ٢٣» .

وذلك انه لم يكن تكليف مولوى ، وانما كان مجرد ارشاد الى مصلحة شخصية كانت تمسهما بالذات ، فعاكسا حظهما من سعادة الحياة ورغدها الى شقاء ونصب.

اذن لم يكن ظلمهما بأنفسهما مما يؤثر ابتعاداً عن ساحة قدسه تعالى ، اذ لم يمس جانبه تعالى ، فلم يوجب سقوطهما عن منزلتهما المعنوية الشامخة : « خلافة الله فى أرضه » .

ثانياً : النهى عن أكل الشجرة كان نهى ارشاد الى مصلحته بالذات ، ولم يكن نهياً مولوياً بتكليف والزام. ومن ثم قال: «فتشقى» اى تقع فى التعب والنصب، كما فى قوله تعالى : «طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى» اى لتوقع نفسك فى المشقة وحرمان لذائذ الحياة .

وذلك لأن الأكل من تلك الشجرة كان يوجب فضلات وأنجاساً كانت الجنة التى سكنها آدم وزوجه تأباها ، لطهارتها وقداستها قربا الى العلى الأعلى، ومن ثم نهى آدم عن أكلها خوف التلويث او يضطر الى الخروج منها .

ثالثاً : العصيان هى مخالفة الأمر ، وهو يتنوع حسب نوعية الأمر الموجه اليه. فان كان الأمر تكليفا مولوياً كانت مخالفته عصياناً محرماً وخروجاً عن مرسوم العبودية

تجاه اوامر المولى الحكيم .فهو تمرد وطغيان على المولى ، ويستحق مرتكبه الذم والعقاب .

واما ان كان الامر ارشاداً الى مصلحة شخصية تمس شخص المأمور ، من غير مامساس بجوانب الآمر بتاتاً ، كما فى اوامر الطبيب بالنسبة الى المريض المتداوى عنده ، فان مخالفته ايضاً عصيان وربما يقبحه العقلاء ويذمونه ، لكن من غيرما خروج عن مرسوم العبودية ولاطغيان على المولى الكريم ، ومن ثم لم يجز عقابه ولامؤاخذته بالشدة والعذاب .

وبما ان عصيان آدم كان من النوع الأخير ،فلم يوجب ابتعاده عن ساحة قدسه تعالى ، حيث لم يطغ على مولاه ولم يخرج عن اطار عبوديته تجاه رب العالمين .

رابعاً :اماوسوسة ابليس فلم تعد ان دلاهما بغرور ، من غير ان تكون له سلطة عليهما ، فضلا عن أن آية الحجر انما تنفى تأثيره على الانبياء فيما يخص اغواءهم بشأن معصية الله ، اما خلق العراقيل فى طريقهم وايقاعهم فى النصب والعناء ، فهذا شىء لاتنفيه الاية ، كما فى قوله : «واذكر عبدنا ايوب اذنادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ـ ص : ٤١» .

خامساً : قوله تعالى : «فنسى ولم نجد له عزماً»اى غفل وصيتنا وعهدنا اليه بان لايقرب تلك الشجرة . و«عزماً»اى ثباتاً على العهد.

وقوله : «فتشقى» اى تقع فى تعب العمل وكد الاكتساب ، بعدهذا الرغدمن العيش الفاره .

وقوله : «فغوى» اى خاب حظه وحرم عن العيش الرغيد الهنىء . كما فى قول الشاعر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس امره ومن يغو لايعدم على الغى لائماً .

وقوله : «ظلمنا انفسنا»اى بخسناها وحرمناها حظها .

وقوله : « فتاب عليه» ای اعاد عليه بعنايته وألطافه الاولى التى كاد ان يحرمها بتركه الاولى .

واما اخراجه من الجنة ،فلعله لمصلحة كان يراها تعالى موجبة لهذا الاخراج، لانه انما خلقه ليكون خليفته في الارض ، وقد تمهدت أسبابه على يد عدوه ابليس اللعين .

* * *

وقد تلخص البحث في ان النهى لم يكن نهى تحريم، وانما كان نهى ارشاد الى مصلحة تأمين الرغد في العيش، لا اكثر .وبالتالى لم تكن مخالفته عدوانا على المولى وانما كان ظلما بالنفس بسلب راحتها. واخيراً كانت غوايته خيبة وحرماناً ،وشقاؤه عطباً وعناء في الحياة .

فلا نهى تحريمياً . ولا عصيان للمولى ، ولا ظلم ولا عدوان بشأنه ،كما لا شقاء ولا خبث . ولا غواية ولا ضلال ، بمعانيها المعهودة [1] .

واما كيف حصلت الخطيئة ، والطريقة التى سلكها ابليس في سبيل اغوائهما فهذا شيء فصلنا الكلام فيه في تفسيرنا الوسيط . واعادته هنا خروج عن موضوع كتابنا هذا .

* * *

دعوة نوح

قال تعالى : «وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ـ نوح: ٢٦» .

١ــ كان مستقانا في هذا العرض هي الروايات الخاصة المأثورة عن أئمة اهل البيت ــ عليهم السلام ــ ذكرها العلامة المجلسى في بحار الانوار ج١١ ص١٥٥ ــ ٢٠٣ . فراجع.

قيل : انه تسرع فى الدعاء على قومه ، وكان كلما اراد الدعاء على قومه وافته الملائكة يستميحونه بشأنهم . فتؤجل الدعوة ثلاثمئة سنة . حتى تيقن باليأس.

لكنها مزعومة لا اساس لها ، وان ذكرها بعض كبار المفسرين ، ذلك انها مخالفة لصريح القرآن ، حيث جاء فى سورة هود ، ان قومه كانوا يجادلونه ويستعجلون عليه بالعذاب الموعود ، لكنه عليه السلام كان هو يرأف بهم ولا يستعجل بطلب العذاب ، رحمة منه عليهم . حتى وافاه الوحى باليأس والقنوط بشأنهم :«وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ـ هود :٣٦-٣٧».

الامر الذى يدل على انه عليه السلام كان يستمهل ربه فى تأخير العذاب حتى جاءه اليئيس .

* * *

وقال تعالى : «ونادى نوح ربه فقال : رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين . قال : يانوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، انى اعظك ان تكون من الجاهلين .

قال : رب انى اعوذبك ان اسألك ما ليس لى به علم ، والا تغفرلى وترحمنى اكن من الخاسرين ـ هود : ٤٥ ـ ٤٧» .

كيف يكذب تعالى نبيه نوحاً فى دعواه المذكورة ؟!

والجواب : انه تعالى وعد نوحاً بنجاة اهله فى قوله : «احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الامن سبق عليه القول» . وكان الاستثناء مجملا .

وعندما نادى نوح ابنه وكان فى معزل «يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» قال له ذلك اشفاقا بشأنه . ولما أيس منه دعا ربه ليهديه بلطفه . فقال : «رب ان ابنى من اهلى وان وعدك الحق» اشارة الى ما فى الآية السابقة : «وأهلك» .

فنبهه الله تعالى بخطاءه فى التشخيص ، وانه من المستثنى ، وانه ليس من ذلك

الأهل الموعودنجاتهم . ولم يكن نفياً لبنوته رأساً ، وذلك لانه تعالى أقره فى قوله: «ونادى نوح ابنه» . فلولا انه ابنه الحقيقى لماصح هذا التعبير بشأنه . ولكان من حق التعبير ان يقول :«ونادى نوح من كان يزعم انه ابنه» !

* * *

تورية ابراهيم

١ ـ قال تعالى : «فلما جن عليه الليل رآى كوكباً قال : هذا ربى ؟ ! فلما أفل قال : لااحب الآفلين ـ الى قوله ـ قال : ياقوم انى برىء مماتشركون ـ الانعام: ٧٨» :

وهذا من باب تجاهل العارف ، وتربية عملية لقومه يعلمهم كيف يسيرون فى طريق الاهتداء الى الحق واستجلاء الحقيقة .

٢ـ وقال تعالى : «قال بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ، ان كانوا ينطقون ـ الانبياء : ٦٣» .

جملة « فاسألوهم » معترضة . والشرط قيد ـ فى واقعه ـ لقوله : « بل فعله كبيرهم» . وهذا من لطيف التورية فى الكلام . حيث ظاهر الكلام ان الشرط قيد لجملة الامر بالسؤال ، لكنه انما قصده قيداً لجوابه عن سؤال قومه .

وفى هذه التورية فائدة تنبيه ضمائرهم على ان معبودهم الـذى اصطنعوه لايستطيع عملا ولاينطق كلاماً ، وهو تعيير لطيف وتوبيخ .

٣ـ وقال تعالى : «ونظر نظرة فى النجوم وقال انى سقيم ـ الصافات : ٨٩». وهذه مجاملة مع قومه من غير مداهنة ودجل ، حيث كانت النظرة فى النجوم والتنبوء بها رائجة على عهده عليه السلام فاراد مماشاتهم فى ذلك استجلاباً لنظرهم ، فى حين ان النظر

فی النجوم والتدبر فی آیاته تعالی مرغوب الیه فی الشریعة .

واراد بقوله : «سقیم» تأثره النفسی من جموح قومه عن الاستسلام لقیادة الله ورفضهم الدعوة الیه .وبهذا التعبیر الموهم خلص بنفسه من مصاحبة قومه ،فترکوه وحده وذهبوا للاجتماع بعیدهم خارج البلد . ومن ثم وجد ابراهیم فرصته لکسر الاصنام .

٤ـ وقال تعالی : «واذقال ابراهیم رب ارنی کیف تحیی الموتی ـ البقرة : ٢٦٠» . اراد عليه السلام ان یصیر علم یقینه عین یقین ، اذمهما کان البرهان قاطعاً فانه لایبلغ شهود عین .

استغفار ابراهیم لابیه

٥ـ وقال تعالی : «وماکان استغفار ابراهیم لابیه الاعن موعدة وعدها ایاه ، فلما تبین له انه عدولله تبرأ منه ، ان ابراهیم لأواه حلیم ـ براءة : ١١٤».

هذه الآیة اعتذار عن موقف ابراهیم عليه السلام کان واعد أباه (زوج امه وعمه) انه ان آمن بالله ان یستغفرله ،فأظهر له الایمان علی سبیل النفاق حتی ظن به الخیر ، فاستغفر له ، فلما تبین له انه مقیم علی کفره رجع عن استغفاره له وتبرأ منه ، وقد عذره الله فی قوله : ان استغفاره انما کان لأجل المواعدة ،وانه لماتبین له انه مقیم علی العداوة لله تبرأ منه .

وتلك المواعدة جاء ذکرها فی سورة مریم ـ٤٧: «قال سلام علیك ،سأستغفر لك ربی ، انه کان بی حفیاً» .

وقال تعالی فی سورة الممتحنة ـ بشأن الاقتداء بسیرة ابراهیم وکیفیة مقابلته مع المشرکین . مستثنیاً جانب هذا الاستغفار ـ : «الاقول ابراهیم لابیه لاستغفرن لك ـ الممتحنة : ٤» .

واما صيغة الاستغفار فقدجاءت فيسورة الشعراء « واغفر لأبى انه كان من الضالين»الآية رقم٨٦.

مجادلة ابراهيم ربه

٦ـ وقال تعالى : «فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنافى قوم لوط ، ان ابراهيم لحليم اواه منيب ـ هود : ٧٤» .

قيل : كيف يجادل ربه وهوذلك النبى العظيم !؟

والجواب:انالمجادلة كانتبمعنىتكرار السؤال استرحاماً بشأنقوم لوط ، نظراً الى جانب سعة رحمته تعالى ، فطمع ابراهيم فى ان يعطف الله عليهم برأفته ويمهلهم ريثما يتذكرون ويرجعون الى رشدهم . لكنه تعالى رفض طلبه ،لاجفاء وتحقيراً بموقف ابراهيم ـ كلا ـ بل لعلمه تعالى انهم لايرجعون ابـداً ، وانهم مابقوا يزدا دون عتواً وفساداً فىالارض . ومنثم تراه تعالى يصف ابراهيم خليله تعقيباً على ذلك ـ بقوله : « ان ابراهيم لحليم » : ذواصطبار على سوء أدب القوم «أواه» : كثير العطف والحنان «منيب» كثير التضرع لدينا يدعونا مرة بعداخرى.

ففى هذا الوصف الجميل الذىيمثل حنان ابراهيم وعطفه ورأفته العظيمة، لدليل على ان توصيفه بالمجادلة كان ايضاً مدحاً وثناء عليه تمهيداً لوصفه بذلك.

تبرءة يوسف

قال تعالى : «ولقد همت به وهم بها لولا ان رآى برهان ربه ـ يوسف : ٢٤ » .

قيل : كيف يهم بها وهونبى عظيم ومنعباداللهالمخلصين ! كماجاء فىذيل الآية : «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه منعبادنا المخلصين» .

والجواب : انه معلق على شيء لم يقع ، اى لولا ان رآى برهان ربه لهم بها ،فبما انه رآى برهان ربه فانه لم يهم بها قط. كما فى قولك: لولا على لهلك عمر. ومعناه انه لم يهلك عمر لوجود على .

فالكلام من جهة امرأة العزيز مطلق غير مقيد ، فقد همت به قطعياً . اما من جهة يوسف فلولا انه من عباد الله المخلصين ، وكان نور الايمان مشعاً من قلبه المبارك ، لكان ايضاً هم بها ، لانه شاب وله من شهوة الرجال مالهم ، ولاسيما وهى تقبل عليه بذلك الاقبال العارم ، فكانت مقتضيات الهم موجودة فيه عليه السلام لولا قوة المانع فى وجوده ، وهو ايمانه الراسخ المسيطر على جميع مشاعره وأحاسيسه ،فلم تكن لتطغى عليه شهوته وهو عبد خالص لله .وقد شهدت زليخا بشأنه العصمة،قالت «ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ـ يوسف : ٣٢» . فضلا عن شهادة الله بحقه : «وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله ، انه ربى احسن مثواى انه لا يفلح الظالمون ـ يوسف : ٢٣» .

وهذا هو البرهان الذى رآه،اى ايمانه الراسخ الذى تجلى له حينذاك بالخصوص، فحال سداً منيعاً دون ان يهم بالمعصية اصلا.

ابتلاء ايوب

قال تعالى :«واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه انى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ـ ص : ٤١» .

قيل : كيف يمسه الشيطان وهو لا يملك الاستحواذ على عباد الله المخلصين؟ وما هذا النصب والعذاب الذى اصيب به نبى الله ايوب وهو معصوم ؟.

والجواب : لاشك ان ابليس لا يستطيع الاستحواذ على عباد الله المخلصين ولاسيما الانبياء العظام . لكنه يستطيع عرقلة الطريق أمامهم وتكدير الحياة عليهم بدسائسه الخبيثة .

انه لم يتسلط على ايوب عليه السلام ولم يملك قلبه الكريم الذى هو مهبط وحى الله ودار كرامته الخاصة به ، فلاموضع لابليس فيه ولامطمع أبدياً . نعم استطاع ايقاع الأذى به تسبيباً بوساوسه على اقربائه وحاشيته . فاوقعه عليه السلام فى نصب اى عناء وجهد. وعذاب اى ألم ومحنة ، ومن ثم جاء التعبير بالضر فى آية اخرى : «وايوب اذنادى ربه انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين .فكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ـ الانبياء ـ ٨٣-٨٤» .

قال الامام الصادق عليه السلام : «ان الله عزوجل يبتلى المؤمن بكل بلية ويميته بكل ميتة ، ولايبتليه بذهاب عقله . اماترى ايوب كيف سلط ابليس على ماله وعلى ولده وعلى أهله وعلى كل شيء منه ، ولم يسلطه على عقله ، تركه له ليوحد الله به» [1] .

مخاطرة موسى بنفسه

قال تعالى :«ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان، هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ،فوكزه موسى فقضى عليه،قال هذا من عمل الشيطان ، انه عدو مضل مبين،قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله ، انه هو الغفور الرحيم ـ القصص : ١٥ ـ ١٦» .

لاشك ان الذى فعله موسى ذلك الحين و هو الرجل المطالب من قبل السلطات ، و كان خطر الموت يرفرف على رأسه كانت مجازفة و تغريراً بنفسه الكريمة بتسليمها الى العدو اللدود .

وهى بادرة غريبة بدرت منه ، ولعلها من غير تفكير فى عاقبتها ، حيث كان عليه السلام سريع الغضب فى الله و من ثم لم يكن ينبغى ذلك منه وهو فى طريقه الى صرح النبوة الشامخ . الامر الذى نسبه الى عمل الشيطان نظراً لان سورة الغضب هى

١ـ بحار الانوار ج١٢ ص٣٤١ . والكافى الشريف ج٢ ص٢٥٦ رقم٢٢ .

احدى حبائل الشيطان يستولى بها على مشاعر الانسان والحؤول دون رشده .

و هذا ليس من الاغواء الموبق، حيث لم يكن قتل القبطى معصية ، ليكون اغراء ابليس بذلك اغراء لموسى الى معصية الله . بل كان اغراء بما يوجب التغرير بنفسه الكريمة و تعريضها للهلاك ، فقد هيج ابليس من غضب موسى ليقدم على قتل القبطى ، و بالتالى يقع هو فى قبضة السلطات فيقتلونه ، و بذلك قد نصب ابليس فخاً للقضاء على موسى ـ عليه السلام ـ . اذن لم يكن ذلك من الاستيلاء الذى ننكره بشأن عباد الله المخلصين .

ووجه آخر لعله اسلم من الاشكال ، وهو ان المشار اليه فى قوله : « هذا من عمل الشيطان » هو السبب الداعى لوقوع القتل ، اى لولا اضلاله للاقباط واستيلاؤه على مشاعر المصريين فى تأليههم فرعون والاستسلام لقيادته الفاسدة ، لم تتهيأ موجبات هذا القتل و امثاله مما ابتلى به بنو اسرائيل ، و كانت بعثة موسى لاستخلاصهم من نير الذل والهوان .

و يترجح هذا الوجه بملاحظة وضوح المناسبة بينه و بين التعقيب بقوله « انه عدو مضل مبين » . اى ظاهر العداوة للانسان . ولاشك ان موسى ـ ع ـ لم يرد اضلال نفسه بل اضلال غيره ، ولعلهم هم القبط .

و اما قوله : « رب انى ظلمت نفسى » فيعنى تلك المخاطرة بها و تغريرها للهلاك على ايدى اعداء الله . ولاشك انها كانت بادرة غريبة منه ، لم تكن تنبغى من مثله وهو على مدارج الصعود الى مرتبة النبوة السامية . الامر الذى يكون من ترك الاولى بالنسبة الى مثله ، فكان ينبغى الاستغفار منه ، و من ثم اجابه تعالى على الفور . حيث كانت تلك البادرة ـ مهما كانت ـ فانها فى سبيل الغضب لله تعالى .

محاجة موسى مع فرعون

« قال ـ فرعون مخاطباً لموسى عليه السلام ـ : الم نربك فينا وليداً ، و لبثت

فينا من عمرك سنين ؟ و فعلت فعلتك التي فعلت وانت من الكافرين! قال ـ موسى ـ فعلتها اذاً وانا من الضالين ـ الشعراء ٢٠ » .

ما هذا الكفر الذى ينسبه فرعون الى موسى ؟

و ما هذا الضلال الذى يراه موسى لنفسه ؟

الجواب : اما الكفر فهو كفران النعم التى زعم فرعون انه انعمها على موسى و على بنى اسرائيل . و من ثم رد عليه موسى بقوله : « و تلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل ؟ ! » الآية رقم ٢٢ .

واما الضلال فانما يقصد به حالته قبل نزول الوحى عليه بالنبوة ، و هو ضلال نسبى يعم كل نبى قبل ان يوحى اليه ، لايكون عارفاً بتفاصيل الشريعة التى ستنزل عليه ، الا اذا علمه الله تعالى .

وقد فسروا الضلال هنا بتفاسير أخر ، تجدها فى مجمع البيان للطبرسى ج ٧ ص ١٨٧ . وتنزيه الانبياء للشريف المرتضى ص ٧٠ .

استعفاء موسى

قال تعالى . : « واذ نادى ربك موسى : ان ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون الايتقون . قال : رب انى اخاف ان يكذبون . و يضيق صدرى و لا ينطلق لسانى ، فأرسل الى هارون . ولهم على ذنب فأخاف ان يقتلون . قال : كلا ، فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون ـ الشعراء : ١٠ ـ ١٥ » .

وهل ينبغى لمرشح لمقام النبوة وقد اختاره الله و اجتباه من خلقه ان يستعفى منها ، ثم يدل على غيره ؟ !

والجواب : ان مقارنة هذه الآية مع آية طه ترفع الاعتراض رأساً . انه عليه السلام لم يستعف ، و انما سأل ربه ان يمده بمساعد موثوق به من أهله ، و أبدى عجزه

عن الاستقلال بعبء الرسالة ، فاجابه تعالى الى مسؤوله واستجاب دعاءه .

قال تعالى : « اذهب الى فرعون انه طغى . قال : رب اشرح لـى صدرى ، ويسرلى امرى ، واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى ، هارون أخى ، اشدد به ازرى ، واشركه فى امرى ، كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، انك كنت ابنا بصيراً ، قال : قد اوتيت سؤلك يا موسى ـ طه : ٢٢ ـ ٣٥ » .

هذه الآية تفسر تماماً آية الشعراء وترفع الاشكال عن مواضع ابهامها رأساً .

مثلا قوله : «فأرسل الى هارون» ليس معناه : اعفنى عن حمل الرسالة واجعل مكانى هارون !

بل المعنى : فأرسل الى هارون ايضاً كى يشاركنى فى أمرى ويؤازرنى عليه .

وقوله : « اخاف ان يكذبون » . وقوله : « فأخاف ان يقتلون » ليس معناه عدم الثقة بنجاح رسالته ، وانما اراد بذلك طلب المزيد من عنايته تعالى والتيسير لأمره «ويسرلى امرى» .

كما انه اراد بقوله : «ولا ينطلق لسانى» ان يمن عليه بانطلاق لسانه « واحلل عقدة من لسانى » . وبقوله : « ويضيق صدرى » ان يشرح صدره « رب اشرح لى صدرى» . وبقوله : «فارسل الى هارون» ان يجعله وزيراً له «واجعل لى وزيراً من اهلى هارون اخى اشدد به ازرى واشركه فى امـرى » لايكالها اليه رأساً واعفاء نفسه عنها .

وقوله تعالى : « كلا » طمأنينة لنفس موسى انهم لن يصلوا اليهما بسوء ، وانه سوف يوفق فى رسالته وتكون له الغلبة فى نهاية المطاف . اى كلا لايستطيعون قتلك ولا الوقوف دون تبليغك الرسالة .

قال تعالى ـ فى سورة القصص ـ : «قال : رب انى قتلت منهم نفساً فأخاف ان يقتلون . وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ، فأرسله معى ردءاً يصدقنى ، انى أخاف ان يكذبون . قال ـ تعالى مستجيباً لطلبه ـ : سنشد عضدك باخيك ونجعل

لكما سلطانا فلايصلون اليكما ، بآياتنا ، انتما ومن اتبعكما الغالبون : ٣٣-٣٥».

وقداوضح قوله : «فأرسله معى»فى هذه الآية ماجاء فى سورة الشعراء من قوله: «فأرسل الى هارون» توضيحاً يرفع كل ابهام وايهام .

وقوله : « ونجعل لكما سلطاناً فلايصلون اليكما » تفسير لقوله : «كلا» فى تلك الآية .

ويجمع الكل قوله تعالى : «قداوتيت سؤلك ياموسى» .فانه استجابة لجميع ماالتمسه موسى عليه السلام من ربه من الموفقية والتسديد فى اداء الرسالة .

خيفة موسى

قال تعالى : «فأوجس فى نفسه خيفة موسى ـ طه:٦٧» مم كانت خيفته ،وقد أمنه تعالى من قبل «ياموسى لاتخف انى لايخاف لدى المرسلون ـ النمل :١٠» ؟!

والجواب : ان خيفته هذه لم تكن كخيفته الاولى عند الشجرة عندما ألقى عصاه فاذا هى حية تسعى ، قال : خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى «طه :٢٠ ـ ٢١» . بل كانت خشية التمويه على العامة والتباس الحق عليهم بالباطل ، عند مارآى من عجيب فعل السحرة«فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى- طه:٦٦» .«فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم-الاعراف: ١١٦» .

فأشفق عليه السلام ان يلتبس الامر على العوام ولايميزوا بين سحر السحرة واعجازه ، حيث رآى من قوة التلبيس والتخييل ، فخاف من وقوع الشبهة على من لم يمعن النظر . فأمنه الله تعالى من ذلك وبين له ان حجته ستتضح للقوم ،بقوله :« لاتخف انك انت الأعلى ، وألق مافى يمينك تلقف ماصنعوا ، ان ماصنعوا كيد ساحر ، ولايفلح الساحر حيث أتى ـ طه : ٦٨-٦٩» . الامر الذى كانت نتيجته اخضاع السحرة : «فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ،

وألقى السحرة ساجدين ،قالوا آمنا برب العالمين ،رب موسى وهارون ـ الاعراف: ١١٨-١٢٢» .

* * *

وقال تعالى : «فلما أخذتهم الرجفة قال ـ موسى ـ : رب لو شئت أهلكتهم من قبل وايای ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء ،انت ولينا فاغفرلنا وارحمنا وانت خير الغافرين ـ الاعراف: ١٥٥» .

اليس يستشم من ذلك رائحة الاعتراض ؟!

وهكذا قوله تعالى : «وقال موسى ربنا انك آتيت فرعون وملاءه زينة واموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ـ يونس : ٨٨» .

الجواب : كلا ، بل هو استرحام واستعطاف ، وسؤال عن مصلحة كادت تخفى على نبى الله موسى عليه السلام .وأخيراً اعترافه بأن وراء هذه الظواهر حكمة بالغة وفوائد تربوية جليلة ، تخضع لها نفوس مستسلمة سليمة فتهتدى الى معالم الحق ، وان كان قد يزيد فى ضلال من زاغ قلبه واعمى بصره .

قوله : «ان هى الا فتنتك» اى ابتلاؤك وامتحانك للناس ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

وقوله : «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا» . استرحام وطلب للعفو عما فرط منهم فى جنب السفهاء ، حيث واكبوهم فى سفاهتهم وداهنوهم فى غفلتهم . ولم يقصد موسى عليه السلام نفسه ، وانما عنى الرجال السبعين الذين اختارهم للميقات ، أهلكتهم الرجفة بمجاملتهم مع سفهاء القوم .

واللام فى قوله :«ليضلوا عن سبيلك» هى لام العاقبة مثلها فى قوله : «فالتقطه

آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً» .

وهذا تمهيد للدعاء عليهم بالهلاك والدمار ، حيث كفروا بنعم الله عليهم ولم يقدروها ، بل وأخذوا يستغلونها في سبيل اضلال العباد والصد عن سبيل الله .

* * *

وقال تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : رب ارني انظر اليك ـ الاعراف : ١٤٣» .

أليس هذا من طلب المستحيل ؟

وقد تقدم الجواب عن ذلك ، بانه من باب تجاهل العارف ، على اثر ضغط من قومه الجاهلين . فقد ورد ان لسانه لم يطق النطق به ، فأوحى الله اليه : ياموسى ، سلني ماسألوك فلامؤاخذة عليك بجهلهم ، فعند ذلك تجرأ موسى على أن ينطق به [1] .

* * *

وقال تعالى : «ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ، قال : بئسما خلفتموني من بعدى ، أعجلتم امر ربكم ، وألقى الالواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال: ابن ام ، ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلاتشمت بي الأعداء ولاتجعلني مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وانت ارحم الراحمين ـ الاعراف : ١٥١» .

وقال ـ ايضاً ـ : «فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً ، قال : ياقوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً ، أفطال عليكم العهد ام أردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ـ الى قوله ـ قال : ياهارون مامنعك اذ رأيتهم ضلوا ألاتتبعن ، أفعصيت أمرى ؟ قال : يابن أم ، لاتأخذ بلحيتي ولابرأسي ، اني خشيت ان تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي ـ طه : ٨٦ـ٩٤» .

١ـ راجع الصفحة : ٩٨ـ٩٩ .

أليس هذا من ثوران الغضب والتسرع الى امر ربما كان لايحمد عقباه ؟!

والجواب : ان في ذلك الارتداد المفاجيء الغريب الذى حصل في بني اسرائيل في غيبة نبيهم اربعين صباحاً لمثاراً لأكثر من ذلك الغضب ، ولاسيما في مثل موسى عليه السلام ذلك الرجل الغيور في الله ، فقد وجد ان اتعابه كلها ذهبت أدراج الرياح بفترة قصيرة . ومن ثم اخذ اليأس مأخذه من نفسه الكريمة واخذته الحمية الالهية الى الانتقام السريع من قومه الالداء . فأخذ يفتش عن العوامل التى دعت الى ذلك التحول العظيم ، غير المترقب ، والأيادى التى عملت في اضلال القوم وارتدادهم الى عبادة العجل .

فلاول وهلة وقبل كل شيء توجه الى أخيه الذى استخلفه على قومه ، وجعله رقيباً عليهم ومسؤولا عن قيادتهم الحكيمة . «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولاتتبع سبيل المفسدين ـ الاعراف : ١٤٢» .

فحسب ان هارون هو الذى تهاون بشأن القوم ولم يرقبهم تلك المراقبة الشديدة فضلوا . شأن كل زعيم اذا احس بضعضعة في بعض جوانب قيادته ، ان يستنطق المسؤول الذى عينه في تلك الجهة ويبادر الى محاكمته ان كان رآى من موقفه التساهل والتقاعس عن وظيفته .

الامر الذى دعى بموسى ان يوجه ملامته اولا وبالذات الى اخيه المسؤول عن قومه . فأخذ برأسه ولحيته وجره اليه بعنف ، استنكاراً على تساهله بأمر القوم.

وهارون وان كان قد ابدى عذره عن سكوته تجاه ضلال القوم وعبادتهم للعجل، لكنه لم يكن بتلك المثابة التى تبرأ موقفه نهائياً ، ومن ثم استغفر موسى لنفسه ولأخيه، ان هارون حسب من قيامه في وجه القوم حدوث انشقاق في صفوفهم وربما وقوع فساد وسفك دماء ، فسكت ريثما يعود موسى وهو اعرف بموقفه مع القوم . الامر الذى ان كان يصلح عذراً في الجملة ، فليس من العذر المقبول كلياً . ومن ثم لم يكن موقف موسى مع اخيه حينذاك ظلماً بشأنه ذلك الظلم الذى حسبوه ، كما لايخفى

على من امعن النظر فى جوانب القضية ودرسها بعمق. وهذا الكتاب موضع اختصار.

* * *

اختبار داود

قال تعالى : «وهل أتاك نبؤ الخصم اذ تسوروا المحراب . اذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لاتخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولاتشطط واهدنا الى سواء الصراط . ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال : اكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ماهم . وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ـ ص : ٢٤» .

قوله : «تسوروا المحراب» اى تسلقوا حائطه وصعدوا عليه، ودخلوا على داود فى محراب عبادته بهذه الطريقة غير المألوفة ولعله ارعاباً له ، ومن ثم فزع منهم .

قوله : «ولاتشطط» اى لاتجر فى الحكم وهو امر له بالعدل فى القضاء ، وهو ايضاً غريب ، اذ لم يعهد من متحاكمين ان يتجاسرا على القاضى بهذه اللهجة التى تبدو عليها أمارات التحكم عليه والزامه بما هو وظيفته ، ولاسيما فى مثل نبى الله داود الامر الذى زاد من فزعه منهم .

قوله : «وعزنى فى الخطاب» اى غلبنى فى المحاجة . و«الخلطاء» هم الشركاء فى التعايش .

أليس يستشم من الآيات ان هناك امراً كان قد فرط من داود عليه السلام فنبهه الله عليه بتلك الطريقة المفزعة ؟!

قلت : نعم ، ولكن لابتلك المثابة التى يرويها مفسروا العامة ، فانها لاتعدو

اسرائيليات مفضوحة لاشأن لها سوى الحط من كرامة انبياء الله العظام .

وقدشطب ائمة اهل البيت ـعليهم السلام ـعلى القصة التى يرويها القصاصون[1] بشأن امرأة اوريا فى تلك الفضاعة المستبشعة ، التى لايقدم عليها مؤمن غيور فضلا عن مثل نبى الله داود عليه السلام . قال امير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ : «لاأوتى برجل يزعم انداود تزوج امرأة أوريا الاجلدته حدين ،حداً للنبوة وحداً للاسلام»[2] . وهكذا روى عن الامام جعفر بن محمد عليه السلام [3] .

وليس فى لفظ القرآن مايدعو الى التصديق بثبوت القصة المزعومة ، سوى ماجاء فى لفظ التوراة المحرفة فى حياكتها الغظيعة [4] التى يرفضها العقل السليم ، وحاشا داود من نبى كريم !

وكل مايدل عليه ظاهر القرآن أنه تعالى اراد ان يمتحن عبده داود فى القضاء العدل ويدربه عليه تدريباً ،حتى فى اشد الحالات عليه، فجعل من الملكين فى صورة خصمين يهجمان عليه المحراب ، وهو منذهل بخلوته مع ربه ، ومن ثم افزعته تلك المباغتة الغريبة ، وتسرع فى الحكم قبل أن يتأكد من توفر شروطه اجمع ، حتى ولو كان بصورة فرض ، لانه كان بمحضر المدعى عليه ، وربما اوجب انفعالا فى نفسه فيتقاعس عن الدفاع عن نفسه، لظنه ان الحكم حتم لخصمه فلافائدة فى الدفاع.

هذا ولاسيما وقد القيت الدعوى بصورة تستجلب الحكم للمدعى فى بادىء النظر ، خصوصاً والمدعى عليه ساكت لايتكلم .

والخلاصة : انبواعث التسرع بأخذ جانب المدعى حينذاك كانت متوفرة

١ـ انظر : الطبرى ـ جامع البيان ج٢٣ ص٩٣

٢ـ انظر : الطبرسى ـ مجمع البيان ج٨ ص٤٧٢

٣ـ بحار الانوار ج١٤ ص٢٩ برقم ٦

٤ـ انظر : العهد القديم ـ صموئيل الثانى ـالاصحاح الحاديعشر والاصحاح الثانى عشر . (الكتاب المقدس ص٤٩٧ ـ٥٠٠) .

اولا : هجوم الخصمين عليه بتلك الصورة المفزعة، وهي تحول دون رجوع العقل الى رشده ،ولا يملك اى انسان وعيه اذا ماملكه الفزع وفاجئه رعب مهول . وربما يتخذ تدبيراً هو بمعزل عن رشد العقل ، ومن ثم كان من آداب الحكم انلا يكون القاضي منشغل الذهن بهواجس ولامرتاعاً في امره.

ثانياً: القاء الدعوى بتلك الصورة المغرية ، انه يملك نعجة واحدة ،وخصمه يملك تسعاً وتسعين نعجة ، وطلب اليه ان يضم نعجته الى نعاجه ، من غير ماسبب معقول ، سوى انه يملك اكثر بتلك النسبة العالية .

ولاشك ان الدعوى اذا كانت بتلك الصورة كان الحق مئة بالمئة مع المدعى ، ويكون المدعى عليه ظالماً له .

ولعل القاء الدعوة بتلك الصورة كان ـ ايضاً ـ لأجل اختبار داود ، هل تغلبه صورة الدعوى المغرية ؟ وهل تثير من عواطفه الرقيقة ضد المحكوم ؟ فاذا كان الامر كذلك كان بعد لم تنضج صلاحيته للقضاء العدل الذى يريده الله .

ثالثاً : سكوت المدعى عليه محضاً تجاه الغوغاء التى اثارها خصمه ، وهو لاينبس ببنت شفة ، كل ذلك كانت بواعث للحكم ضده في بادىء الأمر .

لكن داود عليه السلام بعد ان تسرع الى الحكم ـ فرضياً ـ رجع الى رشده على فوره ورآى بنور الله انـه لم يكن ينبغى منه ذلك التسرع ، ولابد ان يستمع الى الخصم، ولعله ذو حجة قاطعة ،ومن ثم استغفر الله على بادرته تلك، وان لم تكن معصية، حيث لم يحكم حكم قضاء، وانما ابدى رأيه الشخصى ازاء تلك الدعوى على فرض صحتها تقديراً .

فلم تكن تلك الظاهرة سوى رحمة مـن الله عليه وعناية خاصة به ، تمهيداً لاستخلافه فى الارض ، الذى جاء ذكره تعقيباً على الآيات المذكورة « ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ـ ص :٢٦» .

نعم ، قديكون فى التمثيل بالنعاج ، خصوصاً فى تلك النسبة المرتفعة ، تنبيه آخر لداود ، روى انه خطب امرأة وكان قد خطبها ايضاً آخرون ، فاراد اهلها ان يزوجوها من داود اجلالا لمقامه الكريم ، وهو لايدرى بالأمر ، فنبهه الله عليه كى لاتدخل عليه شنعة من الناس فيحسبوه متدخلا فى سوم الآخرين [1] .

* * *

فتنة سليمان

قال تعالى : «ولقد فتنا سليمان وألقيناعلى كرسيه جسداثم أناب ـ ص : ٣٤».

ذكروا انه قال لاصحابه يوماً: سأطوف الليلة على نسائى لتلد كل واحدة غلاماً يضرب بالسيف فى سبيل الله ، قال ذلك قاطعاً بالأمر ، فقد تمنى مالم يكن باستطاعته الا ان يشاء الله . فأراد الله تنبيهه على بادرته تلك ، وان كانت نظرته نصرة الحق محضاً . فطاف عليهن كلهن فلم تحمل منهن سوى واحدة و جاءت بسقط ميت [2]

هذا هو الصحيح الذى اختاره اصحابنا الامامية فى تفسير الآية . واما ما ذكره بعض المفسرين من امور تمس بكرامة الأنبياء و تهين من مقامهم الجليل ، فهى ـ فضلا عن مخالفتها لاصول العقيدة ولظاهر القرآن ـ روايات لاأصل لها ولا سند متصلا الى معصوم .

* * *

وقال تعالى : « اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحاً بالسوق والأعناق .قال رب اغفرلى وهب لى ملكاً لاينبغى لأحدمن بعدى انك انت الوهاب ص- ٣١ ـ ٣٥ » .

١ـ انظر :مجمع البيان ـ الوجه الاول ـ ج٨ ص٤٧٢

٢ـ مجمع البيان ج ٨ ص ٤٧٥

فی هذه الآیات موضعان للسؤال .

الاول : کیف یؤثر مثل سلیمان ، حب الخیل علی ذکر ربه ؟

الثانی : کیف یطلب ملکاً لاینبغی لأحد من بعده ، أَلیس فی هذا الطلب شیء من شائبة البخل ؟

والجواب ـ اولا ـ : ان ماروووه .بشأنه ﷺ انه کان مغرماً بحب الخیول المسومة الجیاد فکان یوم عرضها علیه ففاتته فریضة العصر ، کله باطل و قبیح ینم عن وقاحة واضعه و جهله بمنزلة الانبیاء .

والصحیح : انه کان یوم استعراض الخیل لغرض انتخاب جیادهن لغرض الجهاد فی سبیل الله . وکان الوقت وقت عشی ، فاشتغل سلیمان بملاحظتهن و فاته تسبیحه المعتاد ذلك الوقت « فأوحی الیهم ان سبحوا بکرة وعشیاً ـ مریم : ۱۱ » . « واذکر ربك کثیراً وسبح بالعشی والابکار ـ آل عمران : ٤١ » .

وهذا وان کان اشتغالا بعبادة عن أخری ، لکن نبی الله سلیمان فرض ذلك علی نفسه ذنباً فاستغفر الله منه . قوله : « انی احببت حب الخیر عن ذکر ربی حتی توارت بالحجاب » قال ذلك اغتماماً لما فاته من ورده المعتاد[1] .

وقوله : « ردوها علی» ای الخیل لعرضها ثانیة لغرض التأکد من سلامتهن و صلاحیتهن للجهاد .

و ثانیاً ـ ان المذموم هو الحرص و الضن بما یخص هذه الحیاة الدنیا . اما ما اُرید به وجه الله والدار الآخرة فالطمع البالغ فیه غیر مذموم . و من ثم نری نبینا الکریم طلب من امته الصلاة علیه علی مر الایام والدهور .وهل یستغنی أحد من رحمة ربه الواسعة ؟ ! ام هل للقناعة والاقتصاد فی تلك المرحلة مفهوم معقول ؟ !

۱ـ تنزیه الانبیاء للشریف المرتضی ص ۹٤ (ط نجف)

ونبى الله سليمان انما طلب منحة الهية اختصاصية يمتاز بها بين سائر الانبياء حيث كل واحد منهم كان يمتاز بجهة هى غالبة على سائر الجهات من شؤون نبوته الكريمة . آدم بسجود الملائكة له . نوح بكونه نجى الله . ابراهيم بخلته . موسى بتكليمه . داود بلين الحديد و تسبيح الجبال معه . عيسى بكونه كلمة الله و روحاً منه . محمد خاتم الانبياء و سيد المرسلين .

فأراد سليمان عليه السلام ان يكون امتيازه وطابعه الربانى هو سيطرته على الانس والجن والطير والوحش ليكون مظهر قدرته تعالى على جميع صنوف الخلائق ، من غير ان يكون له مطمع فى دنيا او حب فى رئاسة هى زائلة لامحالة .

* * *

استعجال يونس

قال تعالى : « وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لااله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم و كذلك ننجى المؤمنين ـ الانبياء : ٨٧ » .

مم كان مغاضباً ؟ و كيف ظن ان لن يقدر الله عليه ؟ وبماذا اعترف على نفسه بالظلم ؟

الجواب : انه كانه مغاضباً لقومه بسبب اصرار هم على الضلال والمعاندة مع الحق ، وقد مكث بين اظهرهم يدعوهم الى الله وهم لايستجيبونه حتى أيس منهم ، وأحس بالعقاب يرفرف على رؤسهم ، فأخذ بمغادرتهم لأن العذاب لاينزل بساحة قوم وفيهم نبى « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم ـ الانفال : ٣٣ » . فمن وظيفة الانبياء ان يغادروا مهبط العذاب . فبناء على هذا القانون السماوى غادرهم يونس ولكن من غير ما استيذان خاص من الله فى ذلك ، علماً منه بان ذلك من وظيفته المتعينة عموماً ولا حاجة الى مراجعة اخرى خاصة !

هذا هو الذى أخذه الله عليه وحسبه ترك اولى منه لم يكن ينبغى صدوره من مثله و هو نبى كريم .

وهذا معنى قوله تعالى : « فظن ان لن نقدر عليه » اى كان على يقين من ان ذلك من وظيفته الخاصة فلا نؤاخذه عليها ولا نتضايق بشأنه من أجلها .

لكنه لما علم بخطأ ظنه وانه قد ترك الاولى بشأنه اغتم اغتماماً بالغاً واخذ فى الاستغفار والضراعة الى الله تعالى ان يغفر له تلك البادرة التى فرطت منه .

قال تعالى ـ مناصحاً لنبيه ان لايستعجل فى مغادرة قومه من مكة ـ «ولاتكن كصاحب الحوت» ـ حيث استعجل الخروج ـ «اذنادى ربه وهو مكظوم» ـ مختنق من الغم على اثر بادرته تلك ـ القلم : ٤٩ » [١] .

وعليه فلم يكن هناك عصيان ولا مخالفة أمر صريح ولااساءة ظن بالله العظيم !

* * *

عيسى بن مريم

قال تعالى : «و اذقال الله : ياعيسى بن مريم ، ءأنت قلت للناس : اتخذونى و امى الهين من دون الله ـ المائدة:١١٦» .

كيف يجوز توجيه هكذا سؤال الى مثل عيسى، وهو كلمة الله وروحه ، أكان يصح توجيه هكذا سؤال الى من لا يحتمل بشأنه ذلك ؟ !

الجواب : انه من باب « اياك اعنى و اسمعى ياجارة» تقريعاً بالمنتحلين اليه كذباً ، و استنكاراً لعقيدتهم بالتثليث . هم ابتدعوه ما انزل الله به من سلطان ولا كان المسيح أمرهم به. فليس سوى تعريض صريح بموقفهم الفاسد المنهار، الذى لا

١ـ راجع مجمع البيان ج ١٠ ص ٣٤١

اساس له فی شریعة الانبیاء اطلاقاً .

* * *

خاتم النبیین

حاول اعداء الاسلام إلصاق تهم و افتراءات بساحة قدس رسول‌الله ـ صلی الله علیه وآله ـ والتمسوا لذلك شبهات واهیة و فی‌نفس‌الوقت مفضوحةلایتلوث بها ذیله الطاهرأ بدیاً . منها اسطورة «الغرانیق» التی بحثناعنها فی الجزء الاول (ص ٥٩ ـ ٧٠) و ذکرنا اوجه تفنیدها بتفصیل . وبقیت آیتان کانوا تشبثوا بهما دلیلا علی الاسطورة ، لم نتکلم عنهما هناك بالذات :

١ـ الاولی ـ قوله تعالی : « و ان کادوا لیفتنونك عن الذی او حینا الیك لتفتری علینا غیره ، واذاً لا تخذوك خلیلا .ولولا ان ثبتناك‌لقد کدت ترکن الیهم شیئاً قلیلا، اذاً لاذقناك‌ضعف الحیاة وضعف‌الممات ، ثم لا تجد لك علینا نصیراً ـ الاسراء، ٧٣ ـ ٧٥» .

زعموها نزلت بشأن قصة الغرانیق !

ولکن الآیة ترمی شیئاً آخر لامساس له بتلك القصة ، و ذلك ان قریشاًبعد ما أیست من التغلب علی دعوة الحق ، ورأت ان الدعوة تتقدم بسرعة مع اللیالی والایام ، حاولت الاصطلاح مع رسول الله ـ ص ـ لیجاملهم بعض الشیء ، فلا یذکر آلهتهم بسوء و لایسفه أحلا مهم علانیة ، و شرطوا علیه إن کان یرغب فی موادتهم و مراودتهم انیجتنب مجالسةالعبید والسفلة الاذلاء و یطردهم‌عن حاشیته و بالتالی یداهنهم فی سیرته النزیهة التی تمثل منهج العدل و الحکمة ، فیحولها الی سلوك اهل الکبریاء و اصحاب الترف‌فی الحیاة .

و قد تحرج النبی ـص ـ تجاه اقتراحهم هذا الثقیل ، فمن جهة کانیرغب

شديداً في ايمان قومه ، فكان يرى لوجاملهم بعض الشيء لاستطاع اخضاعهم للاسلام ، و من جهةاخرى كان عليه صعبا جداً انيحولمن سيرته العادلة الى سيرة جبارة ، و لم يكن يستطيع ذلك أبداً .

فنزلت الآيات تيئيساً لمطمع اهل الشركوالفسوق ،وترويحاً بنفسه الكريمة ليتخلص عن المأزق الذى وقع فيه . فليكن على قاطع من أمره أنه يسير على المنهج الحق ، وان لامطمع فيايمان هؤلاء الا نذال حتى ولوجا ملهم فيالامر . «كذلك سلكناهفيقلوب المجرمين لايؤمنون بهحتى يروا العذاب الاليم-الشعراء: ٢٠١ » .

قال تعالى : « وان كادوا ليفتنونك » اى حاولوا خداعك . « عن الذى اوحينا اليك» اىعن المنهجالحق الذى ادبناك عليه «لتفترى علينا غيره»ايلتحوله الى طريقة اهل الترف والبغى ،فيحسبوها طريقة الشرع بسبب انتسابها اليك . «اذن لاتخذوك خليلا » صحبوك وجالسوك . «ولولا ان ثبتناك » بالعصمة الربانية صموداً واستقامة على الحق ، « لقد كدتتركن اليهم شيئاً قليلا» اى لداهنتهم فى بعض ما طلبوه ، ولو طمعاً فى اسلامهم ،لكن من الواجبعلىنبىالله ان لايداهن على باطل ،و لايسلك مسالك التقية أبداً ، نظراً لانه المؤسس والمشرع و ربما اشتبهت معالم الدين الاصيلة .

و بقية الآيات تعريض بأولئك الذين يحاولون المداهنة فى دينالله اطلاقاً على مرالاجيال .

* * *

٢- والآية الثانية -قوله تعالى :«وما ارسلنامن قبلكمن رسول ولانبى الااذا تمنى ألقى الشيطان فى امنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكمالله آياته، والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم ، و ان الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين اوتوا العلم انه الحق من

ربك ، فيؤمنوا به ، فتخبت له قلوبهم ، و ان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم ـ الحج : ٥٢ ـ ٥٤» .

قالوا ـ ايضاً ـ : انها نزلت بشأن قصة الغرانيق !

والصحيح : ان الآية تعنى تسويلات ابليس المضلة التى يعرقل بها طرق الهداية التى يدعو اليها الأنبياء. فقد كان رسول الله ﷺ يرجو تطبيق الاسلام لوجه الارض كلها واخضاع الامم له جميعاً ، ويسير سيره الى الخلود والأبدية ، ومن ثم قوم من دعائمه ورصن من أسسه وقواعده الحكيمة ، وكان يخشى من دسائس المنافقين حوله سوف يعكرون عليه صفو الجو ويقومون فى وجه دعوته السائرة الى الانتشار والازدهار ، لانه قد تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن .

لكنه تعالى وعده بالنصر والظفر والانتشار والخلود وانه سوف يطبق دينه الارض كلها ، رغم محاولات الأعداء والمناوئين ، وان محاولاتهم سوف تفشل وتذهب هباء ادراج الرياح ، الحق يعلو ولا يعلى عليه ، « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ـ غافر : ٥١» . « كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز ـ المجادلة : ٢١» .

وان دسائس اهل الباطل سوف تذهب سدى ويستمر الحق فى طريقه الى الازدهار والخلود «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ـ الانبياء : ١٨» . «له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ـ الرعد : ١٤» . « انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ، ابتغاء الحلية او متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ـ الرعد : ١٧» .

كل هذه الآيات تبشر بعاقبة الاسلام المجيدة سوف تزدهر معالمه وتطبق ارجاء

العالم المعمور ، وان كل محاولة فى سبيل مكافحته فاشلة لامحالة .

وآية الحج ـ ايضاً ـ ترمى نفس المرمى ، وتعنى تغلب الاسلام على جميع الموانع والحواجز التى سوف تعرقل طريقه الى الازدهار والانتشار :ـ

قال تعالى : « وماارسلنا من قبلك من رسول ولانبى الا اذا تمنى » انتشار دينه وازدهار شريعته مع الخلود «ألقى الشيطان فى أمنيته» حاول عرقلة الطريق امام انتشار دعوته «فينسخ الله مايلقى الشيطان» يذهب بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق «ثم يحكم الله آياته» يجعل من الحق واضحاً منتشراً فى الآفاق قائماً على قدم وساق. «ليجعل مايلقى الشيطان» اى دسائسه وشبهات يثيرها «فتنة للذين فى قلوبهم مرض» امتحاناً لهم ـ ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله أضغانهم ـ سورة محمد : ٢٩ـ

* * *

وهناك آيات اخر تشبث بها الخصوم للتشويه من سمعة الرسول الطيبة والازراء بكرامته المجيدة . لكنها ـ ايضاً ـ محاولات فاشلة ومفضوحة الى حد بعيد :ـ

٣ـ منها قوله تعالى: «واذ تقول للذى انعم الله عليه وانعمت عليه: أمسك عليك زوجك واتق الله. وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله احق ان تخشاه. فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لايكون على المؤمنين حرج فى ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً . وكان امر الله مفعولا . ماكان على النبى من حرج فيما فرض الله له، سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان امر الله قدراً مقدوراً ـ الاحزاب: ٣٧ـ٣٨».

رووا بشأن نزول الآية أباطيل كاذبة ، قالوا : انها نزلت عتاباً للنبى ﷺ فى اضماره حب زينب بنت جحش وكانت تحت زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ كان ﷺ دخل بيتها ففاجئته ريح فرفعت الستار واذا بها حاسرة، فاعجبه جمالها ووقع حبها فى قلبه الشريف . ولما علم الله بذلك كرهها فى نفس زيد ليطلقها ويتزوجها

النبى ﷺ فلما جاء زيد ليطلقها ، قال له النبى : امسك عليك زوجك ، قال ذلك وهو يحب ان تكون قد بانت منه لينكحها. فاظهر الله ما كان يخفيه النبى فى قلبه الشريف. الخ[1] ،

هذا امتهان بشأن الرسول وقلب للواقعية البيضاء التى كان يسير عليها برامج الدين الحنيف .

والصحيح ـ وفق مذهب اهل البيت ـ عليهم السلام ـ : ان هذه الآيات نزلت لمحق عادة جاهلية ، كانت العرب لاتجيز التزويج بأزواج الأدعياء قياساً على ازواج الابناء الحقيقيين. فكانت مكافحة هذه السنة الجاهلية بحاجة الى تضحية ممن يعرض بنفسه للشناعة الراهنة ويتحملها ، ومن ثم تحملها الرسول بنفسه كسراً لشوكتها ، وان شخصيته الكبيرة لتحول دون توجيه أى شناعة اليه !

فأوحى الله اليه أن زيداً سوف يطلق زوجته ، ولابد ان تتزوجها انت محقاً لشريعة جاهلية . فلما ان وقع بين زيد وزوجته زينب تشاجر وكراهية واراد طلاقها نصحه النبى ﷺ : « امسك عليك زوجك واتق الله » . وهى وظيفة دينية اصلاحاً بين الزوجين مهما امكن . «وتخفى فى نفسك ما الله مبديه» اى كنت تعلم ان من وراء الستار امر مدبر هو على شرف الوقوع وانه سيطلقها وتتزوجها انت كما اخبر الله . «وتخشى الناس» تعييرهم «والله احق ان تخشاه» اى احق ان ترعاه فى تطبيق شريعته ومكافحة شرائع جاهلية [2] . وبقية الآية ظاهرة .

* * *

٤ ـ ومنها قوله تعالى : « يا ايها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين ان الله كان عليماً حكيماً . واتبع مايوحى اليك من ربك ان الله كان بما تعملون خبيراً ـ الاحزاب : ١ـ٢» .

١ـ انظر: الطبرى ـ جامع البيان ـ ج٢٢ ص١٠

٢ـ انظر : مجمع البيان ج٨ ص٣٦٠ . والصافى ج٢ ص٣٥٥

هذه الآية كآية الاسراء (٧٣) المتقدمة ـ وكم لها من نظائر في القرآن ـ تيئيس لمطمع المشركين والمنافقين في الاصطلاح مع النبي ﷺ وان لا منفذ لخداعهم الخبيث في نفسه الكريمة «ودوا لو تدهن فيدهنون ـ القلم: ٥». فقد وردان اباسفيان ابن حرب وعكرمة بن ابي جهل وابا الأعور السلمي قدموا المدينة، ونزلوا على عبدالله ابن ابي، بعد غزوة احد، بأمان من رسول الله ﷺ ليكلموه. فقاموا وقام معهم عبدالله ابن ابي وعبدالله بن سعد بن ابي سرح وطعمة بن ابيرق، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومنات. وقل: ان لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشق ذلك على النبي ﷺ ثم أمر باخراجهم من المدينة، ونزلت الآية [1].

* * *

٥ ـ ومنها قوله تعالى: «لا تجعل مع الله الهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا ـ الاسراء: ٢٤». وللاية نظائر كثيرة، كلها نزلت تعريضاً بغيره ﷺ من غير ان يكون هو مقصوداً بالذات. من باب «اياك اعني واسمعي ياجارة». كما في قوله تعالى: «ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ـ الزمر: ٦٥». وغيرها من آيات هي نظائر. كلها ترمي غيره ﷺ. ومن ثم حملها بعضهم على ارادة الخطاب مع كل سامع او قارىء، اي ايها السامع لهذا الخطاب او ايها القارىء لهذا الكلام او ايها الانسان بصورة عامة [2].

* * *

٦ ـ و منها قوله تعالى: «عبس وتولى ان جاءه الاعمى. و مايدريك لعله يزكى. او يذكر فتنفعه الذكرى. اما من استغنى فأنت له تصدى. و ما عليك ان لا يزكى. واما من جاءك يسعى. و هو يخشى. فأنت عنه تلهى ـ عبس: ١ـ١٠».

١ـ مجمع البيان ج٨ ص٣٣٥

٢ـ انظر مجمع البيان ج٦ ص٤٠٧

رووا بشأن النبي ﷺ انه كان يتكلم مع عظماء قريش اذ جاء ابن ام مكتوم ـ و هو فقير اعمى ـ يسترشده ، فلم يلتفت اليه النبي ﷺ و امتعض و اعرض بوجهه عنه ، قائلا في نفسه ، ان هؤلاء الصناديد سوف يقولون : انما اتبعه السفلة السقاط ! [1] .

قال اعداء الاسلام و المشنعون بمقام سيد المرسلين : هل هذا من خلق المرسلين؟ و هلا يتنافى ما في هذه السورة مع قوله تعالى : «وانك لعلى خلق عظيم ـ القلم ٤ » ؟ ! [2] .

قال الشريف المرتضى ـ قدس سره الشريف ـ : «اما ظاهر الآية فغير دال على توجهها الى النبي ـ ص ـ و لافيها مايدل على انه خطاب له ﷺ بل هي خبر محض لم يصرح بالمخبر عنه ، وفيها مايدل عند التأمل على ان المعنى بها غير النبي ـ صلى الله عليه و آله ـ لانه وصفه بالعبوس ، و ليس هذا من صفات النبي ـ ص ـ في قرآن ولاخبر مع الا عداء المنابذين [3] فضلا عن المؤمنين المستر شدين .

ثم وصفه بأنه يتصدى للاغنياء و يتلهى عن الفقراء ، و هذا مما لا يصف به نبينا ﷺ من يعرفه . فليس هذا مشبهاً لاخلاقه ﷺ الواسعة ، و تحننه على قومه و تعطفه » .

«و كيف يقول : وما عليك ان لايزكى !؟ وهو ﷺ مبعوث للدعاء والتنبيه و كيف لايكون ذلك عليه ، و كان هذا القول اغراء بترك الحرص على ايمان قومه » .

«و قدقيل : ان هذه السورة نزلت في رجل من اصحاب رسول الله ـ صلى

١ـ الطبرى ـ جامع البيان ـ ج ٣٠ ص ٣٢ ـ ٣٤ .

٢ـ انظر : الهدى الى دين المصطفى للحجة البلاغى ج ١ ص ١٥٨ .

٣ـ قال تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ـ آل عمران : ١٥٩ » .

الله عليه و آله ـ كان منه هـذا الفعل المنعوت فيها . و نحن ان شككنا فى عين من نزلت فيه [1] فلا ينبغى ان نشك فى انها لم يعن بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم » .

«وأى تنفير ابلغ من العبوس فى وجوه المؤمنين ، والتلهى عنهم . والاقبال على الاغنياء الكافرين ، والتصدى لهم . وقدنزه الله تعالى النبى ـ ص ـ عمادون هذا فى التنفير بكثير » [2] .

وقال سيدنا الطباطبائى ـ دام ظله ـ «وقد عظم الله خلق النبى صلى الله عليه وآله اذقال : وانك لعلى خلق عظيم ،فى سورة القلم النازلة فى بدء البعثة ، لانها نزلت بعد سورة العلق باتفاق روايات الترتيب .فكيف يعقل ان يعظم الله خلق نبيه فى بدء بعثته بصورة مطلقة ، ثم يعود فيعاتبه بالعبوس فى وجه الفقراء والتصدى للاغنياء ؟!» .

«وقدأمره تعالى بخفض الجناح للمؤمنين «واخفض جناحك». سورة الحجر : ٨٨ المكية ، كما أمره بالاعراض عن المشركين «واعرض عن المشركين» ايضاً فى سورة الحجر : ٩٤ .فكيف يخالف صلى الله عليه وآله أمر ربه فى الموضعين. وقدقال تعالى: « ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجاً منهم ولاتحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ـ الشعراء المكية : ١٢٥» ؟! :

«على ان تفضيل الغنى على الفقير ، لالشىء سوى ان ذاك ذوجاه وهذا حقير ، قبيح عقلا ، فضلا عما اذا كان صاحب الغنى جاهلا ، وكان الفقير صاحب كمال . الامر الذى يكون قبحه ذاتياً عند كل انسان ، من غير حاجة الى نهى ودستور!» [3].

* * *

١ـ عن الصادق ـ عليه السلام ـ: (نزلت فى رجل من اثرياء بنى امية كان عند النبى ـ ص ـ فجاء ابن ام مكتوم ، فلما رآه تقذر منه و جمع نفسه و عبس و اعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وانكره عليه» مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٣٧ .

٢ـ كتاب تنزيه الانبياء ص ١١٩ (طنجف) وراجع ايضا الهدى الى دين المصطفى ج١ ص١٥٧ـ١٥٨

٣ـ انظر : تفسير الميزان ج٢٠ ص٣٠٨ـ٣٠٩ .

٧ـ ومنها قوله تعالى : «ووجدك ضالا فهدى ـ الضحى : ٧» .

هذه الآية ونظائرها الكثيرة في القرآن ،تعني جانب انحصار الهداية في الله عزوجل ، فلاهدى الاهديه:«الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ـ الاعراف : ٤٣» .

وكل مهتد في هذا الوجود فانما هدايته مكتسبة ومفاضة عليه من جانبه تعالى، نبياً كان فمن دونه . ولاهداية ذاتية الافي الحق تعالى عزشأنه . «اني ذاهب الى ربي سيهدين ـ الصافات : ٩٩» . «الذي فطرني فانه سيهدين ـ الزخرف : ٢٧» . «الذي خلقني فهو يهدين ـ الشعراء : ٧٨» .

قال ابراهيم : «لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ـ الانعام :٧٧».

وقال تعالى عن انبياء اجتباهم وهداهم : « واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ـ الانعام : ٨٧» .

وقال موسى : «فعلتها اذاً وانا من الضالين ـ الشعراء : ٢٠» .

وقال تعالى بشأن نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم : «وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا، ماكنت تدري ماالكتاب ومالايمان ،ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا. وانك لتهدي الى صراط مستقيم ـ الشورى : ٥٢» .

وقال : «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك كبيراً ـ النساء : ١١٣» .

وقال هو صلى الله عليه وآله وسلم فيما أمره تعالى ان يقول : « وان اهتديت فبما يوحي الى ربي ، انه سميع قريب ـ سبأ : ٥٠» .

هذا هو معنى ضلاله صلى الله عليه وآله وحاجته الذاتية الى هدى ربه ، ولولا هديه تعالى لكان من الضالين .

والى هذا المعنى ينظر قوله تعالى ـ في مفتتح سورة يوسف ـ «نحن نقص عليك احسن القصص ،بما اوحينا اليك هذا القرآن ،وان كنت من قبله لمن الغافلين».

حيث علمه ﷺ مستمد من فيض قدسه تعالى ،وانه انما يعلم ماعلمه الله .

والغفلة فى هذه الآية هو الضلال فى سائر الآيات ، وهو عدم المعرفة بالشىء ذاتياً . ولعل فى التعبير بالغفلة مناسبة مع المبدأ القائل بان العلم تذكر ،فتنبه !

* * *

٨ـ ومنها قوله تعالى :«انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ،ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ـ الفتح : ١ـ٢» .

ماهذا الذنب الذى تشير اليه الآية الكريمة ؟

قلنا : ان من شأن كل قائم باصلاح ، وخارج على مساوى عادات قوم هى مألوفة عندهم ، ان يعرض بنفسه لتعييرهم والتشنيع به ، ويرون من عمله ذلك خطيئة كبيرة خالف بها مقومات وجودهم الموروثة عبر الأجيال ، فكأنه يحاول تحطيم كيانهم والانهيار بقوميتهم ، ولاسيما الكبراء زعماء القوم ، يخشون على مصالحهم فى البلاد . فينظرون اليه كمذنب عارم وقيح .

لكنه ريثما يتغلب على الموانع ويرفع الحواجز عن طريقه ويبلغ قمة الفوز والنجاح ، وتزدهر معالم اصلاحاته العامة اذاهم يستبشرون به كفاتح عظيم ، ومبشر بسعادة الاجيال .فتنقلب سيئاته حسنات ، وتغفر جميع ذنوبه التى كانوا يرونها ذنوباً ، بعد ما لمسوا من حقيقة قيامه الاصلاحى واخلاصه فى نهضته منذ البدء .

قال الامام ابو الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام « لم يكن أحد عند مشركى اهل مكة اعظم ذنباً من رسول الله ﷺ لانهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمئة وستين صنماً ، فلما جاءهم بالدعوة الى كلمة الاخلاص ، كبر ذلك عليهم وعظم ،وقالوا : أجعل الآلهة الها واحداً ـ الى قوله ـ الاختلاق . فلما فتح الله تعالى على نبيه ﷺ مكة ، قال تعالى : يامحمد ، انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، عند مشركى اهل مكة ، بدعاءك الى توحيد الله فيما تقدم وماتأخر ، لان

مشركي مكة اسلم بعضهم ، وخرج بعضهم من مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على انكار التوحيد عليه ، اذ دعا الناس اليه . فصار ذنبه مغفوراً بظهوره عليهم»[1] .

وقوله : «وماتأخر» اى حتى الاعمال التى يرتكبها ذلك المصلح فى مستقبل امره يغضون عنها حتى ولو كانت على خلاف مصالحهم الخاصة .

* * *

٩ـ ومنها قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذى انقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك. فان مع العسر يسراً . ان مع العسر يسراً ـ الانشراح: ١ـ٦».

ماهذا الوزر الذى وضعه الله تعالى عن نبيه ﷺ ؟

الجواب : الوزر ـ كحبر ـ فى أصل اللغة[2] : الحمل الثقيل . والجمع أوزار . كما فى قوله تعالى : «ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم ـ طه :٨٧» واستعير استعماله فى الاثم لكونه حملا ثقيلا قاصماً للظهر . اما فى الآية فان المراد بها حمل عبء الرسالة والصدع بها ، الذى كان ﷺ يخشى صعوبة ادائه ، فى ذلك الجو المليء بالعصبية والشقاق . لكنه تعالى وفقه على الانتهاض بدعوته فى يسر ولين . كما شرح صدره الذى كاد يضيق من خطورة موقفه مع قومه فخفف عليه ذلك وهان.

قال تعالى : « الم نشرح لك صدرك» لهذه الدعوة ؟ ويسرنا لك أمرها ؟ «ووضعنا عنك وزرك الذى انقض ظهرك» اى خففنا عليك عبئك الذى كان اثقل ظهرك. وان فى بقية الايات لدليلا واضحاً على صحة هذا التفسير .

* * *

١٠ـ ومنها قوله تعالى: «فاصبر ان وعد الله حق ، واستغفر لذنبك ـ غافر: ٥٥».

وقوله :«فاعلم انه لا اله الا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ـ سورة محمد: ١٩» .

ماهذا الذنب الذى امر النبى ﷺ بالاستغفار منه ؟

١ـ عيون اخبار الرضا للصدوق (ط نجف) ص١٦٠ ـ ١٦١

٢ـ ابن فارس ـ معجم مقاييس اللغة ـ ج٦ ص١٠٨

قال الحجة البلاغى : ولعل الآيتين من سنخ آية الفتح ـ التى تقدمت برقم ٨ـ . ويمكن ان يكون تعليماً للامة وان كان الخطاب للرسول صلى الله عليه وآله كما فى آيات من سورة بنى اسرائيل ٢٣ ـ ٢٩ و ٣٦ ـ ٣٩ [1]

قال المفسرون : وهذا من أدب العبودية يؤدب الله به نبيه وليتأدب عليه المسلمون وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحذيفة : «اين انت من الاستغفار ، انى لاستغفر الله فى اليوم ٧٠ مرة» [2]

وذلك ان العبد مهما بالغ فى التخضع والانقياد لله رب العالمين ، وتجاهد فى عبادته والقيام بمرضاته ، فانه مع ذلك قاصر لا محالة ، ولا سيما عباد الله المخلصون الذين ادركوا من عظمة الله وجليل نعمه على عباده ، فان شعورهم بالقصور عن اداء شكره الواجب اشد . ومن ثم فان خشيتهم تجاه رب العباد اكثر ، «انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور ـ فاطر : ٢٨» .

وهكذا بقية الآيات التى جاء فيها ذكر الاستغفار ، خطاباً الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بصورة خاصة اوعموماً .

وبقيت آيات اخر كان فيها بعض العتاب الموجه الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم اغمضنا عنها ، لوضوح حالها قياساً على ما اسلفنا ، انها اما عتاب وداد اوتعريض بغيره فى مناسبة خاصة ، اوالى امته بشكل عام . ولكمال ظهورها طوينا عنها البحث .

١ـ الهدى الى دين المصطفى ج١ ص١٦٤ (ط نجف)

٢ـ مجمع البيان للطبرسى ج٩ ص١٠٢

انتهى ما اردنا ثبته في هذا المختصر ، ولعله بقيت من آيات متشابهة ما لم نتعرض لها فقد أجلناها الى مجال التفسير ، حيث لم نقصد الاستقصاء وانما كان الغرض عرض نماذج أوفيناها بتوفيقه تعالى . وله الحمد واصباً على تسديده للصواب والكمال .

وكان الفراغ مساء يوم ميلاد الامام الثامن علي بن موسى الرضا ، عليه آلاف التحية والثناء . الحادى عشر من ذى قعدة الحرام ، سنة الف وثلاثمئة وثمان وتسعين هجرية ، على مهاجرها وآله صلوات رب العالمين .

١١ / ذق / ١٣٩٨هـ قم المقدسة ـ محمد هادى معرفة

فهرس الايات القرآنية

التى جاءت فى هذا العرض اما بحثاً عن مدلولها اولغرض الاستدلال

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	١ـ سورة الفاتحة	
٦	اهدنا الصراط المستقيم	٢٠٣، ٢٠٩
	٢ـ سورة البقرة	
٢	هدى للمتقين	٢٠٩، ٢٥٤
٦	سواء عليهم ءأنذرتهم ام لم تنذرهم ...	٢١٠
٧	ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ...	٢١٠، ٢٤٢، ٣٢١
٩	يخادعون الله والذين آمنوا ـ الى قوله ـ ومايشعرون	٣١٦
١٠	فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ...	٢١١، ٢٤٢، ٣٢٧

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٣	واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا ...	٢٠٥
١٤	واذا خلوا الى شياطينهم ـ الى قوله ـ يعمهون	٣١٧، ٣١٨
١٥	الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم	٢١٣
١٦	اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ...	٢١٣
١٧	كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ...	٢٠٦
١٨	صم بكم عمى فهم لا يرجعون	٢١٣
٢١	يا ايها الناس اعبدوا ربكم ...	٢١٣
٢٥	وأتوا به متشابهاً ...	١٠٥
٢٦	يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً	٢١٣
٢٦	فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق ...	١٧، ٤٠
٢٩	ثم استوى الى السماء	١٢٦، ١٣١
٣٠	واذ قال ربك انى جاعل فى الأرض خليفة	٢٠
٣١	وعلم آدم الاسماء كلها ...	٩
٣٥	ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين	٤١٢
٣٦	فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه	٤١٢
٣٧	فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه	٤١٢
٤٨	الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم	١٠٥، ١٠٦
٥٥	واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ـ الى قوله ـ وانتم تنظرون	٩٩
٦٧	اعوذ بالله ان أكون من الجاهلين	٣١٥
٧٤	ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة	٢١٠، ٣٢٨
٨٠	ام تقولون على الله مالا تعلمون	٢٨٩

رقم الاية	صفحة	الاية	رقم الصفحة	صفحة
٨٨		وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم	٥٨	
٩٣		واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم	٥٨	
١٠٢		وماهم بضارين به من احد الا باذن الله	٣٤	
١١١		وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى	٠٠٢	
١١٥		ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله	١٤٧	
١١٧		واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون	١٠٢	
١٢٤		قال لاينال عهدي الظالمين	٤١٣	
١٢٨		ربنا واجعلنا مسلمين لك ...	٢٠٢	
١٢٩		ربنا وابعث فيهم رسولا منهم	٨٠٢	
١٣٠		ومن يرغب عن ملة ابراهيم	٠١٢	
١٣٥		قالوا كونوا هودا او نصارى تهتدوا	٣٠٨	
١٤٢		سيقول السفهاء ـ الى قوله ـ قل لله المشرق والمغرب	١٤٧	
١٤٢		يهدي من يشاء الى صراط مستقيم	٢١٤	
١٤٣		وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء ـ الى قوله ـ عليكم شهيدا	٣٦٤	
١٤٣		وماجعلنا القبلة التي ـ الى قوله ـ هدى الله	١٤٧	
١٤٣		وماكان الله ليضيع ايمانكم	٣٨٢،٣٧٤	
١٥١		كما ارسلنا فيكم رسولا	٢٨٥	
١٥٦		انا لله وانا اليه راجعون	٢٦٠،١٠٥	
١٧٠		واذا قيل لهم اتبعوا ماانزل الله ـ الى قوله ـ ولايهتدون	١٤٠	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٨٥	شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس	٢٠٩
١٨٥	يريدالله بكم اليسر ولايريد بكم العسر	١٦٧
١٩٤	فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى	٣١٨
٢٠٠	فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الاخرة من خلاق	٣٣٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٥
٢٠١	ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة	٣٨٥
٢٠٢	اولئك لهم نصيب مما كسبوا ...	٣٨٥
٢٠٨	كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فأحياكم	١٦٣
٢١٠	هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام	١١٣ ، ١١٧ ، ١٣١
٢١٣	فهدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه	٢٥٩
٢٢٥	ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم	٢٤٢
٢٢٩	ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون	٤١٥
٢٥٣	ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد	١٥٩ ، ٢١٤
٢٥٥	ولايحيطون بشىء من علمه	٨٥
٢٥٥	وسع كرسيه السماوات والارض ولايؤده حفظهما	١٢٢ ، ١٢٣
٢٥٦	لااكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى	١٦٣
٢٥٧	الله ولى الذى آمنوا ـ الى قوله ـ من الظلمات الى النور	٢٠٤ ، ٢١٤
٢٥٧	والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت ـ الى قوله ـ الى الظلمات	٢٠٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٥٨	والله لايهدى القوم الظالمين	٢١٥
٢٦٠	واذقال ابراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى	٤٢٠
٢٦٢	الذين ينفقون فى سبيل الله ولايتبعون ماانفقوا منا ولااذى	٣٩
٢٦٤	لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى ـ الى قوله ـ لايقدرون على شىء مما كسبوا	٣٩٠
٢٧٢	ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء	٢١٥
٢٨١	ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون	٣٨٣
٢٨٦	لايكلف الله نفسا الاوسعها ،لها ماكسبت وعليها مااكتسبت	١٦٣

٣- سورة آل عمران

٣	نزل عليك الكتاب ـ الى قوله ـ وانزل الفرقان	١١٦
٧	هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب ـ الى قوله ـ كل من عند ربنا	١٤ ، ١٧ ، ٣٢٦
٨	ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذهديتنا	٣١٥ ، ٢٣٩
٨	وهب لنا من لدنك رحمة	٢١٦
١٣	والله يؤيد بنصره من يشاء	٢١٦
١٤	زين للناس حب الشهوات ...	٢١٦
٢٥	ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون	٣٨٣
٢٦	قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء	١٥٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٨	لايتخذ المؤمنون الكافرين اولياء - الى قوله - الاان تتقوا منهم تقاة	٨٥٢
٣٢	اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم	٢٢٩
٤٠	كذلك يفعل الله مايشاء	٢٢٢
٤١	واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار	٢٨٨
٤٥	ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين	٤٣٥
٤٧	اذاقضى امراً فانما يقول له كن فيكون	٣١٨
٥٥	ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا	٣٣٤
٥٥	ثم الى مرجعكم	١٢٩
٧٣	قل ان الهدى هدى الله	١٢٩
٧٣	قل ان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء	٢١٦
٧٧	ان الذين يشترون بعهد الله - الى قوله - لاخلاق لهم	١٥٠ ، ٢١٦
٨٣	افغير دين الله يبغون - الى قوله - يرجعون	٣٨٨
٨٦	كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد ايمانهم	٢١٦
١٠٨	وما الله يريد ظلماً للعالمين	٢٩٧
١١٩	واذا خلوا عضوا عليكم الانامل...	٢٥٩
١٢٦	وما النصر الامن عندالله	٨
١٢٨	ليس لك من الامر شيء	٢١٧
١٣٢	واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون	٢١٧
١٣٨	هذا بيان للناس ...	٢٦٦
١٤٠	ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح	٢١٧

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٤١	وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين	٣٦٥
١٤٢	ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ـ الى قوله ـ ويعلم الصابرين	٣٦٥
١٤٥	وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله كتاباً مؤجلا	٣٣٧
١٥٢	ثم صرفكم عنهم ليبتليكم..	٢١٨
١٥٣	فأثابكم غماً بغم ...	٢١٨
١٥٤	قل ان الامر كله لله	٢١٨
١٥٤	وليبتلي الله ما في صدوركم	٣٦٥
١٥٩	فبما رحمة من الله لنت لهم ـ الى قوله ـ من حولك	٤٤٤
١٦٠	وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم	٢٣٢
١٦١	ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون	٣٨٣
١٦٩	أحياء عند ربهم يرزقون	١٢٩
١٧١	يستبشرون بنعمة من الله وفضل	٣٨٦
١٧٤	فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء	٢٥٩
١٧٦	ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ـ الى قوله ـ يريد الله ان لا يجعل لهم حظاً فى الآخرة	٢١٨ ، ٣٦٤
١٧٨	ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير	٢١٩ ، ٣١٤
١٧٩	ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب	١٧١ ، ٣٦٥
١٨١	لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير	١٤٩
١٨٦	لتبلون فى اموالكم وانفسكم ...	٣٦٦

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٩٥	انى لااضيع عمل عامل منكم من ذكر وانثى	٣٨٢
١٩٧	لايحزنك تقلب الذين كفروا فى البلاد	٣١٤

٤- سورة النساء

١٤	ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها	٤١٣
١٨	وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا ...	٢٥٧
٢٦	يريدالله ليبين لكم ويهديكم	١٦٧
٢٨	يريدالله ان يخفف عنكم	١٦٧
٣١	ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم	٣٧٣
٣٢	للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن	١٦٣
٣٦	واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً	١٦٦
٣٩	وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر	١٦٤
٤٠	ان الله لايظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها	٣٨١
٤٢	ولايكتمون الله حديثاً	٢٤٥
٤٩	ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكى من يشاء	٢١٩
٦٥	ثم لايجدوا فى انفسهم حرجاً مماقضيت	٣٣٢
٧٨	وان تصبهم حسنة - الى قوله - قل كل من عندالله	١٥٩ ، ١٩٤

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٧٨	فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون...	٢٤٢
٧٩	ماأصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك	١٥٩ ، ١٩٥
٧٩	وارسلناك للناس رسولا	٢٨٥
٨٢	ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً...	١٦
٨٨	أتريدون ان تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فماله من هاد	٢١٩
٩٠	ولو شاء الله لسلطهم عليكم	٢٢٠
٩٣	ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها	٤٠٨ ، ٤٠٩
١٠٢	واذا كنت فيهم فاقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك	٢٧٨
١٠٣	فاذا قضيتم الصلاة	٣٣٣
١١٠	ومن يعمل سوء اويظلم نفسه ـ الى قوله ـ تواباً رحيماً	١٦٣
١١٣	وعلمك مالم تكن تعلم	٤٤٦
١٢٣	من يعمل سوء يجز به	١٦٣
١٢٥	ومن احسن ديناً ممن اسلم وجهه لله	١٤٨
١٢٦	وكان الله بكل شى محيطاً	١٢١
١٣٧	ان الذين آمنوا ثم كفروا ـ الى قوله ـ سبيلا	٢٢٠
١٤٢	ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم	٣١٩ ، ٣٢٣
١٤٢	واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى	٣١٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٤٥	ان المنافقين فى الدرك الاسفل	١٠٧
١٤٧	مايفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم	٢٧٠
١٥٣	يسألك اهل الكتاب ان تنزل عليهم ...	٩٩
١٥٥	فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم ـ الى قوله ـ الاقليلا	٢٢٠ ، ٣٢٥
١٥٥	بل طبع الله عليها بكفرهم	٣٢٢
١٥٨	بل رفعه الله اليه	١١٢ ، ١٢٩
١٦٥	لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل	٢١٢ ، ٢٩٤ ، ٣٦٥
١٦٦	لكن الله يشهد بما انزل اليك انزله بعلمه	٨٥
١٧٤	فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به ـ الى قوله ـ مستقيماً	٢٠٦

٥ـ سورة المائدة

٦	اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم	٢٧٨
٦	مايريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج	١٦٧ ، ٢٢٠
١٣	فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية	٢٢٠ ، ٢٨١ ، ٣٢٢
١٣	ونسوا حظاً مما ذكروا به	٣٦٤
١٤	ومن الذين قالوا انانصارى ـ الى قوله ـ يوم القيامة	٢٢١
١٤	فنسوا حظاً مماذكروا به	٣٦٤
١٦	قدجاءكم من الله نور وكتاب مبين	٢٠٠ ، ٢٦٣
٢٧	انما يتقبل الله من المتقين	٣٩١
٤١	ومن يرد الله فتنة فلن تملك له من الله شيئاً	٢٢١

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤٨	ولو شاءالله لجعلكم امة واحدة ـ الى قوله ـ تختلفون	٢٢٢
٥٢	فترى الذين فى قلوبهم مرض ...	٣٢٧
٦٠	قل هل أنبؤكم بشر من ذلك ـ الى قوله ـ سواء السبيل	٢٢٢
٦٤	وقالت اليهود يدالله مغلولة ـ الى قوله ـ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء	٢٤، ١٤١، ١٤٩، ٣٤٠
٧١	وحسبوا انلاتكون فتنة	٣٦٦
١١٠	واذتخلق من الطين كهيئة الطير باذنى	١٥٩، ١٧٨، ١٩١
١١٦	ءأنت قلت للناس اتخذونى وامى الهين	٤٣٧
١١٦	تعلم مافى نفسى ولااعلم مافى نفسك	٢٩٧

٦ـ سورة الانعام

٢	هوالذى خلقكم من طين ثم قضى اجلا	٣٣٢
٦	وارسلنا السماء عليهم مدراراً	٢٨٦
١٦	ومن جاء بالسيئة فلايجزى الامثلها وهم لايظلمون	٣٨١
٢٤	انظر كيف كذبوا على انفسهم ...	٢٦٣، ٢٦٦
٢٥	وجعلنا على قلوبهم اكنة ـ الى قوله ـ لايؤمنوا بها	٢٢٣، ٢٤٢، ٣٢٤
٢٦	وهم ينهون عنه وينأون عنه ...	٢٢٣
٢٨	بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل ـ الى قوله ـ لكاذبون	١٣٢

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٩	قالوا انهى الاحياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين	١٣٢
٣٠	ولوترى اذوقفوا على ربهم ـالى قوله ـتكفرون	١١٣ ، ١٣٢
٣١	قدخسر الذين كذبوا بلقاءالله	١٠٥ ، ١٣٢
٣٥	ولوشاءالله لجمعهم على الهدى	٢٢٣
٣٦	انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله	٢٤١
٣٨	مافرطنا فى الكتاب من شىء	١٨٦
٣٩	والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم . . .	٢٢٣
٤٣	فلولا اذجاءهم بأسنا تضرعوا ـالى قوله ـ يعلمون	١٩٥ ، ٣٢٨
٤٣	ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون	٢١٠ ، ٢٥٤
٤٤	فلما نسوا ماذكروابه ـالى قوله ـمبلسون	٣١٤
٤٦	قل أرأيتم ان أخذالله سمعكم . . .	٢٢٤ ، ٣٢١
٥٣	وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا ...	٢٢٤
٦٢	ثم ردوا الى الله مولاهم الحق الاله الحكم	١١٣، ١٢٥ ، ١٣٢
٦٥	قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم	١٤٢
٧٣	وله الملك يوم ينفخ فى الصور	١٠٦ ، ١٢٥
٧٧	لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الظالين	٤٤٦
٧٨	فلما جن عليه الليل رآى كوكباً ـالى قوله ـ برىء مما تشركون	٤١٩
٨٠	ولااخاف ماتشركون به الاان يشاء ربى شيئاً	٢٢٤

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٨٤-٩٠	كلاهدينا -الى قوله -فبهداهم اقتده	٢٠٠ ، ٢٠٢
٨٧	واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم	٢٢٥ ، ٤٤٦
٨٨	ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده	٢٢٥
١٠٠-١٠٤	بديع السماوات -الى قوله- وماانا عليكم بحفيظ	١١٠ ، ١٨٦
١٠١	وخلق كل شيء	٢٢٥
١٠٢	ذلكم الله ربكم لااله الاهو خالق كل شيء	١٦٥
١٠٣	لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار	١٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٠
١٠٤	فمن ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها	٣٢٦
١٠٤	وماانا عليكم بحفيظ	١١٠
١٠٧	ولو شاء الله مااشركوا	١٥٩ ، ٢٢٥
١٠٨	وكذلك زينا لكل امة عملهم	٢٢٥
١٠٩	ومايشعركم انها اذاجاءت لايؤمنون	٣٢٥
١١٠	ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون	٢٢٥
١١١	ماكم الله ربكم لااله الاهو خالق كل شيء	١٦٥
١١٢	وكذركه الابصار وهو يدرك الابصار	١٨ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٠
١١٣	ولو ابصر فلنفسه ومن عمى فعليها	٣٢٦
١٢٣	جعلانا عليكم بحفيظ	١١٠
١٢٣	ومايشاء الله مااشركوا	١٥٩ ، ٢٢٥
١٢٤	سيصذلك زينا لكل امة عملهم	٢٢٥
١٢٥	فمن يشعركم انها اذاجاءت لايؤمنون	٣٢٥
١٣٣	وربالب افئدتهم وابصارهم	١٤٥

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٣٧	ولوشاءالله مافعلوه	٢٢٧
١٤٢	ذلك جزيناهم ببغيهم وانالصادقون	١٦٣
١٤٨	سيقول الذين اشركوا لوشاءالله مااشركنا	١٦٥ ، ٣٢٩
١٤٩	قل فلله الحجة البالغة	٣٠٤
١٤٩	فلوشاء لهداكم اجمعين	١٦٥ ، ٢٠٢ ، ٢٢٧
١٥٣	وانهذا صراطى مستقيما ـ الى قوله ـ عن سبيله	٢٥٩
١٥٧	سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب	١٦٣
١٥٨	اويأتى ربك	١٣١
١٦٠	من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ـ الى قوله ـ فلايجزى الامثلها	١٠٢ ، ٣٨٢
١٦٥	وهو الذى جعلكم خلائف ـ الى قوله ـ ليبلوكم	٣٦٦

٧ ـ سورة الاعراف

١١	كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين	٣٢٣
١٦	قال فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراتك	٢٢٧
١٩	ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين	٤١٢
٢٠	فوسوس لهما الشيطان ـ الى قوله ـ الخاسرين	٤١٢
٢١	وقاسمها انى لكما لمن الناصحين	٤١٢
٢٢	فدلاهما بغرور ـ الى قوله ـ ألم انهكما ...	٤١٢
٢٣	قالا ربنا ظلمنا انفسنا ...	٤١٣ ، ٤١٥
٢٨	قل ان الله لايأمر بالفحشاء	٢٦٨
٣٠	فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة	٢٢٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٠	ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط	١٠٢
٤٣	ونزعنا مافى صدورهم من غل	٢٢٨
٤٣	الحمدلله الذى هدانا ـ الى قوله ـ ان هدانا الله	١٨٠ ، ٢٢٩ ، ٤٤٦
٤٦	انهم كانوا قوماً عمين	٣٢٦
٥١	فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا	١٠٦
٥٤	ان ربكم الله ـ الى قوله ـ له الخلق والامر	٨٧ ، ١٢٤ ، ١٥٧ ، ٢٢٨
٥٨	والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه	١٧٨
٦٤	انهم كانوا قوماً عمين	٣٢٦
٨٣	فانجيناه واهله الا امرأته كانت من الغابرين	٢٦٥
٨٩	وماكان لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله	٢٢٨
٩٤	الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون	٢٣٠
٩٥	ثم بدالهم مكان السيئة الحسنة	٢٣٠
٩٦	ولو ان اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم ـ الى قوله ـ فأخذناهم بماكانوا يكسبون	١٩٥ ، ٢٣٠
٩٩	أفأمنوا مكر الله فلايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون	٣٢٠
١٠٠	ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون	٢٣٠ ، ٢٤٢
١٠١	فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل	٢٣٠ ، ٢٧٤
١١٦	سحروا اعين الناس واسترهبوهم	٤٢٧
١١٧	تلقف مايأفكون	١٨٥
١١٨-١٢٢	فوقع الحق ـ الى قوله ـ رب موسى وهارون	٤٢٧ ، ٤٢٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٣٠	ولقد اخذنا آل فرعون ـ الى قوله ـ يذكرون	٢٥٦
١٣١	فاذا جاءتهم الحسنة ـ الى قوله ـ يطيروا بموسى . . .	١٩٥
١٤٢	وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى . . .	٤٣٠
١٤٣	رب ارنى انظر اليك ـ الى قوله ـ فسوف ترانى	٩١، ٩٨، ٤٢٩
١٤٦	سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض	٢٠٥ ، ٢٣١
١٤٦	وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ـ الى قوله ـ غافلين	٢٣١
١٤٧	والذين كذبوا ـ الى قوله ـ حبطت اعمالهم	١٠٦
١٥١	واخذ برأس أخيه يجره اليه	٤٣٠
١٥٥	واختار موسى قومه سبعين رجلا ـ الى قوله ـ وانت خير الغافرين	٩٩ ، ١٠٠، ٢٢٢، ٢٣١، ٤٢٨
١٥٥	قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل واياى	٤٢٨
١٥٥	ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى . . .	٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٤٢٨
١٥٦	ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون	١٠٦ ، ٣٧٨
١٥٧	انت ولينا فاغفر لنا ـ الى قوله ـ اناهدنا اليك	١٠٠
١٦٢	فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء	٢٨٦
١٦٨	وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون	١٩٥ ، ٢٨٩
١٧٨	من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضلل ...	٢٣١
١٧٩	ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس	١٥٨ ، ١٩٢ ، ٢٣١
١٨١	وممن خلقنا امة يهدون بالحق وبه يعدلون	١٩٩

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٨٢	والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون	٢٣١ ، ٣١٣
١٨٣	واملى لهم ان كيدى متين	٣١٩
١٨٦	من يضلل الله فلاهادى له ويذرهم فى طغيانهم	٢٣٢
١٨٧	قل انما علمها عندربى لايجليها لوقتها الاهو	١٠١ ، ٢٣٢
١٨٨	قل لااملك لنفسى نفعاً ولاضراً الاماشاء الله	٢٣٢
١٩٥	ألهم ارجل يمشون بها ام لهم أيد يبطشون بها	١٤٣ ، ١٥٣

٨- سورة الانفال

١٠	وماالنصر الامن عندالله	٢٣٣
١١	وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام	٢٣٣
١٢	اذيوحى ربك الى الملائكة انى معكم فثبتوا ...	٢٣٣
١٧	فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ومارميت اذرميت ولكن الله رمى	١٠ ، ٢٣٤ ، ٣٣٩
١٨	ذلكم وان الله موهن كيدالكافرين	٣١٩
٢٠	اطيعوا الله ورسوله ولاتولواعنه وانتم تسمعون	١٦٦
٢٢	ان شر الدواب عندالله الصم البكم الذين لايعقلون	٢٣٤ ، ٣١٢
٢٣	ولوعلم الله فيهم خيراً لاسيمعهم...	٢٣٤
٢٤	واعلموا ان الله يحول بين المرءوقلبه	٢٣٥ ، ٣٢٥
٢٨	واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة	٣٦٦
٢٩	ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم	٤٠٠
٣٠	ويمكرون ويمكرالله والله خيرالماكرين	٣٢٠

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم	٤٣٦
٣٦	فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة	٤٠٢
٣٧	ليميز الله الخبيث من الطيب	١٧١ ، ٣٦٥
٤٢	ليقضي الله امراً كان مفعولا	٢٥١ ، ٣٣٧
٤٢	ليهلك من هلك عن بينة	١٩٣ ، ٢٥١ ، ٣٦٥
٤٨	واذ زين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٢
٤٩	اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض . . .	٣٢٧
٥١	ذلك بما قدمت ايديكم وان الله ليس بظلام للعبيد	٢٥١
٥٢	هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين ...	٢٥١
١٢٥	واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	٣٦٦

٩ـ سورة براءة

٩	قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ...	٣٣٧
١٦	ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا	٣٦٦
١٧	ما كان للمشركين ـ الى قوله ـ حبطت اعمالهم	٣٨٤
١٩	والله لا يهدي القوم الظالمين	٢٥١
٢٤	والله لا يهدي القوم الفاسقين	٢٥١
٣٠	قاتلهم الله أنى يؤفكون	٢٥٤
٣٢	ويأبى الله الا ان يتم نوره ...	٢٥
٣٧	والله لا يهدي القوم الكافرين	٢٥١
٤٠	وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا	٢٥٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٦	ولو ارادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ...	٢٥٢
٥٠	وان تصبك حسنة تسؤهم ...	٢٥٢
٥١	قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ...	٢٥٢
٥٤	ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ...	٣١٧
٥٥	فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها	٢٥٣
٦٩	اولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة	٣٨٤
٧٥-٧٦	ومنهم من عاهد الله ـ الى قوله ـ وهم معرضون	٢٥٣
٧٧	فاعقبهم نفاقاً الى يوم يلقونه بما اخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكذبون	١٠٥ ، ٢٥٣
٧٩	سخر الله معهم ولهم عذاب اليم	٣١٩
٨٥	ولا تعجبك اموالهم ـ الى قوله ـ كافرون	٣١٤
٨٧	وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون	٢٤٢ ، ٢٥٣
٩٣	وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون	٢٥٤ ، ٣٢٣
١٠٢	وآخرون اعترفوا بذنوبهم ـ الى قوله ـ غفور رحيم	٣٦٩
١١٤	وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة ...	٤٢٠
١٢٤	واذا ما انزلت سورة ـ الى قوله ـ وهم كافرون	٢٨٣
١٢٥	واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً الى رجسهم	٣٢٧
١٢٦	اولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة او مرتين	٢٩٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٢٧	ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم . . .	٢٥٤

١٠- سورة يونس

٣	ثم استوى على العرش يدبر الامر	١٢٤
٤	الى الله مرجعكم جميعاً . . .	١٣١
٥	يفصل الآيات لقوم يعلمون	٢٥٤
٦	لايات لقوم يتقون	٢٥٤
٩	يهديهم ربهم بايمانهم . . .	٢٦٣
١١	فنذر الذين لايرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون	٢٥٤
١٢	كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون	٢٥٤
١٩	ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ...	٢٥٤
٢١	قل الله اسرع مكراً . . .	٣٢٠
٢٢	هو الذى يسيركم فى البر والبحر	٢٥٥
٢٥	والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء ...	٢٥٥
٢٦	للذين احسنوا الحسنى وزيادة ...	٩٢ ، ٩٤ ، ١٠٢
٢٧	جزاء سيئة بمثلها ...	١٠٢ ، ٣٨١
٣٢	فماذا بعد الحق الا الضلال	٢٣٢
٣٣	كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا انهم لايؤمنون	٢٥٥
٤٢-٤٣	ومنهم من يستمعون اليك -الى قوله -لايبصرون	٢٥٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦١	ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة . . .	١١٠
٧٤	كذلك نطبع على قلوب المعتدين	٣٢٣
٨٥	ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين	٢٥٦
٨٨	ربنا انك آتيت فرعون وملاه زينة ...	٢٥٦، ٤٢٨
٨٨	ربنا اطمس على اموالهم ـ الى قوله ـ العذاب الاليم	٢٥٦
٨٩-٩١	قد اجيبت دعوتكما ـ الى قوله ـ من المفسدين	٢٥٦
٩٥	ولاتكونن من الذين كذبوا بآيات الله	٢٥٧
٩٦	ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون	٢٥٧
٩٩	ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً	١٧١، ٢٥٧
١٠٠	وماكان لنفس ان تؤمن الا باذن الله	٢٥٧
١٠٨	فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه . . .	٢٠٦

١١- سورة هود

٧	وكان عرشه على الماء	١٢٥
٧	ليبلوكم ايكم احسن عملا	٣٦٧
١٤	فاعلموا انما انزل بعلم الله	٨٥
١٥	من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ...	٢٨٠
٢٠	ماكانوا يستطيعون السمع ...	٢٥٧
٢٥	ولقد ارسلنا نوحاً الى قومه	٢٨٥
٢٨	فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون	١٦٧
٢٩	انهم ملاقوا ربهم	١٣٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٣	لاينفعكم نصحى ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريدان يغويكم	١٦٧
٣٦	انه لن يؤمن من قومك الامن قد آمن	٢٧٤ ، ٤١٨
٣٧	واصنع الفلك بأعيننا ووحينا	١٤٨
٣٧	ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون	٤١٨
٣٨	قالوا ان تسخروا منا فانا نسخر منكم	٣١٩
٤٢	يابنى اركب معنا ولاتكن مع الكافرين	٤١٨
٤٥-٤٧	رب ان ابنى من اهلى -الى قوله -أكن من الخاسرين	٤١٨
٤٨	وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم	٣١٤
٧٤	يجادلنا فى قوم لوط	٤٢١
١٠٥	يوم لاتكلم نفس الاباذنه فمنهم شقى وسعيد	٢٥٨ ، ٣٥٣
١٠٦	فاما الذين شقوا ففى النار	٤١٣
١٠٧	ان ربك فعال لما يريد	١٥٧ ، ١٨٧ ، ٢٥٨
١١٤	ان الحسنات يذهبن السيئات	٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
١١٨	ولوشاء ربك لجعل الناس امة واحدة- الى قوله- وتمت كلمة ربك لاملان جهنم	٢٥٩
١٢٣	واليه يرجع الامر كله	٢٦٠

١٢- سورة يوسف

٣	وان كنت من قبله لمن الغافلين	٤٤٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	وراودته التي هوفي بيتها ـ الى قوله ـ معاذالله	٤٢٢
٢٤	ولقد همت به وهم بها لولا ان رآى برهان ربه	٤٢١
٢٤	كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء	٢٦٠ ، ٤٢١
٣٢	ولقد راودته عن نفسه فاستعصم	٤٢٢
٣٣	وان لاتصرف عني كيدهن ...	٢٦٠
٣٤	فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن	٢٦٠
٥٣	الامارحم ربي	٢٦٠
٦٧	ان الحكم الالله	٢٦١
٦٨	الاحاجة في نفس يعقوب قضاها	٣٣٣
٧٦	كذلك كدنا ليوسف	٣٢٠
٨٧	ولاتيأسوا من روح الله ، انه لاييأس من روح الله الاالقوم الكافرون	٣٣٩

١٣ ـ سورة الرعد

٢	ثم استوى على العرش ـ الى قوله ـ يدبر الأمر	١٢٢
٧	انما انت منذر ولكل قوم هاد	٢١٧
١١	ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم	٢٦١ ، ٢٧٠
١١	واذاارادالله بقوم سوء فلامردله	١٦٧ ، ٢٦١
١٤	وما دعاء الكافرين الافي ضلال	٤٤٠
١٥	ولله يسجد ـ الى قوله ـ طوعاً اوكرهاً	٢٦١
١٦	ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ...	١٥٨ ، ١٩٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	قل الله خالق كل شيء	١٥٦ ، ٢٦٢
١٧	اما الزبد فيذهب جفاء واماما ينفع الناس فيمكث في الارض	٤٤٠
٢٧	قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من اناب	٢٠٥
٢٨	الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم الابذكر الله تطمئن القلوب	٢٤٠
٣١	أفلم ييأس الذين آمنوا ان لويشاء الله لهدى الناس جميعاً	٢٠٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢
٣٢	ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت ...	٣١٤
٣٩	يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده ام الكتاب	٣٤٨
٤١	والله يحكم لامعقب لحكمه	٢٤٥
٤٢	فلله المكر جميعاً	٣١٩

١٤ - سورة ابراهيم

١	لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم	٢٦٢
٤	فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء	٢٠١ ، ٢٦٢
٧	لئن شكرتم لأزيدنكم	١٩٥
٨	ان تكفروا - الى قوله - فان الله لغنى حميد	١٦٦
١١	ولكن الله يمن على من يشاء من عباده	٢٦٢
١٢	ومالنا أن لانتوكل على الله وقد هدانا سبلنا	٢٦٢
١٨	مثل الذين كفروا اعمالهم كرماد اشتدت به الريح	٣٨٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢١	قالوا لوهدانا الله لهديناكم	٢٦٣
٢٢	وقال الشيطان لماقضى الامر ـ الى قوله ـ عذاب اليم	٢٩٦ ، ٢٦٣
٢٥	كشجرة طيبة ـ الى قوله ـ باذن ربها	١٧٨
٢٧	يثبت الله الذين آمنوا ـ الى قوله ـ الظالمين	٢٠٥ ، ٢٦٣
٣٢	وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره	٢٦٣
٣٥	واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام	٢٦٤
٤٠	رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى	٢٦٤
٥١	لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت	٣٨٣

١٥ - سورة الحجر

٣	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل	٣١٥
٦	ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون	٢٤٦
١٢-١٣	كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به	٢٩٤
١٩-٢٢	والارض مددناها ـ الى قوله ـ بخازنين	٢٦٤
٢١	وان من شىء الاعندنا خزائنه ومانتزله الا بقدر معلوم	١٢٨، ١٢٩، ١٣٩، ٢٦٣
٣٩	قال رب بما اغويتنى لازينن لهم ـ الى قوله ـ اجمعين	٢٦٤
٤٢	ان عبادى ليس عليهم سلطان	٤١٣
٤٧	ونزعنا مافى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين	٢٦٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٠	الامرأته قدرناانها لمن الغابرين	٢٦٥ ، ٣٣٤
٦٦	وقضينا اليه ذلك الامر ان دابر هؤلاء مقطوع	٢٦٥ ، ٣٣٢
٨٥	وماخلقنا السماوات والارض ومابينهما الابالحق	١٨٧
٨٨	واخفض جناحك للمؤمنين	٤٤٥
٩٤	واعرض عن المشركين	٤٤٥

١٦- سورة النحل

٩	وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر، ولوشاء لهداكم اجمعين	٢٥٩ ، ٢٦٥
١٧	افمن يخلق كمن لايخلق	١٨٧
٢٠	والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئاً	١٥٧
٢٦	قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد	٣١٨
٣٠	للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الاخرة خير	٣٨٢
٣٣	اويأتى امر ربك ...	١٣١
٣٥	وقال الذين اشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه	٢٦٦
٣٦	ولقد بعثنا فى كل امة رسولا ـ الى قوله ـ حقت عليه الضلالة	٢٦٦
٣٧	ان تحرص على هداهم فان الله لايهدى من يضل	٢٣٢ ، ٢٦٦
٤٠	انما قولنا لشىء اذا اردناه ان نقول له كن ...	١٦٨
٤٣	فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون	١٣٦
٤٥	افأمن الذين مكروا السيئات	١٣٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٤٩	اولم يروا الى ماخلق الله من شيء ـ الى قوله ـ داخرون	٢٦١
٥٠	يخافون ربهم من فوقهم	١١٣ ، ١٣٠
٥٣	ومابكم من نعمة فمن الله	٢٦٧
٦٣	فزين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٢
٧٥	ضرب الله مثلا عبداً مملوكاً لايقدر على شيء	٢٦٧
٨١	والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ...	١٨٣
٨٩	تبياناً لكل شيء	١٨٦
٩٣	ولوشاء لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء	٢٦٧
٩٦	ولنجزين الذين صبروا اجرهم ...	١٦٣
٩٩ـ١٠٠	انه ليس له سلطان على الذين آمنوا ـ الى قوله ـ مشركون	٢٩٦
١٠٢	قل نزله روح القدس من ربك	١١٦
١٠٤	ان الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله	٢٠٠ ، ٢٦٨
١٠٨	اولئك الذين طبع الله على قلوبهم ...	٣٢٢ ، ٣٢٣
١١٩	ثم ان ربك للذين عملوا السوء ـ الى قوله ـ لغفور رحيم	٣٩٨

١٧ ـ سورة الاسراء

٤	وقضينا الى بني اسرائيل ـ الى قوله ـ علواً كبيراً	٢٦٨ ، ٣٣٢
٥	بعثنا عليكم عباداً لنا اولى بأس	٢٦٨
٩	ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم	٢٠٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٢	وكل شيء فصلنا تفصيلا	٢٦٩
١٣-١٤	وكل انسان الزمناه طائره في عنقه	٢٦٩
١٥	من اهتدى فانما يهتدى لنفسه	٢٦٩
١٦	واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ...	٢٦٩
١٨	من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ...	٢٨٠
١٩	ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها ...	١٦٢ ، ٢٠١
٢٣	وقضى ربك ان لاتعبدوا الا اياه	٢٨٠ ، ٣٣٢، ٣٣٤
٢٤	لاتجعل مع الله الهاً آخر	٤٤٣
٣٠	انا لانضيع اجر من احسن عملا	٣٨٢
٤٠	انكم لتقولون قولا عظيماً	٢٨٩
٤٥	واذا قرأت القرآن جعلنا بينك	٢٨٠
٤٦	انا جعلنا على قلوبهم اكنة ...	٢٤٢ ، ٣٢٤
٤٨	فضلوا فلايستطيعون سبيلا	٢٨١
٥٤	وماارسلناك عليهم وكيلا	٢٨٥
٦٩	ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك	١٤٩
٧٣	وان كادوا ليفتنونك عن الذى اوحينا اليك ...	٤٣٨
٧٤	ولولا ان ثبتناك لقدكدت تركن اليهم ...	٢٨١
٨٢	وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين	٢٨٣
٩٤	ومامنع الناس ان يؤمنوا اذجاءهم الهدى	١٦٤ ، ٢١١
١٠٥	اولئك الذين كفروا ـ الى قوله ـ فحبطت اعمالهم	٣٨٤

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
	١٨- سورة الكهف	
١	الحمدلله الذى انزل على عبده الكتاب	١١٦
٧	ليبلوهم ايهم احسن عملا	٣٦٧
١٣-١٤	انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم	٢٢٥ ، ٢٨٣
١٧	من يهدى الله فهو المهتدى ...	٢٨٣
٢٣	ولاتقولن لشىء انى فاعل ذلك غداً الاان يشاء الله	٢٣٠ ، ٢٨٣
٢٨	واصبر نفسك -الى قوله- يريدون وجهه	١٤٢ ، ٢٨٤
٢٨	ولاتطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه	٢١١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥
٢٩	فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر	١٦٤ ، ١٩٣ ، ٢٨٤
٣٠	انالانضيع اجر من احسن عملا	٣٧٨ ، ٣٨٢
٣٢	جعلنا لأحدهما جنتين من اعناب	١٨٣
٤٤	هنالك الولاية لله الحق	١٢٥
٤٧	ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة	١٢٥
٤٨	وعرضوا على ربك صفاً	١١٣ ، ١٣٣
٥٧	اناجعلنا على قلوبهم اكنة ...	٢٨٤
٧٧	فوجدا فيها جداراً يريد ان ينقض	٢٧٠
١٠١	الذين كانت اعينهم فى غطاء عن ذكرى	٢٥٨ ، ٢٨٤
١٠٥	الذين كفروا -الى قوله- فحبطت اعمالهم	١٠٦ ، ٤٨٤

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	١٩ - سورة مريم	
٤	ولم اكن بدعائك رب شقياً	٣٦٣
٦	واجعله رب رضيا	٢٨٤
١٣	وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقياً	٢٨٥
١٩	لأهب لك غلاماً زكياً	٢٨٥
٢١	وكان امراً مقضياً	٣٣٩
٣٠	آتاني الكتاب وجعلني نبياً	٣٦١
٣١	وجعلني مباركاً اينما كنت	٢٨٥ ، ٣٦١
٣٢	وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً	٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٢
٣٣	والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ...	٣٦١ ، ٣٦٢
٤٧	سلام عليك ساستغفر لك ربي	٤٢٠
٥٧	ورفعناه مكاناً علياً	١٢٩
٦٣	تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً	٣٧٨
٦٤	وما نتنزل الا بامر من ربك	١١٦
٧١	ان منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضياً	٣٤٠
٧٦	ويزيد الله الذين اهتدوا هدى	٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢٢٧ ، ٢٨٦
٨٣	ألم تر انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً	٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨
٨٣	انا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا	٢٩٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٢٠- سورة طه	
١	طه ماانزلنا عليك القرآن لتشقى	٣٥٠ ، ٤١٥
٥	الرحمان على العرش استوى	١١٢ ، ١٢٢ ، ١٢٩
٨	اللهلااله الاهوله الاسماء الحسنى	١٢٤
١٥	لتجزى كل نفس بماسعى تسعى	١٦٣ ، ٣٨٣
٢١	قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الاولى	٤٢٧
٢٢-٢٥	اذهب الى فرعون - الى قوله - قداوتيت سؤلك ياموسى	٢٨٦ ، ٤٢٦
٣٩	والقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى	١٤٨
٤٠	وفتناك فتوناً	٣٦٧
٤٦	اننى معكما اسمع وارى	٩٣
٥٠	ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى	١٩٨، ٢٠٢، ٢٦٥، ٢٨٧
٦٦	فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحره انها تسعى	٤٢٧
٦٧	فأوجس فى نفسه خيفة موسى	٤٢٧
٦٩	تلقف ماصنعوا	١٨٥
٦٨-٦٩	قلنالاتخف انك انت الاعلى - الى قوله - ولايفلح الساحر حيث اتى	٤٢٧
٨٢	وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً	٣٩٨
٨٥	فانا قدفتنا قومك من بعدك ...	٣٦٧
٨٧	ولكن حملنا اوزاراً مع زينة القوم	٤٤٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩٠	وان ربكم الرحمان فاتبعونى واطيعوا امرى	١٦٦
٩٢	قال ياهارون مامنعك اذرأيتهم ضلوا ان لاتتبعن	٤٢٩
١١٤	من قبل ان يقضى اليك وحيه	٣٣٩
١١٥	ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ...	٤١٣
١١٧	قلنا ياآدم انهذا عدولك ـ الى قوله ـ فتشقى	٣٥٠ ، ٤١٣
١١٩	قال ياآدم هل ادلك على شجرة الخلد وملك لايبلى	٤١٣
١٢٠	وعصى آدم ربه فغوى	٤١٣
١٢٥ـ١٢٧	ومن اعرض عن ذكرى ـ الى قوله ـ اشد وابقى	٢٠١

٢١ـ سورة الانبياء

١٦ـ١٨	وماخلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين ـ الى قوله ـ تصفون	٢٨٧
١٨	بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه	٢٥٠، ٢٥٢ ، ٤٤٠
١٨	ولكم الويل مماتصفون	٢٨٩
٢٣	لانسأل عمايفعل وهم يسألون	٢٨٧
٣٥	ونبلوكم بالشر والخير فتنة	٢٨٩ ، ٣٦٧
٦٣	بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ...	٤١٩
٧٢	وكلاجعلنا صالحين	٢٩٠
٧٣	و جعلناهم ائمة يهدون بأمرنا	١٩٩
٨٣	وايوب اذنادى ربه انى مسنى الضر	٤٢٣
٨٧	وذا النون اذ ذهب مغاضباً ...	٤٣٦
٩٠	ووهبناله يحيى واصلحناله زوجه	٢٩٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٩٤	فمن يعمل ـ الى قوله ـ فلا كفران لسعيه	١٦٣ ، ٣٨٣
٩٨	انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم	٢٩٠
١٠١	ان الذين سبقت لهم منا الحسنى اولئك عنها مبعدون	٢٩٠

٢٢- سورة الحج

٨-١٠	ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ـ الى قوله ـ بظلام للعبيد	١٩٧
١١	ومن الناس من يعبد الله على حرف ...	٢٨٩
١٤	ان الله يفعل مايريد	٢٩٠
١٦	وان الله يهدى من يريد	٢٩٠
١٨	ان الله يفعل مايشاء	٢٩٠
٣٤	ولكل امة جعلنا منسكا ليذكروا الله	٢٩١
٣٦	والبدن جعلناها لكم من شعائر الله	٢٩١
٤٠	ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض	٢٩١
٤٤	فامليت للكافرين	٣١٤
٤٦	فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور	١٣٦، ١٦٧ ، ٣٢٦
٤٨	وكأين من قرية امليت لها ...	٣١٤
٥٢	وماارسلنا قبلك من رسول الا اذا تمنى القى الشيطان فى امنيته ...	٤٣٩ ، ٤٤٠
٥٣	ليجعل مايلقى الشيطان فتنة	٣٢٧ ، ٣٦٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٦	الملك يومئذ لله يحكم بينهم	١٠٦
٦٧	لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه	٢٩١

٢٣- سورة المؤمنون

١٤	فتبارك الله احسن الخالقين	١٥٩ ، ١٩١
٢٧	فاوحينا اليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا	١٤٨
٣٧	قالوا وماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين	٣٨٦
٥٤-٥٦	فذرهم فى غمرتهم - الى قوله - بل لا يشعرون	١٥ ، ٣١٤
٥٥	فذرهم فى غمرتهم حتى حين	٣١٤
٨٨	وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون	١٥٠
٩٤	رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين	٢٩١
١٠١	فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون	١٠٦
١٠٥	ألم تكن آياتى تتلى عليكم...	٣٥٨،٣٥٧
١٠٦	قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا	٣٥١ ، ٣٥٧
١٠٨	قالوا اخسؤوا فيها ولا تكلمون	٣٥٩

٢٤- سورة النور

١	سورة انزلناها وفرضناها - الى قوله - بينات	١١٦
٢٥	ويعلمون ان الله هو الحق المبين ...	١٠٦
٣٥	الله نور السماوات والأرض	١١٤ ، ١٣٣
٤٣	الم تر ان الله يزجى سحاباً...	١٨٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٥٠	افى قلوبهم مرض ام ارتابوا ...	٣٢٧

٢٥- سورة الفرقان

٢	وخلق كل شئ فقدره تقديرا . . .	١٥٦ ، ٣٣٣
١٨	ولكن متعتهم وآبائهم حتى نسواالذكر وكانوا قوماً بورا ...	٢٩٢
١٨	حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً . ..	٢٩٣
٢٠	وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون	٣٦٧
٢٣	وقدمنا الى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا	٣٧٧ ، ٣٨٥
٣١	وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً ـ الى قوله ـ ونصيرا	٢٩٢
٣٢	كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ...	٢٩٢
٤٤	ام تحسب ان اكثرهم يسمعون ـ الى قوله ـ اضل سبيلا	٢٩٢
٥٩	ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض و ما بينهما	١٥٧
٥٩	خلق السماوات والارض وما بينهما ...	١٨٧
٥٩	ثم استوى على العرش الرحمان	١١٣ ، ١٢٤ ، ١٨٧
٧٠	فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات	٤٠١
٧٤	واجعلنا للمتقين اماماً ...	٢٩٣

٢٦- سورة الشعراء

١٠-١٥	واذنادى ربك موسى الى قوله انا معكم مستمعون	٤٢٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٩	وفعلت فعلتك التى فعلت وانت من الكافرين	٤٢٥
٢٠	قال فعلتها اذاً وانامن الضالين	٤٢٥ ، ٤٤٦
٢١	فوهب لى ربى حكماً	٢٩٣
٢٢	وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل	٤٢٥
٢٤	رب السماوات والارض وما بينهما	١٨٧
٦٤	وازلفنائم الاخرين	٢٩٣
٧٨	الذى خلقنى فهو يهدين	٢٩٣ ، ٤٤٦
٨٣	رب هب لى حكماًوالحقنى بالصالحين	٢٩٣
٨٦	واغفر لابى انه كان من الضالين	٤٢١
١٠٦-١١١	اذقال لهم اخوهم نوح الاتتقون- الى قوله- الأرزلون	٢٠٥
١٢٥	واخفض جناحك	٤٤٥
١٩٣	نزل به الروح الأمين على قلبك	١١٦
٢٠٠-٢٠١	كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين- الى قوله- الأليم	٢٩٤
٢١٠-٢١٢	وما تنزلت به الشياطين الى فوله لمعزولون	٢٩٥
٢٢١-٢٢٢	هل انبؤكم على من تنزل- الى قوله- افاك اثيم	٢٩٥

٢٧-سورة النمل

٤	ان الذين لايؤمنون بالاخرة زينالهم اعمالهم	٢١٢ ، ٢٩٥
١٠	اني لايخاف لدى المرسلون	٤٢٧

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١١	الا من ظلم ثم بدل حسنا بعدسوء	٣٩٨
١٨	ماانت بهادالعمى عن ضلالتهم ـ الى ـ قوله ـ مسلمون	٢٩٧
٢٤	وزين لهم الشيطان اعمالهم ـ الى قوله ـ لايهتدون	٢١٢، ٢٩٦
٣٥	فناظرة بم يرجع المرسلون	٩١
٤٠	فان ربى غنى كريم	١٤٥
٤٧	بل انتم قوم تفتنون	٣٦٨
٥٠	و مكروامكراً ومكرنامكراً وهم لايشعرون	٢٩٦ ، ٣٢٠
٥١	فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ـ الى قوله ـ اجمعين	٢٩٦
٨٠	انك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء ـ الى قوله ـ ولوا مدبرين	٢١٣، ٢٤١، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣١٢
٨٩	من جاء بالحسنة فله خير منها	٣٨٢

٢٨ـ سورة القصص

٨	فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً...	١٩٢، ٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٥٦
١٠	لولاان ربطنا على قلبها ...	٢٩٧
١٥	فوكزه موسى فقضى عليه ...	٣٣٢
١٥	قال هذا من عمل الشيطان ...	٤٢٣
١٦	قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله	٤٢٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٩	فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله	٣٣٢
٣٣-٣٥	قال رب انى قتلت منهم الى قوله الغالبون	٤٢٦ ، ٤٢٧
٤٠	فأخذ ناه وجنوده فنبذناهم فى اليم	٢٩٨
٤١	وجعلناهم أئمة يدعون الى النار	٢٩٨
٤٤	اذقضينا إلى موسى الأمر	٣٣٩
٥٦	انك لاتهدى من احببت - الى قوله - بالمهتدين	٢٠٠ ، ٢٩٨
٥٧	يجبى اليه ثمرات كل شىء	١٨٦
٥٩	وماكنا مهلكى القرى الا واهلها ظالمون	٢٧٠
٦٨	وربك يخلق مايشاء ويختار	٢٩٨
٧٠	له الحكم واليه ترجعون	١٣٢
٧٩	وانه لذوحظ عظيم	٣٦٤
٨٤	من جاء بالحسنة فله خير منها	٣٨٢
٨٨	كل شىء هالك الا وجهه	١٣٢ ، ١٤١ ، ١٤٦

٢٩ - سورة العنكبوت

١-٢	الم . احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون	٢٩٩
٢	احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لايفتنون	٣٦٨
٣	ولقد فتنا الذين من قبلهم	٢٩٩
٧	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم	٤٠٠

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٣٢	لننجينه واهله الامرأته كانت من الغابرين	٢٦٥
٣٨	وزين لهم الشيطان اعمالهم	٢١٢
٤٥	ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ...	٣٩٩
٦٩	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ...	١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٩٩
١٣٠	ومن ذريتنا امة مسلمة ...	١٨٩

٣٠- سورة الروم

٢٢	واختلاف السنتكم والوانكم	١٥٧ ، ١٨٨
٢٥	ومن آياته ان تقدم السماء والارض بامره	٨٧
٣٨	للذين يريدون وجه الله	١٤٢
٣٩	وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله	١٤٢ ، ١٤٨
٤١	ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدى الناس	١٦٤
٤٨	الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا	١٨٣
٥٢	فانك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء اذا ولومدبرين	٢٤١
٥٩	كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون	٢٩٩ ، ٣٢٣

٣١- سورة لقمان

٧	واذا تتلى عليهم آياتنا -الى قوله -وقرا	٢٩٩ ، ٣٠٣

٣٢- سورة السجدة

٤ ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولاشفيع ١١٣

٥ ثم استوى على العرش ... يدبر الأمر من السماء الى الأرض ١١٢، ١٢٤، ١٢٩

٦-٧ ذلك عالم الغيب والشهادة - الى قوله - كل شيء خلقه ١٣٠

١٠ وقالوا اذا ضللنا فى الارض - الى قوله - بلقاء ربهم كافرون ١٣٣

١١ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ١٣١

١٢ ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم - الى قوله - انا موقنون ١١٣، ١٣٣، ٣٠٠

١٣ ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها ١٥٧، ١٩٣

١٣ ولكن حق القول منى لأملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين ١٩٣، ٣٠٠

١٤ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم ١٣٣، ١٩٣، ٣٠٠

١٧ فلاتعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون ١٠٥

٣٣- سورة الاحزاب

١ يا ايها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين ٤٤٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤	والله يقول الحق و هويهدى السبيل	١٧٢، ١٩٩
١١	هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زالاز شديدا	٣٦٨
١٧	قل من ذاالذى يعصمكم من الله ان اراد بكم سوءاً او اراد بكم رحمة	١٦٧
١٩	اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم	٣٨٤
٢٣	فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر	٣٣٢
٣٣	انما يريدالله ليذهب عنكم الرجس ـ الى قوله ـ تطهيرا	٣٠٠، ٣٣٣، ٣٣٧
٣٦	وماكان لمؤمن ولامؤمنة اذاقضى الله ـ الى قوله ـ الخيرة من امرهم	٣٠١، ٣٣٢، ٣٣٤
٣٧	وتخفى فى نفسك ماالله مبديه ـ الى قوله ـ احق ان تخشاه	٣٠١، ٤٤١
٣٧	وكان امرالله مفعولا	٣٠١، ٣٣٧
٣٧	فلما قضى زيد وطرأزو جناكها	٣٣٣
٣٨	وكان امرالله قدراً مقدوراً	٣٠١، ٣٣٧
٤٣	ليخرجكم من الظلمات الى النور	٣٠١
٤٤	تحيتهم يوم يلقونه سلام واعدلهم اجراً كريما	٩٢، ١٠٥

٣٤ـ سورة سباء

٥	اولئك لهم عذاب من رجز اليم	٢٦٣
١٦	فارسلنا عليهم سيل العرم	٢٨٦
١٨	قدرنا فيها السير	٣٣٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٨	وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيراً	٢١٠
٥٠	وان اهتديت فيمايوحى الى ربى	٤٤٦

٣٥- سورة فاطر

٣	هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض	١٥٧
٨	فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء	٣٠١
٨	فلان تذهب نفسك عليهم حسرات	٢١٧
١٠	اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه	١١٢ ، ١٢٩
١٠	ومكر اولئك هويبور	٣٢٠
١١	وما تحمل من انثى ولاتضع ـ الى قوله ـ يسيراً	٨٥ ، ٣٣٨
١٥	يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد	١٤٥ ، ٢٦٠
٢٢ـ٢٣	ان الله يسمع من يشاء وما انت بمسمع ـ الى قوله ـ نذير	٣٠١
٢٤	وان من امة الا خلا فيها نذير	٢٥٧
٢٨	انما يخشى الله من عباده العلماء	٤٤٩
٣٠	ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله	١٠٢
٤٣	ولايحيق المكر السيء الا بأهله	٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠

٣٦ ـ سورة يس

٩	انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهى ـ الى قوله ـ لايبصرون	٣٠٢

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٢٥	ومالي لااعبد الذى فطرنى واليه ترجعون ـ الى قوله ـ فاسمعون	٩٩
٣٩	والقمر قدرناه منازل ...	٣٣٣
٤٩	ما ينظرون الاصحية واحدة ...	٩٠
٥٨	سلام قولا من رب رحيم	١١٧
٧١	اولم يروا انا خلقنالهم مما عملت ـ الى قوله ـ لها مالكون	١٥٠
٨٢	انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون	١٦٧ ، ١٨٧
٨٣	فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون	١٥٠

٣٧ـ سورة الصافات

٨	لايسمعون الى الملاء الاعلى ـ الى قوله ـ من كل جانب	٢٩٥
٨٩	ونظر نظرة فى النجوم وقال انى سقيم ...	٤١٩
٩٦	اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ...	١٥٦
٩٦	والله خلقكم وما تعملون ...	١٨٤
٩٨	فارادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين ...	٢٩٦
٩٩	انى ذاهب الى ربى سيهدين ...	٤٤٦
١٠٦	ان هذا لهو البلاء المبين ...	٣٦٨
١٢٥	اتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين ...	١٩١
١٣٥	اذنجيناه وأهله اجمعين الاعجوزاً فى الغابرين ...	٢٦٥

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
	٣٨-سورة ص	
٢١	وهل اتاك نبؤء الخصم اذ تسوروا المحراب-الى قوله- وحسن مآب	٤٣١
٢٦	ياداوود انا جعلناك خليفة...	٤٣٣
٣٢	انى احببت حب الخير عن ذكر ربى ...	٤٣٤
٣٤	ولقد فتنا سليمان والقيناه على كرسيه جسداً ثم اناب	٣٦٧ ، ٤٣٤
٣٥	وهب لى ملكاً لاينبغى لاحد من بعدى...	٤٣٤
٤١	واذكر عبدنا ايوب اذنادى ربه-الى قوله-وعذاب	٤١٦ ، ٤٢٢
٤٥	واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق-الى قوله-والابصار	١٥٠
٤٥	اولى الايدى والابصار	١٥١
٧٥	ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى	١٥٠
٧٥	لما خلقت بيدى	١٤٠
	٣٩-سورة الزمر	
٣	ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفا ...	١٣٥
٣	ان الله لايهدى من هو كاذب كفار	٢٠٠
٧	ان تكفروا فان الله غنى عنكم - الى قوله - لعباده الكفر	١٦٦
١٠	للذين احسنوا فى هذه الدنيا	٣٨٢

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
١٧	والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها	٣٨٩
١٨	الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ـ الى قوله ـ اولوا الالباب	٢٠٠
١٩	أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذمن فى النار	٣٠٢
٢١	ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما	١٨٣
٢٢	أفمن شرح الله صدره للاسلام فهوعلى نورمن ربه	٣٠٢
٢٣	ومن يضلل الله فماله من هاد	٢٩٤
٣٣ـ٣٥	والذى جاء بالصدق وصدق به اولئك هم المتقون	٤٠٠
٣٦	ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهدالله فما له من مضل	٣٠٢
٣٧	ومن يهدى الله فماله من مضل	١٩٨ ، ٢٢٩
٤٢	الله يتوفى الانفس حين موتها	١٣١
٤٢	فيمسك الذى قضى عليه الموت	٣٣٩
٤٩	فاذامس الانسان ضردعانا ـ الى قوله ـ لايعلمون	٣٦٨
٥١	فاصابهم سيئات ماكسبوا	١٦٣
٥٣	لاتقنطوا	٣٧٩
٦٢	الله خالق كل شىء وهوعلى كل شىء وكيل	١٥٦ ، ١٧٣
٦٥	لئن اشركت ليحبطن عملك	٤٤٣

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٦٧	والارض جميعا قبضته...	٢٣٩
٦٩	واشرقت الارض بنوربها ...	١٣٣
٧٤-٧٣	حتى اذا جاؤها وفتحت ابوابها - الى قوله- اجر العاملين	٧-٢٧٦

٤٠-سورة غافر

٧	ربناوسعت كل شيء رحمة وعلما	١٢٦
١٥	رفيع الدرجات ذوالعرش - الى قوله - يوم التلاق	١٠٥ ، ١٢٤
١٦	لمن الملك اليوم لله الواحد القهار	١٠٦، ١٢٥، ٢٤٤
١٦	يومهم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء	٢٤٥
١٧	اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم	١٦٤، ٣٨٣
٢٠	والله يقضى بالحق	٣٣٩
٢٩	ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض - الى قوله- ان جائنا	١٠٦
٣١	ومالله يريد ظلما للعباد	١٥٩، ٢٠٥، ٢٢٤
٣٥	كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار	٣٢٣
٣٧	وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدعن السبيل	٣٠٣
٣٧	فاطلع الى اله موسى	١٣٠
٣٦-٢٧	ياهامان ابن لى صرحاً لعلى ابلغ - الى قوله - لأظنه كاذبا	١١٢
٣٨	ياقوم اتبعونى اهدكم سبيل الرشاد	٢٥٩

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٣٨	ياقوم اتبعونى اهدكم سبيل الرشاد	٢٥٩
٤٠	من عمل سيئة فلايجزى الامثلها	٣٨١
٥١	انالننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا	٤٤٠
٥٥	ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر	٤٤٧
٦٢	ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لااله الاهو	١٥٦
٧٣-٧٤	ثم قيل لهم اين ماكنتم تشركون - الى قوله - من قبل شيئا	٣٥٩
٧٨	فاذاجاء امر الله قضى بالحق و خسرهنالك المبطلون	١٣١
٨٥	فلم يك ينفعهم ايمانهم لمارأو بأسنا	٢٥٦

٤١- سورة فصلت

١-٢	حم تنزيل من الرحمان الرحيم	١١٦
٤-٥	فاعرض اكثرهم فهم لايسمعون - الى قوله - اننا عاملون	٢١٠، ٢٨١، ٣٢٤
٥	وقالوا قلوبنا فى اكنة مماتدعونا اليه - الى قوله - حجاب	٣٠٣، ٣٢٤
٦	قل انما انابشر مثلكم يوحى الى - الى قوله - للمشركين	٣٢٤
١٠	و قدرفيها اقواتها فى اربعة ايام	٣٣٣
١١	ثم استوى الى السماء وهى دخان	١١٣، ١٣١
١١	فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أوكرهاً قالتا أتينا طائعين	١٧٢
١٢	فقضاهن سبع سماوات	٣٣٢
١٥	اولم يروا ان الله الذى خلقهم هواشد منهم قوة	٨٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	فارسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى ايام نحسات	٢٨٦
١٧	واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى	١٧٢، ١٩٨، ٢٠٧
٢٥	وقيضنا له قرناء ـ الى قوله ـ عليهم القول	٣٠٣
٣١ـ٣٠	ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ الى قوله ـ وفى الاخرة	١٨٩، ٢٠١
٣٥	ومايلقاها الاذوحظ عظيم	٣٦٤
٤٢	تنزيل من حكيم حميد	١١٦
٤٤	والذين لايؤمنون فى آذانهم و قروهو عليهم عمى ...	٣٠٣
٤٧	وماتحمل من انثى ولاتضع الابعلمه	٨٥

٤٢ـسورة الشورى

٨	ولوشاء الله لجعلهم امة واحدة	٣٠٣
١١	ليس كمثله شيء و هوالسميع العليم	٩٧، ١١٩، ١٢١
١٣	شرع لكم من الدين ماوصى به ـ الى قوله ـ ولا تتفرقوافيه	٢٥٩
١٥	لاحجة بيننا و بينكم	٣٠٣
١٥ـ١٦	و قل آمنت بما انزل الله من كتاب ـ الى قوله ـ عذاب شديد	٣٠٤
٢٠	من كان يريد حرث الاخرة نزدله فى حرثه و من كان يريد حرث الدنيانؤته منها و ماله فى الاخرة من نصيب	٣٧٨، ٣٨٧
٢١	ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم	٣٣٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٣	من يقترف حسنة نزدله فيها حسنا	٣٨٢
٣٧	والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا أغضبوا هم يغفرون	٣٨٩
٤٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها	٣٨١،٣١٨،٢٥٤
٤٤	ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده	٣٠٤
٤٨	فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ان عليك الاالبلاغ	٢١٥
٤٨	ان عليك الاالبلاغ	٢١٧
٥١	وما كان لبشران يكلمه الله الا وحيا ـ الى قوله ـ فيوحى باذنه مايشاء	١١٣
٥١	اومن وراء حجاب اويرسل رسولا	١٣٢
٥٢	وانك لتهدى الى صراط مستقيم	٢١٧،١٩٩
٥٢	ولكن جعلناه نورا نهدى بهمن نشاء من عبادنا ـ الى قوله ـ مستقيم	٣٠٤
٥٢	ما كنت تدرى ماالكتاب و ما الايمان	٤٤٦
٥٣	الا الى الله تصير الأمور	٢٦٠

٤٣ـ سورة الزخرف

١٣	سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين	١٨٠
٢٠	وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم مالهم بذلك من علم ـ الى قوله ـ يخرصون	٣٠٤، ٢٦٦،٢٦٣،١٦٦
٢٠	مالهم بذلك من علم انهم الايخرصون	٣٠٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٢٧	الذى فطرنى فانه سيهدين...	٤٤٦
٣٣-٣٥	ولولا ان تكون الناس امة واحدة - الى قوله - للمتقين	٣١٥
٣٦	ومن يعش عن ذكر الرحمان - الى قوله - له قرين	٣٠٥
٤٠	أفأنت تسمع الصم اوتهدى العمى ...	٣٠٥
٧١	وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ...	١٠٥
٧٧	يامالك ليقض علينا ربك	٣٣٢
٨٣	فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون	١٠٦
٨٤	وهوالله فى السماء إله وفى الأرض إله ...	١٣٥

٤٤- سورة الدخان

١-٣	انا انزلناه فى ليلة مباركة ...	١١٦

٤٥- سورة الجاثية

٢٢	ولتجزى كل نفس بما كسبت	٣٨٣
٢٣	افرأيت من اتخذ الهه هواه - الى قوله - افلاتذكرون	٢١١، ٣٠٥، ٣٢١

٤٦- سورة الاحقاف

٩	ومادرى مايفعل بى ولابكم ...	٢٣٢

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
١٦	اولئك الذين نتقبل عنهم...	٣٨٣ ، ٣٨٤
٢٥	تدمر كل شيء بأمر ربها...	١٨٦
٢٩	واذا صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن...	٣٠٥

٤٧- سورة محمد (ص)

١	والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله واضل اعمالهم	٤٠١
٢	والذين آمنوا - الى قوله - كفر عنهم سيئاتهم	٤٠١
٩	ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم	٣٨٤
١٦	اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا اهواءهم	٣٢٣
١٧	والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم	١٨٩، ٢٠٠، ٢٠٩، ٢٦٠، ٢٩٣
١٩	واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات	٤٤٨
٢٠	رأيت الذين فى قلوبهم مرض - الى قوله - من الموت...	٢٤٣
٢٣-٢٤	اولئك الذين لعنهم الله - الى قوله - اقفالها	٣٠٥
٢٤	افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها	٢٤٢
٢٥	ان الذين ارتدوا على ادبارهم - الى قوله - واملى لهم	٢٥٤
٢٨	ذلك بأنهم اتبعوا ما اسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط اعمالهم	٣٨٥
٢٩	ام حسب الذين فى قلوبهم - الى قوله - اضغانهم	٣٠٥
٣١	ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم	٣٦٨

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
٣٢	ان الذين كفروا وشاقوا الرسول ـ الى قوله ـ وسيحبط اعمالهم	٣٨٥

٤٨- سورة الفتح

٢	ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر...	٤٤٧
٥	ويكفر عنهم سيئاتهم ...	٤٠١
١٠	يدالله فوق ايديهم ...	١٤٠
١٠	ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله ـ الى قوله ـ على نفسه	١٥١
٢٠	وكف ايدى الناس عنكم ...	٣٠٦
٢٤	وهو الذى كف ايديهم عنكم وايديكم عنهم...	٣٠٦

٤٩- سورة الحجرات

١	لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ...	٣٩٣
٢	ولاتجهروا له بالقول كجهر بعضكم . . .	٣٩٢ ، ٣٩٣
٢	لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى ـ الى قوله ـ وانتم لاتشعرون	٣٩١ ، ٣٩٣
٣	ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله...	٣٩٣
٤	ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ...	٣٩٣
٧	ولكن الله حبب اليكم الايمان ـ الى قوله ـ والعصيان	٣٠٦
١٧-١٨	بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان	٢٦٧ ، ٣٠٦

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٥٠- سورة ق	
١٦	ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ...	٢٧٤
٢٢	لقد كنت في غفلة من هذا - الى قوله - فبصرك اليوم حديد	١٣٢
٣٠	يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد...	١٤٤
٣٥	لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ...	٩٢ ، ١٠٥
٣٧	ان في ذلك لذكرى - الى قوله - وهو شهيد	٢٤٠ ، ٣٢٢
	٥١- سورة الذاريات	
١٣	يا ايها الرسول لا يحزنك الذين - الى قوله - يفتنون	٢٢٢
٢٢	وفي السماء رزقكم وما توعدون	١٣٩
٤١	وفي عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم	٢٨٦
٤٧	والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون	١٥٠
٥٦	وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون	١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٩٢
٥٨	ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين	٨٥
	٥٢- سورة الطور	
٢١	والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم	٣٠٦
٢١	كل امرء بما كسب رهين...	١٦٣
٣٤-٣٥	ام خلقوا من غير شيء ام هم الخالقون - الى قوله - لا يوقنون	١٥٨ ، ١٩٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
٤٢	ام يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ...	٣١٩
٤٨	واصبر لحكم ربك فانك باعيننا...	١٤٨

٥٣- سورة النجم

٤	علمه شديد القوى ـ الى قوله ـ بالأفق الأعلى	١٣١
٩	ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين او ادنى	١١٣ ، ١٣١
٣١	ليجزى الذين أساؤا ـ الى قوله ـ احسنوا بالحسنى	٢٧٣ ، ٣٨٨
٣٢	الذين يجتنبون كبائر الاثم ـ الى قوله ـ واسع المغفرة	٢٧٣ ، ٣٨٨
٣٨-٤١	ألا تزر وازرة وزر اخرى ـ الى قوله ـ الجزاء الاوفى	١٦٢
٣٩-٤١	وان ليس للانسان الا ما سعى ـ الى قوله ـ الجزاء الأوفى	١٨٩
٣٩-٤٠	وان ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى	٣٨٣
٤٣	وانه اضحك وابكى	١٥٧ ، ١٨٩ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧
٤٤-٥١	وانه هو أمات واحيى ـ الى قوله ـ وثمود فما ابقى	١٨٩
٤٨	وانه هو اغنى وأقنى	١٤٥

٥٤- سورة القمر

١٤	تجرى باعيننا ...	١٤٨
٢٤	فقالوا ابشراً منا واحداً نتبعه انا إذاً لفى ضلال وسعر	٢٠٥
٤٩	انا كل شيء خلقناه بقدر	٣٣٨
٥٢-٥٣	وكل شيء فعلوه فى الزبر ـ الى قوله ـ مستطر	٣٣٨

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٥٥- سورة الرحمان	
٢٤	وله الجوار المنشئآت في البحر كالاعلام ...	١٨٣
٢٧	كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ...	١٤٦
٢٧	ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام...	١٠٤
	٥٦- سورة الواقعة	
٦٠	أفرئيتم ماتمنون أءنتم تخلقونه ام نحن الخالقون...	١٧٦
٦٤-٧٤	أفرئيتم ماتحرثون - الى قوله - ومتاعاً للمغوين	١٧٦
	٥٧- سورة الحديد	
٥	له ملك السماوات والأرض والى الله ترجع الأمور ...	١٢٤
٨	ومالكم لاتؤمنون بالله ...	١٦٤
٩	ليخرجكم من الظلمات الى النور ...	٣٠٧
١٦	فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم . .	٣٢٨
٢١	سابقوا إلى مغفرة -الى قوله -اعدت للذين آمنوا	٣٧٨
٢٢	ماأصاب من مصيبة في الأرض - الى قوله - أن نبرأها	١٥٧، ١٨٧ ، ٣٣٨
٢٣	لكيلا تأسوا على مافاتكم ولاتفرحوا بما آتاكم	٢٥٢ ، ٣٣٨
٢٧	وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة	١٥٧ ، ١٨٩، ٣٠٧
٢٧	فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	فاسقون	٣٠٩
٢٩	وان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم	١٥٠
٢٩	لئلا يعلم اهل الكتاب ـ الى قوله ـ من فضل الله	٣٠٧
٢٩	والله ذو الفضل العظيم	٣٠٨
	٥٨ـ سورة المجادلة	
١٨	يوم يبعثهم الله جميعاً ـ الى قوله ـ هم الكاذبون	٣٥٨
٢١	كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز	٢٣٠ ، ٤٤٠
٢٢	اولئك كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه...	٣١٠
	٥٩ـ سورة الحشر	
٢	هو الذى اخرج الذين كفروا من اهل الكتاب من ديارهم	٣١٠
٤	ولولا ان كتب الله عليهم الجلاء ـ الى قوله ـ شديد العقاب	٣١٠
٥	ماقطعتم من لينة أوتركتموها ـ الى قوله ـ فباذن الله	٣٣٩
٢٤	هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى	١٥٧
	٦٠ـ سورة الممتحنة	
٤	الاقول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك	٤٢٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة

٦١- سورة الصف

٥	فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ـ الى قوله ـ القوم الفاسقين	٢٠٥، ٢١١، ٢٢٧، ٢٥٤، ٣٢٦

٦٢- سورة الجمعة

٨	ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة ـ الى قوله ـ تعملون	١٣٢

٦٣- سورة المنافقون

٣	ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ـ الى قوله ـ لايفقهون	٣٢٢ ، ٣٢٣
٤	يحسبون كل صيحة عليهم	٢١٢ ، ٣١٦

٦٤- سورة التغابن

١	له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير...	٢٤٥
٢	هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ...	٣١٠
٩	ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته...	٤٠١
١١	ومن يؤمن بالله يهد قلبه ...	٢٠٠
١١	ماأصاب من مصيبة الاباذن الله ـ الى قوله ـ	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	يهد قلبه	٢٥٣ ، ٣٣٩
١٢	واطيعوا الله واطيعوا الرسول ـ الى قوله ـ البلاغ المبين	١٦٦
١٥	انما اموالكم واولادكم فتنة والله عنده اجر عظيم	٢١٦
١٦	فاتقوا الله مااستطعتم واسمعوا واطيعوا	١٦٦
	٦٥ـ سورة الطلاق	
١	ومن يتعد حدود الله فقدظلم نفسه ...	٤١٥
٥	ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ...	٤٠١
١١	ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات ...	١٦٣
١٢	يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله ـ الى قوله ـ عليما	٣٣٩
	٦٦ـ سورة التحريم	
٦	لايعصون الله ماامرهم ويفعلون مايؤمرون	١٣٠ ، ٢٠٢
٨	عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم	٤٠١
	٦٧ـ سورة الملك	
١	تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير...	١٥٠
٢	ليبلوكم ايكم احسن عملا ...	٣٦٩
١٣ـ١٤	واسروا قولكم اواجهروا به ـ الى قوله ـ وهو اللطيف الخبير	١٥٧ ، ١٨٨
١٤	ألايعلم من خلق وهو اللطيف الخبير...	١٨٨
١٦	أءمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض...	١٣٠

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٦٨- سورة القلم	
٤	وانك لعلى خلق عظيم ...	٤٤٤
٥	ودوا لو تدهن فيدهنون	٤٤٣
٤٢	يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود - الى قوله - وهم سالمون	١٤٤ ، ١٥٢
٤٤	فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث - الى قوله - كيدى متين	٣١٣
٤٥	واملى لهم ان كيدى متين ...	٣١٩
٤٩	ولاتكن كصاحب الحوت اذنادى ربه ...	٤٣٧
	٦٩ - سورة الحاقة	
١١	انما لماطغى الماء حملناكم فى الجارية	١٨٣
١٣-١٨	فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة - الى قوله - لاتخفى منكم خافية	١٢٤
٢٠	انى ظننت انى ملاق حسابية	١٠٦
٢٧	ياليتها كانت القاضية	٣٣٩
٤٤-٤٦	ولو تقول علينا بعض الأقاويل - الى قوله - منه الوتين	١٥١
٤٥	لأخذنا منه باليمين	١٤١
	٧٠ - سورة المعارج	
٤	تعرج الملائكة والروح اليه - الى قوله - خمسين	

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	الف سنة	١١٣، ١٣٠
	٧١ - سورة نوح	
٢٥	مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا ناراً ...	٢٥٠، ٢٦٧
٢٦	قال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا	٤١٧
٢٧	ولايلدوا الا فاجراً كفاراً	٢٧٤
	٧٢ - سورة الجن	
١٦	وان لواستقاموا الى الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً	٢٠١، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٩٣
	٧٣ - سورة المزمل	
١٩	ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا	١٦٥
٢٠	والله يقدر الليل والنهار	٣٣٣
	٧٤ - سورة المدثر	
١٨	انه فكر وقدر	٣٣٣
٣٧	لمن شاءان يتقدم منكم اويتأخر	١٦٥
٣٨	كل نفس بما كسبت رهينة	١٦٣، ٣٨٣
٤٩	فمالهم عن التذكرة معرضين	١٦٤، ٢٤١
٥٠	كأنهم حمر مستنفرة	٢٤١
٥٠-٥١	كانهم حمر مستنفرة فرت من قسورة	٣٢٤
٥٤-٥٥	كلا انه تذكرة ممن شاء ذكره	١٦٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٧٥-سورة القيامة	
٢٣	وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة	٩٠،٩٧
	٧٦ - سورة الانسان	
٣	انا هديناه السبيل اما شاكراً او كفوراً	١٧٢،١٩٩ ،٢٠٣،٢٦٥
٩	انما نطعمكم لوجه‌الله لانريدمنكم جزاءاً ولاشكوراً	١٤٢،١٤٨
١٢	وجزاهم بما صبرواجنة وحريرا	١٦٣،٢٦٥
٢٩	وان الفضل بيدالله يؤتيه من يشاء ـ الى قولى ـ العظيم	٣٠٩
٣٠	وما تشاؤن الا ان يشاءالله	١٥٩،١٩٣
	٧٧- سورة المرسلات	
٤٦	كلوا وتمتعوا قليلا انكم مجرمون	٣١٥
	٧٩-سورةالنازعات	
٤٥	انما انت منذر من يخشاها	٢٠٩
	٨٠-سورة عبس	
١	عبس وتولى ان جاءه الأعمى	٤٤٣
١٢	كلا انها تذكرة فمن شاء ذكره	١٦٥
٢٠	ثم السبيل يسره	٣٥٢
	٨١-سورة التكوير	
٢٨	ان هو الاذكر للعالمين لمن شاء منكم ان يستقيم	١٦٥

رقم الآية	الآية	رقم الصفحة
	٨٢-سورة الانفطار	
١٩	يوم لاتملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله	٢٤٤
	٨٣ - سورة المطففين	
١٤	كلا بل وان على قلوبهم ماكانوا يكسبون	٢٥٣
١٥	كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون	١٠٥، ١٠٦
١٦	ثم انهم لصالوا الجحيم	١٠٦
	٨٤ - سورة الانشقاق	
٦	يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه	١٠٦
٢٠	فمالهم لايؤمنون	٢١١
	٨٦-سورة الطارق	
	١٤-١٧ انهم يكيدون كيداً واكيد كيداً - الى قوله - رويداً	٣١٥، ٣١٩
	٨٧-سورة الاعلى	
٣	والذى قدر فهدى	٣٣٣
٥	والذى اخرج المرعى فجعله غثاءاً احوى	١٨٣
١١	وسيجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى	٣٦٣
	٨٨- سورة الغاشية	
١٧	افلاينظرون الى الابل كيف خلقت	٩٠
٢٢	فذكر انما انت مذكر لست عليهم بمصيطر	٢١٥

رقم الاية	الاية	رقم الصفحة
	٨٩-سورة الفجر	
٢٢	كلا اذا دكت الأرض دكاً دكاً ـ الى قوله ـ صفاً صفاً	١٢٥
٢٢	وجاء ربك والملك صفاً صفاً	١١٣، ١٣١
	٩٠- سورة البلد	
١٠	الم نجعل له عينين ولسانا وشفتين و هديناه النجدين	١٩٩
١٠	وهديناه النجدين	٢٦٥
	٩١- سورة الشمس	
١٢	إذ انبعث اشقاها ...	٣٦٣
	٩٢- سورة اليل	
١٢	ان علينا للهدى ...	٢٦٥
١٥	لايصلاها الا الأشقى ...	٣٦٣
٢٠	و مالأحد عنده من نعمة تجزى ـ الى قوله ـ ربه الأعلى	١٤٢
	٩٣ - سورة الضحى	
٧	ووجدك ضالا فهدى	٤٤٦
	٩٥- سورة التين	
٤-٥	لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين	٣١١

رقم الاية	الآية	رقم الصفحة
٦	الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات	٣١١
	٩٦ - سورة العلق	
٨	ان الى ربك الرجعى ...	١٠٥
	٩٧-سورة القدر	
١	انا انزلناه فى ليلة القدر	١١٦
	٩٩- سورة الزلزلة	
٧-٨	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - الى قوله - شراً يره	١٦٣
	١٠٥ - سورة الفيل	
٢	وارسل عليهم طيراً ابابيل ...	٢٨٦
	١٠٩-سورة الكافرون	
٦	لكم دينكم ولى دين	٣١١

الفهرس العام لمواضيع الكتاب

المحكم والمتشابه فى القرآن : ٥

١- التعريف بالمتشابه ٧

حقيقة الاحكام والتشابه ٨

الفرق بين المتشابه والمبهم ٩

مابين عوامل كل من المتشابه والمبهم من اختلاف ١٠

* * *

٢- القرآن والتشابه ١٣

هل فى القرآن متشابه ؟ ١٤

مزعومة كون جميع آى القرآن متشابهة ١٥

لماذا فى القرآن متشابه ؟ ١٦

رأى ابن رشد الاندلسى ١٧

رأى الامام الرازى ١٨

العلاج الحاسم لمادة الاشكال ١٩

العنوان	الصفحة
التشابه ظاهرة طبيعية فى القرآن	٢٠
رأى سيدنا الطباطبائى	٢٢
رأى الشيخ محمد عبده	٢٢
عامل آخر لوجود التشابه فى القرآن ، هو اهم	٢٣
* * *	
٣ـ حقيقة التأويل	٢٧
مابين التأويل والتفسير من فرق	٢٨
التأويل معنى ثانوى للاية	٢٨
التعبير عن التأويل بالبطن	٢٨
التأويل بهذا المعنى عام لجميع آى القرآن	٢٨
ويتلخص استعمال التأويل فى موضعين :	
الأول ـ فى توجيه المتشابه	٣٠
الثانى ـ فى المعنى الثانوى (البطن)	٣٠
وهما من قبيل المفاهيم الذهنية	٣١
مزعومة ابن تيمية : ان التاويل عين خارجى	٣١
تاييد سيدنا الطباطبائى لهذا المذهب و تهذيبه و تحريره	٣١
تفنيد مزعومة شيخ حران ، حيث خلط أمر المصداق بامر التاويل	٣٢
المعانى الأربعة للتاويل	٣٣
تبدو على رأى سيدنا الطباطبائى مسحة عرفانية رقيقة	٣٣
مناقشة هذا الرأى	٣٣
ماذا وراء هذا القرآن لو كان عيناً خارجياً؟!	٣٤
* * *	

العنوان	الصفحة
٤- هل يعلم التأويل الا الله	٣٥
توجيه السؤال بصورة عامة :	
هل يعقل ان يوجد في القرآن آيات لا يعلم معناها احد ؟	٣٦
كلام الشيخ ابى على الطبرسى	٣٧
كلام الامام بدر الدين الزركشى	٣٨
ماذا يستفاد من الآية الكريمة بصورة خاصة ؟	٣٨
الكلام فى الآية من الوجهة الأدبية	٣٩
كلمات أكابر أئمة الأدب والفن	٣٩
نظائر الآية فى القرآن وفى الشعر القديم	٤٠
اقوى حجة اعتمدها الامام الرازى لمذهبه فى الاستيناف	٤٠
دحض هذه الحجة	٤١
النكتة الدقيقة فى التقييد بالجملة الحالية	٤١
تنويع الناس تجاه المتشابه الى ثلاث طوائف	٤١
الباحث الصادق لا يضطرب تجاه المتشابهات	٤٢
كلام الشيخ محمد عبده بشأن الآية	٤٢
الامام الرازى واستذاقته للادب الرفيع بشأن الآية !	٤٣
موافقة السيد الطباطبائى للامام الرازى فى هذه الاستذاقة !	٤٣
تقييم هذه الاستذاقة الأدبية بموازين الأدب	٤٣
مزعومة المنكرين	٤٤
نسبة السيوطى الانكار الى اكثرية الصحابة والتابعين	٤٤
مبالغته فى هذه النسبة	٤٤
مناقضة ابن تيمية للسيوطى	٤٤

العنوان	الصفحة
اكثرية السلف على ان الراسخين يعلمون التأويل	٤٥
كلام الامام احمد بن حنبل	٤٥
كلام ابى جعفر الطبرى	٤٥
مجاهد وابن عباس بشأن تأويل المتشابهات	٤٥
كلام الراغب الاصبهانى	٤٥
مذهب ابى الحسن الاشعرى فى ذلك	٤٥
انتصار ابى اسحاق الشيرازى له	٤٥
تزييف مستند منكرى العطف	٤٦
تعليل مفضوح	٤٦

* * *

٥- من هم الراسخون فى العلم ؟

اول الراسخين فى العلم وافضلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	٤٧
ثم الأئمة الأوصياء من بعده	٤٨
ثم العلماء الربانيون الذين استقوا من منهل فيضهم النمر	٤٨

* * *

تعرفة اجمالية

بمذاهب سلفية أوجدت التشابه

فى وجه الآيات

السلف كانوا يتحرجون القول فى القرآن عن رأيهم	٥٤
وقد تبعهم على ذلك اصحاب المذاهب السلفية تقليدياً ، وهم : -	٥٥

العنوان	الصفحة
الصفاتية : اصحاب القول باثبات مبادىء الصفات فى ذاته تعالى المقدسة	٥٦
الحشوية : اصحاب الحديث المتقبلين لغثه وسمينه	٥٨
الأشعرية : اصحاب ابى الحسن الاشعرى فى الاصول	٥٩
وهو شيخ اهل السنة والجماعة حتى اليوم	٦٠
انتشار المذهب الاشعرى رسمياً وبضغط من الحكم القادرى العباسى فى نهاية القرن الرابع	٦١
تفويض دعائم مذهب الاعتزال نهائياً	٦١
تشريح عقيدة الاشعرى فى الأصول	٦٢
المشبهة : يثبتون لله خصائص الجسمية	٦٤
الكرامية : اصحاب محمد بن كرام الذى خبط وخلط	٦٥
الجبرية : ينفون عن العباد استطاعتهم على اختيار الافعال . وهم على طائفتين :	٦٧
جبرية خالصة وجبرية ملتوية	٦٧
الاشعرى جبرى خالص	٦٨
كلام سعد الدين التفتازانى	٦٨
عبارة الاشعرى الصريحة فى الجبر	٦٩
كلامه فى الاستطاعة	٧٠
عويصة مسألة الكسب	٧١
القول بالكسب التواء فى الجبر	٧٢
القدرية : اطلقت على كل من الاشاعرة والمعتزلة	٧٣
كلام ابى الفتح الكراجكى فى ذلك	٧٣
رمى الاشعرى اصحاب الاعتزال بهذا الاسم	٧٤

العنوان	الصفحة
الواقعية تجعل من هذا الاسم خاصاً بالاشاعرة	٧٤
المعتزلة : الاعتزال انتفاضة في وجه الصفاتية ومتشعباتها من الظاهريين	٧٥
عقيدة المعتزلة بتوضيح ابى الحسن الاشعرى	٧٥
كلام القاضى عبدالجبار فى نفى الصفات	٧٦
رأى الاشاعرة والمعتزلة فى مبادىء الصفات	٧٦
تحقيق مذهب المعتزلة فى الاستطاعة	٧٧
الامامية : رسالة البيان عن جمل اعتقاد اهل الايمان ، تأليف الشيخ ابى الفتح الكراجكى	٧٨
كلام مولانا امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ فى معرفة الله	٧٩
* * *	
نماذج من متشابهات القرآن	٨٣
تحقيق عن الصفات الذاتية لله تعالى	٨٤
آيات تنعته تعالى بصفات ذاتية	٨٥
فساد مذهب الاشعرى فى صفات الذات	٨٦
* * *	
صفاته تعالى الفعلية	٨٦
تفسير الاشعرى لصفات الفعل	٨٦
تفسير اهل العدل لصفات الفعل	٨٧
استدلال الاشعرى على مذهبه فى الاثبات	٨٧
* * *	
صفات تنزيه (صفات جلالية)	٨٨
الأشاعرة وسائر الصفاتية مجسمة	٨٨

العنوان	الصفحة
القول بالتجسيم مذهب المتأثرين بتعاليم ابن تيمية حتى اليوم	٨٩
* * *	
الكلام فی رؤيته جل شأنه	٩٠
استدلال الاشعری علی جواز رؤيته تعالی بآيات	٩٠
وجوابه عن آية «لاتدركه الابصار»	٩٣
كلام ابی سعيد الدارمی فی الرؤية واستدلاله بروايات	٩٤
نظرة اهل العدل والتنزيه فی الرؤية	٩٥
كلام الاستاذ احمد امين وتأسفه فی هذا المجال	٩٦
كلام القاضی عبدالجبار ، والخواجا نصير الدين الطوسی	٩٧
الاجابة علی استدلالات الاشعری واذنابه	٩٧
* * *	
القول فی الجهة والمكان	١١٢
مذهب الاشعری وسائر التجسيم فی ذلك	١١٢
آيات استدل بها اهل التجسيم	١١٢
اضافات من ابی سعيد الدارمی	١١٤
استدلال ابن خزيمة علی اثبات الجهة	١١٧
سوء أدب فی تعبير الاشاعرة فی هذا المقام	١١٨
اجوبة اهل العدل والتنزيه عن ادلة الاشاعرة	١١٨
كلام نوری من الامام امير المؤمنين ـ عليه السلام ـ	١١٩
حديث الامام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ	١١٩
حديث الامام موسی بن جعفر الكاظم (ع)	١٢٠
صراحة القرآن فی نفی الجهة ونفی الجسمية	١٢١

العنوان	الصفحة
اعتراف الامام الرازى بذلك	١٢١
* * *	
الكلام فى العرش والكرسى وبيان حقيقتهما لغوياً وشرعياً	١٢٢
الكرسى : كناية عن احاطة ملكه تعالى	١٢٤
العرش : كناية عن تدبيره الشامل	١٢٥
* * *	
الكلام فى صفة الاستواء	١٢٦
الكلام فى الفوتية ، وانه تعالى فوق بالقدرة والتدبير ، لا بالجهة والمكان	١٢٧
تحقيق ذوقى عن اعتبار الفوقية له تعالى	١٢٨
* * *	
نظرة فى آيات زعموا دلالة على الجهة	١٢٩
تحقيق تاريخى عن حديث الأمة السوداء	١٣٥
سبب رفع اليدين الى السماء عند الدعاء	١٣٨
* * *	
الكلام فيما زعم اهل التشبيه من ثبوت الاعضاء والجوارح له تعالى	١٣٩
مواكبة الاشعرى لأهل التشبيه وتشبثه بآيات	١٤٠
الحشوية من اصحاب الحديث يساندون اهل التشبيه	١٤٤
محاولة فاشلة لبعض اهل التشبيه	١٤٥
* * *	
الكلام فى ابطال مزاعم اهل التشبيه	١٤٦
الكلام فى الوجه واطلاقاته فى القرآن	١٤٦
الكلام فى العين واطلاقاتها فى القرآن	١٤٨

العنوان	الصفحة
الكلام فى اليد واطلاقاتها فى القرآن	١٤٩
الكلام فى الساق واطلاقاتها فى القرآن	١٥٢
الكلام فى الرجل والقدم	١٥٣
* * *	
مسألة الاستطاعة «القدرة»	١٥٥
الاشاعرة ينفون القدرة عن العباد	١٥٥
تشبثات الاشعرى فى نفى استطاعة العباد	١٥٦
تزييف هذه التشبثات على ضوء البرهان	١٦٠
* * *	
نظرة فى الأفعال الاختيارية	١٦١
القرآن يرى من الانسان حراً فى مساعيه	١٦٣
* * *	
تنويع ارادته تعالى الى تكوينية وتشريعية	١٦٧
كلمات ائمة الهدى فى هذا التنويع	١٦٩
تفكيك الارادة التشريعية عن المراد	١٧٠
* * *	
مسألة التوحيد فى الأفعال	١٧٢
* * *	
مسألة الأمربين الأمرين	١٧٣
الاشاعرة ارادت التوحيد المطلق فلجأت الى القول بالجبر	١٧٤
والمعتزلة ارادت اثبات عدله تعالى فأسرفت فى القول بالاستطاعة	١٧٥

العنوان	الصفحة
لكن الأمامية اخذت الطريقة الوسطى ـ في ضوء تعاليم اهل البيت ـ فجمعت بين التوحيد والعدل	١٧٥
* * *	
وجه انتساب الافعال الاختيارية الى كل من الفاعل والخالق تعالى	١٧٧
امثلة توضح مسألة الأمر بين الأمرين	١٧٨
* * *	
اختيارية الارادة ذاتية	١٨١
* * *	
مسألة ارادة الله الحادثة	١٨٢
انتساب الحوادث الى الله	١٨٣
* * *	
حل شبهات اهل الجبر ، على ضوء ماتقدم	١٨٤
نظرة اجمالية وعميقة الى الآيات والروايات التى استدل بها اصحاب القول بالجبر	١٨٥
نظرة في الحسنات والسيئات انهما من الله ام من العبد ؟	١٩٤
أصرح آية تدحض مزعومة الجبر	١٩٧
* * *	
مسألة الهداية والتوفيق	١٩٨
مراتب الهداية الخمس	١٩٨
وهداية الجاء لم يشأها الله	٢٠٢
تقسيمات اخر بشأن مراتب الهداية	٢٠٢
تشبيه مراتب الهداية بدرجات النور	٢٠٣

العنوان	الصفحة
* * *	
الاضلال والخذلان	٢٠٤
تحقيق عن معنى اضلاله تعالى لمن يشاء	٢٠٥
مزعومة الاشعرى فى الالجاء	٢٠٦
تجهيل ابن حزم لاصحاب المزعومة	٢٠٧
استدراك على من حمل اضلاله تعالى على الحقيقة	٢٠٨
* * *	
عرض آيات الهداية والضلال	٢٠٩
كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى : «وما كان لنا ان نئود فيها الان يشاءالله»	٢٢٨
كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى «يحول بين المرء وقلبه» .	٢٣٥
كلام الامام الرازى فى الآية	٢٣٦
كلام الشيخ محمد عبده	٢٣٧
تفسير آخر أدق	٢٣٩
اختيارنا الذى رجحناه	٢٤١
رأى سيدنا الطباطبائى	٢٤٣
محاولة الطبرى تعميم الاية	٢٤٧
روايات مأثورة عن ائمة اهل البيت بهذا الصدد	٢٤٨
* * *	
كلام تفصيلى عن قوله تعالى : «أمرنا مترفيها ...»	٢٦٩
اختيار اكثرية المفسرين	٢٧١
تزييف الزمخشرى لهذا الاختيار	٢٧٢

العنوان	الصفحة
رأى امام المعتزلة (القفال) فى الاية	٢٧٣
الوجوه الاربعة التى ذكرها الشريف المرتضى	٢٧٥
مراكبة شيخ الطائفة للشريف المرتضى	٢٨٠
* * *	
تحقيق عن فحوى قوله تعالى : «لايسأل عما يفعل...»	٢٨٧
رأى الأشاعرة فى الاية	٢٨٧
رأى اهل العدل والتنزيه	٢٨٨
* * *	
اختلاف المفسرين فى تأويل قوله تعالى : «الايقدرون على شيء ...» ، والتضارب بين الاشاعرة واهل العدل فيها	٣٠٧
* * *	
مسألة الاستدراج وتوجيهها بما لايتنافى مع عدله تعالى	٣١١
تأويل الايات الواردة بشأن الاستدراج	٣١٣
* * *	
الاستهزاء والخديعة والمكر	٣١٥
تأويل الايات الواردة بهذا الشأن	٣١٧
* * *	
الختم والطبع وماشاكلهما وتأويل الايات الواردة بهذه التعابير	٣٢١
* * *	
مسألة القضاء والقدر	٣٢٨
الايمان بالقدر عقيدة جاهلية	٣٢٩
الاشاعرة استسلمت لهذه العقيدة البائدة	٣٢٩

العنوان	الصفحة
رأى الفلاسفة الاسلاميين فى مسألة القضاء والقدر	٣٣٠
رأى المتكلمين الأماميين فى المسألة	٣٣١
كلام تفصيلى عن هذه المسألة	٣٣٢
تلخيص القول فى المسألة	٣٣٤
كلام الامام امير المؤمنين فى المسألة برواية الاصبغ بن نباتة	٣٣٥
خلاصة مذهبنا فى المسألة	٣٣٧
* * *	
عرض آيات تعرضت لمسألة القضاء والقدر	٣٣٧
عرض روايات تعرضت للمسألة وهى على ثلاث طوائف	٣٤٠
الطائفة الاولى : الآمرة بالايمان بها	٣٤٠
الطائفة الثانية : الناهية عن التعرض لها	٣٤١
الطائفة الثالثة : المفسرة لها بالسن مختلفة	٣٤٤
* * *	
مسألة السعادة والشقاء وعرضها على صعيد علمى عقلانى	٣٤٩
تفسير الحديث المشهور «السعيد من سعد فى بطن امه ...»	٣٥٠
للسعادة والشقاء معنيان	٣٥١
* * *	
عرض آيات السعادة والشقاء	٣٥٣
كلام تفصيلى عن تأويل قوله تعالى : « فمنهم شقى وسعيد»	٣٥٤
تحقيق مدلول الآية بالمقارنة مع آيات اخر	٣٥٦
كلام تفصيلى عن مدلول قوله تعالى : «غلبت علينا شقوتنا»	٣٥٧

العنوان	الصفحة
مسألة التمحيص والاختبار ، والفوائد المترتبة على ذلك	٣٦٤
عرض آيات الابتلاء والامتحان	٣٦٥
* * *	
كلام تفصيلي عن « الاحباط » و « التكفير » و« الموازنة» . وتتقدمه مسائل :	
الاولى : هل الجزاء استحقاق ام مواضعة ؟	٣٧٠
الثانية : هل الجزاء يستدعي الدوام ؟	٣٧١
الثالثة : هل المغفرة تختص بالتائبين ؟	٣٧٢
الرابعة : ماذايكون المراد بالاحباط ؟	٣٧٤
الخامسة : هل الفاسق مؤمن ام كافر ؟	٣٧٥
* * *	
فرضية الاحباط في خطوات :	٣٧٧
١ـ الموافاة على الايمان شرط في المثوبات	٣٧٨
٢ـ التائب من الذنب كمن لاذنب له	٣٧٩
٣ـ محق الحسنات بسيئة لاحقة باطل عندنا	٣٨٠
الاستدلال على ذلك في اربعة بنود	٣٨١
* * *	
عموم آيات التوفية	٣٨٢
اختصاص آيات الحبط بمن يموت كافراً	٣٨٤
* * *	
هل في آيات الحبط عموم ؟	٣٨٥
عرض آيات زعمرها عامة	٣٨٦
* * *	

العنوان	الصفحة
التكفير بين العموم والخصوص	٣٩٤
عرض آيات تعرضت لظاهرة التكفير	٣٩٦
عرض أحاديث التكفير	٤٠٢
* * *	
الموازنة او المحاطة	٤٠٣
ابطال القول بذلك عقلياً	٤٠٤
نظرة فى حديث الكراجكى فى الموضوع	٤٠٥
سيئات تمحق الايمان	٤٠٦
انكار ائمة اهل البيت لظاهرة الحبط	٤٠٩
* * *	
تنزيه الانبياء ـ عليهم السلام ـ عن المعصية اطلاقاً ،عند الامامية	٤١٠
خطيئة آدم ـ عليه اسلام ـ	٤١٢
عرض آيات الخطيئة	٤١٣
عناوين عشرة تنم عن الخطيئة	٤١٤
تلخيص الكلام عن تنزيه آدم (ع)	٤١٧
* * *	
دعوة نوح عليه السلام	٤١٧
تورية ابراهيم عليه السلام	٤١٩
استغفار ابراهيم لابيه	٤٢٠
مجادلة ابراهيم ربه	٤٢١
تبرئة يوسف عليه السلام	٤٢١
ابتلاء ايوب عليه السلام	٤٢٢

العنوان	الصفحة
* * *	
مخاطرة موسى عليه السلام	٤٢٣
محاججته مع فرعون	٤٢٤
استعفاؤه عن الرسالة	٤٢٥
خيفته عندالقاء السحرة	٤٢٧
اعتراض ام استرحام	٤٢٨
طلبه ـ ع ـ للرؤية	٤٢٩
غضبه ـ ع ـ على اخيه	٤٢٩
* * *	
اختبار داود ـ ع ـ	٤٣١
فتنة سليمان ـ ع ـ	٤٣٤
قصة الايثار على الطاعة	٤٣٤
* * *	
استعجال يونس ـ ع ـ فى الخروج	٤٣٦
عيسى بن مريم ـ ع ـ	٤٣٧
* * *	
خاتم النبيين صلى الله عليه وآله	٤٣٨
قصة اقتراح المشركين عليه بالمجاملة	٤٣٨
حديث القاءالشيطان فى امنيته	٤٣٩
حديث تزوجه زينب بنت جحش	٤٤١
نهيه عن الانقياد لمقترحات المشركين	٤٤٢

العنوان	الصفحة
اوامر موجهة اليه من باب « اياك اعنى واسمعى ياجارة »	٤٤٣
قصةعبوسه فى وجه الأعمى	٤٤٣
كلام الشريف المرتضى فى ذلك	٤٤٤
كلام السيد الطباطبائى فى ذلك	٤٤٥
* * *	
معنى ضلاله ﷺ قبل البعثة	٤٤٦
معنى غفران ذنوبه ﷺ بعدالفتح	٤٤٧
وجه استغفاره ﷺ كل يوم	٤٤٩
* * *	
فهرس الآيات القرآنية التى وردت فى هذاالعرض بترتيب السور	٤٥١
* * *	

اخطاء مطبعية يرجى تصحيحها

ص	س	الخطأ	الصواب
١٤	١٠	٧	١٣٨
٢٤	١٩	وقوقاً	وقوفاً
٣٤	٧	وهو	وهل
٣٧	٤	٢٩٠	٢٩:
٤١	١٣	للابهتداء	للاهتداء به
٤٥	١٠	واسألة	واسأله
٤٧	٧	الطاف	المطاف
٦٨	١٣	توضيع	توضيح
٧٢	١٣	بصنرتنا	بصيرتنا
٧٢	١٧	سواءاً	سوءاً
٧٧	٥	قسالوا	قالوا
٩٨	١٦	قول	قوله
١٠٤	١١	الاساتيد	الاسانيد

ص	س	الخطأ	الصواب
١٠٧	١٨	٤	١٠٧
١٠٩	٢١	لعمربن مسعود	لمسعود بن عمر
١١٣	٩	٢٢٠	٢١٠
١٢٧	١٧	المسماء	السماء
١٢٨	٢١	الى	الا
١٣٠	١٠	واذنانه	واذنابه
١٣١	٩	٢٢٠	٢١٠
١٣٢	١٣	٧٠	٨٨
١٤٢	٦	نطعكم	نطعمكم
١٤٦	١٢	اوالزلفى	والزلفى
١٦٤	٩	٧٩	٣٩
١٧٠	١٨	الصفات	صفات
١٧٤	٩	وثام	وثام
١٩٧	٧	العلوم	المعلوم
١٩٩	١٨	اوكفوراً	واماكفوراً
١٩٩	٢٠	١٨٦	١٨١
٢٠٤	١	بتدرج	يتدرج
٢١١	٧	ولاقطع	ولاتطع
٢٣٨	١٢	عن	على
٢٣٨	١٢	بة	به
٢٤٢	٤	كأله	كأنه
٢٤٦	٧	وقنوط	ولاقنوط

ص	س	الخطأ	الصواب
٢٤٦	١٠	مسألة	مسألة
٢٥٣	٨	الطغبان	الطغيان
٢٥٧	٣	يومنون	لايؤمنون
٢٥٨	١٧	١٠٢	١٠٥
٢٥٨	٢٠	١٠٣	١٠٧
٢٦٢	٢	١٧	٣١
٢٦٥	٢٠	هوى	هدى
٢٧١	٧	مترفوها	مترفيها
٢٧٩	١	معك	منهم معك
٣٠٢	١٣	الكريم	الكريمة
٣٤٩	١٨	«خبيث».	«خبيث» .[٣]
٣٥١	٥	طمأنية	طمأنينة
٣٥٧	١١	يها	بها
٣٥٧	١٣	غلبتنا	غلبنا
٣٦٥	١٣	يميزالله	يميز
٣٦٧	٩	٢١	٣٥
٣٧٢	١٥	الثالثة	الثالثة
٣٨٢	٧	٦٠	١٦٠

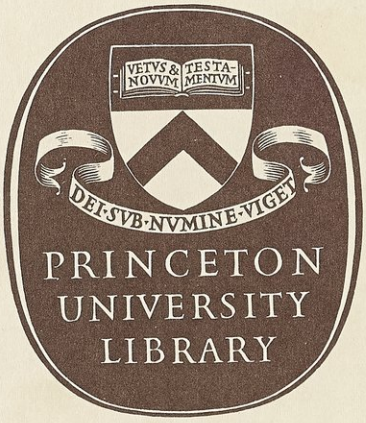
VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

Princeton University Library
32101 055469850